التعليلى (لقد انزلنا آيات مبينات) أى لكل ماينبغى بيانه من الاحكام الدينية والاسرار التكوينية (والله يهدى من يشاء) أن يهديه بتوفيقه للنظر الصحيح فيها وارشاده الى التأمل فى معانيها (الى صراط مستقيم) موصل الى حقيقة الحق والفوز بالجنة (ويقولون آمنا بالله وبالرسول) شروع فى بيان أحوال بعض من لم يشأ الله هدايته الى الصراط المستقيم قال الحسن نزلت فى المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان ويسرون الكفر وقيل نزلت فى بشر المنافق خاصم يهوديا فدعاه الى كعب بن الاشرف واليهودى يدعوه الى النبى عليه الصلاة والسلام وقيل فى المغيرة بن وائل خاصم عليا رضى الله عنه فى أرض وماء فأبى أن يحاكم الى الرسول عليه الصلاة والسلام وأياما كان فصيغة الجمع للايذان بان للقائل طائفة يساعدونه ويشايعونه فى تلك المقالة كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد منهم (وأطعنا) أى أطعناهما فى الامر والنهى (ثم يتولى) عن قبول حكمه (فريق منهم من بعد ذلك) أى من بعد ما صدر عنهم ماصدر من الايمان بالله وبالرسول والطاعة لهما على التفصيل وما فى ذلك من معنى

الوصف وهذا ظلمة فثبت ان هذا حجاب ممزوج من نور وظلمة ثم أصناف هذا القسم كثيرة فان من الناس من يعتقد ان الممكن غنى عن المؤثر ومنهم من يسلم ذلك لكنه يقول المؤثر فيها طبائعها أو حركاتها أو اجتماعها وافتراقها أو نسبتها الى حركات الافلاك أو الى محركاتها وكل هؤلاء من هذا القسم (القسم الثالث) الحجب النورية المحضة واعلم انه لاسبيل الى معرفة الحق سبحانه الا بواسطة تلك الصفات السلبية والاضافية ولانهاية لهذه الصفات ومراتبها فالعبد لايزال يكون مترقيا فيها فان وصل الى درجة وبقى فيها كان استغراقه فى مشاهدة تلك الدرجة حجابا له عن الترقى الى مافوقها ولما كان لانهاية لهذه الدرجات كان العبد أبدا فى السير والانتقال وأما حقيقته المخصوصة فهى محجبة عن الكل فقد اشرنا الى كيفية مراتب الحجب وأنت تعرف انه عليه الصلاة والسلام انما حصرها فى سبعين ألفا تقريبا لا تحديدا فانها لانهاية لها فى الحقيقة

(الفصل الثالث فى شرح كيفية التمثيل) اعلم انه لابد فى التشبيه من أمرين المشبه والمشبه به ✻ واختلف الناس ههنا فى ان المشبه أى شئ هو وذكروا وجوها (أحدها) هو قول جمهور المتكلمين ونصره القاضى ان المراد الهدى التى هى الآيات البينات والمعنى ان هداية الله تعالى قد بلغت فى الظهور والجلاء الى أقصى الغايات وصارت فى ذلك بمنزلة المشكاة التى تكون فيها زجاجة صافية وفى الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ النهاية فى الصفاء فان قيل لم شبهه بذلك وقد علمنا ان ضوء الشمس أبلغ من ذلك بكثير قلنا انه سبحانه أراد أن يصف الضوء الكامل الذى يلوح وسط الظلمة لان الغالب على أوهام الخلق وخيالاتهم انما هو الشبهات التى هى كالظلمات وهداية الله تعالى فيما بينها كالضوء الكامل الذى يظهر فيما بين الظلمات وهذا المقصود لايحصل من ضوء الشمس لان ضوءها اذا ظهر امتلأ العالم من النور الخالص واذا غاب امتلأ العالم من الظلمة الخالصة فلاجرم كان ذلك المثل ههنا اليق وأوفق واعلم ان الامور التى اعتبرها الله تعالى فى هذا المثال مما توجب كمال الضوء (فاولها) المصباح لان المصباح اذا لم يكن فى المشكاة تفرقت اشعته اما اذا وضع فى المشكاة اجتمعت اشعته فكانت أكثر انارة والذى يحقق ذلك ان المصباح اذا كان فى بيت صغير فانه يظهر من ضوئه أكثر مما يظهر فى البيت الكبير (وثانيها) ان المصباح اذا كان فى زجاجة صافية فان الاشعة المنفصلة عن المصباح تنعكس من بعض جوانب الزجاجة الى البعض لما فى الزجاجة من الصفاء والشفافية وبسبب ذلك يزداد الضوء والنور والذى يحقق ذلك ان شعاع الشمس اذا وقع على الزجاجة الصافية تضاعف الضوء الظاهر حتى انه يظهر فيما يقابله مثل ذلك الضوء فان انعكست تلك الاشعة من كل واحد من جوانب الزجاجة الى الجانب الآخر كثرت الانوار والاضواء وبلغت النهاية الممكنة (وثالثها) ان ضوء المصباح يختلف بحسب اختلاف مايتقد به فاذا كان ذلك الدهن صافيا خالصا كانت حالته بخلاف حالته اذا كان كدرا وليس فى

البعد للايذان بكونه أمرا معتدا به واجب المراعاة (وما أولئك) اشارة الى القائلين لاالى الفريق المتولى منهم فقط
لعدم اقتضاء نفى الايمان عنهم نفيه عن الاولين

بخلاف العكس فان نفيه عن القائلين مقتض لنفيه عنهم على أبلغ وجه وآكده ومافيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلتهم فى الكفر والفساد أى وما أولئك الذين يدعون الايمان والطاعة ثم يتولى بعضهم الذين يشار كونهم فى العقد والعمل (بالمؤمنين) أى المؤمنين حقيقة كما يعرب عنه اللام أى ليسوا بالمؤمنين المعهودين بالاخلاص فى الايمان والثبات عليه (واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم) أى الرسول (بينهم) لانه المباشر حقيقة للحكم وان كان ذلك حكم الله حقيقة وذكر الله تعالى لتفخيمه عليه السلام والايذان بجلالة محله عنده تعالى (اذا فريق منهم معرضون) أى فاجأ فريق منهم الاعراض عن المحاكمة اليه عليه السلام لكون الحق عليهم وعلمهم بانه عليه السلام يحكم بالحق عليهم وهو شرح للتولى ومبالغة فيه (وان يكن لهم الحق) لا عليهم (يأتوا اليه مذعنين) منقادين لجزمهم بانه عليه السلام يحكم لهم والى صلة ليأتوا فان الاتيان

الادهان التى توقد مايظهر فيه من الصفاء مثل الذى يظهر فى الزيت فربما يبلغ فى الصفاء والرقة مبلغ الماء مع زيادة بياض فيه وشعاع يتردد فى اجزائه (ورابعها) ان هذا الزيت يختلف بحسب اختلاف شجره فاذا كانت لاشرقية ولاغربية بمعنى انها كانت بارزة للشمس فى كل حالاتها يكون زيتونها اشد نضجا فكان زيته أكثر صفاء وأقرب الى أن يتميز صفوه من كدره لان زيادة الشمس تؤثر فى ذلك فاذا اجتمعت هذه الامور الاربعة وتعاونت صار ذلك الضوء خالصا كاملا فيصلح ان يجعل مثلا لهداية الله تعالى (وثانيها) ان المراد من النور فى قوله مثل نوره القرآن و يدل عليه قوله تعالى قد جاءكم من الله نور وهو قول الحسن وسفيان بن عيينة وزيد بن أسلم (وثالثها) ان المراد هو الرسول لانه المرشد ولانه تعالى قال فى وصفه وسراجا منيرا وهو قول عطاء وهذان القولان داخلان فى القول الاول لان من جملة أنواع الهداية انزال الكتب و بعثة الرسل قال تعالى فى صفة الكتب وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان وقال فى صفة الرسل رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (ورابعها) ان المراد منه مافى قلب المؤمنين من معرفة الله تعالى ومعرفة الشرايع و يدل عليه ان الله تعالى وصف الايمان بانه نور والكفر بانه ظلمة فقال أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وقال تعالى ليخرج الناس من الظلمات الى النور وحاصله انه حمل الهدى على الاهتداء والمقصود من التمثيل ان ايمان المؤمن قد بلغ فى الصفاء عن الشبهات والامتياز عن ظلمات الضلالات مبلغ السراج المذكور وهو قول ابى بن كعب وابن عباس قال أبى مثل نور المؤمن وهكذا كان يقرأ وقيل انه كان يقرأ مثل نور من آمن به وقال ابن عباس مثل نوره فى قلب المؤمن (وخامسها) ماذكره الشيخ الغزالى رحمه الله وهو انا بينا ان القوى المدركة أنوار ومراتب القوى المدركة الانسانية خمسة (أحدها) القوة الحساسة وهى التى تتلقى ماتورده الحواس الخمس وكانها أصل الروح الحيوانى وأوله اذ به يصير الحيوان حيوانا وهو موجود للصبى الرضيع (وثانيها) القوة الخيالية وهى التى تستثبت ماأورده الحواس وتحفظه مخزونا عندها لتعرضه على القوة العقلية التى فوقها عند الحاجة اليه (وثالثها) القوة العقلية المدركة للحقائق الكلية (ورابعها) القوة الفكرية وهى التى تأخذ المعارف العقلية فتؤلفها تأليفا فتستنتج من تأليفها علما بمجهول (وخامسها) القوة القدسية التى تختص بها الانبياء عليهم الصلاة والسلام وبعض الاولياء وتتجلى فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت واليه الاشارة بقوله تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا واذا عرفت هذه القوى فهى بجملتها أنوار اذ بها تظهر أصناف الموجودات وان هذه المراتب الخمسة يمكن تشبيهها بالامور الخمسة التى ذكرها الله تعالى وهى المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت اما الروح

والمجئ يعديان بالى أو لمذعنين على تضمين معنى الاسراع والاقبال كما فى قوله تعالى فأقبلوا اليه يزفون والتقديم
للاختصاص (أفى قلوبهم مرض) انكار واستقباح لاعراضهم المذكور وبيان لمنشئه بعد
استقصاء عدة من
القبائح المحققة فيهم
والمتوقعة منهم وترديد
المنشئية بينها فمدار
الاستفهام ليس نفس
ماولته الهمزة وأم
من الامور الثلاثة بل
هو منشئيتها له كأنه قيل
أذلك أى اعراضهم
المذكور لانهم مرضى
القلوب لكفرهم ونفاقهم
(أم) لانهم (ارتابوا)
فى أمر نبوته عليه
السلام مع ظهور حقيتها
(أم) لانهم (يخافون
أن يحيف الله عليهم
ورسوله) ثم أضرب عن
الكل وأبطلت منشئيته
وحكم بان المنشأ شئ
آخر من شنائعهم حيث
قيل (بل أولئك هم
الظالمون) أى ليس ذلك
الشئ مما ذكر أما الاولان
فلانه لوكان لشئ منهما
لاعرضوا عنه عليه
السلام عند كون الحق
لهم ولما أتوا اليه عليه
السلام مذعنين لحكمه
لتحقق نفاقهم وارتيابهم
بهم حينئذ أيضا وأما
الثالث فلانتفائه رأسا
حيث كانوا لايخافون
الحلف أصلا لمعرفتهم بتفاصيل أحواله عليه السلام فى الامانة والثبات على الحق بل
لانهم هم الظالمون يريدون

الحساس فاذا نظرت الى خاصيته وجدت أنواره خارجة من عدة ثقب كالعينين والاذنين
والمنخرين وأوفق مثال له من عالم الاجسام المشكاة (وأما الثانى) وهو الروح الخيالى
فنجد له خواص ثلاثة (الاولى) انه من طينة العالم السفلى الكثيف لان الشئ المتخيل
ذو قدر وشكل وحيز ومن شان العلائق الجسمانية أن تحجب عن الانوار العقلية المحضة
التى هى التعقلات الكلية المجردة (الثانية) إن هذا الخيال الشفيف اذا صفا ورق
وهذب صار موازنا للمعانى العقلية ومؤديا لانوارها وغير حائل عن اشراق نورها ولذلك
فان المعبر يستدل بالصور الخيالية على المعانى العقلية كما تستدل بالشمس على الملك
وبالقمر على الوزير وبمن يختم فروج الناس وأفواههم على انه مؤذن يؤذن قبل الصبح
(والثالثة) ان الخيال فى بداية الامر محتاج اليه جدا ليضبط بها المعارف العقلية
ولا تضطرب فتتم المثالات الخيالية الجالبة للمعارف العقلية وأنت لاتجد شيا فى
الاجسام يشبه الخيال فى هذه الصفات الثلاثة الا الزجاجة فانها فى الاصل من جوهر
كثيف ولكن صفا ورق حتى صار لايحجب نور المصباح بل يؤديه على وجهه ثم يحفظه
عن الانطفاء بالرياح العاصفة (وأما الثالث) وهو القوة العقلية فهى القوية على ادراك
الماهيات الكلية والمعارف الالهية فلا يخفى عليك وجه تمثيله بالمصباح وقد عرفت هذا
حيث بينا كون الانبياء سراجا منيرة (وأما الرابع) وهو الفكرية فمن خواصها انها
تأخذ ماهية واحدة ثم تقسمها الى قسمين كقولنا الموجود اما واجب واما ممكن ثم تجعل
كل قسم مرة أخرى قسمين وهكذا الى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية ثم تفضى
بالآخرة الى نتائج وهى ثمراتها ثم تعود فتجعل تلك الثمرات بذورا لامثالها حتى تتادى الى
ثمرات لانهاية لها فبالحرى أن يكون مثاله من هذا العالم الشجرة واذا كانت ثمارها مادة
لتزيد أنوار المعارف وثباتها فبالحرى أن لايمثل بشجرة السفرجل والتفاح بل بشجرة
الزيتون خاصة لان لب ثمرتها هو الزيت الذى هو مادة المصابيح وله من بين سائر الادهان
خاصية زيادة الاشراق وقلة الدخان واذا كانت الماشية التى يكثر درها ونسلها والشجرة
التى تكثر ثمرتها تسمى مباركة فالذى لايتناهى الى حد محدود اولى أن يسمى شجرة مباركة
واذا كانت شعب الافكار العقلية المحضة مجردة عن لواحق الاجسام فبالحرى
أن تكون لاشرقية ولاغربية (وأما الخامس) وهو القوة القدسية النبوية فهى فى نهاية
الشرف والصفاء فان القوة الفكرية تنقسم الى مايحتاج الى تعليم وتنبيه والى
مالا يحتاج اليه ولا بد من وجود هذا القسم قطعا للتسلسل فبالحرى ان يعبر عن هذا
القسم بكماله وصفائه وشدة استعداده بانه يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار فهذا المثال
موافق لهذا القسم ولما كانت هذه الانوار مرتبة بعضها على بعض فالحس هو الاول
وهو كالمقدمة للخيال والخيال كالمقدمة للعقل فبالحرى أن تكون المشكاة كالظرف
للزجاجة التى هى كالظرف للمصباح (وسادسها) ماذكره أبو على بن سينا فانه نزل هذه

الامثلة الخمسة على مراتب ادراكات النفس الانسانية فقال لاشك ان النفس الانسانية قابلة للمعارف الكلية والادراكات المجردة ثم انها فى أول الامر تكون خالية عن جميع هذه المعارف فهناك تسمى عقلا هيولياوهى المشكاة وفى المرتبة الثانية يحصل فيها العلوم البديهية التى يمكن التوصل بتركيباتها الى اكتساب العلوم النظرية ثم ان امكنه الانتقال ان كانت ضعيفة فهى الشجرة وان كانت أقوى من ذلك فهى الزيت وان كانت شديدة القوة جدافهى الزجاجة التى تكون كانهاالكوكب الدرى وان كانت فى النهاية القصوى وهى النفس القدسية التى للانبياء فهى التى يكادزيتها يضئ ولولم تمسسه نار (وفى المرتبة الثالثة) يكتسب من العلوم الفطرية الضرورية العلوم النظرية الاأنها لاتكون حاضرة بالفعل ولكنهاتكون بحيث متى شاء صاحبها استحضارها قدرعليه وهذايسمى عقلا بالفعل وهوالمصباح (وفى المرتبة الرابعة) أن تكون تلك المعارف الضرورية والنظرية حاصلة بالفعل ويكون صاحبهاكانه ينظر اليهاوهذايسمى عقلا مستفاداوهونورعلى نورلان الملكة نور وحصول ماعليه الملكة نور آخر ثم زعم ان هذه العلوم التى تحصل فى الارواح البشرية انما تحصل من جوهر روحانى يسمى بالعقل الفعال وهومدبر ماتحت كرة القمر وهوالنار (وسابعها) قول بعض الصوفية هوانه سبحانه شبه الصدر بالمشكاة والقلب بالزجاجة والمعرفة بالمصباح وهذا المصباح انماتوقد من شجرة مباركة وهى الهامات الملائكة لقوله تعالى ينزل الملائكة بالروح من أمره وقوله نزل به الروح الامين على قلبك وانماشبه الملائكة بالشجرة المباركة لكثرة منافعهم وانماوصفهابانهالاشرقية ولاغربية لانهاروحانية وانماوصفهم بقوله يكادزيتهايضئ ولولم تمسسه نارلكثرة علومهاوشدة اطلاعهاعلى أسرار ملكوت الله تعالى والظاهر ههنا ان المشبه غير المشبه به (وثامنها) قال مقاتل مثل نوره أى مثل نورالايمان فى قلب محمد صلى الله عليه وسلم كمشكاة فيهامصباح فالمشكاة نظير صلب عبدالله والزجاجة نظيرجسد محمد صلى الله عليه وسلم والمصباح نظيرالايمان فى قلب محمد أونظيرالنبوة فى قلبه (وتاسعها) قال قوم المشكاة نظيرابراهيم عليه السلام والزجاجة نظيراسمعيل عليه السلام والمصباح نظير جسد محمد صلى الله عليه وسلم والشجرة النبوة والرسالة (وعاشرها) ان قوله مثل نوره يرجع الى المؤمن وهوقول أبى بن كعب وكان يقرأهامثل نورالمؤمن وهوقول سعيدبن جبير والضحاك واعلم ان القول الاول هوالمختارلانه تعالى ذكر قبل هذه الآية ولقد أنزلنااليكم آيات فاذاكان المرادبقوله مثل نوره أى مثل هداه وبيانه كان ذلك مطابقالماقبله ولانالمافسرنا قوله الله نورالسموات والارض بانه هادى أهل السموات والارض فاذافسرنا قوله مثل نوره بان المرادمثل هداه كان ذلك مطابقالماقبله (الفصل الرابع) فى بقية المباحث المتعلقة بهذه الآية وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المشكاة الكوة فى الجدارغيرالنافذة هذاهوالقول المشهور وذكروا فيه وجوها أخر (أحدها)

أن يظلموامن له الحق عليهم ويتم لهم جحوده فيأبون المحاكمة اليه عليه الصلاة والسلام لعلمهم بانه عليه الصلاة والسلام تقضى عليهم بالحق فمناط النفى المستفاد من الاضراب فى الاولين هووصف منشئيتهما للاعراض فقط مع تحققهما فى نفسهما وفى الثالث هوالاصل والوصف جميعا هذا وقدخص الارتياب بماله منشأمصحح لعروضه لهم فى الجملة والمعنى أمارتابوابان رأوامنه عليه الصلاة والسلام تهمة فزالت ثقتهم ويقينهم به عليه الصلاة والسلام فمدارالنفى حينئذنفس الارتياب ومنشئيته معا فتأمل فيماذكر على التفصيل ودع عنك ماقيل واقيل حسبمايقتضيه النظرالجليل (انماكان قول المؤمنين) بالنصب على أنه خبركان وأن مع مافى حيزها اسمها وقرئ بالرفع على العكس والاول أقوى صناعة لان الاولى للاسمية ماهو أوغل فى التعريف وذلك هوالفعل المصدر بان اذلاسبيل اليه للتنكير بخلاف قول المؤمنين فانه يحتمله كما اذا اعتزلت عند الاضافة لكن قراءة الرفع أفيد بحسب المعنى وأوفى لمقتضى المقام لما أن مصب الفائدة وموقع البيان فى الجمل هوالخبر فالاحق بالخبرية ماهوأكثر افادة وأظهر

دلالة على الحدوث وأوفر اشتمالا على نسب خاصة بعيدة من الوقوع فى الخارج وفى ذهن السامع ولا ريب فى أن ذلك ههنا فى أن مع مافى حيزها أتم وأكمل فاذا هو أحق بالخبرية وأما ماتفيده الاضافة من النسبة الاجمالية فحيث كانت قليلة الجدوى سهلة الحصول خارجا وذهنا كان حقها أن تلاحظ ملاحظة مجملة وتجعل عنوانا للموضوع فالمعنى انما كان مطلق القول الصادر عن المؤمنين (اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم) أى الرسول عليه الصلاة والسلام (بينهم) أى وبين خصومهم سواء كانوا منهم أو من غيرهم (أن يقولوا سمعنا وأطعنا) أى خصوصية هذا القول المحكى عنهم لا قولا آخر أصلا وأما قراءة النصب فمعناها انما كان قول المؤمنين أى انما كان قولا لهم عند الدعوة خصوصية قولهم المحكى عنهم ففيه من جعل أخص النسبتين وأبعدهما وقوعا وحضورا فى الاذهان وأحقهما بالبيان مفروغا عنها عنوانا للموضوع وابراز ما هو بخلافها فى معرض القصد الاصلى مالا يخفى وقرئ ليحكم على بناء الفعل للمفعول مسندا الى مصدره مجاوبا لقوله تعالى اذا دعوا أى ليفعل الحكم كما فى

قال ابن عباس وأبو موسى الاشعرى المشكاة القائم الذى فى وسط القنديل الذى يدخل فيه الفتيلة وهو قول مجاهد والقرظى (والثانى) قال الزجاج هى ههنا قصبة القنديل من الزجاجة التى توضع فيها الفتيلة (الثالث) قال الضحاك انها الحلقة التى يعلق بها القنديل والاول هو الاصح (المسئلة الثانية) زعموا ان المشكاة هى الكوة بلغة الحبشة قال الزجاج المشكاة من كلام العرب ومثلها المسكاة وهى الدقيق الصغير (المسئلة الثالثة) قال بعضهم هذه الآية من المقلوب والتقدير مثل نوره كمصباح فى مشكاة لان المشبه به هو الذى يكون معدنا للنور ومنبعا له وذلك هو المصباح لا المشكاة (المسئلة الرابعة) المصباح السراج وأصله من الضوء ومنه الصبح (المسئلة الخامسة) قرئ زجاجة الزجاجة بالضم والفتح والكسر (أما درى) فقرئ بضم الدال وكسرها وفتحها (أما الضم) ففيه ثلاثة أوجه (الاول) ضم الدال وتشديد الراء والياء من غير همز وهو القراءة المعروفة ومعناه انه يشبه الدر لصفائه ولمعانه وقال عليه الصلاة والسلام انكم لترون أهل الدرجات العلى كما ترون الكوكب الدرى فى أفق السماء (الثانى) انه كذلك الا انه بالمد والهمز وهو قراءة حمزة وعاصم فى رواية أبى بكر وصار بعض أهل العربية الى انه لحن قال سيبويه وهذا أضعف اللغات وهو مأخوذ من الضوء والتلألؤ وليس بمنسوب الى الدر قال أبو على وجه هذه القراءة انه فعيل من الدرء بمعنى الدفع وانه صفة وانه فى الصفة مثل المرئ فى الاسم (والثالث) ضم الدال وتخفيف الراء والياء من غير مد ولا همز (أما الكسر) ففيه وجهان (الاول) درئ بكسر الدال وتشديد الراء والمد والهمز وهى قراءة أبى عمرو والكسائى قال الفراء هو فعيل من الدرء وهو الدفع كالسكير والفسيق فكان ضوءه يدفع بعضه بعضا من لمعانه (الثانى) بكسر الدال وتشديد الراء من غير همز ولا مد وهى قراءة ابن خليد وعتبة بن حماد عن نافع (أما الفتح) ففيه وجوه أربعة (الاول) بفتح الدال وتشديد الراء والمد والهمز عن الاعمش (الثانى) بفتح الدال وتشديد الراء من غير مد ولا همز عن الحسن ومجاهد وقتادة (الثالث) بفتح الدال وتخفيف الراء مهموزا من غير مد ولا ياء عن عاصم (الرابع) كذلك الا انه غير مهموز وبياء خفيفة بدل الهمزة * أما قوله توقد القراءة المعروفة توقد بالفتحات الاربعة مع تشديد القاف بوزن تفعل وعن الحسن ومجاهد وقتادة كذلك الا أنه بضم الدال وذكر صاحب الكشاف يوقد بفتح الياء المنقوطة من تحت بنقطتين والواو والقاف وتشديدها ورفع الدال قال وحذف التاء لاجتماع حرفين زائدين وهو غريب وعن سعيد بن جبير بياء مضمومة واسكان الواو وفتح القاف مخففة ورفع الدال وعن نافع وحفص كذلك الا أنه بالتاء وعن عاصم بياء مضمومة وفتح الواو وتشديد القاف وفتحها وعن أبى عمرو كذلك الا انه بالتاء وعن طلحة توقد بتاء مضمومة وواو ساكنة وكسر القاف وتخفيفها (المسئلة السادسة) قوله كأنها كوكب درى أى ضخم مضىء ودرارى النجوم عظامها واتفقوا على ان المراد به كوكب من الكواكب

قوله تعالى لقد تقطع بينكم أى وقع التقطع بينكم (وأولئك) اشارة الى المؤمنين باعتبار صدور القول المذكور عنهم
ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو رتبتهم و بعد منزلتهم فى الفضل أى أولئك المنعوتون بماذكر من
النعت الجميل (هم المفلحون) أى هم الفائزون بكل مطلب والناجون من كل محذور (ومن يطع الله ورسوله) استيناف جئ به لتقرير مضمون ماقبله من حسن حال المؤمنين وترغيب من عداهم فى الانتظام فى سلكهم أى ومن يطعهما كائنا من كان فيما أمرا به من الاحكام الشرعية اللازمة والمتعدية وقيل فى الفرائض والسنن والاول هو الانسب بالمقام (و يخش الله و يتقه) باسكان القاف المبنى على تشبيه بكتف وقرئ بكسر القاف والهاء و باسكان الهاء أى و يخش الله على ما مضى من ذنوبه و يتقه فيما يستقبل (فاولئك) الموصوفون بماذكر من الطاعة والخشية والاتقاء (هم الفائزون) بالنعيم المقيم لامن عداهم (وأقسموا بالله) حكاية لبعض آخر من اكاذيبهم مؤكدا بالايمان الفاجرة وقوله تعالى (جهد
أيمانهم) نصب على أنه مصدر مؤكد لفعله الذى هو فى حيز النصب على أنه حال من فاعل أقسموا أى أقسموا به تعالى

المضيئة كالزهرة والمشترى والثوابت التى فى العظم الاول (المسئلة السابعة) قوله من
شجرة مباركة أى من زيت شجرة مباركة أى كثيرة البركة والنفع وقيل هى أول شجرة
نبتت بعد الطوفان وقد بارك فيها سبعون نبيا منهم الخليل وقيل المراد زيتون الشام لانها
هى الارض المباركة فلهذا جعل الله هذه شجرة مباركة (المسئلة الثامنة) اختلفوا فى
معنى وصف الشجرة بانها لاشرقية ولاغربية على وجوه (أحدها) قال الحسن انها شجرة
الزيت من الجنة اذلو كانت من شجر الدنيا لكانت اما شرقية أو غربية وهذا ضعيف
لانه تعالى انما ضرب المثل بما شاهدوه وهم ما شاهدوا شجر الجنة (وثانيها) ان المراد شجرة
الزيتون فى الشام لان وسط الدنيا فلا يوصف شجرها بانها شرقية أو غربية وهذا
أيضا ضعيف لان من قال الارض كرة لم يثبت المشرق والمغرب موضعين معينين بل لكل
بلد مشرق ومغرب على حدة ولان المثل مضروب لكل من يعرف الزيت وقد يوجد فى غير
الشام كوجوده فيها (وثالثها) انها شجرة تلتف بها الاشجار فلا تصيبها الشمس فى شرق
ولاغرب ومنهم من قال هى شجرة يلتف بها ورقها التفافا شديدا فلا تصل الشمس اليها سواء
كانت الشمس شرقية أو غربية وليس فى الشجرة ما يورق غصنه من أوله الى آخره مثل
الزيتون والرمان وهذا أيضا ضعيف لان الغرض صفاء الزيت وذلك لا يحصل الا بكمال
نضج الزيتون وذلك انما يحصل فى العادة بوصول اثر الشمس اليه لا بعدم وصوله (ورابعها)
قال ابن عباس المراد الشجرة التى ببرز على جبل عال أو صحراء واسعة فتطلع الشمس عليها
حالتى الطلوع والغروب وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة واختيار الفراء
والزجاج قالا ومعناه لاشرقية وحدها ولاغربية وحدها ولكنها شرقية وغربية وهو كما
يقال فلان لامسافر ولامقيم اذا كان يسافر و يقيم وهذا القول هو المختار لان الشجرة متى
كانت كذلك كان زيتها فى نهاية الصفاء وحينئذ يكون مقصود التمثيل أكمل وأتم
(وخامسها) المشكاة صدر محمد صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه والمصباح ما فى قلبه صلى
الله عليه وسلم من الدين توقد من شجرة مباركة يعنى واتبعوا ملة أبيكم ابراهيم صلوات الله
عليه فالشجرة هى ابراهيم عليه السلام ثم وصف ابراهيم فقال لاشرقية ولاغربية أى
لم يكن يصلى قبل المشرق ولا قبل المغرب كاليهود والنصارى بل كان عليه الصلاة والسلام
يصلى الى الكعبة (المسئلة التاسعة) وصف الله تعالى زيتها بانه يكاد يضئ ولو لم تمسسه نار
لان الزيت اذا كان خالصا صافيا ثم رؤى من بعيد يرى كأن له شعاعا فاذا مسه النار ازداد
ضوأ على ضوء كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم فاذا جاءه العلم
ازداد نورا على نور وهدى على هدى قال يحيى بن سلام قلب المؤمن يعرف الحق قبل
أن يبين له لموافقته له وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام اتقوا فراسة المؤمن فانه
ينظر بنور الله وقال كعب الاحبار المراد من الزيت نور محمد صلى الله عليه وسلم أى يكاد
نوره يبين للناس قبل أن يتكلم وقال الضحاك يكاد محمد صلى الله عليه وسلم يتكلم بالحكمة
قبل الوحى وقال عبد الله بن رواحة

يجهدون أيمانهم جهدا ومعنى جهد اليمين بلوغ غايتها بطريق الاستعارة من قولهم جهد نفسه اذا بلغ أقصى وسعها
وطاقتها أى جاهدين بالغين أقصى مراتب اليمين فى الشدة والوكادة وقيل هو مصدر مؤكد لأقسموا
أى أقسموا اقسام
اجتهاد فى اليمين قال
مقاتل من حلف بالله
فقد اجتهد فى اليمين
(لئن أمرتهم) أى
بالخروج الى الغزو لا عن
ديارهم وأموالهم كما قيل
لأنه حكاية لما كانوا
يقولون لرسول الله صلى
الله عليه وسلم أينما كنت
نكن معك لئن خرجت
خرجنا وان أقمت أقمنا
وان أمرتنا بالجهاد
جاهدنا وقوله تعالى
(ليخرجن) جواب
لأقسموا بطريق حكاية
فعلهم لا حكاية قولهم
وحيث كانت مقالتهم
هذه كاذبة و يمينهم
فاجرة أمر عليه السلام
بردها حيث قيل (قل)
أى ردا عليهم وزجرا لهم
عن التفوه بها واظهارا
لعدم القبول لكونهم
كاذبين فيها (لا تقسموا)
أى على ما ينبئ عنه
كلامكم من الطاعة
وقوله تعالى (طاعة
معروفة) خبر مبتداء
محذوف والجملة تعليل
للنهى أى لا تقسموا على
ما تدعون من الطاعة
لان طاعتكم طاعة نفاقية واقعة باللسان فقط من غير مواطأة من القلب وانما عبر عنها بمعروفة
للايذان بان كونها كذلك مشهور معروف لكل أحد وقرئ

لو لم تكن فيه آيات مبينة * كانت بديهته تنبيك بالخبر

(المسئلة العاشرة) قوله تعالى نور على نور المراد ترادف هذه الانوار واجتماعها قال أبى ابن كعب المؤمن بين أربع خلال ان أعطى شكر وان ابتلى صبر وان قال صدق وان حكم عدل فهو فى سائر الناس كالرجل الحى الذى يمشى بين الاموات يتقلب فى خمس من النور كلامه نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره الى النور يوم القيامة قال الربيع سألت أبا العالية عن مدخله ومخرجه فقال سره وعلانيته (المسئلة الحادية عشرة) قال الجبائى دلت الآية على ان كل من جهل فمن قبله أتى والا فالادلة واضحة ولو نظروا فيها لعرفوا قال أصحابنا هذه الآية صريح مذهبنا فانه سبحانه بعد ان بين ان هذه الدلائل بلغت فى الظهور والوضوح الى هذا الحد الذى لا يمكن الزيادة عليه قال يهدى الله لنوره من يشاء يعنى وضوح هذه الدلائل لا يكفى ولا ينفع ما لم يخلق الله الايمان ولا يمكن أن يكون المراد من قوله يهدى الله ايضاح الادلة والبيانات لانا لو حملنا النور على ايضاح الادلة لم يجز حمل الهدى عليه أيضا والا لخرج الكلام عن الفائدة فلم يبق الا حمل الهدى ههنا على خلق العلم أجاب أبو مسلم بن بحر عنه من وجهين (الاول) ان قوله يهدى الله لنوره من يشاء محمول على زيادات الهدى الذى هو كالضد للخذلان الحاصل للضال (الثانى) انه سبحانه يهدى لنوره الذى هو طريق الجنة من يشاء وشبهه بقوله يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات وزيف القاضى عبد الجبار هذين الجوابين (أما الاول) فلان الكلام المتقدم هو فى ذكر الآيات المنزلة فاذا حملناه على الهدى دخل الكل فيه واذا حملناه على الزيادة لم يدخل فيه الا البعض واذا حمل على طريق الجنة لا يكون داخلا فيه أصلا لا من حيث المعنى ولا من حيث اللفظ ولما زيف هذين الجوابين قال الاولى أن يقال انه تعالى هدى بذلك البعض دون البعض وهم الذين بلغهم حد التكليف واعلم ان هذا الجواب أضعف من الجوابين الاولين لان قوله يهدى الله لنوره من يشاء يفهم منه ان هذه الآيات مع وضوحها لا تكفى وهذا لا يتناول الصبى والمجنون فسقط ما قالوه (المسئلة الثانية عشرة) قوله تعالى ويضرب الله الامثال للناس والمراد المكلفين من الناس وهو النبى ومن بعث اليه فانه سبحانه ذكر ذلك فى معرض النعمة العظيمة واستدلت المعتزلة به فقالوا انما يكون ذلك نعمة عظيمة لو أمكنهم الانتفاع به ولو كان الكل بخلق الله تعالى لما تمكنوا من الانتفاع به وجوابه ما تقدم ثم بين انه سبحانه بكل شئ عليم وذلك كالوعيد لمن لا يعتبر ولا يتفكر فى امثاله ولا ينظر فى أدلته فيعرف وضوحها وبعدها عن الشبهات * قوله تعالى (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلوة وايتاء الزكوة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) اعلم ان فى الآية مسائل (المسئلة

﴿ الأولى ﴾

بالنصب والمعنى تطيعون طاعة معروفة هذا وحملها على الطاعة الحقيقية بتقدير مايناسبها من مبتدأ أوخبر أوفعل
مثل الذي يطلب منكم طاعة معروفة حقيقية لانفاقية أوطاعة معروفة مثل أوليكن طاعة معروفة

الاولى) قوله تعالى في بيوت أذن الله يقتضي محذوفايكون فيهـا وذكروافيه وجوها
(أحدها) ان التقدير كمشكاة فيها مصباح في بيوت اذن الله وهواختيار كثير من المحققين
اعترض أبومسلم بن بحر الاصفهاني عليه من وجهين (الاول) ان المقصود من ذكر
المصباح المثل وكون المصباح في بيوت أذن الله لايزيد في هذا المقصود لان ذلك لايزيد
المصباح انارة واضاءة (الثاني) ان ماتقدم ذكره فيه وجوه تقتضي كونه واحدا كقوله
كمشكاة وقوله فيها مصباح وقوله في زجاجة وقوله كأنها كوكب دري ولفظ البيوت جمع
ولايصح كون هذا الواحد في كل البيوت (والجواب) عن الاول ان المصباح الموضوع في
الزجاجة الصافية اذا كان في المساجد كان أعظم وأضخم فكان أضوأ فكان التمثيل به
أتم وأكمل (وعن الثاني) أنه لما كان القصد بالمثل هو الذي له هذا الوصف فيدخل تحته
كل مشكاة فيها مصباح في زجاجة تتوقد من الزيت وتكون الفائدة في ذلك أن ضوأها
يظهر في هذه البيوت بالليالي عند الحاجة الى عبادة الله تعالى ولوأن رجلا قال الذي
يصلح لخدمتي رجل يرجع الى علم وكفاية وقناعة يلتزم بيته لكان وان ذكره بلفظ الواحد
فالمراد النوع فكذا ماذكره الله سبحانه في هذه الآية (وثانيهـا) التقدير توقد من شجرة
مباركة بيوت أذن الله أن ترفع (وثالثا) وهوقول أبي مسلم انه راجع الى قوله ومثلامن
الذين خلوامن قبلكم أي ومثلامن الذين خلوا من قبلكم في بيوت أذن الله أن ترفع
ويكون المراد بالذين خلوا الانبيـاء والمؤمنين والبيوت المساجد وقد اقتص الله
أخبار الانبياء عليهم الصلاة والسلام وذكرأماكنهم فسماها محاريب بقوله اذتسوروا
المحراب ودخل عليهـا زكريا المحراب فيقول ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات وأنزلنـا
أقاصيص من بعث قبلكم من الانبياء والمؤمنين في بيوت أذن الله أن ترفع (ورابعها)
قول الجبائي انه كلام مستأنف لاتعلق له بما تقدم والتقدير صلوا في بيوت أذن الله
أن ترفع (وخامسها) وهوقول الفراء والزجاج انه لاحذف في الآية بل فيه تقديم
وتأخير كانه قال يسبح في بيوت اذن الله أن ترفع رجال صفتهم كيت وكيت وأما قول
أبي مسلم فقداعترض عليه القاضي من وجهين (الاول) ان قوله ومثلامن الذين خلوا
من قبلكم المراد منه من خلا من المكذبين للرسل لتعلقه بمـا تقدم من الاكراه على
الزنا ابتغاء للدنيا فلا يليق ذلك بوصف هذه البيوت لانها بيوت أذن الله أن يذكر فيها
اسمه (الثاني) ان هذه الآية صارت منقطعة عن تلك الآية بما تخلل بينهما من قوله تعالى
الله نور السموات والارض وأما قول الجبائي فقبيل الاضمار لايجوز المصير اليه الاعند
الضرورة وعلى التاويل الذي ذكره الفراء والزجاج لاحاجة اليه فلايجوز المصير اليه
فان قيل على قول الزجاج يتوجه عليه اشكال أيضا لان على قوله يصير المعنى في بيوت
أذن الله يسبح له فيها فيكون قوله فيها تكرارا من غير فائدة فلم قلتم ان تحمل مثل هذه
الزيادة أولى من تحمل ذلك النقصان قلنا الزيادة لاجل التاكيد كثيرة فكان المصير اليها

عما لايساعده المقام (ان الله خبير بما تعملون) من الاعمال الظاهرة والباطنة التي من جملتها ماتظهرونه من الاكاذيب المؤكدة بالأيمان الفاجرة وماتضمرونه في قلوبكم من الكفر والنفاق والعزيمة على مخادعة المؤمنين وغيرهـامن فنون الشر والفساد والجملة تعليل للحكم بان طاعتهم طاعة نفاقية مشعر بان مدار شهرة أمرها فيمابين المؤمنين اخباره تعالى بذلك ووعيدلهم بانه تعالى مجازيهم بجميع أعمالهم السيئة التي منها نفاقهم (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) كررالامر بالقول لابرازكمال العناية به والاشعار باختلافهما من حيث ان المقول في الاول نهي بطريق الردوالتقريع كما في قوله تعالى اخسؤا فيهـا ولاتكلمون وفي الثاني امر بطريق التكليف والتشريع واطلاق الطاعة المامور بها عن وصف الصحة
والاخلاص ونحوهما بعدوصف طاعتهم بمـا ذكر للتنبيه على أنهـا

أولى (المسألة الثانية) اكثر المفسرين قالوا المراد من قوله فى بيوت المساجد وعن عكرمة فى بيوت قال هى البيوت كلها والاول اولى لوجهين (الاول) ان فى البيوت مالا يمكن أن يوصف بان الله تعالى أذن أن ترفع (الثانى) انه تعالى وصفها بالذكر والتسبيح والصلاة وذلك لا يليق الا بالمساجد ثم للقائلين بان المراد هو المساجد قولان (احدهما) ان المراد أربع مساجد الكعبة بناها ابراهيم واسمعيل عليهما الصلاة السلام و بيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ومسجد المدينة بناه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومسجد قباء الذى أسس على التقوى بناه نبى الله صلى الله عليه وسلم وعن الحسن هو بيت المقدس يسرج فيه عشرة آلاف قنديل (والثانى) ان المراد هو جميع المساجد والاول ضعيف لانه تخصيص بلا دليل فالاولى حمل اللفظ على جميع المساجد قال ابن عباس رضى الله عنهما المساجد بيوت الله فى الارض وهى تضئ لاهل السماء كما تضئ النجوم لاهل الارض (المسألة الثالثة) اختلفوا فى المراد من قوله أن ترفع على اقوال (أحدها) المراد من رفعها بناؤها لقوله بناها رفع سمكها فسواها وقوله واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى المساجد أمر الله أن تبنى (وثانيها) ترفع اى تعظم وتطهر عن الانجاس وعن اللغو من الاقوال عن الزجاج (وثالثها) المراد مجموع الامرين (والقول الثانى) أولى لان قوله فى بيوت أذن الله أن ترفع ظاهره انها كانت بيوتا قبل الرفع فاذن الله أن ترفع (المسألة الرابعة) اختلفوا فى المراد من قوله ويذكر فيها اسمه فالقول الاول انه عام فى كل ذكر (والثانى) ان يتلى فيها كتابه عن ابن عباس (والثالث) لا يتكلم فيها بما لا ينبغى والاول أولى لعموم اللفظ (المسألة الخامسة) قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم يسبح بفتح الباء والباقون بكسرها فعلى القراءة الاولى يكون القول ممتدا الى أخر الظروف الثلاثة أعنى له فيها بالغدو والآصال ثم قال الزجاج رجال مرفوع لانه لما قال يسبح له فيها فكانه قيل من يسبح فقيل يسبح رجال (المسألة السادسة) اختلفوا فى هذا التسبيح فالاكثرون حملوه على نفس الصلاة ثم اختلفوا فمنهم من حمله على كل الصلوات الخمس ومنهم من حمله على صلاتى الصبح والعصر فقال كانتا واجبتين فى ابتداء الحال ثم زيد فيهما ومنهم من حمله على التسبيح الذى هو تنزيه الله تعالى عما لا يليق به فى ذاته وفعله واحتج عليه بان الصلاة والزكاة قد عطفهما على ذلك من حيث قال عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وهذا الوجه أظهر (المسألة السابعة) الآصال جمع أصل والاصل جمع أصيل وهو العشى وانما وحد الغدو لانه فى الاصل مصدر لا يجمع والاصيل اسم جمع قال صاحب الكشاف بالغدو أى باوقات الغدأى بالغدوات وقرئ والايصال وهو الدخول فى الاصيل يقال آصل كأعتم وأظهر قال ابن عباس رحمهما الله تعالى ان صلاة الضحى لفى كتاب الله تعالى مذكورة وتلا هذه الآية وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من أحد

يغدو

ليست من الطاعة فى شئ أصلا وقوله تعالى (فان تولوا) خطاب للمأمورين بالطاعة من جهته تعالى وارد لتأكيد الامر بها والمبالغة فى ايجاب الامتثال به والحمل عليه

بالترهيب والترغيب لما أن تغيير الكلام المسبوق لمعنى من المعانى وصرفه عن سننه المسلوك ينبئ عن اهتمام جديد بشانه من المتكلم ويستجلب مزيد رغبة فيه من السامع كما أشير اليه فى تفسير قوله تعالى ولو جئنا بمثله مددا لاسيما اذا كان ذلك بتغيير الخطاب بالواسطة الى الخطاب بالذات فان فى خطابه تعالى اياهم بالذات بعد أمره تعالى اياهم بوساطته عليه السلام وتصديه لبيان حكم الامتثال بالامر والتولى عنه اجمالا وتفصيلا من افادة ما ذكر من التأكيد والمبالغة ما لا غاية وراءه وتوهم أنه داخل تحت القول المأمور بحكايته من جهته تعالى وأنه أبلغ فى التبكيت تعكيس للامر و الفاء لترتيب ما بعدها على تبليغه عليه السلام للمأمور به اليهم وعدم التصريح به للايذان بغاية ظهور مسارعته عليه السلام الى تبليغ ما أمر به وعدم الحاجة الى الذكر أى ان تتولوا عن الطاعة اثر ما أمرتم بها (فانما عليه) أى فاعلوا أنما عليه عليه السلام (ما حمل) أى أمر به من

يغدو ويروح الى المسجد يؤثره على ما سواه الا وله عند الله نزل يعد له في الجنة وفي رواية سهل بن سعد مرفوعا من غدا الى المسجد وراح ليعلم خيرا أو ليتعلمه كان كمثل المجاهد في سبيل الله يرجع غانما (المسئلة الثامنة) اختلفوا في قوله تعالى لا تلهيهم تجارة فقال بعضهم نفى كونهم تجارا وباعة أصلا وقال بعضهم بل أثبتهم تجارا وباعة وبين أنهم مع ذلك لا يشغلهم عنها شاغل من ضروب منافع التجارات وهذا قول الأكثرين قال الحسن أما والله ان كانوا ليتجرون ولكن اذا جاءت فرائض الله لم يلههم عنها شيء فقاموا بالصلاة والزكاة وعن سالم نظر الى قوم من أهل السوق تركوا بياعاتهم وذهبوا الى الصلاة فقال هم الذين قال تعالى لا تلهيهم تجارة وعن ابن مسعود مثله واعلم أن هذا القول أولى من الاول لانه لا يقال ان فلانا لا تلهيه التجارة عن كيت وكيت الا وهو تاجر وان احتمل الوجه الاول وههنا سؤالات (السؤال الاول) لما قال لا تلهيهم تجارة دخل فيه البيع فلم اعاد ذكر البيع قلنا (الجواب) عنه من وجوه (الاول) أن التجارة جنس يدخل تحته انواع الشراء والبيع الا أنه سبحانه خص البيع بالذكر لانه في الالهاء أدخل لان الربح الحاصل في البيع يقين ناجز والربح الحاصل في الشراء شك ومستقبل (الثاني) ان البيع يقتضي تبديل العرض بالنقد والشراء بالعكس والرغبة في تحصيل النقد أكثر من العكس (الثالث) قال الفراء التجارة لاهل الجلب يقال تجر فلان في كذا اذا جلبه من غير بلده والبيع ما باعه على يديه (السؤال الثاني) لم خص الرجال بالذكر (والجواب) لان النساء لسن من أهل التجارات والجماعات (المسئلة التاسعة) اختلفوا في المراد بذكر الله تعالى فقال قوم المراد الثناء على الله تعالى والدعوات وقال آخرون المراد الصلوات فان قيل فما معنى قوله واقام الصلاة قلنا عنه جوابان (أحدهما) قال ابن عباس رضي الله عنهما المراد باقام الصلاة اقامتها لمواقيتها (والثاني) يجوز أن يكون قوله واقام الصلاة تفسيرا الذكر الله فهم يذكرون الله قبل الصلاة وفي الصلاة (المسئلة العاشرة) قد ذكرنا في أول تفسير سورة البقرة في قوله ويقيمون الصلاة أن اقام الصلاة هو القيام بحقها على شروطها والوجه في حذف الهاء ما قاله الزجاج يقال اقمت الصلاة اقامة وكان الاصل اقواما ولكن قلبت الواو ألفا فاجتمع ألفان فحذفت احداهما لالتقاء الساكنين فبقي اقمت الصلاة اقاما فادخلت الهاء عوضا من المحذوف وقامت الاضافة ههنا في التعويض مقام الهاء المحذوفة قال وهذا اجماع من النحويين (المسئلة الحادية عشرة) اختلفوا في الصلاة فمنهم من قال هي الفرائض ومنهم من ادخل فيه النفل على ما حكيناه في صلاة الضحى عن ابن عباس والاول أقرب لانه الى التعريف اقرب وكذلك القول في الزكاة أن المراد المفروض لانه المعروف في الشرع المسمى بذلك وقال ابن عباس رضي الله عنهما المراد من الزكاة طاعة الله تعالى والاخلاص وكذا في قوله وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وقوله ما زكا منكم من أحد وقوله تطهرهم وتزكيهم بها وهذا ضعيف لما تقدم

التبليغ وقد شاهدتموه عند قوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول (وعليكم ما حملتم) أي ما أمرتم به من الطاعة ولعل التعبير عنه بالتحميل للاشعار بثقله وكونه مؤنة باقية في عهدتهم بعد كأنه قيل وحيث توليتم عن ذلك فقد بقيتم تحت ذلك الحمل الثقيل وقوله تعالى ما حمل محمول على المشاكلة (وان تطيعوه) أي فيما أمركم به من الطاعة (تهتدوا) الى الحق الذي هو المقصد الاصلي الموصل الى كل خير والمنجي من كل شر وتأخيره عن بيان حكم التولي لما في تقديم الترهيب من تأكيد الترغيب وتقريبه مما هو من بابه من الوعد الكريم وقوله تعالى (وما على الرسول الا البلاغ المبين) اعتراض مقرر لما قبله من أن غائلة التولي وفائدة الاطاعة مقصورتان عليهم واللام اما للجنس المنتظم له عليه السلام انتظاما أوليا أو للعهد أي ما على جنس الرسول كائنا من كان أو ما عليه عليه السلام الا التبليغ الموضح لكل ما يحتاج الى الايضاح أو الواضح على أن المبين من أبان بمعنى بان وقد علمتم أنه قد فعله بما لا مزيد عليه وانما بقي ما حملتم وقوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم) استئناف مقرر لما في قوله تعالى وان تطيعوه تهتدوا من الوعد الكريم ومعرب

ولانه تعالى علق الزكاة بالايتاء وهذا لايحمل الاعلى مايعطى من حقوق المال (المسئلة الثانية عشرة) انه سبحانه بين أن هؤلاء الرجال وان تعبدوا بذكر الله والطاعات فانهم مع ذلك موصوفون بالوجل والخوف فقال يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار وذلك الخوف انما كان لعلمهم بانهم ماعبدوا الله حق عبادته واختلفوا فى المراد بتقلب القلوب والابصار على اقوال (فالقول الاول) ان القلوب تضطرب من الهول والفزع وتشخص الابصار لقوله واذ زاغت الابصار و بلغت القلوب الحناجر (الثانى) أنها تتغير أحوالها فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعا عليها لاتفقه وتبصر الابصار بعد أن كانت لاتبصر فكانهم انقلبوا من الشك الى الظن ومن الظن الى اليقين ومن اليقين الى المعاينة لقوله و بدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون وقوله لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك (الثالث) أن القلوب تتقلب فى ذلك اليوم طمعا فى النجاة وحذرا من الهلاك والابصار تتقلب من أى ناحية يؤمر بهم أمن ناحية اليمين أم من ناحية الشمال ومن أى ناحية يعطون كتابهم أمن قبل الايمان أم من قبل الشمائل والمعتزلة لايرضون بهذا التاويل فانهم قالوا ان أهل الثواب لاخوف عليهم البتة فى ذلك اليوم وأهل العقاب لايرجون العفو لكنا بينا فساد هذا المذهب غيرمرة (الرابع) أن القلوب تزول عن اماكنها فتبلغ الحناجر والابصار تصير زرقا قال الضحاك يحشر الكافر و بصره حديد وتزرق عيناه ثم يعمى و يتقلب القلب من الخوف حيث لايجد مخلصا حتى يقع فى الحنجرة فهو قوله اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين (الخامس) قال الجبائى المراد بتقلب القلوب والابصار تغيرهيآتها بسبب ماينالها من العذاب فتكون مرة بهيئة ما انضج بالنار ومرة بهيئة مااحترق قال و يجوز أن يريد به تقلبها على جمر جهنم وهو معنى قوله تعالى ونقلب افئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة (المسئلة الثالثة عشرة) قوله ليجزيهم الله أحسن ماعملوا أى يفعلون هذه القربات ليجزيهم الله ويثيبهم على أحسن ماعملوا وفيه وجوه (الاول) المراد بالاحسن الحسنات اجمع وهى الطاعات فرضها ونفلها قال مقاتل انما ذكر الاحسن تنبيها على انه لايجازيهم على مساوى أعمالهم بل يغفرها لهم (الثانى) انه سبحانه يجزيهم جزاء أحسن ماعملوا على الواحد عشرا الى سبعمائة (الثالث) قال القاضى المراد بذلك أن تكون الطاعات منهم مكفرة لمعاصيهم وانما يجزيهم الله تعالى باحسن الاعمال وهذا مستقيم على مذهبه فى الاحباط والموازنة أما قوله تعالى ويزيدهم من فضله فالمعنى انه تعالى يجزيهم باحسن الاعمال ولايقتصر على قدر استحقاقهم بل يزيدهم من فضله على ماذكره تعالى فى سائر الآيات من التضعيف فان قيل فهذ يدل على ان لفعل الطاعة اثرا فى استحقاق الثواب لانه تعالى ميز الجزاء عن الفضل وأنتم لاتقولون بذلك فان عندكم العبد لايستحق على ربه شيئا قلنا نحن نثبت الاستحقاق لكن بالوعد فذلك القدر هو المستحق والزائد عليه هو الفضل ثم قال والله يرزق من يشاء بغير حساب نبه به

عنه بطريق التصريح ومبين لتفاصيل ماأجمل فيه من فنون السعادات الدينية والدنيوية التى هى من آثار الاهتداء ومتضمن لما هو المراد بالطاعة التى نيط بها الاهتداء والمراد بالذين آمنوا كل من اتصف بالايمان بعد الكفر على الاطلاق من أى طائفة كان وفى أى وقت كان لا من آمن من طائفة المنافقين فقط ولا من آمن بعد نزول الآية الكريمة فحسب ضرورة عموم الوعد الكريم للكل كافة فالخطاب فى منكم لعامة الكفرة لا للمنافقين خاصة ومن تبعيضية (وعملوا الصالحات) عطف على آمنوا داخل معه فى حيز الصلة وبه يتم تفسير الطاعة التى أمر بها ورتب عليها ما انتظم فى سلك الوعد الكريم كما أشير اليه وتوسيط الظرف بين المعطوفين لاظهار أصالة الايمان وعراقته فى استتباع الآثار والاحكام وللايذان بكونه أول ماطلب منهم وأهم مايجب عليهم وأما تأخيره عنهما فى قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما فلان من هناك بيانية والضمير للذين معه عليه السلام من خلص المؤمنين ولاريب فى أنهم جامعون بين الايمان والاعمال الصالحة مثابرون عليهما فلابد من ورود بيانهم بعد ذكر نعوتهم الجليلة

بكمالها هذا ومن جعل الخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام وللامة عموما على أن من تبعيضية أوله عليه السلام ولمن معه
من المؤمنين خصوصا على أنها بيانية فقد نأى عما يقتضيه سياق النظم الكريم وسياقه بمنازل وأبعد

على كمال قدرته وكمال جوده ونفاذ مشيئته وسعة احسانه فكان سبحانه لما وصفهم بالجد والاجتهاد فى الطاعة ومع ذلك يكونون فى نهاية الخوف فالحق سبحانه يعطيهم الثواب العظيم على طاعاتهم ويزيدهم الفضل الذى لاحد له فى مقابلة خوفهم ❊ قوله تعالى

(والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة تحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور)

اعلم انه سبحانه لما بين حال المؤمن وأنه فى الدنيا يكون فى النور وبسببه يكون متمسكا بالعمل الصالح ثم بين انه فى الآخرة يكون فائزا بالنعيم المقيم والثواب العظيم اتبع ذلك بان بين أن الكافر يكون فى الآخرة فى أشد الخسران وفى الدنيا فى أعظم أنواع الظلمات وضرب لكل واحد منهما مثلا أما المثل الدال على خيبته فى الآخره فهو قوله والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة قال الازهرى السراب ما يتراءى للعين وقت الضحى الاكبر فى الفلوات شبيه الماء الجارى وليس بماء ولكن الذى ينظر اليه من بعيد يظنه ماء جاريا يقال سرب الماء يسرب سروبا اذا جرى فهو سارب أما الآل فهو ما يتراءى للعين فى أول النهار فيرى الناظر الصغير كبيرا وظاهر كلام الخليل أن الآل والسراب واحد وأما القيعة فقال الفراء هو جمع قاع مثل جار وجيرة والقاع المنبسط المستوى من الارض وقال صاحب الكشاف القيعة بمعنى القاع وقال الزجاج الظمآن قد يخفف همزه وهو الشديد العطش ثم وجه التشبيه أن الذى يأتى به الكافر ان كان من افعال البر فهو لا يستحق عليه ثوابا مع أنه يعتقد أن له ثوابا عليه وان كان من أفعال الاثم فهو يستحق عليه عقابا مع انه يعتقد أنه يستحق عليه ثوابا فكيف كان فهو يعتقد أن له ثوابا عند الله تعالى فاذا وافى عرصات القيامة ولم يجد الثواب بل وجد العقاب العظيم عظمت حسرته وتناهى غمه فيشبه حاله حال الظمآن الذى تشتد حاجته الى الماء فاذا شاهد السراب تعلق قلبه به ويرجو به النجاة ويقوى طمعه فاذا جاء وأيس مما كان يرجوه فيعظم ذلك عليه وهذا المثال فى غاية الحسن قال مجاهد السراب عمل الكافر واتيانه اياه موته ومفارقة الدنيا فان قيل قوله حتى اذا جاءه يدل على كونه شيئا وقوله لم يجده شيئا مناقض له قلنا الجواب عنه من وجوه ثلاثة (الاول) المراد معناه انه لم يجده شيئا نافعا كما يقال فلان ما عمل شيئا وان كان قد اجتهد (الثانى) حتى اذا جاءه اى جاء موضع السراب لم يجد السراب شيئا فاكتفى بذكر السراب عن ذكر موضعه (الثالث) الكناية للسراب لان السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كانه ضباب وهباء واذا قرب منه رق وانتثر وصار كالهواء أما قوله ووجد الله عنده فوفاه حسابه أى وجد عقاب الله الذى توعده به الكافر عند ذلك فتغير ما كان فيه من ظن النفع العظيم الى تيقن الضرر العظيم أو وجد زبانية الله عنده يأخذونه فيقبلون به الى جهنم فيسقونه الحميم والغساق

عما يليق بشانه عليه السلام بمراحل (ليستخلفنهم فى الارض) جواب للقسم اما بالاضمار أو بتنزيل وعده تعالى منزلة القسم لتحقق انجازه لامحالة أى ليجعلنهم خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك فى ممالكهم وخلفا من الذين لم يكونوا على حالهم من الايمان والاعمال الصالحة (كما استخلف الذين من قبلهم) هم بنو اسرائيل استخلفهم الله عزوجل فى مصر والشام بعد اهلاك فرعون والجبابرة أوهم ومن قبلهم من الامم المؤمنة التى أشير اليهم فى قوله تعالى الم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات الى قوله تعالى فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الارض من بعدهم ومحل الكاف النصب على انه مصدر تشبيهى مؤكد للفعل بعد تأكيده بالقسم وما مصدرية اى ليستخلفنهم استخلافا كائنا كاستخلافه تعالى للذين من قبلهم وقرئ كما استخلف على البناء

وهم الذين قال الله تعالى فيهم عاملة ناصبة و يحسبون انهم يحسنون صنعا وقدمنا الى ما عملوا من عمل وقيل نزلت فى عتبة بن ربيعة بن أمية كان قد تعبد ولبس المسوح والتمس الدين فى الجاهلية ثم كفر فى الاسلام أما قوله والله سريع الحساب فذلك لانه سبحانه عالم بجميع المعلومات فلا يشق عليه الحساب وقال بعض المتكلمين معناه لا يشغله محاسبة واحد عن آخر كنحن ولو كان يتكلم بآلة كما يقوله المشبهة لما صح ذلك (واما المثل الثانى) فهو قوله أو كظلمات فى بحر لجى وفى لفظة أو ههنا وجوه (أحدها) اعلم أن الله تعالى بين ان أعمال الكفار ان كانت حسنة فمثلها السراب وان كانت قبيحة فهو الظلمات (وثانيها) تقدير الكلام أن اعمالهم اما كسراب بقيعة وذلك فى الآخرة واما كظلمات فى بحر وذلك فى الدنيا (وثالثها) الآية الاولى فى ذكر أعمالهم وأنهم لا يحصلون منها على شئ والآية الثانية فى ذكر عقائدهم فانها تشبه الظلمات كما قال يخرجهم من الظلمات الى النور أى من الكفر الى الايمان يدل عليه قوله تعالى ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور وأما البحر اللجى فهو ذو اللجة التى هى معظم الماء الغمر البعيد القعر وفى اللجى لغتان كسر اللام وضمها واما تقرير المثل فهو أن البحر اللجى يكون قعره مظلما جدا بسبب غمورة الماء فاذا ترادفت عليه الامواج ازدادت الظلمة فاذا كان فوق الامواج سحاب بلغت الظلمة النهاية القصوى فالواقع فى قعر هذا البحر اللجى يكون فى نهاية شدة الظلمة ولما كانت العادة فى اليد أنها من أقرب ما يراها ومن أبعد ما يظن انه لا يراها فقال تعالى لم يكد يراها وبين سبحانه بهذا بلوغ تلك الظلمة الى اقصى النهايات ثم شبه به الكافر فى اعتقاده وهو ضد المؤمن فى قوله تعالى نور على نور وفى قوله يسعى نورهم بين ايديهم وبايمانهم ولهذا قال أبى بن كعب الكافر يتقلب فى خمس من الظلم كلامه وعمله ومدخله ومخرجه ومصيره الى النار وفى كيفية هذا التشبيه وجوه اخر (أحدها) أن الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات ظلمة البحر وظلمة الامواج وظلمة السحاب وكذا الكافر له ظلمات ثلاثة ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل عن الحسن (وثانيها) شبهوا قلبه وبصره وسمعه بهذه الظلمات الثلاث عن ابن عباس (وثالثها) أن الكافر لا يدرى ولا يدرى انه لا يدرى ويعتقد انه يدرى فهذه المراتب الثلاث تشبه تلك الظلمات (ورابعها) أن هذه الظلمات متراكمة فكذا الكافر لشدة اصراره على كفره قد تراكمت عليه الضلالات حتى ان اظهر الدلائل اذا ذكرت عنده لا يفهمها (وخامسها) قلب مظلم فى صدر مظلم فى جسد مظلم أما قوله ظلمات بعضها فوق بعض فروى عن ابن كثير انه قرأ سحاب وقرأ ظلمات بالجر على البدل من قوله أو كظلمات وعنه أيضا انه قرأ سحاب ظلمات كما يقال سحاب رحمة وسحاب عذاب على الاضافة وقراءة الباقين سحاب ظلمات كلاهما بالرفع والتنوين وتمام الكلام عند قوله سحاب ثم ابتدأ ظلمات أى ماتقدم ذكره ظلمات بعضها فوق بعض أما قوله لم يكد يراها ففيه قولان (أحدهما) أن كاد ففيه اثبات واثباته نفى فقوله وماكادوا يفعلون نفى فى

للمفعول فليس العامل فى الكاف حينئذ الفعل المذكور بل ما يدل هو عليه من فعل مبنى هو للمفعول جار منه مجرى المطاوع فان استخلافه تعالى اياهم مستلزم لكونهم مستخلفين فيها استخلافا أى مستخلفية كائنة كمستخلفية من قبلهم وقدم تحقيقه فى قوله تعالى كما سئل موسى من قبل ومن هذا القبيل قوله تعالى وأنبتها نباتا حسنا على أحد الوجهين أى فنبتت نباتا حسنا وعليه قول من قال * وعضة دهر يا ابن مروان * لم تدع من المال الا مسحت أو مجلف * أى فلم يبق الا مسحت الخ (وليمكنن لهم دينهم) عطف على ليستخلفنهم منتظم معه فى سلك الجواب وتأخيره عنه كونه أجل الرغائب الموعودة وأعظمها لما أن النفوس الى الحظوظ العاجلة أميل فتصدير المواعيد بها فى الاستمالة ادخل والمعنى ليجعلن دينهم ثابتا مقررا بحيث يستمرون على العمل باحكامه و يرجعون اليه فى كل ما يأتون وما يذرون والتعبير عن ذلك بالتمكين الذى هو جعل الشئ مكانا لآخر يقال مكن له فى الارض أى جعلها مقرا له ومنه قوله تعالى انا مكنا له فى الارض ونظائره وكلمة فى للايذان بان

اللفظ ولكنه اثبات فى المعنى لانهم فعلوا ذلك، وقوله عليه الصلاة والسلام كاد الفقر أن يكون كفرا اثبات فى اللفظ لكنه نفى فى المعنى لانه لم يكفر فكذا ههنا قوله لم يكد يراها معناه أنه رآها (والثانى) ان كاد معناه المقاربة فقوله لم يكد يراها معناه لم يقارب الوقوع ومعلوم أن الذى لم يقارب الوقوع لم يقع أيضا وهذا القول هو المختار والاول ضعيف لوجهين (الاول) أن مايكون أقل من هذه الظلمات فانه لايرى فيه شئ فكيف مع هذه الظلمات (الثانى) أن المقصود من هذا التمثيل المبالغة فى جهالة الكفار وذلك انما يحصل اذا لم توجد الرؤية البتة مع هذه الظلمات أما قوله ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور فقال أصحابنا انه سبحانه لما وصف هداية المؤمن بانها فى نهاية الجلاء والظهور عقبها بأن قال يهدى الله لنوره من يشاء ولما وصف ضلالة الكافر بانها فى نهاية الظلمة عقبها بقوله ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور والمقصود من ذلك أن يعرف الانسان أن ظهور الدلائل لايفيد الايمان وظلمة الطريق لاتمنع منه فان الكل مربوط بخلق الله تعالى وهدايته وتكوينه وقال القاضى المراد بقوله ومن لم يجعل الله له نورا اى فى الدنيا بالالطاف فماله من نور أى لايهتدى فيتحير ويحتمل ومن لم يجعل الله له نورا أى مخلصا فى الآخرة وفوزا بالثواب فماله من نور والكلام عليه تزييفا وتقريرا معلوم ✽ قوله تعالى (ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والارض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ولله ملك السموات والارض والى الله المصير) اعلم انه سبحانه لما وصف أنوار قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد (فالنوع الاول) ماذكره فى هذه الآية ولاشبهة فى أن المراد ألم تعلم لان التسبيح لاتتناوله الرؤية بالبصر و يتناوله العلم بالقلب وهذا الكلام وان كان ظاهره استفهاما فالمراد التقرير والبيان فنبه تعالى على مايلزم من تعظيمه بان من فى السموات يسبح له وكذلك من فى الارض وأعلم أنه اما أن يكون المراد من التسبيح دلالة هذه الاشياء على كونه تعالى منزها عن النقائص موصوفا بنعوت الجلال واما ان يكون المراد منه أنها تنطق بالتسبيح وتتكلم به واما أن يكون المراد منه فى حق البعض الدلالة على التنزيه وفى حق الباقين النطق باللسان والقسم الاول أقرب لان القسم الثانى متعذر لان فى الارض من لايكون مكلفا لايسبح بهذا المعنى والمكلفون منهم من لايسبح أيضا بهذا المعنى كالكفار أما القسم الثالث وهو أن يقال ان من فى السموات وهم الملائكة يسبحون باللسان وأما الذين فى الارض فمنهم من يسبح باللسان ومنهم من يسبح على سبيل الدلالة فهذا يقتضى استعمال اللفظ الواحد فى الحقيقة والمجاز معا وهو غير جائز فلم يبق الا القسم الاول وذلك لان هذه الاشياء مشتركة فى أن اجسامها وصفاتها دالة على تنزيه الله سبحانه وتعالى وعلى قدرته وآلهيته وتوحيده وعدله فسمى ذلك تسبيحا على وجه التوسع فان قيل فالتسبيح بهذا المعنى حاصل لجميع المخلوقات فاوجه تخصيصه ههنا بالعقلاء قلنا لان خلقة العقلاء أشد دلالة على وجود

ماجعل مقرآله قطعة منها لاكلها للدلالة على كمال ثبات الدين ورصانة أحكامه وسلامته من التغيير والتبديل لابتنائه على تشبيهه بالارض فى الثبات والقرار مع مافيه من مراعاة المناسبة بينه و بين الاستخلاف فى الارض وتقديم صلة التمكين على مفعوله الصريح للمسارعة الى بيان كون الموعود من منافعهم تشويقا لهم اليه و ترغيبا لهم فى قبوله عند وروده ولان فى توسيطها بينه و بين وصفه أعنى قوله تعالى (الذى ارتضى لهم) وفى تأخيرها عنه من الاخلال بجزالة النظم الكريم مالا يخفى وفى اضافة الدين اليهم وهو دين الاسلام ثم وصفه بارتضائه لهم تأليف لقلوبهم ومزيد ترغيب فيه وفضل تثبيت عليه (وليبدلنهم) بالتشديد وقرئ بالتخفيف من الابدال (من بعد خوفهم) أى من الاعداء (أمنا) حيث كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة عشر سنين بل أكثر خائفين ثم هاجروا الى المدينة وكانوا يصبحون فى السلاح ويمسون كذلك حتى قال رجل منهم ما يأتى علينا يوم نأمن فيه فقال عليه الصلاة والسلام لاتغبرون الايسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليس معه حديدة فانزل الله عز وجل

هذه الآية وأنجز وعده وأظهرهم على جزيرة العرب وفتح لهم بلاد الشرق والغرب وصاروا الى حال يخافهم كل من عداهم وفيه من الدلالة على صحة النبوة للاخبار بالغيب على ماهو عليه قبل

وقوعه مالايخفى وقيل المراد الخوف من العذاب والامن منه فى الآخرة (يعبدوننى) حال من الموصول الاول مفيدة لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد أو استئناف ببيان المقتضى للاستخلاف ومالنتظم معه فى سلك الوعد (لايشركون بى شيئا) حال من الواو أى يعبدوننى غير مشركين بى فى العبادة شيئا (ومن كفر) أى اتصف بالكفر بان ثبت واستمر عليه ولم يتأثر بما مر من الترهيب والترغيب فان الاصرار عليه بعد مشاهدة دلائل التوحيد كفر مستأنف زائد على الاصل وقيل كفر بعد الايمان وقيل كفر هذه النعمة العظيمة والاول هو الانسب بالمقام (بعد ذلك) أى بعد ذلك الوعد الكريم بما فصل من المطالب العالية المستوجبة لغاية الاهتمام بتحصيلها والسعى الجميل فى حيازتها (فاولئك) البعداء عن التائهون فى تيه الغواية والضلال (هم الفاسقون) الكاملون

الصانع سبحانه لان العجائب والغرائب فى خلقهم أكثر وهى العقل والنطق والفهم أما قوله تعالى والطير صافات فلقائل أن يقول ماوجه اتصال هذا بما قبله (والجواب) انه سبحانه لما ذكر أن اهل السموات وأهل الارض يسبحون ذكر ان الذين استقروا فى الهواء الذى هو بين السماء والارض وهو الطير يسبحون وذلك لان اعطاء الجرم الثقيل القوة التى بها يقوى على الوقوف فى جو السماء صافة باسطة اجنحتها بما فيها من القبض والبسط من أعظم الدلائل على قدرة الصانع المدبر سبحانه وجعل طيرانها سجودا منها له سبحانه وذلك يؤكد ماذكرناه من أن المراد من التسبيح دلالة هذه الاحوال على التنزيه لاالنطق اللسانى أما قوله كل قد علم صلاته وتسبيحه ففيه ثلاثة أوجه (الاول) المراد كل قد علم الله صلاته وتسبيحه قالوا ويدل عليه قوله سبحانه والله عليم بما يفعلون وهو اختيار جمهور المتكلمين (والثانى) أن يعود الضمير فى الصلاة والتسبيح على لفظ كل أى انهم يعلمون مايجب عليهم من الصلاة والتسبيح (والثالث) أن تكون الهاء راجعة على ذكر الله يعنى قد علم كل مسبح وكل مصل صلاة الله التى كلفه اياها وعلى هذين التقديرين فقوله والله عليم استيناف وروى عن ابى ثابت قال كنت جالسا عند محمد بن جعفر الباقر رضى الله عنه فقال لى أتدرى ماتقول هذه العصافير عند طلوع الشمس و بعد طلوعها قال لاقال فانهن يقدسن ربهن و يسألنه قوت يومهن واستبعد المتكلمون ذلك فقالوا الطير لو كانت عارفة بالله تعالى لكانت كالعقلاء الذين يفهمون كلامنا واشارتنا لكنها ليست كذلك فانا نعلم بالضرورة انها أشد نقصانا من الصبى الذى لايعرف هذه الامور فبان يمتنع ذلك فيها أولى واذا ثبت انها لاتعرف الله تعالى استحال كونها مسبحة له بالنطق فثبت انها لاتسبح الله الا بلسان الحال على ماتقدم تقريره قال بعض العلماء انا نشاهد ان الله تعالى الهم الطيور وسائر الحشرات اعمالا لطيفة يعجز عنها أكثر العقلاء واذا كان كذلك فلم لايجوز أن يلهمها معرفته ودعاءه وتسبيحه وبيان انه سبحانه ألهمها الاعمال اللطيفة من وجوه (أحدها) احتيالها فى كيفية الاصطياد فتأمل فى العنكبوت كيف يأتى بالحيل اللطيفة فى اصطياد الذباب و يقال ان الدب يستلقى فى ممر الثور فاذا رام نطحه شبث ذراعيه بقرنيه ولايزال ينهز مابين ذراعيه حتى يثخنه وانه يرمى بالحجارة و يأخذ العصا و يضرب الانسان حتى يتوهم انه مات فيتركه و ربما عاود يتشممه و يتجس نفسه و يصعد الشجر أخف صعود و يهشم الجوز بين كفيه تعريضا بالواحدة وصدمة بالأخرى ثم ينفخ فيه فيذر قشره و يستف لبه و يحكى عن الفار فى سرقته أمور عجيبة (وثانيها) أمر النحل ومالها من الرياسة و بناء البيوت المسدسة التى لاتتمكن من بنائها افاضل المهندسين (وثالثها) انتقال الكراكى من طرف من اطراف العالم الى الطرف الآخر طلبا لما يوافقها من الاهوية و يقال ان من خواص الخيل ان كل واحد منها يعرف صوت الفرس الذى قابله وقتاما والكلاب فتصايح بالعية المعروفة لها والفهد اذا سقى أو شرب من

فى الفسق والخروج عن حدود الكفر والطغيان (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام فان خطابه تعالى ﴿ ٤١٧ ﴾ المأمورين بالطاعة على طريق الترهيب من التولى بقوله تعالى فان تولوا الخ وترغيبه تعالى اياهم فى الطاعة بقوله تعالى وان تطيعوه تهتدوا الخ ووعده تعالى اياهم على الايمان والعمل الصالح بما فصل من الاستخلاف وما يتلوه من الرغائب الموعودة ووعيده على الكفر مما يوجب الامر بالايمان والعمل الصالح والنهى عن الكفر فكأنه قيل فآمنوا واعملوا صالحا وأقيموا أو فلا تكفروا وأقيموا وعطفه على أطيعوا الله مما لا يليق بجزالة النظم الكريم (وأطيعوا الرسول) أمرهم الله سبحانه وتعالى بالذات بما أمرهم به بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام من طاعته التى هى طاعته تعالى فى الحقيقة تاكيدا للامر السابق وتقريرا لمضمونه على أن المراد بالطاع فيه جميع الاحكام الشرعية المنتظمة للاداب المرضية أيضا أى وأطيعوه فى كل ما يأمركم به وينهاكم عنه أو تكميلا لما قبله من الامرين الخاصين ﴿ ٥٣ ﴾ س المتعلقين بالصلاة والزكاة على أن المراد بما ذكر ما عداهما من الشرائع

الدواء المعروف بخانق الفهد عمد الى زبل الانسان فاكله والتماسيح تفتح افواهها الطائر يقع عليها كالعقعق وينظف ما بين اسنانها وعلى رأس ذلك الطير كالشوك فاذا هم التمساح بالتقام ذلك الطير تأذى من ذلك الشوك فيفتح فاه فيخرج الطائر والسلحفاة تتناول بعد أكل الحية صعترا جبليا ثم تعود وقد عوفيت من ذلك وحكى بعض الثقاة المجربين الصيدانه شاهد الحبارى تقاتل الافعى وتنهزم عنه الى بقلة تتناول منها ثم تعود ولا يزال ذلك دأبه فكان ذلك الشيخ قاعدا فى كرغار فعل القنصة وكانت البقلة قريبة من مكمنه فلما اشتغل الحبارى بالافعى قلع البقلة فعادت الحبارى الى منبتها ففقدته واخذت تدور حول منبتها دورانا متتابعا حتى خرميتا فعلم الشيخ انه كان يتعالج باكلها من اللسعة وتلك البقلة كانت هى الجرجير البرى وأما ابن عرس فيستظهر فى قتال الحية باكل السذاب فان النكهة السذابية مما تنفر منها الافعى والكلاب اذا دودت بطونها أكلت سنبل القمح واذا جرحت اللقالق بعضها بعضا داوت جراحها بالصعتر الجبلى (ورابعها) القنافذ قد تحس بالشمال والجنوب قبل الهبوب فتغير المدخل الى جحرها وكان بالقسطنطينية رجل قد أثرى بسبب انه كان ينذر بالرياح قبل هبوبها وينفع الناس بانذاره وكان السبب فيه صار قنفذا فى داره يفعل الصنيع المذكور فيستدل به والخطاف صانع جيد فى اتخاذ العش من الطين وقطع الخشب فان اعوزه الطين ابتل وتمرغ فى التراب ليحمل جناحاه قدرا من الطين واذا أفرخ بالغ فى تعهد الفراخ ويأخذ ذرقها بمنقاره ويرميها عن العش ثم يعلمها القاء الذرق نحو طرف العش واذا دنا الصائد من مكان فراخ القبجة ظهرت له القبجة وقربت منه مطمعة له ليتبعها ثم تذهب الى جانب آخر سوى جانب فراخها وناقر الخشب قلما يقع على الارض بل على الشجر ينقر الموضع الذى يعلم أن فيه دودا والغرانيق تصعد فى الجو جدا عند الطيران فان حجب بعضها عن بعض ضباب او سحاب احدثت عن اجنحتها خفيفا مسموعا يلزم به بعضها بعضا فاذا نامت على جبل فانها تضع رؤسها تحت أجنحتها الا القائد فانه ينام مكشوف الرأس فيسرع انتباهه واذا سمع حرسا صاح وحال النمل فى الذهاب الى مواضعها على خط مستقيم يحفظ بعضها أمر عجيب واعلم أن الاستقصاء فى هذا الباب مذكور فى كتاب طبائع الحيوان والمقصود أن الاكياس من العقلاء يعجزون على أمثال هذه الحيل فاذا جاز ذلك فلم لا يجوز أن يقول انها ملهمة من عند الله تعالى بمعرفته والثناء عليه وان كانت غير عارفة بسائر الامور التى يعرفها الناس ولله در شهاب الاسلام السمعانى حيث قال جل جناب الجلال * عن أن يوزن بميزان الاعتزال * أما قوله سبحانه ولله ملك السموات والارض والى الله المصير فهو مع وجازته فيه دلالة على تمام علم المبدأ والمعاد فقوله ولله ملك السموات والارض تنبيه على أن الكل منه لان كل ما سواه ممكن ومحدث والممكن والمحدث لا يوجدان الا عند الانتهاء الى القديم الواجب فدخل فى هذه

القضية جميع الاجرام والاعراض وأفعال العباد وأقوالهم وخواطرهم وأما قوله والى الله المصير فهو عبارة تامة فى معرفة المعاد وهو أنه لابد من مصير الكل اليه سبحانه وله وجه آخر وهو أن الوجود يبدأ من الاشرف فالاشرف نازلا الى الاخس فالاخس ثم يأخذ من الاخس فالاخس مترقيا الى الاشرف فالاشرف فانه يكون جسما ثم بصيره موصوفا بالنباتية ثم الحيوانية ثم الانسانية ثم الملكية ثم ينتهى الى واجب الوجود لذاته فالاعتبار الاول هو قوله ولله ملك السموات والارض والثانى هو قوله والى الله المصير ✻ قوله تعالى (ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار) اعلم أن هذا هو النوع الثانى من الدلائل وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله ألم تر بعين عقلك والمراد التنبيه والازجاء السوق قليلا ومنه البضاعة المزجاة التى يزجيها كل أحد وازجاء السير فى الابل الرفق بها حتى تسير شيئا فشيئا ثم يؤلف بينه قال الفراء بين لا يصلح الا مضافا الى اسمين فما زاد وانما قال بينه لان السحاب واحد فى اللفظ ومعناه الجمع والواحد سحابة قال الله تعالى وينشئ السحاب الثقال والتأليف ضم شئ الى شئ أى يجمع بين قطع السحاب فيجعلها سحابا واحدا ثم يجعله ركاما أى مجتمعا والركم جعلك شيئا فوق شئ حتى تجعله مركوما والودق المطر قاله ابن عباس وعن مجاهد القطر وعن أبى مسلم الاصفهانى الماء من خلاله من شقوقه ومخارقه جمع خلل كجبال فى جمع جبل وقرئ من خلله (المسئلة الثانية) اعلم أن قوله يزجى سحابا يحتمل أنه سبحانه ينشئه شيئا بعد شئ ويحتمل أن يغيره من سائر الاجسام لا فى حالة واحدة فعلى الوجه الاول يكون نفس السحاب محدثة ثم انه سبحانه يؤلف بين اجزائه وعلى الثانى يكون المحدث من قبل الله تعالى تلك الصفات التى باعتبارها صارت تلك الاجسام سحابا وفى قوله ثم يؤلف بينه دلالة على وجودها متقدما متفرقا اذ التأليف لا يصح الا بين موجودين ثم انه سبحانه يجعله ركاما وذلك بتركيب بعضها على البعض وهذا مما لابد منه لان السحاب انما يحمل الكثير من الماء اذا كان بهذه الصفة وكل ذلك من عجائب خلقه ودلالة ملكه واقتداره قال أهل الطبائع أن تكون السحاب والمطر والثلج والبرد والطل والصقيع فى أكثر الامر يكون من تكاثف البخار وفى الاقل من تكاثف الهواء أما الاول فالبخار الصاعد ان كان فى الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فحينئذ يتحلل وينقلب هواء وأما ان كان البخار كثيرا ولم يكن فى الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فتلك الابخرة المتصاعدة اما أن تبلغ فى صعودها الى الطبقة الباردة من الهواء أو لا تبلغ فان بلغت فاما أن يكون البرد هناك قويا أو لا يكون فان لم يكن البرد هناك قويا تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد واجتمع وتقاطر فالبخار المجتمع هو السحاب والمتقاطر هو المطر والديمة والوابل انما يكون من

أى وأطيعوه فى سائر ما يأمركم به الخ وقوله تعالى (لعلكم ترحمون) متعلق على الامر الاخير المشتمل على جميع الاوامر وعلى الثانى بالاوامر الثلاثة أى افعلوا ما ذكر من ﴿ ٢١٨ ﴾ الايتاء والاطاعة راجين أن ترحموا (لا تحسبن الذين كفروا) لما بين حال من أطاعه عليه الصلاة والسلام وأشير الى فوزه بالرحمة المطلقة المستتبعة لسعادة الدارين عقب ذلك ببيان حال من عصاه عليه الصلاة والسلام ومآل أمره فى الدنيا والآخرة بعد بيان تناهيه فى الفسق تكميلا لامر الترغيب والترهيب والخطاب اما لكل أحد ممن يصلح له كائنا من كان واما للرسول عليه الصلاة والسلام على منهاج قوله تعالى فلا تكونن من المشركين ونظائره للايذان بان الحسبان المذكور من القبح والمحذورية بحيث ينهى عنه من يمتنع صدوره عنه فكيف بمن يمكن ذلك منه ومحل الموصول النصب على أنه مفعول أول للحسبان وقوله تعالى (معجزين) ثانيهما وقوله تعالى (فى الارض) ظرف لمعجزين لكن لا لافادة كون الاعجاز المنفى فيها لا فى غيرها فان ذلك مما لا يحتاج الى البيان بل لافادة شمول عدم الاعجاز لجميع أجزائها أى لا تحسبنهم معجزين الله عز وجل عن

ادراكهم واهلاكهم فى قطر من أقطار الارض بما رحبت وان هربوا منها كل مهرب وقرئ لايحسبن بياء الغيبة على أن
الفاعل كل أحد والمعنى كما ذكر أى لايحسبن أحد من الكافرين معجزين له سبحانه فى الارض أوهو
الموصول والمفعول الاول محذوف لكونه عبارة عن أنفسهم كأنه قيل لايحسبن الكافرون أنفسهم معجزين فى الارض وأما جعل معجزين مفعولا أول وفى الارض مفعولا ثانيا فبمعزل من المطابقة لمقتضى المقام ضرورة أن مصب الفائدة هو المفعول الثانى ولافائدة فى بيان كون المعجزين فى الارض وقدمر فى قوله تعالى انى جاعل فى الارض خليفة وقوله تعالى (ومأواهم النار) معطوف على جملة النهى بتأويلها بجملة خبرية لان المقصود بالنهى عن الحسبان تحقيق نفى الحسبان كأنه قيل ليس الذين كفروا معجزين ومأواهم الخ أو على جملة مقدرة وقعت تعليلا للنهى كأنه قيل لاتحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض فانهم مدركون ومأواهم الخ وقيل الجملة المقدرة بل هم مقهورون فتدبر (ولبئس المصير) جواب لقسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف
أى وبالله لبئس المصير هى أى النار والجملة اعتراض تذييلى مقرر

أمثال هذه الغيوم وأما ان كان البرد شديدا فلا يخلو اما أن يصل البرد الى الاجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها حبات كبارا أو بعد صيرورتها كذلك فان كان على الوجه الاول نزل ثلجا وان كان على الوجه الثانى نزل بردا وأما اذا لم تبلغ الابخرة الى الطبقة الباردة فهى اما أن تكون كثيرة أو تكون قليلة فان كانت كثيرة فهى قد تنعقد سحابا ماطرا وقد لاتنعقد أما الاول فذاك لاحد أسباب خمسة (أحدها) اذا منع هبوب الرياح عن تصاعد تلك الابخرة (وثانيها) أن تكون الرياح ضاغطة اياها الى الاجتماع بسبب وقوف جبال قدام الريح (وثالثها) أن تكون هناك رياح متقابلة متصادمة فتمنع صعود الابخرة حينئذ (ورابعها) أن يعرض للجزء المتقدم وقوف لثقله و بطء حركته ثم يلتصق به سائر الاجزاء الكثيرة المدد (وخامسها) لشدة برد الهواء القريب من الارض وقد نشاهد البخار يصعد فى بعض الجبال صعودا يسيرا حتى كأنه مكبة موضوعة على وهدة و يكون الناظر اليها فوق تلك الغمامة والذين يكونون تحت الغمامة يمطرون والذين يكونون فوقها يكونون فى الشمس وأما اذا كانت الابخرة القليلة الارتفاع قليلة لطيفة فاذا ضربها برد الليل كثفها وعقدها ماء محسوسا فنزل نزولا متفرقا لايحس به الا عند اجتماع شئ يعتد به فان لم يجمد كان طلا وان جمد كان صقيعا ونسبة الصقيع الى الطل نسبة الثلج الى المطر وأما أن يكون السحاب من انقباض الهواء فذلك عندما يبرد الهواء وينقبض وحينئذ يحصل منه الاقسام المذكورة (والجواب) أنا لما دللنا على حدوث الاجسام وتوسلنا بذلك الى كونه قادرا مختارا يمكنه ايجاد الاجسام لم يمكنا القطع بما ذكرتموه لاحتمال انه سبحانه خلق أجزاء السحاب دفعة لابالطريق الذى ذكرتموه وأيضا فهب أن الامر كما ذكرتم ولكن الاجسام بالاتفاق ممكنة فى ذواتها فلا بد لها من مؤثر ثم انها متماثلة فاختصاص كل واحد منها بصفته المعينة من الصعود والهبوط واللطافة والكثافة والحرارة والبرودة لابد له من مخصص فاذا كان هو سبحانه خالقا لتلك الطبائع وتلك الطبائع مؤثرة فى هذه الاحوال وخالق السبب خالق المسبب فكان سبحانه هو الذى يزجى سحابا لانه هو الذى خلق تلك الطبائع المحركة لتلك الابخرة من باطن الارض الى جو الهواء ثم ان تلك الابخرة اذا ترادفت فى صعودها والتصق بعضها ببعض فهو سبحانه هو الذى جعلها ركاما فثبت على جميع التقديرات ان وجه الاستدلال بهذه الاشياء على القدرة والحكمة ظاهر بين أما قوله سبحانه و ينزل من السماء من جبال فيها من برد ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى هذه الآية قولان (أحدهما) أن فى السماء جبالا من برد خلقها الله تعالى كذلك ثم ينزل منها ماشاء وهذا القول عليه أكثر المفسرين قال مجاهد والكلبى جبال من برد فى السماء (والقول الثانى) ان السماء هو الغيم المرتفع على رؤس الناس سمى بذلك لسموه وارتفاعه وانه تعالى أنزل من هذا الغيم الذى هو سماء البرد وأراد بقوله من جبال السحاب العظام لانها اذا عظمت أشبهت الجبال كما يقال فلان يملك

لماقبله وفى ايراد النار بعنوان كونها ماوى ومصيرالهم اثر نفى فوتهم بالهرب فى الارض كل مهرب من الجزالة مالاغاية وراءه
فلله درشأن التنزيل (يأيها الذين آمنوا) رجوع ﴿ ٤٢٠ ﴾ الى بيان تتمة الاحكام السابقة بعد تمهيد مايوجب
الامتثال بالاوامر
والنواهى الواردة فيها
وفى الاحكام اللاحقة
من التمثيلات والترغيب
والترهيب والوعيد
والخطاب اماللرجال
خاصة والنساء داخلات
فى الحكم بدلالة النص
أوللفريقين جميعا بطريق
التغليب روى أن غلاما
لاسماء بنت أبى مرثد
دخل عليهـا فى وقت
كرهته فنزلت وقيل
أرسل رسول الله صلى الله
عليه وسلم مدلج بن عمر
الانصارى وكان غلاما
وقت الظهيرة ليدعو عمر
رضى الله عنه فدخل
عليه وهونائم فدانكشف
عنه ثوبه فقال عمر
رضى الله عنه لوددت
أن الله تعالى نهى آباءنا
وأبناءنا وخدامنا أن لا
يدخلوا علينا هذه
الساعات الاباذن ثم انطلق
معه الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فوجده وقد
أنزلت عليه هذه الآية
(ليستاذنكم الذين ملكت
أيمانكم) من العبيد
والجوارى (والذين لم
يبلغوا الحلم) أى الصبيان
القاصرون عن درجة البلوغ المعهود والتعبير عنه بالحلم

﴿ الله ﴾

جبالا من مال ووصفت بذلك توسعا وذهبوا الى أن البرد ماء جامد خلقه الله تعالى فى السحاب ثم أنزله الى الارض وقال بعضهم انما سمى الله ذلك الغيم جبالا لانه سبحانه خلقها من البرد وكل جسم شديد متحجر فهو من الجبال ومنه قوله تعالى واتقوا الذى خلقكم والجبلة الاولين ومنه فلان مجبول على كذا قال المفسرون والاول أولى لان السماء اسم لهذا الجسم المخصوص فجعله اسما للسحاب بطريقة الاشتقاق مجازا وكما يصح أن يجعل الله الماء فى السحاب ثم ينزله بردا فقد يصح أن يكون فى السماء جبال من برد واذا صح فى القدرة كلا الامرين فلا وجه لترك الظاهر (المسئلة الثانية) قال أبو على الفارسى قوله تعالى من السماء من جبال فيها من برد فمن الاولى لابتداء الغاية لان ابتداء الانزال من السماء والثانية للتبعيض لان ماينزله الله بعض تلك الجبال التى فى السماء والثالثة للتبيين لان جنس تلك الجبال جنس البرد ثم قال ومفعول الانزال محذوف والتقدير وينزل من السماء من جبال فيها من بردا الا انه حذف للدلالة عليه أما قوله فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء فالظاهر انه راجع الى البرد ومعلوم من حاله أنه قد يضر مايقع عليه من حيوان ونبات فبين سبحانه أنه يصيب به من يشاء على وفق المصلحة ويصرفه أى يصرف ضرره عمن يشاء بان لا يسقط عليه ومن الناس من حمل البرد على الحجر وجعل نزوله جاريا مجرى عذاب الاستيصال وذلك بعيد أما قوله تعالى يكاد سنا برقه يذهب بالابصار ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ يكاد سنا برقه على الادغام وقرئ برقه جمع برقة وهى المقدار من البرق وبرقه بضمتين للاتباع كما قيل فى جمع فعلة فعلات كظلمات وسناء برقه على المد والمقصور بمعنى الضوء والممدود بمعنى العلو والارتفاع من قولك سنى للمرتفع ويذهب بالابصار على زيادة الباء كقوله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة عن أبى جعفر المدنى (المسئلة الثانية) وجه الاستدلال بقوله يكاد سنا برقه يذهب بالابصار ان البرق الذى يكون صفته ذلك لابد وأن يكون نارا عظيمة خالصة والنار ضد الماء والبرد فظهوره من البرد يقتضى ظهور الضد من الضد وذلك لا يمكن الا بقدرة قادر حكيم (المسئلة الثالثة) اختلف النحويون فى انك اذا قلت ذهبت بزيد الى الدار فهل يجب أن تكون ذاهبا معه الى الدار فالمنكرون احتجوا بهذه الآية أما قوله يقلب الله الليل والنهار فقيل فيه وجوه منها تعاقبهما ومجئ أحدهما بعد الآخر وهو كقوله وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة ومنها ولوج أحدهما فى الآخر وأخذ أحدهما من الآخر ومنها تغير أحوالهما فى البرد والحر وغيرهما ولا يمتنع فى مثل ذلك أن يريد تعالى معانى الكل لانه فى الانعام والاعتبار أولى وأقوى أما قوله تعالى ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار فالمعنى ان فيما تقدم ذكره دلالة لمن يرجع الى بصيرة فمن هذا الوجه يدل على ان الواجب على المرء أن يتدبر ويتفكر فى هذه الامور ويدل أيضا على فساد التقليد ❊ قوله تعالى (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله مايشاء ان

الله على كل شئ قدير لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) اعلم
أن هذا هو النوع الثالث من الدلائل على الوحدانية وذلك لانه لما استدل أولا باحوال
السماء والارض وثانيا بالآثار العلوية استدل ثالثا باحوال الحيوانات واعلم أن على
هذه الآية سؤالات (السؤال الاول) لم قال الله تعالى والله خلق كل دابة من ماء مع ان
كثيرا من الحيوانات غير مخلوقة من الماء أما الملائكة فهم أعظم الحيوانات عددا
وهم مخلوقون من النور وأما الجن فهم مخلوقون من النار وخلق الله آدم من التراب لقوله
خلقه من تراب وخلق عيسى من الريح لقوله فنفخنا فيه من روحنا وأيضا نرى ان كثيرا
من الحيوانات متولد لاعن النطفة (والجواب) من وجوه (أحدها) وهو الاحسن
ماقاله القفال وهو ان قوله من ماء صلة كل دابة وليس هو من صلة خلق والمعنى ان كل
دابة متولدة من الماء فهى مخلوقة لله تعالى (وثانيها) ان أصل جميع المخلوقات الماء على
ماروى أول ماخلق الله تعالى جوهرة فنظر اليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم من ذلك الماء
خلق النار والهواء والنور ولما كان المقصود من هذه الآية بيان أصل الخلقة وكان
الاصل الاول هو الماء لاجرم ذكره على هذا الوجه (وثالثها) ان المراد من الدابة التى تدب
على وجه الارض ومسكنهم هناك فيخرج عنه الملائكة والجن ولما كان الغالب جدا من
هذه الحيوانات كونهم مخلوقين من الماء اما لانها متولدة من النطفة واما لانها لاتعيش
الا بالماء لاجرم أطلق لفظ الكل تنزيلا للغالب منزلة الكل (السؤال الثانى) لم نكر الماء
فى قوله من ماء وجاء معرفا فى قوله وجعلنا من الماء كل شئ حى (والجواب) انما جاء
ههنا منكرا لان المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء يختص بتلك الدابة وانما جاء
معرفا فى قوله وجعلنا من الماء كل شئ حى لان المقصود هناك كونهم مخلوقين من هذا
الجنس وههنا بيان أن ذلك الجنس ينقسم الى أنواع كثيرة (السؤال الثالث) قوله فمنهم
ضمير العقلاء وكذلك قوله من فلم استعمله فى غير العقلاء (والجواب) انه تعالى ذكر
مالا يعقل مع من يعقل وهم الملائكة والانس والجن فغلب اللفظ اللائق بمن يعقل
لان جعل الشريف أصلا والخسيس تبعا أولى من العكس ويقال فى الكلام من
المقبلان لرجل و بعير (السؤال الرابع) لم سمى الزحف على البطن مشيا و بين صحة هذا
السؤال أن الصبى قد يوصف بانه يحبو ولا يقال انه يمشى وان زحف على حد ما تزحف
الحية (والجواب) هذا على سبيل الاستعارة كما قالوا فى الامر المستمر قد مشى هذا الامر
و يقال فلان لايتمشى له أمر أو على طريق المشاكلة لذلك الزاحف مع الماشين (السؤال
الخامس) انه لم يستوف القسمة لانا نجد مايمشى على أكثر من أربع مثل العناكب
والعقارب والرتيلات بل مثل الحيوان الذى له أربعة وأربعون رجلا الذى يسمى دخال
الاذن (والجواب) القسم الذى ذكرتم كالنادر فكان ملحقا بالعدم ولان الفلاسفة
يقرون بأن ماله قوائم كثيرة فاعتماده اذا مشى على أربع جهاته لاغير فكانه يمشى على

لكونه اظهر دلائله (منكم) أى من الاحرار (ثلاث مرات) أى ثلاثة اوقات فى اليوم والليلة والتعبير عنها
بالمرات للايذان بان مدار وجوب الاستئذان مقارنة تلك الاوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين
لا انفسها (من قبل
صلاة الفجر) لظهور
أنه وقت القيام من
المضاجع وطرح ثياب
النوم ولبس ثياب اليقظة
ومحله النصب على أنه
بدل من ثلاث مرات
أو الرفع على أنه خبر
لمبتدأ محذوف أى أحدها
من قبل الخ (وحين
تضعون ثيابكم) أى
ثيابكم التى تلبسونها
فى النهار وتخلعونها
لاجل القيلولة وقوله
تعالى (من الظهيرة)
وهى شدة الحر عند
انتصاف النهار بيان
للحين والتصريح بمدار
الامر أعنى وضع الثياب
فى هذا الحين دون الاول
والآخر لما أن التجرد
عن الثياب فيه لاجل
القيلولة لقلة زمانها
كما ينبئ عنها ايراد الحين
مضافا الى فعل حادث
منقض ووقوعها فى
النهار الذى هو مئنة
لكثرة الورود والصدور
ومظنة لظهور الاحوال
و بروز الامور ليس من
التحقق والاطراد بمنزلة
مافى الوقتين المذكورين
فان تحقق التجرد واطراده فيهما أمر معروف لايحتاج الى التصريح به (ومن بعد صلاة العشاء) ضرورة أنه
وقت التجرد

عن اللبس والالتحاف باللحاف وليس المراد بالقبلية والبعدية المذكورتين مطلقهما المتحقق فى الوقت الممتد المتخلل
بين الصلاتين كما فى قوله تعالى وان كنت من قبله ﴿ ٤٢٢ ﴾ لمن الغافلين وقوله تعالى من بعد أن نزغ الشيطان
بينى وبين اخوتى بل مايعرض منهما لطرفى ذلك الوقت الممتد المتصلين بالصلاتين المذكورتين اتصالا عاديا وقوله تعالى (ثلاث عورات) خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى (لكم) متعلق بمحذوف هوصفة لثلاث عورات أى كائنة لكم والجملة استئناف مسوق لبيان علة وجوب الاستيذان أى هن ثلاثة أوقات يختل فيها التستر عادة والعورة فى الاصل هو الخلل غلب فى الخلل الواقع فيما يهم حفظه و يعتنى بستره أطلقت على الاوقات المشتملة عليها مبالغة كأنها نفس العورة وقرئ ثلاث عورات بالنصب بدلا من ثلاث مرات (ليس عليكم ولا عليهم) أى على المماليك والصبيان (جناح) أى اثم فى الدخول بغير استئذان لعدم مايوجبه من مخالفة الامر والاطلاع على العورات (بعدهن) أى بعد كل واحدة من
تلك العورات الثلاث وهى الاوقات المتخللة بين كل اثنين منهن وايرادها بعنوان البعدية ﴿ ومنه

أربع ولان قوله تعالى يخلق الله مايشاء كالتنبيه على سائر الاقسام (السؤال السادس) لم جاءت الاجناس الثلاثة على هذا الترتيب (والجواب) قدقدم ماهوأعجب وهو الماشى بغيرآلة مشى من أرجل أوقوائم ثم الماشى على رجلين ثم الماشى على أربع واعلم أن قوله يخلق الله مايشاء تنبيه على ان الحيوانات كما اختلفت بحسب كيفية المشى فكذا هى مختلفة بحسب أمور أخر فلنذكر ههنا بعض تلك التقسيمات (التقسيم الاول) الحيوانات قدتشترك فى أعضاء وقدتتباين بأعضاء أما الشركة فمثل اشتراك الانسان والفرس فى أن لهما لحما وعصبا وعظما وأما التباين فاما أن يكون فى نفس العضو أوفى صفته أما التباين فى نفس العضوفعلى وجهين (أحدهما) أن لايكون العضو حاصلا للآخر وان كانت أجزاؤه حاصلة للثانى كالفرس والانسان فان الفرس له ذنب والانسان ليس له ذنب ولكن أجزاء الذنب ليست الا العظم والعصب واللحم والجلد والشعر وكل ذلك حاصل للانسان (والثانى) أن لايكون ذلك العضو حاصلا للثانى لابذاته ولاباجزائه مثل أن للسلحفاة صدفا يحيط به وليس للانسان ذلك وكذا للسمك فلوس وللقنفذ شوك وليس شئ منها للانسان وأما التباين فى صفة العضو فاما أن يكون من باب الكمية أوالكيفية أوالوضع أوالفعل أوالانفعال أما الذى فى الكم فاما أن يتعلق بالمقدار مثل ان عين البوم كبيرة وعين العقاب صغيرة أوبالعدد مثل ان أرجل ضرب من العناكب ستة وأرجل ضرب آخر ثمانية أوعشرة والذى فى الكيف فكاختلافها فى الالوان والاشكال والصلابة واللين والذى فى الوضع فمثل اختلاف وضع ثدى الفيل فانه يكون قريبا من الصدر وثدى الفرس فانه عند السرة وأما الذى فى الفعل فمثل كون أذن الفيل صالحا للذب مع كونه آلة للسمع وليس كذلك فى الانسان وكون أنفه آلة للقبض دون أنف غيره وأما الذى فى الانفعال فمثل كون عين الخفاش سريعة التحير فى الضوء وعين الخطاف بخلاف ذلك (التقسيم الثانى) الحيوان اماأن يكون مائيا بمعنى ان مسكنه الاصلى هو الماء أوأرضيا أو يكون مائيا ثم يصير أرضيا أما الحيوانات المائية فتغير أحوالها من وجوه (الاول) انه اماأن يكون مكانه وغذاؤه ونفسه مائيا فله بدل التنفس فى الهواء التنشق المائى فهو يقبل الماء الى باطنه ثم يرده ولايعيش اذافارقه والسمك كله كذلك ومنه مامكانه وغذاؤه مائى ولكنه يتنفس من الهواء مثل السلحفاة المائية ومنه مامكانه وغذاؤه مائى وليس يتنفس ولايستنشق مثل أصناف من الصدف لاتظهر للهواء ولاتستدخل الماء الى باطنها (الوجه الثانى) الحيوانات المائية بعضها مأواها مياه الانهار الجارية و بعضها مياه البطائح مثل الضفادع و بعضها مأواها مياه البحر (الوجه الثالث) منها لجية ومنها شطية ومنها طينية ومنها صخرية (الوجه الرابع) الحيوان المتنقل فى الماء منه مايعتمد فى غوصه على رأسه وفى السباحة على أجنحته كالسمك ومنه مايعتمد فى السباحة على رجليه كالضفدع

ومنه مايمشى فى قعر الماء كالسرطان ومنه مايزحف مثل ضرب من السمك لاجناح له وكالدود أما الحيوانات البرية فتتغير أحوالها أيضا من وجهين (الاول) أن منها ماينتفس من طريق واحد كالفم والخيشوم ومنها مالا يتنفس كذلك بل على نحو آخر من مسامه مثل الزنبور والنحل (الثانى) أن الحيوانات الارضية منها ماله مأوى معلوم ومنها ما لامأواه كيف اتفق الا أن يلد فيقيم للحضانة واللواتى لها مأوى فبعضها مأواه شق و بعضها حفر و بعضها مأواه قلة رابية و بعضها مأواه وجه الارض (الثالث) الحيوان البرى كل طائر منه ذو جناح فانه يمشى برجليه ومن جملة ذلك ما مشيه صعب عليه كالخطاف الكبير الاسود والخفاش وأما الذى جناحه جلد أو غشاء فقد يكون عديم الرجل كضرب من الحيات الحبشية يطير (الرابع) الطير يختلف فبعضها يتعايش معا كالكراكى و بعضها يؤثر التفرد كالعقاب وجميع الجوارح التى تتنازع على الطعم لاحتياجها الى الاحتيال لتصيد و منا فستها فيه ومنها مايتعايش زوجا و يكون معا كالقطا ومنه مايجتمع تارة و ينفرد أخرى والحيوانات المنفردة قد تكون مدنية وقد تكون برية صرفة وقد تكون بستانية والانسان من بين الحيوان هو الذى لايمكنه أن يعيش وحده فان أسباب حياته ومعيشته تلتئم بالمشاركة المدنية والنحل والنمل و بعض الغرانيق يشارك الانسان فى ذلك لكن النحل والكراكى تطيع رئيسا واحدا والنمل له اجتماع ولا رئيس (الخامس) الطير منه آكل لحم ومنه لاقط حب ومنه آكل عشب وقد يكون لبعض الطير طعم معين كالنحل فان غذاءه زهر والعنكبوت فان غذاءه الذباب وقد يكون بعضه متفق الطعم (اما القسم الثالث) وهو الحيوان الذى يكون تارة مائيا وأخرى بريا فيقال انه حيوان يكون فى البحر و يعيش فيه ثم انه يبرز الى البر و يبقى فيه (التقسيم الثالث) الحيوان منه ماهو انسى بالطبع كالانسان ومنه ماهو انسى بالمولد كالهرة والفرس ومنه ماهو انسى بالقسر كالفهد ومنه مالا يأنس كالنمر والمستأنس بالقسر منه مايسرع استئناسه و يبقى مستأنسا كالفيل ومنه مايبطئ كالاسد و يشبه أن يكون من كل نوع صنف انسى وصنف وحشى حتى من الناس (التقسيم الرابع) من الحيوان ماهو مصوت ومنه مالا صوت له وكل مصوت فانه يصير عند الاغتلام وحركة شهوة الجماع أشد تصويتا الا الانسان وأيضا لبعض الحيوان شبق يشتد كل وقت كالديك ومنه عفيف له وقت معين (التقسيم الخامس) بحسب الاخلاق بعض الحيوانات هادئ الطبع قليل الغضب مثل البقرة و بعضه شديد الجهل حاد الغضب كالخنزير البرى و بعضها حليم خدوع كالبعير و بعضها ردئ الحركات مغتال كالحية و بعضها جرئ قوى شهم كبير النفس كريم الطبع كالاسد ومنها قوى مغتال وحشى كالذئب و بعضها محتال مكار ردئ الحركات كالثعلب و بعضها غضوب شديد الغضب سفيه الا أنه ملق متودد كالكلب و بعضها شديد الكيس مستانس كالفيل والقرد و بعضها حسود متباه بجماله كالطاوس

على القراءتين مستأنفة مسوقة لتقرير ماقبلها بالطرد والعكس وقد جوز على القراءة الاولى كونها فى محل الرفع على أنها صفة أخرى لثلاث عورات وأما على القراءة الثانية فهى مستأنفة لا غير اذ لو جعلت صفة لثلاث عورات وهى بدل من ثلاث مرات لكان التقدير ليستأذنكم هؤلاء فى ثلاث عورات لا اثم فى ترك الاستيذان بعدهن وحيث كان انتفاء الاثم حينئذ مما لم يعلمه السامع الا بهذا الكلام لم يتسن ابرازه فى معرض الصفة بخلاف قراءة الرفع فان انتفاء الاثم حينئذ معلوم من صدر الكلام وقوله تعالى (طوافون عليكم) استئناف لبيان العذر المرخص فى ترك الاستئذان وهى المخالطة الضرورية وكثرة المداخلة وفيه دليل على تعليل الاحكام وكذا فى الفرق بين الاوقات الثلاثة و بين غيرها بكونها عورات (بعضكم على بعض) أى بعضكم طائف على بعض طوافا كثيرا أو بعضكم يطوف على بعض (كذلك) اشارة

الى مصدر الفعل الذى بعده ومافيه من معنى البعد لمامر مرارا من تفخيم شأن المشار اليه والايذان بعد منزلته وكونه من الوضوح بمنزلة المشار اليه حسا أى مثل ذلك ﴿ ٤٢٤ ﴾ التبيين (يبين الله لكم الآيات) الدالة على الاحكام أى ينزلها بينة واضحة الدلالات عليها لا أنه تعالى يبينها بعد أن لم تكن كذلك والكاف مقحمة وقدمر تفصيله فى قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا ولكم متعلق بيبين وتقديمه على المفعول الصريح لمامر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر وقيل يبين علل الاحكام وليس بواضح مع أنه مؤد الى تخصيص الآيات بما ذكر ههنا (والله عليم) مبالغ فى العلم بجميع المعلومات فيعلم أحوالكم (حكيم) فى جميع أفاعيله فيشرع لكم ما فيه صلاح أمركم معاشا ومعادا (واذا بلغ الاطفال منكم الحلم) لما بين فيما مر آنفا حكم الاطفال فى أنه لاجناح عليهم فى ترك الاستئذان فيما عدا الاوقات الثلاثة عقب ببيان حالهم بعد البلوغ دفعا لما عسى يتوهم أنهم وان كانوا اجانب ليسوا كسائر الاجانب بسبب اعتيادهم الدخول أى اذا بلغ الاطفال الاحرار الاجانب

و بعضها شديد التحفظ كالجمل والحمار (التقسيم السادس) من الحيوان ماتناسله بان تلد أنثاه حيوانا و بعضها ماتناسله بان تلد أنثاه دودا كالنحل والعنكبوت فانها تلد دودا ثم ان أعضاءه تستكمل بعد و بعضها تناسله بان تبيض أنثاه بيضا واعلم أن العقول قاصرة عن الاحاطة باحوال أصغر الحيوانات على سبيل الكمال ووجه الاستدلال بها على الصانع ظاهر لانه لوكان الامر بتركيب الطبائع الاربع فذلك بالنسبة الى الكل على السوية فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات باعضائها وقواها ومقادير أبدانها وأعمارها وأخلاقها لابدوأن يكون بتدبير مدبر قاهر حكيم سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون وأحسن كلام فى هذا الموضع قوله سبحانه يخلق الله مايشاء ان الله على كل شئ قدير لانه هو القادر على الكل والعالم بالكل فهو المطلع على أحوال هذه الحيوانات فأى عقل يقف عليها وأى خاطر يصل الى ذرة من أسرارها بل هو الذى يخلق مايشاء كما يشاء ولا يمنعه منه مانع و لا دافع وأما قوله لقد أنزلنا آيات مبينات فالاولى حمله على كل الادلة والعبر لما كان القرآن كالمشتمل على كل ذلك صح أن يكون هو المراد أما قوله والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم فاستدلال أصحابنا به كما تقدم (والجواب) أجاب القاضى عنه بأن المراد يهدى من بلغه حد التكليف دون غيره أو يكون المراد من أطاعه واستحق الثواب فيهديه الى الجنة على ماتقدم فى نظائره وجوابنا عن هذا الجواب أيضا كما تقدم فى نظائره والله أعلم ۞ قوله تعالى (و يقولون آمنا بالله و بالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون) اعلم أنه سبحانه لماذكر دلائل التوحيد أتبعه بذم قوم اعترفوا بالدين بالسنتهم ولكنهم لم يقبلوه بقلوبهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال مقاتل نزلت هذه الآية فى بشر المنافق وكان قد خاصم يهوديا فى أرض وكان اليهودى يجره الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهما وجعل المنافق يجره الى كعب بن الاشرف و يقول ان محمدا يحيف علينا وقد مضت قصتهما فى سورة النساء وقال الضحاك نزلت فى المغيرة بن وائل كان بينه و بين على ابن ابى طالب أرض فتقاسما فوقع الى على منها مالا يصيبه الماء الا بمشقة فقال المغيرة بعنى أرضك فباعها اياه وتقابضا فقيل للمغيرة أخذت سبخة لا ينالها الماء فقال لعلى اقبض أرضك فانما اشتريتها ان رضيتها ولم أرضها فلا ينالها الماء فقال على بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك ودعاه الى أن يخاصمه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المغيرة أما محمد فلست آتيه ولا أحاكم اليه فانه يبغضنى وأنا أخاف أن يحيف على فنزلت هذه الآية وقال الحسن نزلت هذه الآية فى المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان و يسرون الكفر (المسئلة

الثانية) قوله و يقولون آمنا الى قوله وما أولئك بالمؤمنين يدل على ان الايمان لا يكون بالقول اذ لو كان به لما صح أن ينفي كونهم مؤمنين وقد فعلوا ما هو ايمان في الحقيقة فان قيل انه تعالى حكى عن كلهم انهم يقولون آمنا ثم حكى عن فريق منهم التولي فكيف يصح ان يقول في جميعهم وما أولئك بالمؤمنين مع ان الذي تولى منهم هو البعض قلنا ان قوله وما أولئك بالمؤمنين راجع الى الذين تولوا لا الى الجملة الاولى وأيضا فلو رجع الى الاول يصح ويكون معنى قوله ثم يتولى فريق منهم أي يرجع هذا الفريق الى الباقين منهم فيظهر بعضهم لبعض الرجوع عما أظهروه ثم بين سبحانه أنهم اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وهذا ترك للرضا بحكم الرسول ونبه بقوله تعالى وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين على انهم انما يعرضون متى عرفوا الحق لغيرهم أو شكوا فاما اذا عرفوه لانفسهم عدلوا عن الاعراض بل سارعوا الحكم واذعنوا ببذل الرضا وفي ذلك دلالة على انه ليس بهم اتباع الحق وانما يريدون النفع المعجل وذلك أيضا نفاق أما قوله تعالى أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ففيه سؤالات (السؤال الاول) كلمة أم للاستفهام وهو غير جائز على الله تعالى (والجواب) اللفظ استفهام ومعناه الخبر كما قال جرير ﴿ ألستم خير من ركب المطايا ﴾ (السؤال الثاني) انهم لو خافوا أن يحيف الله عليهم فقد ارتابوا في الدين واذا ارتابوا ففي قلوبهم مرض فالكل واحد فاي فائدة في التعديد (الجواب) قوله أفي قلوبهم مرض اشارة الى النفاق وقوله أم ارتابوا اشارة الى أنه حدث هذا الشك والريب بعد تقرير الاسلام في القلب وقوله أم يخافون أن يحيف الله عليهم اشارة الى أنهم بلغوا في حب الدنيا الى حيث يتركون الدين بسببه (السؤال الثالث) هب ان هذه الثلاثة متغايرة ولكنها متلازمة فكيف أدخل عليها كلمة أم (الجواب) الاقرب أنه تعالى ذمهم على كل واحد من هذه الاوصاف فكان في قلوبهم مرض وهو النفاق وكان فيها شك وارتياب وكانوا يخافون الحيف من الرسول عليه الصلاة والسلام وكل واحد من ذلك كفر ونفاق ثم بين تعالى بقوله بل أولئك هم الظالمون بطلان ما هم عليه لان الظلم يتناول كل معصية كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم اذ المرء لا يخلو من أن يكون ظالما لنفسه أو ظالما لغيره ويمكن أن يقال أيضا لما ذكر تعالى في الاقسام كونهم خائفين من الحيف أبطل ذلك بقوله بل أولئك هم الظالمون أي لا يخافون أن يحيف الرسول عليه الصلاة والسلام عليهم لمعرفتهم بأمانته وصيانته وانما هم ظالمون يريدون ان يظلموا من له الحق عليهم وهم له جحود وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يأبون المحاكمة اليه ﴿ قوله تعالى (انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة

(فليستأذنوا) اذا ارادوا الدخول عليكم وقوله تعالى (كما استأذن الذين من قبلهم) في حيز النصب على أنه نعت لمصدر مؤكد للفعل السابق والموصول عبارة عمن قيل لهم لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا الآية وصفهم بكونهم قبل هؤلاء باعتبار ذكرهم لا باعتبار بلوغهم قبل بلوغهم كما قيل لما أن المقصود بالتشبيه بيان كيفية استئذان هؤلاء وزيادة ايضاحه ولا يتأتى ذلك الا بتشبيهه باستئذان المعهودين عند السامع ولا ريب في أن بلوغهم قبل بلوغ هؤلاء مما لا يخطر ببال أحد وان كان الامر كذلك في الواقع وانما المعهود المعروف ذكرهم قبل ذكرهم أي فليستأذنوا استئذانا كائنا مثل استئذان المذكورين قبلهم بان يستأذنوا في جميع الاوقات ويرجعوا ان قيل لهم ارجعوا حسبما فصل فيما سلف (كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم) الكلام فيه كالذي سبق والتكرير

وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) اعلم ان تقدير النظم بلغ أيها الرسول وأطيعوه أيها المؤمنون فقد وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات أى الذين جمعوا بين الايمان والعمل الصالح أن يستخلفهم فى الارض فيجعلهم الخلفاء والغالبين والمالكين كما استخلف عليها من قبلهم فى زمن داود وسليمان عليهما السلام وغيرهما وانه يمكن لهم دينهم وتمكينه ذلك هوان يؤيدهم بالنصرة والاعزاز ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو أمنا بأن ينصرهم عليهم فيقتلوهم ويأمنوا بذلك شرهم فيعبدوننى آمنين لايشركون بى شيئا ولا يخافون فمن كفر أى من بعد هذا الوعد وارتد فأولئك هم الفاسقون واعلم ان هذه الآية مشتملة على بيان أكثر المسائل الاصولية الدينية فلنشر الى معاقدها (المسئلة الاولى) قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم يدل على أنه سبحانه متكلم لان الوعد نوع من أنواع الكلام والموصوف بالنوع موصوف بالجنس ولانه سبحانه ملك مطاع والملك المطاع لابد وأن يكون بحيث يمكنه وعد أوليائه ووعيد اعدائه فثبت انه سبحانه متكلم (المسئلة الثانية) الآية تدل على انه سبحانه يعلم الاشياء قبل وقوعها خلافا لهشام بن الحكم فانه قال لايعلمها قبل وقوعها ووجه الاستدلال به انه سبحانه أخبر عن وقوع شئ فى المستقبل اخبارا على التفصيل وقد وقع المخبر مطابقا للخبر ومثل هذا الخبر لايصح الا مع العلم (المسئلة الثالثة) الآية تدل على انه سبحانه حى قادر على جميع الممكنات لانه قال ليستخلفنهم فى الارض وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا وقد فعل كل ذلك وصدور هذه الاشياء لايصح الا من القادر على كل المقدورات (المسئلة الرابعة) الآية تدل على انه سبحانه هو المستحق للعبادة لانه قال يعبدوننى وقالت المعتزلة الآية تدل على أن فعل الله تعالى معلل بالغرض لان المعنى لكى يعبدونى وقالوا أيضا الآية دالة على انه سبحانه يريد العبادة من الكل لان من فعل فعلا لغرض فلابد وأن يكون مريدا لذلك الغرض (المسئلة الخامسة) دلت الآية على انه تعالى منزه عن الشريك لقوله لايشركون بى شيئا وذلك يدل على نفى الاله الثانى وعلى انه لايجوز عبادة غير الله تعالى سواء كان كوكبا كما تقوله الصابئة أو صنما كما تقوله عبدة الاوثان (المسئلة السادسة) دلت الآية على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لانه أخبر عن الغيب فى قوله ليستخلفنهم فى الارض وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا وقد وجد هذا المخبر موافقا للخبر ومثل هذا الخبر معجز والمعجز دليل الصدق فدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم (المسئلة السابعة) دلت الآية على ان العمل الصالح خارج عن مسمى الايمان خلافا للمعتزلة لانه عطف العمل الصالح على الايمان والمعطوف خارج عن المعطوف عليه (المسئلة الثامنة) دلت الآية على امامة الأئمة الاربعة وذلك لانه تعالى وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الحاضرين فى زمان محمد صلى الله عليه وسلم

من الترهيب ما لا يخفى كانت هؤلاء الطوائف يتحرجون من مؤاكلة الاصحاء حذارا من استقذارهم اياهم وخوفا من تأذيهم بافعالهم وأوضاعهم فان الاعمى ربما سبقت يده الى ما سبقت اليه عين اكيله وهو لايشعر به والاعرج يتفسح فى مجلسه فيأخذ أكثر من موضعه فيضيق على جليسه والمريض لايخلو عن حالة تؤذى قرينه وقيل كانوا يدخلون على الرجل لطلب العلم فاذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم الى بيوت آبائهم وأمهاتهم أو الى بعض من سماهم الله عز وجل فى الآية الكريمة فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون ذهب بنا الى بيت غيره ولعل أهله كارهون لذلك وكذا كانوا يتحرجون من الاكل من أموال الذين كانوا اذا خرجوا الى الغزو خلفوا هؤلاء الضعفاء فى بيوتهم ودفعوا اليهم مفاتيحها واذنوا لهم ان يأكلوا مما فيها مخافة ان لايكون

للتاكيد والمبالغة فى الامر بالاستئذان واضافة الآيات الى

ضمير الجلالة لتشريفها (والقواعد من النساء) أى العجائز اللاتى قعدن عن الحيض والحمل (اللاتى لا يرجون نكاحا) أى لا يطمعون فيه لكبرهن (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن) أى الثياب الظاهرة كالجلباب ونحوه والفاء فيه لان اللام فى القواعد بمعنى اللاتى أو للوصف بها (غير متبرجات بزينة) غير مظهرات لزينة مما أمر باخفائه فى قوله تعالى ولا يبدين زينتهن وأصل التبرج التكلف فى اظهار ما يخفى من قولهم سفينة بارجة لا غطاء عليها والبرج سعة العين بحيث يرى بياضها محيطا بسوادها كله الا أنه خص بكشف المرأة زينتها ومحاسنها للرجال (وان يستعففن) بترك الوضع (خير لهن) من الوضع لبعده من التهمة (والله سميع) مبالغ فى سمع جميع ما يسمع فيسمع ما يجرى بينهن وبين الرجال من المقاولة (عليم) فيعلم مقاصدهن وفيه

ان الله خبير بما تعملون قل اطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ماحمل وعليكم ما حملتم وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين

) اعلم أنه تعالى لما حكى قول المنافقين وما قالوه وما فعلوه أتبعه بذكر ما كان يجب أن يفعلوه وما يجب أن يسلكه المؤمنون فقال تعالى انما كان قول المؤمنين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الحسن قول المؤمنين بالرفع والنصب أقوى. لان أولى الاسمين بكونه اسما لكان أوغلهما فى التعريف وأن يقولوا أوغل لانه لا سبيل عليه للتنكير بخلاف قول المؤمنين (المسئلة الثانية) قوله انما كان قول المؤمنين معناه كذلك يجب أن يكون قولهم وطريقتهم اذا دعوا الى حكم كتاب الله ورسوله أن يقولوا سمعنا واطعنا فيكون اتباعهم اليه وانقيادهم له سمعا وطاعة ومعنى سمعنا اجبنا على تأويل قول المسلمين سمع الله لمن حمده أى قبل واجاب ثم قال ومن يطع الله ورسوله أى فيما ساءه وسره ويخشى الله فيما صدر عنه من الذنوب فى الماضى ويتقه فيما بقى من عمره فاولئك هم المفلحون وهذه الآية على ايجازها حاوية لكل ما ينبغى للمؤمنين أن يفعلوه أما قوله واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن أمرتهم ليخرجن فقال مقاتل من حلف بالله فقد أجهد فى اليمين ثم لما بين الله تعالى كراهية المنافقين لحكم رسول الله فقالوا والله لئن أمرتنا ان نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا ون أمرتنا بالجهاد جاهدنا ثم انه تعالى أمر رسوله أن ينهاهم عن هذا القسم بقوله قل لا تقسموا ولو كان قسمهم كما يجب لم يجز النهى عنه لان من حلف على القيام بالبر والواجب لا يجوز أن ينهى عنه واذا ثبت ذلك ثبت أن قسمهم كان لنفاقهم وأن باطنهم خلاف ظاهرهم ومن نوى الغدر لا الوفاء فقسمه لا يكون الا قبيحا أما قوله طاعة معروفة فهو اما خبر مبتدأ محذوف أى المطلوب منكم طاعة معروفة لا ايمان كاذبة أو مبتدأ خبره محذوف أى طاعة معروفة أمثل من قسمكم بما لا تصدقون فيه وقيل معناه دعوا القسم ولا تغتروا به وعليكم طاعة معروفة فتمسكوا بها وقرأ اليزيدى طاعة معروفة بالنصب على معنى أطيعوا طاعة ان الله خبير بما تعملون أى بصير لا يخفى عليه شئ من سرائركم وانه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم أما قوله قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ماحمل وعليكم ما حملتم فاعلم انه تعالى صرف الكلام عن الغيبة الى الخطاب على طريقة الالتفات وهو أبلغ فى تبكيتهم فان تولوا يعنى ان تولوا عن طاعة الله وطاعة رسوله فانما على الرسول ما حمل من تبليغ الرسالة وعليكم ما حملتم من الطاعة وان تطيعوه تهتدوا أى تصيبوا الحق وان عصيتموه فما على الرسول الا البلاغ المبين والبلاغ بمعنى التبليغ والمبين الواضح والموضح لما بكم اليه الحاجة وعن نافع انه قرأ فانما عليه ماحمل بفتح الحاء والتخفيف أى فعليه اثم ماحمل من المعصية ❊ قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات

ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم

وهو المراد بقوله ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وأن يمكن لهم دينهم المرضى وأن يبد لهم بعد الخوف أمنا ومعلوم أن المراد بهذا الوعد بعد الرسول هؤلاء لان استخلاف غيره لايكون الابعده ومعلوم انه لانبى بعده لانه خاتم الانبياء فاذن المراد بهذا الاستخلاف طريقة الامامة ومعلوم أن بعد الرسول الاستخلاف الذى هذا وصفه انما كان فى ايام أبى بكر وعمر وعثمان لان فى ايامهم كانت الفتوح العظيمة وحصل التمكين وظهور الدين والامن ولم يحصل ذلك فى أيام على رضى الله عنه لانه لم يتفرغ لجهاد الكفار لاشتغاله بمحاربة من خالفه من أهل الصلاة فثبت بهذا دلالة على صحة خلافة هؤلاء فان قيل الآية متروكة الظاهر لانها تقتضى حصول الخلافة لكل من آمن وعمل صالحا ولم يكن الامر كذلك نزلنا عنه لكن لم لايجوز أن يكون المراد من قوله ليستخلفنهم هوانه تعالى يسكنهم فى الارض ويمكنهم من التصرف لان المراد منه خلافة الله تعالى ومما يدل عليه قوله كما استخلف الذين من قبلهم واستخلاف من كان قبلهم لم يكن بطريق الامامة فوجب أن يكون الامر فى حقهم أيضا كذلك نزلنا عنه لكن ههنا مايدل على انه لايجوز حمله على خلافة رسول الله لان من مذهبكم انه عليه الصلاة والسلام لم يستخلف أحدا وروى عن على عليه السلام انه قال اتركم كما تركم رسول الله نزلنا عنه لكن لم لايجوز أن يكون المراد منه عليا عليه السلام والواحد قد يعبر عنه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم كقوله تعالى انا أنزلناه فى ليلة القدر وقال فى حق على عليه السلام والذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون نزلنا عنه ولكن نحمله على الأئمة الاثنى عشر (والجواب عن الاول) أن كلمة من للتبعيض فقوله منكم يدل على أن المراد بهذا الخطاب بعضهم (وعن الثانى) أن الاستخلاف بالمعنى الذى ذكرتموه حاصل لجميع الخلق فالمذكور ههنا فى معرض البشارة لابد وأن يكون مغايراله وأما قوله تعالى كما استخلف الذين من قبلهم فالذين كانوا قبلهم قد كانوا خلفاء تارة بسبب النبوة وتارة بسبب الامامة والخلافة حاصلة فى الصورتين (وعن الثالث) انه وان كان من مذهبنا انه عليه الصلاة والسلام لم يستخلف أحدا بالتعيين ولكنه قد استخلف بذكر الوصف والامر بالاختيار فلا يمتنع فى هؤلاء الأئمة الاربعة انه تعالى يستخلفهم وأن الرسول استخلفهم وعلى هذا الوجه قالوا فى أبى بكر ياخليفة رسول الله فالذى قيل انه عليه السلام لم يستخلف أريد به على وجه التعيين واذا قيل استخلف فالمراد على طريقة الوصف والامر (وعن الرابع) أن حمل لفظ الجمع على الواحد مجاز وهو خلاف الاصل (وعن الخامس) انه باطل لوجهين (أحدهما) قوله تعالى منكم يدل على ان هذا الخطاب كان مع الحاضرين وهؤلاء الائمة ماكانوا حاضرين (الثانى) انه تعالى وعدهم القوة والشوكة والنفاذ فى العالم ولم يوجد ذلك فيهم فثبت بهذا صحة امامة الأئمة الاربعة وبطل قول الرافضة الطاعنين على أبى بكر وعمر وعثمان وعلى بطلان قول الخوارج الطاعنين على عثمان وعلى ولنرجع الى التفسير أما قوله ليستخلفنهم

اذنهم عن طيب نفس منهم وكان غيرهؤلاء أيضا يتحرجون من الاكل فى بيوت غيرهم فقيل لهم ليس على الطوائف المعدودة (ولا على أنفسكم) أى عليكم وعلى من عيالكم فى الاحوال من المؤمنين حرج (ان تأكلوا) أى تأكلوا انتم وهم معكم وتعميم الخطاب للطوائف المذكورة أيضا يأباه ماقبله ومابعده فان الخطاب فيهما لغير أولئك الطوائف حتما (من بيوتكم) أى البيوت التى فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل فيها بيوت الاولاد لان بيتهم كبيته لقوله عليه الصلاة والسلام أنت ومالك لابيك وقوله عليه الصلاة والسلام ان أطيب مال الرجل من كسبه وان ولده من كسبه (أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم) وقرئ بكسر الهمزة والميم وبكسر الاولى وفتح الثانية (أو بيوت اخوانكم أو بيوت اخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت اخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ماملكتم مفاتحه) من البيوت التى تملكون

فلقائل أن يقول أين القسم المتلقى باللام والنون فى ليستخلفنهم قلنا هو محذوف تقديره وعدهم والله ليستخلفنهم أو نزل وعد الله فى تحققه منزلة القسم فتلقى بما يتلقى به القسم كأنه قال أقسم الله ليستخلفنهم أما قوله كما استخلف الذين من قبلهم يعنى كما استخلف هرون ويوشع وداود وسليمان وتقدير النظم ليستخلفنهم استخلافا كاستخلاف من قبلهم من هؤلاء الانبياء عليهم السلام وقرئ كما استخلف بضم التاء وكسر اللام وقرئ بالفتح أما قوله تعالى وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم فالمعنى انه يثبت لهم دينهم الذى ارتضى لهم وهو الاسلام وقرأ ابن كثير وعاصم ويعقوب وليبدلنهم من الابدال بالتخفيف والباقون بالتشديد وقد ذكرنا الفرق بينهما فى قوله تعالى بدلناهم جلودا غيرها أما قوله يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ففيه دلالة على ان الذين عناهم لا يتغيرون عن عبادة الله تعالى الى الشرك وقال الزجاج يجوز أن يكون فى موضع الحال على معنى وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات فى حال عبادتهم واخلاصهم لله ليفعلن بهم كيت وكيت ويجوز أن يكون استئنافا على طريق الثناء عليهم أما قوله ومن كفر بعد ذلك أى جحد حق هذه النعم فأولئك هم الفاسقون أى العاصون * قوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكوة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض ومأواهم النار ولبئس المصير) أما تفسير اقامة الصلاة وايتاء الزكاة ولفظة لعل ولفظة الرحمة فالكل قد تقدم مرارا وأما قوله لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض فالمعنى لا تحسبن يا محمد الذين كفروا سابقين فائتين حتى يعجزوننى عن ادراكهم وقرئ لا يحسبن بالياء المعجمة من تحتها وفيه أوجه (أحدها) أن يكون معجزين فى الارض هما المفعولان والمعنى لا يحسبن الذين كفروا أحدا يعجز الله فى الارض حتى يطمعوهم فى مثل ذلك (وثانيها) أن يكون فيه ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم لتقدم ذكره فى قوله وأطيعوا الرسول والمعنى لا يحسبن الذين كفروا معجزين (وثالثها) أن يكون الاصل ولا يحسبنهم الذين كفروا معجزين ثم حذف الضمير الذى هو المفعول الاول وأما قوله ومأواهم النار ولبئس المصير فقال صاحب النظم لا يحتمل أن يكون متصلا بقوله لا تحسبن لان ذلك نفى وهذا ايجاب فهو اذن معطوف بالواو على مضمر قبله تقديره لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض بل هم مقهورون ومأواهم النار * قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح ان يضعن ثيابهن غير

مفتح وجمع المفتاح مفاتيح وقرئ مفتاحه (أو صديقكم) أى أو بيوت صديقكم وان لم يكن بينكم وبينهم قرابة نسبية فانهم أرضى بالتبسط واسر به من كثير من الاقرباء روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان الصديق أكبر من الوالدين ان الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والامهات بل قالوا فما لنا من شافعين ولا صديق حميم والصديق يقع على الواحد والجمع كالخليط والقطين واضرابهما وهذا فيما اذا علم رضاء صاحب البيت بصريح الاذن أو بقرينة دالة عليه ولذلك خصص هؤلاء بالذكر لاعتيادهم التبسط فيما بينهم وقوله تعالى (ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا أو أشتاتا) كلام مستأنف مسوق لبيان حكم آخر من جنس ما بين قبله حيث كان فريق من المؤمنين كبنى ليث بن عمرو من كنانة يتحرجون أن يأكلوا

متبرجات بزينة وان يستعففن خيرلهن والله سميع عليم) اعلم ان فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال القاضى قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم وان كان ظاهره الرجال فالمراد به الرجال والنساء لان التذكير يغلب على التأنيث فاذالم يميز فيدخل تحت قوله ياأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الكل و يبين ذلك قوله تعالى الذين ملكت أيمانكم لان ذلك يقال فى الرجال والنساء والاولى عندى ان الحكم ثابت فى النساء بقياس جلى وذلك لان النساء فى باب حفظ العورة أشدحالا من الرجال فهذا الحكم لماثبت فى الرجال فثبوته فى النساء بطريق الاولى كماانثبت حرمة الضرب بالقياس الجلى على حرمة التأفيف (المسئلة الثانية) ظاهر قوله الذين ملكت أيمانكم يدخل فيه البالغون والصغار وحكى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان المراد الصغار واحتجوابان الكبير من المماليك ليس له أن ينظر من المالك الاالى مايجوز للحر أن ينظر اليه قال ابن المسيب لايغرنكم قوله وماملكت أيمانكم لاينبغى للمرأة أن ينظر عبدها الى قرطها وشعرها وشئ من محاسنها وقال آخرون بل البالغ من المماليك له أن ينظر الى شعر مالكته وماشاكله وظاهر الآية يدل على اختصاص عبيد المؤمنين والاطفال من الاحرار باباحة ماحظره الله تعالى من قبل على جماعة المؤمنين بقوله لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم فانه أباح لهم الافى الاوقات الثلاثة وجوزدخولهم مع من لم يبلغ بغيراذن ودخول الموالى عليهم بقوله تعالى ليس عليكم ولاعليهم جناح بعدهن طوافون عليكم أى يطوف بعضكم على بعض فيماعدا الاوقات الثلاثة وأكدذلك بان أوجب على من بلغ الحلم الجرى على سنة من قبلهم من البالغين فى الاستيذان فى سائر الاوقات وألحقهم بمن دخل تحت قوله لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها (المسئلة الثالثة) قوله ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ان أريد به العبيد والاماء اذا كانوا بالغين فغير ممتنع أن يكون أمرا لهم فى الحقيقة وان أريد الذين لم يبلغوا الحلم لم يجز أن يكون أمرا لهم و يجب أن يكون أمر البالغين بأن يأمرهم بذلك ويبعثهم عليه كما أمرنا بامر الصبى وقدعقل الصلاة أن يفعلها لاعلى وجه التكليف لهم لكنه تكليف لنا لمافيه من المصلحة لنا ولهم بعد البلوغ ولايبعد أن يكون لفظ الامروان كان فى الظاهر متوجها عليهم الاأنه يكون فى الحقيقة متوجها على المولى كقولك للرجل ليخفك أهلك وولدك فظاهر الامر لهم وحقيقة الامرله بفعل مايخافون عنده (المسئلة الرابعة) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث غلاما من الانصار الى عمر ليدعوه فوجده نائما فى البيت فدفع الباب وسلم فلم يستيقظ عمر فعاد ورد الباب وقام من خلفه وحركه فلم يستيقظ فقال الغلام اللهم أيقظه لى ودفع الباب ثم ناداه فاستيقظ وجلس ودخل الغلام فانكشف من عمرشئ وعرف عمرأن الغلام رأى ذلك منه فقال وددت ان الله نهى ابناءنا ونساءنا وخدمنا أن لايدخلوا علينافى هذه الساعات الاباذن ثم انطلق معه الى الرسول صلى

طعامهم منفردين وكان الرجل منهم لاياكل و يمكث يومه حتى يجد ضيفا ياكل معه فان لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيا وربماقعد الرجل والطعام بين يديه لايتناوله من الصباح الى الرواح وربماكانت معه الابل الحفل فلايشرب من البانها حتى يجد من يشاربه فاذا أمسى ولم يجد أحدا أكل وقيل كان الغنى منهم يدخل على الفقير من ذوى قرابته وصداقته فيدعوه الى طعامه فيقول انى اتحرج ان آكل معك وأناغنى وأنت فقير وقيل كان قوم من الانصار لاياكلون اذانزل بهم ضيف الامع ضيفهم فرخص لهم فى ان ياكلوا كيف شاؤا وقيل كانوا اذااجتمعوا لياكلوا طعاما عزلوا اللاعمى وأشباهه طعاما على حدة فبين الله تعالى ان ذلك ليس بواجب وقوله تعالى جميعاحال من فاعل تاكلوا واشتاتا عطف عليه داخل فى حكمه وهو جمع شت على انه صفة كالحق يقال أمرشت أى متفرق أوعلى انه فى الاصل مصدر

الله عليه وسلم فوجده قد نزل عليه يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم فحمد الله تعالى عمر عند ذلك فقال عليه السلام وما ذاك يا عمر فأخبره بما فعل الغلام فتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم من صنعه وتعرف اسمه ومدحه وقال ان الله يحب الحليم الحيي العفيف المتعفف ويبغض البذي الجرئ السائل الملحف فهذه الآية احدى الآيات المنزلة بسبب عمر وقال بعضهم نزلت في أسماء بنت أبي مرثد قالت انا لندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان في لحاف واحد وقيل دخل عليها غلام لها كبير في وقت كرهت دخوله فيه فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها فنزلت الآية (المسئلة الخامسة) قال ابن عمر ومجاهد قوله ليستأذنكم عني به الذكور دون الاناث لان قوله الذين ملكت أيمانكم صيغة الذكور لا صيغة الاناث وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي في الرجال والنساء يستأذنون على كل حال بالليل والنهار والصحيح انه يجب اثبات هذا الحكم في النساء لان الانسان كما يكره اطلاع الذكور على أحواله فقد يكره أيضا اطلاع النساء عليها ولكن الحكم يثبت في النساء بالقياس لا بظاهر اللفظ على ما قدمناه (المسئلة السادسة) من العلماء من قال الامر في قوله ليستأذنكم على الندب والاستحباب ومنهم من قال انه على الايجاب وهذا أولى لما ثبت ان ظاهر الامر للوجوب * اما قوله تعالى والذين لم يبلغوا الحلم منكم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن عمر الحلم بالسكون (المسئلة الثانية) اتفق الفقهاء على أن الاحتلام بلوغ واختلفوا اذا بلغ خمس عشرة سنة ولم يحتلم فقال أبو حنيفة رحمه الله لا يكون الغلام بالغا حتى يبلغ ثماني عشرة سنة ويستكملها وفي الجارية سبع عشرة سنة وقال الشافعي وأبو يوسف ومحمد رحمهم الله في الغلام والجارية خمس عشرة سنة قال أبو بكر الرازي قوله تعالى والذين لم يبلغوا الحلم منكم يدل على بطلان قول من جعل حد البلوغ خمس عشرة سنة اذا لم يحتلم لان الله تعالى لم يفرق بين من بلغها وبين من قصر عنها بعد أن لا يكون قد بلغ الحلم وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم من جهات كثيرة رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق وعن الصبي حتى يحتلم ولم يفرق بين من بلغ خمس عشرة سنة وبين من لم يبلغها فان قيل فهذا الكلام يبطل التقدير أيضا بثماني عشرة سنة أجاب بانا قد علمنا بان العادة في البلوغ خمس عشرة سنة وكل ما كان مبنيا على طريق العادات فقد تجوز الزيادة فيه والنقصان منه وقد وجدنا من بلغ في ثنتي عشرة سنة وقد بينا ان الزيادة على المعتاد جائزة كالنقصان منه فجعل أبو حنيفة رحمه الله الزيادة كالنقصان وهي ثلاث سنين وقد حكي عن أبي حنيفة رحمه الله تسع عشرة سنة للغلام وهو محمول على استكمال ثماني عشرة سنة والدخول في التاسعة عشرة حجة الشافعي رحمه الله ما روى ابن عمر أنه عرض على النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وله اربع عشرة سنة فلم يجزه وعرض عليه يوم الخندق وله خمس عشرة سنة فأجازه اعترض أبو بكر الرازي عليه فقال هذا الخبر مضطرب

وصف به مبالغة أي ليس عليكم جناح أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين (فإذا دخلتم) شروع في بيان الآداب التي تجب رعايتها عند مباشرة ما رخص فيه اثر بيان الرخصة فيه (بيوتا) أي من البيوت المذكورة (فسلموا على أنفسكم) أي على أهلها الذين بمنزلة أنفسكم لما بينكم وبينهم من القرابة الدينية والنسبية الموجبة لذلك (تحية من عند الله) أي ثابتة بأمره مشروعة من لدنه ويجوز أن يكون صلة للتحية فانها طلب الحياة التي هي من عنده تعالى وانتصابها على المصدرية لانها بمعنى التسليم (مباركة) مستتبعة لزيادة الخير والثواب ودوامهما (طيبة) تطيب بها نفس المستمع وعن أنس رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال متى لقيت أحدا من أمتي فسلم عليه يطل عمرك واذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فانها صلاة الابرار الاوابين (كذلك يبين الله لكم الآيات) تكرير لتأكيد

لان أحدا كان فى سنة ثلاث والخندق فى سنة خمس فكيف يكون بينهما سنة ثم مع ذلك فان الاجازة فى القتال لاتعلق لها بالبلوغ لانه قد يرد البالغ لضعفه و يؤذن غير البالغ لقوته واطاقته حمل السلاح و يدل على ذلك انه عليه الصلاة والسلام ماسأله عن الاحتلام والسن (البحث الثانى) اختلفوا فى الانبات هل يكون بلوغا فابو حنيفة وأصحابه ماجعلوه بلوغا والشافعى رحمه الله جعله بلوغا قال أبو بكر الرازى رحمه الله ظاهر قوله والذين لم يبلغوا الحلم منكم ينفى أن يكون الانبات بلوغا اذا لم يحتلم كما نفى كون خمس عشرة سنة بلوغا وكذلك قوله عليه السلام وعن الصبى حتى يحتلم حجة الشافعى رحمه الله تعالى ماروى عطية القرظى أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بقتل من أنبت من قريظة واستحياء من لم ينبت قال فنظروا الى فلم أكن قد أنبت فاستبقانى قال أبو بكر الرازى هذا الحديث لايجوز اثبات الشرع به و بمثله لوجوه (أحدها) ان عطية هذا مجهول لايعرف الا من هذا الخبر لاسيما مع اعتراضه على الآية والخبر فى نفى البلوغ الا بالاحتلام (وثانيها) أنه مختلف الالفاظ ففى بعضها انه أمر بقتل من جرت عليه الموسى وفى بعضها من اخضر عذاره ومعلوم أنه لايبلغ هذه الحال الا وقد تقدم بلوغه ولايكون قد جرت عليه الموسى الا وهو رجل كبير فجعل الانبات وجرى الموسى عليه كناية عن بلوغ القدر الذى ذكرنا من السن وهى ثمانى عشرة سنة فاكثر (وثالثها) ان الانبات يدل على القوة البدنية فالامر بالقتل لذلك لا للبلوغ قال الشافعى رحمه الله هذه الاحتمالات مردودة بماروى ان عثمان بن عفان رضى الله عنه سئل عن غلام فقال هل اخضر عذاره وهذا يدل على ان ذلك كان كالامر المتفق عليه فيما بين الصحابة (البحث الثالث) يروى عن قوم من السلف انهم اعتبروا فى البلوغ أن يبلغ الانسان فى طوله خمسة أشبار روى عن على عليه السلام انه قال اذا بلغ الغلام خمسة أشبار فقد وقعت عليه الحدود و يقتص له و يقتص منه وعن ابن سيرين عن أنس قال أتى أبو بكر بغلام قد سرق فأمر به فشبر فنقص أنملة فخلى عنه وهذا المذهب أخذ به الفرزدق فى قوله

ما زال مذ عقدت يداه ازاره ❊ وسما فادرك خمسة الاشبار

وأكثر الفقهاء لايقولون بهذا المذهب لان الانسان قد يكون دون البلوغ و يكون طويلا وفوق البلوغ و يكون قصيرا فلاعبرة به (المسئلة الثالثة) قال أبو بكر الرازى دلت هذه الآية على ان من لم يبلغ وقد عقل يؤمر بفعل الشرائع و ينهى عن ارتكاب القبائح فان الله أمرهم بالاستئذان فى هذه الاوقات وقال عليه السلام مروهم بالصلاة وهم ابناء سبع واضربوهم عليها وهم ابناء عشر وعن ابن عمر رضى الله عنه قال نعلم الصبى الصلاة اذا عرف يمينه من شماله وعن زين العابدين انه كان يامر الصبيان أن يصلوا الظهر والعصر جميعا والمغرب والعشاء جميعا فقيل له يصلون الصلاة لغير وقتها فقال هذا خير من أن يتهاونوا عنها وعن ابن مسعود رضى الله عنه اذا بلغ الصبى عشر سنين كتبت له الحسنات ولاتكتب عليه السيآت حتى يحتلم ثم قال أبو بكر الرازى انما يؤمر بذلك على

الاحكام المحتمة به وتفخيمها (لعلكم تعقلون) أى مافى تضاعيفها من الشرائع والاحكام وتعملون بموجبها وتحوزون بذلك سعادة الدارين وفى تعليل هذا التبيين بهذه الغاية القصوى بعد تذييل الاولين بما يوجبهما من الجزالة مالا يخفى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله) استئناف جئ به فى اواخر الاحكام السابقة تقريرا لها وتأكيدا لوجوب مراعاتها

وجه التعليم وليعتاده ويتمرن عليه فيكون أسهل عليه بعد البلوغ وأقل نفورا منه وكذلك يجنب شرب الخمر ولحم الخنزير وينهى عن سائر المحظورات لانه لولم يمنع منه فى الصغر لصعب عليه الامتناع بعد الكبر وقال الله تعالى قوا أنفسكم وأهليكم نارا قيل فى التفسير أدبوهم وعلموهم (المسئلة الرابعة) قال الاخفش يقال فى الحلم حلم الرجل بفتح اللام يحلم حلما بضم اللام ومن الحلم حلم بضم اللام يحلم حلما بكسر اللام أما قوله تعالى ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ثلاث مرات يعنى ثلاث أوقات لانه تعالى فسرهن بالاوقات وانما قيل ثلاث مرات للاوقات لانه أراد مرة فى كل وقت من هذه الاوقات لانه يكفيهم أن يستأذنوا فى كل واحد من هذه الاوقات مرة واحدة ثم بين الاوقات فقال من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء يعنى الغالب فى هذه الاوقات الثلاثة أن يكون الانسان متجردا عن الثياب مكشوف العورة (المسئلة الثانية) قوله ثلاث عورات قرأ أهل الكوفة ثلاث بالنصب على البدل من قوله ثلاث مرات وكانه قال فى أوقات ثلاث عورات لكم فلما حذف المضاف أعرب المضاف اليه باعرابه وقراءة الباقين بالرفع أى هى ثلاث عورات فارتفع لانه خبر مبتدأ محذوف قال القفال فكان المعنى ثلاث انكشافات والمراد وقت الانكشاف (المسئلة الثالثة) العورة الخلل ومنه أعور الفارس وأعور المكان والاعور المختل العين فسمى الله تعالى كل واحدة من تلك الاحوال عورة لان الناس يختل حفظهم وتسترهم فيها (المسئلة الرابعة) الآية دالة على ان الواجب اعتبار العلل فى الاحكام اذا أمكن لانه تعالى نبه على العلة فى هذه الاوقات الثلاثة من وجهين (أحدهما) بقوله تعالى ثلاث عورات لكم (والثانى) بالتنبيه على الفرق بين هذه الاوقات الثلاثة و بين ما عداها بانه ليس ذاك الا لعلة التكشف فى هذه الاوقات الثلاثة وانه لا يؤمن وقوع التكشف فيها وليس كذلك ما عدا هذه الاوقات (المسئلة الخامسة) من الناس من قال ان قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها فهذا يدل على ان الاستئذان واجب فى كل حال وصار ذلك منسوخا بهذه الآية فى غير هذه الاحوال الثلاثة ومن الناس من قال الآية الاولى أريد بها المكلف لانه خطاب لمن آمن وما ذكره الله تعالى فى هذه الآية فهو فيمن ليس بمكلف فقيل فيه ان فى بعض الاحوال لا يدخل الا باذن وفى بعضها بغير اذن فلا وجه لحمل ذلك على النسخ لان ما تناولته الآية الاولى من المخاطبين لم تتناوله الآية الثانية أصلا فان قيل بتقدير ان يكون قوله تعالى الذين ملكت أيمانكم يدخل فيه من قد بلغ فالنسخ لازم قلنا لا يجب ذلك أيضا لان قوله يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم لا يدخل الا من يملك البيوت لحق هذه الاضافة واذا صح ذلك لم يدخل تحته العبيد والاماء فلا يجب النسخ أيضا على هذا القول فاما ان حمل

الواقع خبرا للمبتدأ مع تضمنه له قطعا تقريرا لما قبله وتمهيدا لما بعده وايذانا بانه حقيق بان يجعل قرينا للايمان بهما منتظما فى سلكه فقوله تعالى (واذا كانوا معه على أمر جامع) الخ معطوف على آمنوا داخل معه فى حيز الصلة أى انما الكاملون فى الايمان الذين آمنوا بالله ورسوله عن صميم قلوبهم وأطاعوهما فى جميع الاحكام التى من جملتها ما فصل من قبل من الاحكام المتعلقة بعامة أحوالهم المطردة فى الوقوع وأحوالهم الواقعة بحسب الاتفاق كما اذا كانوا معه عليه الصلاة والسلام على أمر مهم يجب اجتماعهم فى شانه كالجمعة والاعياد والحروب وغيرها من الامور الداعية الى اجتماع اولى الآراء والتجارب ووصف الامر بالجمع للمبالغة وقرئ أمر جميع (لم يذهبوا) أى وتكميلا لها ببيان بعض آخر من جنسها وانما ذكر

الكلام على صغار المماليك فالقول فيه أبين (المسئلة السادسة) قال أبو حنيفة رحمه الله
لم يصر أحد من العلماء الى أن الامر بالاستئذان منسوخ وروى عطاء عن ابن عباس انه
قال ثلاث آيات من كتاب الله تركهن الناس ولا أرى أحدا يعمل بهن قال عطاء حفظت
اثنتين ونسيت واحدة وقرأ هذه الآية وقوله يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى
وذكر سعيد بن جبير ان الآية الثالثة قوله واذا حضر القسمة أولو القربى الآية أما قوله
تعالى ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض ففيه
سؤالات (السؤال الاول) أتقولون فى قوله ليس عليكم ولا عليهم جناح انه يقتضى
الاباحة على كل حال (الجواب) قد بينا ان ذلك هو فى الصغار خاصة فيباح لهم الدخول
للخدمة بغير الاذن فى غير الاوقات الثلاثة ومباح لنا تمكينهم من ذلك والدخول عليهم أيضا
(السؤال الثانى) فهل يقتضى ذلك اباحة كشف العورة لهم (الجواب) لا وانما أباح الله
تعالى ذلك من حيث كانت العادة أن لا تكشف العورة فى غير تلك الاوقات فتى كشفت
المرأة عورتها مع ظن دخول الخدم اليها فذلك يحرم عليها فان كان الخادم ممن يتناوله
التكليف فيحرم عليه الدخول أيضا اذا ظن ان هناك كشف عورة فان قيل أليس من
الناس من جوز للبالغ من المماليك أن ينظر الى شعر مولاته قلنا من جوز ذلك أخرج
الشعر من أن يكون عورة لحق الملك كما يخرج من أن يكون عورة لحق الرحم اذ العورة
تنقسم ففيه ما يكون عورة على كل حال وفيه ما يختلف حاله بالاضافة فيكون عورة مع
الاجنبى غير عورة مع غيره على ما تقدم ذكره (السؤال الثالث) اتقولون هذه الاباحة
مقصورة على الخدم دون غيرهم (الجواب) نعم وفى قوله ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن
دلالة على ان هذا الحكم يختص بالصغار دون البالغين على ما تقدم ذكره وقد نص تعالى
على ذلك من بعد فقال واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من
قبلهم والمراد من تجدد منه البلوغ يجب أن يكون بمنزلة من تقدم بلوغه فى وجوب
الاستئذان فهذا معنى قوله كما استأذن الذين من قبلهم وقد يجوز أن يظن ظان ان من
خدم فى حال الصغر فاذا بلغ يجوز له ان لا يستأذن و يفارق حاله حال من لم يخدم ولم يملك
فبين تعالى انه كما حظر على البالغين الدخول الا بالاستئذان فكذلك على هؤلاء اذا بلغوا
وان تقدمت لهم خدمة أو ثبتت فيهم ملك لهن (السؤال الرابع) الامر بالاستئذان هل
هو مختص بالمملوك ومن لم يبلغ الحلم أو يتناول الكل من ذوى الرحم والاجنبى وأيضا
لو كان المملوك من ذوى الرحم هل يجب عليه الاستئذان (الجواب) أما الصورة الاولى
ففيه اما العموم قوله تعالى لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا أو بالقياس
على المملوك ومن لم يبلغ الحلم بطريق الاولى وأما الصورة الثانية فيجب عليه الاستئذان
لعموم الآية (السؤال الخامس) ما محل ليس عليكم (الجواب) اذا رفعت ثلاث
عورات كان ذلك فى محل الرفع على الوصف والمعنى هن ثلاث عورات مخصوصة

بالاستئذان

من المجمع مع كون ذلك الامر مما لا يوجب
حضورهم لا محالة كما
عند اقامة الجمعة ولقاء
العدو بل يسوغ التخلف
عنه (حتى يستأذنوه)
عليه الصلاة والسلام
فى الذهاب لا على أن
نفس الاستئذان غاية
لعدم الذهاب بل الغاية
هى الاذن المنوط برأيه
عليه الصلاة السلام
والاقتصار على ذكره لانه
الذى يتم من قبلهم
وهو المعتبر فى كمال الايمان
لا الاذن ولا الذهاب
المترتب عليه واعتباره
فى ذلك لما أنه كالمصداق
لصحته والمميز للمخلص
فيه عن المنافق فان
ديدنه التسلل للفرار
ولتعظيم ما فى الذهاب
بغير اذنه عليه الصلاة
والسلام من الجناية
وللتنبيه على ذلك عقب
بقوله تعالى (ان الذين
يستأذنونك أولئك
الذين يؤمنون بالله
ورسوله) فقضى بان
المستأذنين هم المؤمنون
بالله ورسوله كما حكم فى
الاول بان الكاملين فى
الايمان هم الجامعون بين
الايمان بهما و بين
الاستئذان وفى أولئك تفخيم شان

بالاستئذان واذا نصبت لم يكن له محل وكان كلاما مقرر اللامر بالاستئذان فى تلك الاحوال خاصة (السؤال السادس) ما معنى قوله طوافون عليكم (الجواب) قال الفراء والزجاج انه كلام مستانف كقولك فى الكلام انما هم خدمكم وطوافون عليكم والطوافون الذين يكثرون الدخول والخروج والترددوأصله من الطواف والمعنى يطوف بعضكم على بعض بغير اذن (السؤال السابع) بم ارتفع بعضكم (الجواب) بالابتداء وخبره على بعض على معنى طائف على بعض وانما حذف لان طوافون يدل عليه أما قوله والقواعد من النساء اللاتى لايرجون نكاحا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن السكيت امرأة قاعد اذا قعدت عن الحيض والجمع قواعد واذا أردت القعود قلت قاعدة وقال المفسرون القواعد هن اللواتى قعدن عن الحيض والولد من الكبر ولا مطمع لهن فى الازواج والاولى أن لا يعتبر قعودهن عن الحيض لان ذلك ينقطع والرغبة فيهن باقية فالمراد قعودهن عن حال الزوج وذلك لايكون الا اذا بلغن فى السن بحيث لايرغب فيهن الرجال (المسئلة الثانية) قوله تعالى فى النساء لايرجون كقوله الا أن يعفون (المسئلة الثالثة) لاشبهة انه تعالى لم يأذن فى أن يضعن ثيابهن أجمع لما فيه من كشف كل عورة فلذلك قال المفسرون المراد بالثياب ههنا الجلباب والبرد والقناع الذى فوق الخمار وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قرأ أن يضعن جلابيبهن وعن السدى عن شيوخه أن يضعن خمرهن عن رؤسهن وعن بعضهم انه قرأ أن يضعن من ثيابهن وانما خصهن الله تعالى بذلك لان التهمة مرتفعة عنهن وقد بلغن هذا المبلغ فلو غلب على ظنهن خلاف ذلك لم يحل لهن وضع الثياب ولذلك قال وأن يستعففن خير لهن وانما جعل ذلك أفضل من حيث هو أبعد من المظنة وذلك يقتضى ان عند المظنة يلزمهن أن لا يضعن ذلك كما يلزم مثله فى الشابة (المسئلة الرابعة) حقيقة التبرج تكلف اظهار ما يجب اخفاؤه من قولهم سفينة بارج لاغطاء عليها والتبرج سعة العين التى يرى بياضها محيطا بسوادها كله لايغيب منه شئ الا انه اختص بان تنكشف المرأة للرجال بابداء زينتها واظهار محاسنها * قوله تعالى (ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت اخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم او بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون) اعلم ان فى هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى المراد من رفع الحرج عن الاعمى والاعرج والمريض فقال ابن زيد المراد انه لاحرج عليهم ولا اثم فى ترك الجهاد وقال الحسن

المستاذنين ما لا يخفى (فاذا استأذنوك) بيان لما هو وظيفته عليه الصلاة والسلام فى هذا الباب اثر بيان ما هو وظيفة المؤمنين وأن الاذن عند الاستئذان ليس بامر محتوم بل هو مفوض الى رأيه عليه الصلاة والسلام والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى بعد ما تحقق أن الكاملين فى الايمان هم المستاذنون فاذا استاذنوك (لبعض شانهم) أى لبعض أمرهم المهم وخطبهم الملم (فاذن لمن شئت منهم) لما علمت فى ذلك من حكمة ومصلحة (واستغفر لهم الله) فان الاستئذان وان كان لعذر قوى لايخلو عن شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة (ان الله غفور) مبالغ فى مغفرة فرطات العباد (رحيم) مبالغ فى افاضة آثار الرحمة عليهم والجملة تعليل للمغفرة الموعودة فى ضمن الامر بالاستغفار لهم (لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم) استئناف مقرر لمضمون ما قبله والالتفات لابراز مزيد الاعتناء

بشانه أى لاتجعلوا دعوته عليه الصلاة والسلام اياكم فى الاعتقاد والعمل بها (كدعاء بعضكم بعضا) أى

نزلت الآية فى ابن أم مكتوم وضع الله الجهاد عنه وكان أعمى وهذا القول ضعيف
لانه تعالى عطف عليه قوله أن تأكلوا فنبه بذلك على انه انما رفع الحرج فى ذلك وقال
الاكثرون المراد منه ان القوم كانوا يحظرون الاكل مع هؤلاء الثلاثة وفى هذه المنازل
فالله تعالى رفع ذلك الحظر وازاله واختلفوا فى انهم لاى سبب اعتقدوا ذلك الحظر أما فى
حق الاعمى والاعرج والمريض فذكروا فيه وجوها (أحدها) انهم كانوا لايأكلون مع
الاعمى لانه لايبصر الطعام الجيد فلا يأخذه ولا مع الاعرج لانه لايتمكن من الجلوس
فالى أن يأكل لقمة يأكل غيره لقمتين وكذا المريض لانه لايتأتى له أن يأكل كما يأكل
الصحيح قال الفراء فعلى هذا التأويل تكون على بمعنى فى يعنى ليس عليكم فى مواكلة
هؤلاء حرج (وثانيها) أن العميان والعرجان والمرضى تركوا مواكلة الاصحاء أما الاعمى
فقال انى لاأرى شيأ فربما آخذ الاجود وأترك الاردأ وأما الاعرج والمريض فخافا
أن يفسدا الطعام على الاصحاء لامور تعترى المرضى ولاجل أن الاصحاء يتكرهون منهم
ولاجل أن المريض ربما عاجله الشره على أن يتعلق نظره وقلبه بلقمة الغير وذلك مما يكرهه
ذلك الغير فلهذه الاسباب احترزوا عن مواكلة الاصحاء فالله تعالى أطلق لهم فى ذلك
(وثالثها) روى الزهرى عن سعيد بن المسيب وعبيدالله بن عبدالله فى هذه الآية أن
المسلمين كانوا اذا غزوا خلفوا زمناءهم وكانوا يسلمون اليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون لهم
قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما فى بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك وقالوا لاندخلها وهم
غائبون فنزلت هذه الآية رخصة لهم وهذا قول عائشة رضى الله عنها فعلى هذا معنى
الآية نفى الحرج عن الزمنى فى اكلهم من بيت من يدفع اليهم المفتاح اذا خرج الى الغزو
(ورابعها) نقل عن ابن عباس ومقاتل بن حيان نزلت هذه الآية فى الحرث بن عمرو وذلك
انه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازيا وخلف مالك بن زيد على أهله فلما رجع
وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال تحرجت أن آكل من طعامك بغير اذنك وأما فى حق
سائر الناس فذكروا وجهين (الاول) كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوى العاهات
الى بيوت أزواجهم وأولادهم وقراباتهم واصدقائهم فيطعمونهم منها فلما نزل قوله تعالى
لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة أى بيعا فعند ذلك امتنع الناس
أن يأكل بعضهم من طعام بعض فنزلت هذه الآية (الثانى) قال قتادة كانت الانصار
فى أنفسها قرازة وكانت لاتأكل من هذه البيوت اذا استغنوا قال السدى كان الرجل
يدخل بيت أبيه أو بيت أخيه أو أخته فتتحفه المرأة بشئ من الطعام فيتحرج لانه ليس ثم
رب البيت فانزل الله تعالى هذه الرخصة (المسئلة الثانية) قال الزجاج الحرج فى اللغة
الضيق ومعناه فى الدين الأثم (المسئلة الثالثة) انه سبحانه أباح الاكل للناس من هذه
المواضع وظاهر الآية يدل على ان اباحة الاكل لاتتوقف على الاستئذان واختلف
العلماء فيه فنقل عن قتادة ان الاكل مباح ولكن لايحمل وجمهور العلماء أنكروا ذلك

لاتقيسوا دعاءه عليه
الصلاة والسلام اياكم
على دعاء بعضكم بعضا
فى حال من الاحوال وأمر
من الامور التى من جملتها
المساهلة فيه والرجوع
عن مجلسه عليه الصلاة
والسلام بغير استئذان
فان ذلك من المحرمات
وقيل لاتجعلوا دعاءه
عليه الصلاة والسلام
ربه كدعاء صغيركم كبيركم
يجيبه مرة ويرده أخرى
فان دعاءه مستجاب
لامرد له عندالله عزوجل
وتقرير الجملة حينئذ
لماقبلها اما من حيث
ان استجابته تعالى
لدعائه عليه الصلاة
والسلام مما يوجب
امتثالهم باوامره عليه
الصلاة والسلام
ومتابعتهم له فى الورود
والصدور أكمل ايجاب
واما من حيث انها
موجبة للاحتراز عن
التعرض لسخطه عليه
الصلاة والسلام
المؤدى الى مايوجب
هلاكهم من دعائه
عليه الصلاة

ثم اختلفوا على وجوه (الاول) كان ذلك في صدر الاسلام ثم نسخ ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام لايحل مال امرئ مسلم الاعن طيب نفس منه ومما يدل على هذا النسخ قوله لاتدخلوا بيوت النبي الاان يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه وكان في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من لهن الآباء والاخوة والاخوات فعم بالنهي عن دخول بيوتهن الا بعد الاذن في الدخول وفي الاكل فان قيل انما اذن تعالى في هذا لان المسلمين لم يكونوا يمنعون قراباتهم هؤلاء من أن يأكلوا من بيوتهم حضروا أوغابوا فجاز أن يرخص في ذلك قلنا لو كان الامر كذلك لم يكن لتخصيص هؤلاء الاقارب بالذكر معنى لان غيرهم كهم في ذلك (الثاني) قال أبو مسلم الاصفهاني المراد من هؤلاء الاقارب اذا لم يكونوا مؤمنين وذلك لانه تعالى نهى من قبل عن مخالطتهم بقوله لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ثم انه سبحانه أباح في هذه الاية ما حظره هناك قال ويدل عليه ان في هذه السورة أمر بالتسليم على أهل البيوت فقال حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها وفي بيوت هؤلاء المذكورين لم يأمر بذلك بل أمر أن يسلموا على أنفسهم والحاصل أن المقصود من هذه الآية اثبات الاباحة في الجملة لااثبات الاباحة في جميع الاوقات (الثالث) انه لما علم بالعادة أن هؤلاء القوم تطيب أنفسهم باكل من يدخل عليهم والعادة كالاذن في ذلك فيجوز أن يقال خصهم الله بالذكر لان هذه العادة في الاغلب توجد فيهم ولذلك ضم اليهم الصديق ولما علمنا أن هذه الاباحة انما حصلت في هذه السورة لاجل حصول الرضا فيها فلا حاجة الى القول بالنسخ (المسئلة الرابعة) ان الله تعالى ذكر أحد عشر موضعا في هذه الآية (أولها) قوله ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم وفيه سؤال وهو أن يقال أي فائدة في أباحة أكل الانسان طعامه في بيته وجوابه المراد في بيوت أزواجكم وعيالكم اضافه اليهم لان بيت المرأة كبيت الزوج وهذا قول الفراء وقال ابن قتيبة اراد بيوت أولادهم فنسب بيوت الاولاد الى الآباء لان الولد كسب والده وماله كماله قال عليه الصلاة والسلام ان أطيب ما أكل الرجل من كسبه وان ولده من كسبه والدليل على هذا انه سبحانه وتعالى عدد الاقارب ولم يذكر الاولاد لانه اذا كان سبب الرخصة هو القرابة كان الذي هو أقرب منهم أولى (وثانيها) بيوت الآباء (وثالثها) بيوت الامهات (ورابعها) بيوت الاخوان (وخامسها) بيوت الاخوات (وسادسها) بيوت الاعمام (وسابعها) بيوت العمات (وثامنها) بيوت الاخوال (وتاسعها) بيوت الخالات (وعاشرها) قوله تعالى أو ماملكتم مفاتحه وقرئ مفتاحه وفيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضي الله عنهما وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته لابأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته وملك المفاتح كونها في يده وفي حفظه (الثاني) قال الضحاك يريد الزمنى الذين كانوا يحرسون للغزاة (الثالث) المراد بيوت المماليك لان مال العبد لمولاه قال الفضل المفاتح واحدها مفتح بفتح الميم وواحد المفاتيح مفتح بالكسر

بعضا باسمه ورفع الصوت والنداء من وراء الحجرات ولكن بلقبه المعظم مثل يارسول الله يانبي الله مع غاية التوقير والتفخيم والتواضع وخفض الصوت وبما يناسب المقام فان قوله تعالى (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم) الخ وعيد لمخالفي أمره عليه الصلاة والسلام فيما ذكر من قبل فتوسيط ماذكر بينهما مما لاوجه له والتسلل الخروج من البين على التدريج والخفية وقد للتحقيق كما أن ربما تجيء للتكثير حسبما بين في مطلع سورة الحجر أي يعلم الله الذين يخرجون من الجماعة قليلا قليلا على خفية (لواذا) أي ملاوذة بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج أو بأن يلوذ بمن يخرج بالاذن اراءة أنه من أتباعه وقرئ بفتح اللام وانتصابه على الحالية من ضمير يتسللون أي ملاوذين أو على أنه مصدر موكد

(الحادى عشر) قوله أو صديقكم والمعنى أو بيوت اصدقائكم والصديق يكون واحدا
وجمعا وكذلك الخليط والقطين والعدو ويحكى عن الحسن انه دخل داره واذا حلقة من
اصدقائه وقد أخرجوا سلالا من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الاطعمة وهم
مكبون عليها يأكلون فتهللت اسارير وجهه سرورا وضحك وقال هكذا وجدناهم يريد
كبراء الصحابة وعن ابن عباس رضى الله عنهما الصديق أكثر من الوالدين لان أهل جهنم
لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والامهات بل بالاصدقاء فقالوا فما لنا من شافعين
ولا صديق حميم وحكى ان أخا الربيع بن خيثم فى الله دخل منزله فى حال غيبته فانبسط
الى جاريته حتى قدمت اليه ما أكل فلما عاد أخبرته بذلك فلسروره بذلك قال ان صدقت
فانت حرة (المسألة الخامسة) احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية على ان من سرق من
ذى رحم محرم انه لا يقطع لاباحة الله تعالى لهم بهذه الآية الاكل من بيوتهم ودخولها
بغير اذنهم فلا يكون ماله محرزا منهم فان قيل فيلزم أن لا يقطع اذا سرق من مال صديقه
قلنا من أراد سرقة ماله لا يكون صديقا له أما قوله تعالى ليس عليكم جناح أن تأكلوا
جميعا أو أشتاتا فقال أكثر المفسرين نزلت الآية فى بنى ليث بن عمرو وهم حى من كنانة
كان الرجل منهم لا يأكل وحده يمكث يومه فان لم يجد من يواكله لم يأكل شيئا وربما
كانت معه الابل الحفل فلا يشرب من البانها حتى يجد من يشاربه فاعلم الله تعالى ان
الرجل اذا أكل وحده لا حرج عليه هذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وقال عكرمة
وأبو صالح رحمهما الله كانت الانصار اذا نزل بواحد منهم ضيف لم يأكل الا وضيفه معه
فرخص الله لهم أن يأكلوا كيف شاؤا مجتمعين ومتفرقين وقال الكلبى كانوا اذا
اجتمعوا ليأكلوا طعاما عزلوا للاعمى طعاما على حدة وكذلك للزمن والمريض فبين الله
لهم أن ذلك غير واجب وقال آخرون كانوا يأكلون فرادى خوفا من أن يحصل عند
الجمعية ما ينفر أو يؤذى فبين الله تعالى انه غير واجب وقوله جميعا نصب على الحال وأشتاتا
جمع شت وشتى جمع شتيت وشتان تثنية شت قاله المفضل وقيل الشت مصدر بمعنى التفرق
ثم يوصف به ويجمع أما قوله تعالى فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم فالمعنى انه تعالى
جعل أنفس المسلمين كالنفس الواحدة على مثال قوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم قال ابن
عباس فان لم يكن أحد فعلى نفسه ليقل السلام علينا من قبل ربنا واذا دخل المسجد
فليقل السلام على رسول الله وعلينا من ربنا قال قتادة وحدثنا أن الملائكة ترد عليه قال
القفال وان كان فى البيت أهل الذمة فليقل السلام على من اتبع الهدى وقوله تحية
نصب على المصدر كأنه قال فحيوا تحية من عند الله أى مما أمركم الله به قال ابن عباس
رضى الله عنهما من قال السلام عليكم معناه اسم الله عليكم وقوله مباركة طيبة قال
الضحاك معنى البركة فيه تضعيف الثواب وقال الزجاج أعلم الله سبحانه أن السلام مبارك
ثابت لما فيه من الاجر والثواب وانه اذا أطاع الله فيه أكثر خيره وأجزل أجره كذلك

لفعل مضمر هو الحال فى الحقيقة أى يلوذون لواذا والفاء فى قوله تعالى (فليحذر الذين يخالفون
عن أمره) لترتيب الحذر
أو الامر به على ما قبلها
من علمه تعالى باحوالهم
فانه مما يوجب الحذر
البتة اى يخالفون أمره
بترك مقتضاه ويذهبون
سمتا خلاف سمته وعن
اما لتضمنه معنى الاعراض
أو حمله على معنى يصدون
عن أمره دون المؤمنين
من خالفه عن الامر
اذا صد عنه دونه وحذف
المفعول لما أن المقصود
بيان المخالف والمخالف
عنه والضمير لله تعالى
لانه الآمر حقيقة
أو للرسول عليه الصلاة
والسلام لانه المقصود
بالذكر (أن تصيبهم
فتنة) أى محنة فى الدنيا
(أو يصيبهم عذاب
أليم) أى فى الآخرة
وكلمة أو لمنع الخلو دون
الجمع واعادة الفعل
صريحا للاعتناء
بالتهديد والتحذير
واستدل به على ان
الامر للايجاب فان
ترتيب العذابين على
مخالفته كما يعرب عنه
التحذير عن اصابتهما

يبين الله لكم الآيات أى يفصل الله شرائعه لكم لعلكم تعقلون لتفهموا عن الله أمره ونهيه وروى حميد عن أنس قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى فى شئ فعلته لم فعلته ولا قال لى فى شئ تركته لم تركته وكنت واقفا على رأس النبى صلى الله عليه وسلم أصب الماء على يديه فرفع رأسه الى وقال ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بها قلت بابى وأمى أنت يارسول الله بلى فقال من لقيت من أمتى فسلم عليهم يطل عمرك واذا دخلت بيتا فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فانها صلاة الاوابين * قوله تعالى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ان الله غفور رحيم لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ألا ان لله ما فى السموات والارض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون اليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شئ عليم) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرئ على أمر جميع ثم ذكروا فى قوله على أمر جامع وجوها (أحدها) أن الامر الجامع هو الامر الموجب للاجتماع عليه فوصف الامر بالجمع على سبيل المجاز وذلك نحو مقاتلة عدو أو تشاور فى خطب مهم أو الامر الذى يعم ضرره ونفعه وفى قوله اذا كانوا معه على أمر جامع اشارة الى انه خطب جليل لابد لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أرباب التجارب والآراء ليستعين بتجاربهم فمفارقة أحدهم فى هذه الحالة مما يشق على قلبه (وثانيها) عن الضحاك فى أمر جامع الجمعة والاعياد وكل شئ تكون فيه الخطبة (وثالثها) عن مجاهد فى الحرب وغيره (المسئلة الثانية) اختلفوا فى سبب نزوله قال الكلبى كان صلى الله عليه وسلم يعرض فى خطبته بالمنافقين ويعيبهم فينظر المنافقون يمينا وشمالا فاذا لم يرهم أحد انسلوا وخرجوا ولم يصلوا وان أبصرهم أحد ثبتوا وصلوا خوفا فنزلت هذه الآية فكان بعد نزول هذه الآية لا يخرج المؤمن لحاجته حتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المنافقون يخرجون بغير اذن (المسئلة الثالثة) قال الجبائى هذا يدل على استئذانهم الرسول من ايمانهم ولولا ذلك لجاز أن يكونوا كاملى الايمان وان تركوا الاستئذان وذلك يدل على ان كل فرض لله تعالى واجتناب محرم من الايمان (والجواب) هذا بناء على أن كلمة انما للحصر وأيضا فالمنافقون انما تركوا الاستئذان استخفافا ولا نزاع فى انه كفر أما قوله تعالى ان الذين يستأذنونك الى قوله ان الله غفور رحيم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان الذين يستأذنونك المعنى تعظيما لك ورعاية للادب أولئك هم الذين يؤمنون بالله ورسوله أى يعملون بموجب الايمان ومقتضاه قال الضحاك ومقاتل المراد عمر بن الخطاب رضى الله

يوجب وجوب الامتثال به حتما (ألا ان لله ما فى السموات والارض) من الموجودات بأسرها خلقا وملكا وتصرفا ايجادا واعداما بدأ واعادة (قد يعلم ما أنتم عليه) أيها المكلفون من الاحوال والاوضاع التى من جملتها الموافقة والمخالفة والاخلاص والنفاق (ويوم يرجعون اليه) عطف على ما أنتم عليه أى يعلم يوم يرجع المنافقون المخالفون للامر اليه تعالى للجزاء والعقاب وتعليق علمه تعالى بيوم رجوعهم لا برجعهم لزيادة تحقيق علمه تعالى بذلك وغاية تقريره لما أن العلم بوقت وقوع شئ مستلزم للعلم بوقوعه على أبلغ وجه وآكده وفيه اشعار بأن علمه تعالى لنفس رجوعهم من الظهور بحيث لا يحتاج الى البيان قطعا ويجوز أن يكون الخطاب أيضا خاصا بالمنافقين على طريقة الالتفات وقرئ يرجعون مبنيا للفاعل (فينبئهم بما عملوا) من الاعمال السيئة التى من جملتها

عنه وذلك لانه استأذن فى غزوة تبوك فى الرجوع الى أهله فاذن له وقال له انطلق فوالله ما أنت بمنافق يريد أن يسمع المنافقين ذلك الكلام فلما سمعوا ذلك قالوا مابال محمد اذا استأذنه أصحابه أذن لهم واذا استأذناه لم يأذن لنا فوالله مانراه يعدل وقال ابن عباس رضى الله عنهما ان عمر استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العمرة فاذن له ثم قال ياأبا حفص لاتنسنا من صالح دعائك وفى قوله استغفر لهم الله وجهان (أحدهما) أن يستغفر لهم تنبيها على ان الاولى أن لايقع الاستئذان منهم وان أذن لان الاستغفار يدل على الذنب وربما ذكر عند بعض الرخص (الثانى) يحتمل انه تعالى أمره بان يستغفر لهم مقابلة على تمسكهم بآداب الله تعالى فى الاستئذان (المسئلة الثانية) قال قتادة نسخت هذه الآية قوله تعالى لم أذنت لهم (المسئلة الثالثة) الآية تدل على انه سبحانه فوض الى رسوله بعض أمر الدين ليجتهد فيه برأيه أما قوله تعالى لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ففيه وجوه (أحدها) وهو اختيار المبرد والقفال ولاتجعلوا أمره اياكم ودعاءه لكم كما يكون من بعضكم لبعض اذ كان أمره فرضا لازما والذى يدل على هذا قوله عقيب هذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره (وثانيها) لاتنادوه كما ينادى بعضكم بعضا يامحمد ياأبا القسم ولكن قولوا يارسول الله يانبى الله عن سعيد بن جبير (وثالثها) لاترفعوا أصواتكم فى دعائه وهو المراد من قوله ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله عن ابن عباس (ورابعها) احذروا دعاء الرسول عليكم اذا أسخطتموه فان دعاءه موجب ليس كدعاء غيره والوجه الاول أقرب الى نظم الآية أما قوله تعالى قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فالمعنى يتسللون قليلا قليلا ونظير تسلل تدرج وتدخل واللواذ الملاوذة وهى أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا يعنى يتسللون عن الجماعة على سبيل الخفية واستتار بعضهم ببعض ولواذا حال أى ملاوذين وقيل كان بعضهم يلوذ بالرجل اذا استأذن فيؤذن له فينطلق الذى لم يؤذن له معه وقرئ لواذا بالفتح ثم اختلفوا على وجوه (أحدها) قال مقاتل كان المنافقون تثقل عليهم خطبة النبى صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة فيلوذون ببعض أصحابه ويخرجون من غير استئذان (وثانيها) قال مجاهد يتسللون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن كتابه وعن ذكره وقوله قد يعلم الله معناه التهديد بالمجازاة أما قوله فليحذر الذين يخالفون عن أمره ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الاخفش عن صلة والمعنى يخالفون أمره وقال غيره معناه يعرضون عن أمره ويميلون عن سنته فدخلت عن لتضمين المخالفة معنى الاعراض (المسئلة الثانية) كما تقدم ذكر الرسول فقد تقدم ذكر الله تعالى لكن القصد هو الرسول فاليه ترجع الكناية وقال أبو بكر الرازى الاظهر انها لله تعالى لانه يليه وحكم الكناية رجوعها الى مايليها دون ماتقدمها (المسئلة الثالثة) الآية تدل على ان ظاهر الامر للوجوب ووجه الاستدلال به أن نقول تارك

مخالفة الامر فيترتب عليه مايليق به من التوبيخ والجزاء وقدم وجه التعبير عن الجزاء بالتنبيه فى قوله تعالى انما بغيكم على أنفسكم الآية (والله بكل شئ عليم) لايعزب عنه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النور أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقى والله سبحانه وتعالى أعلم

قوله فان قيل لانسلم الخ كذا بالاصل وهى عبارة مختلة لم حقها لانسان تارك المأمور به مخالف للامر لاوأن موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه ومخالفته عبارة عن الاخلال بذلك لانا نفسر موافقة الامر بتفسيرين أحدهما الخ فتكون المخالفة كذلك اه ❊ (سورة الفرقان مكية وهى ❊ ٤٤١ ❊ سبع وسبعون آية) ❊ (بسم الله الرحمن الرحيم) ❊

المأمور به مخالف لذلك الامر ومخالف الامر مستحق للعقاب فتارك المأمور به مستحق للعقاب ولامعنى للوجوب الاذلك انما قلنا ان تارك المأمور به مخالف لذلك الامر لان موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه والمخالفة ضد الموافقة فكانت مخالفة الامر عبارة عن الاخلال بمقتضاه فثبت ان تارك المأمور به مخالف وانما قلنا ان مخالف الامر مستحق للعقاب لقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم فامر مخالف هذا الامر بالحذر عن العقاب والامر بالحذر عن العقاب انما يكون بعد قيام المقتضى لنزول العقاب فثبت أن مخالف أمر الله تعالى أو أمر رسوله قد وجد فى حقه مايقتضى نزول العذاب فان قيل لانسلم أن تارك المامور به مخالف للامر قوله موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه ومخالفته عبارة عن الاخلال بمقتضاه قلنا لانسلم أن موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه فما الدليل عليه ثم انا نفسر موافقة الامر بتفسيرين (أحدهما) أن موافقة الامر عبارة عن الاتيان بما يقتضيه الامر على الوجه الذى يقتضيه الامر فان الامر لو اقتضاه على سبيل الندب وأنت تأتى به على سبيل الوجوب كان ذلك مخالفة للامر (الثانى) أن موافقة الامر عبارة عن الاعتراف بكون ذلك الامر حقا واجب القبول فمخالفته تكون عبارة عن انكار كونه حقا واجب القبول سلمنا ان ماذكرته يدل على أن مخالفة الامر عبارة عن ترك مقتضاه لكنه معارض بوجوه أخر وهو أنه لو كان ترك المأمور به مخالفة للامر لكان ترك المندوب لامحالة مخالفة لامر الله تعالى وذلك باطل والالاستحق العقاب على مابينتموه فى المقدمة الثانية سلمنا ان تارك المأمور به مخالف الامر فلم قلت ان مخالف الامر مستحق للعقاب لقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره قلنا لانسلم أن هذه الآية دالة على أمر من يكون مخالفا للامر بالحذر بل هى دالة على الامر بالحذر عن مخالفة الامر فلم لا يجوز أن يكون كذلك سلمنا ذلك لكنها دالة على أن المخالف عن الامر يلزمه الحذر فلم قلت ان مخالف الامر لايلزمه الحذر فان قلت لفظة عن صلة زائدة فنقول الاصل فى الكلام لاسيما فى كلام الله تعالى أن لايكون زائدا سلمنا دلالة الآية على أن مخالف أمر الله تعالى مأمور بالحذر عن العذاب فلم قلت انه يجب عليه الحذر عن الذاب أقصى مافى الباب انه ورد الامر به لكن لم قلت ان الامر للوجوب وهذا أول المسئلة فان قلت هب انه لايدل على وجوب الحذر لكن لابد وأن يدل حسن الحذر وحسن الحذر انما يكون بعد قيام المقتضى لنزول العذاب قلت لانسلم أن حسن الحذر مشروط بقيام المقتضى لنزول العذاب بل الحذر يحسن عند احتمال نزول العذاب ولهذا يحسن الاحتياط وعندنا مجرد الاحتمال قائم لان هذه المسئلة احتمالية لاقطعية سلمنا دلالة على وجود مايقتضى نزول العقاب لكن لافى كل أمر بل فى أمر واحد لان قوله عن أمره لايفيد الا أمرا واحدا وعندنا ان أمرا واحدا يفيد الوجوب فلم قلت ان كل أمر كذلك سلمنا أن كل

(تبارك الذى نزل الفرقان) البركة النماء والزيادة حسية كانت أو معنوية وكثرة الخير ودوامه أيضا ونسبتها الى عزوجل على المعنى الاول وهو الاليق بالمقام باعتبار تعاليه عما سواه فى ذاته وصفاته وأفعاله التى من جملتها تنزيل القرآن الكريم المعجز الناطق بعلو شانه تعالى وسمو صفاته وابتناء أفعاله على أساس الحكم والمصالح وخلوها عن شائبة الخلل بالكلية وصيغة التفاعل للمبالغة فيما ذكر فان مالايتصور نسبته اليه سبحانه حقيقة من الصيغ كالتكبر ونحوه لاتنسب اليه تعالى الا باعتبار غايتها وعلى المعنى الثانى باعتبار كثرة مايفيض منه على مخلوقاته لاسيما على الانسان من فنون الخيرات التى من جملتها تنزيل القرآن المنطوى على جميع الخيرات الدينية والدنيوية والصيغة حينئذ يجوز أن تكون لافادة نماء تلك الخيرات وتزايدها شيئا فشيئا

وآنا فآنا بحسب حدوثها أو حدوث متعلقاتها ولاستقلالها بالدلالة على غاية الكمال وتحققها بالفعل والاشعار بالتعجب المناسب للانشاء والانباء عن نهاية التعظيم لم يجز استعمالها فى حق غيره تعالى ولا استعمال

غيرها من الصيغ فى حقه تعالى والفرقان مصدر فرق بين الشيئين أى فصل بينهما سمى به القرآن لغاية فرقه بين
الحق والباطل باحكامه أو بين المحق والمبطل باعجازه ﴿ ٤٤٢ ﴾ أو لكونه مفصولا بعضه من نفسه أو فى انزاله (على

عبده) محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وايراده عليه الصلاة والسلام بذلك العنوان لتشريفه والايذان بكونه عليه الصلاة والسلام فى أقصى مراتب العبودية والتنبيه على أن الرسول لا يكون الا عبدا للمرسل ردا على النصارى (ليكون) غاية للتنزيل أى نزله عليه ليكون هو عليه الصلاة والسلام أو الفرقان (للعالمين) من الثقلين (نذيرا) اى منذرا أو انذارا مبالغة أو ليكون تنزيله انذارا وعدم التعرض للتبشير لانسياق الكلام على أحوال الكفرة وتقديم اللام على عاملها لمراعاة الفواصل وابراز تنزيل الفرقان فى معرض الصلة التى حقها أن تكون معلومة الثبوت للموصول عند السامع مع انكار الكفرة له لاجرائه مجرى المعلوم المسلم تنبيها على كمال قوة دلائله وكونه بحيث لا يكاد يجهله أحد كقوله تعالى لا ريب فيه (الذى له ملك
السموات والارض) أى له خاصة دون غيره لا استقلالا ولا اشتراكا السلطان القاهر والاستيلاء الباهر ﴿ ساقط ﴾
عليهما المستلزمان للقدرة التامة والتصرف الكلى فيهما وفيما فيهما ايجادا واعداما واحياء واماتة وأمرا

أمر كذلك لكن الضمير فى قوله عن أمره يحتمل عوده الى الله تعالى وعوده الى الرسول
والآية لا تدل الا على أن الامر للوجوب فى حق أحدهما فلم قلتم انه فى حق الآخر كذلك
(الجواب) قوله لم قلتم ان موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه قلنا الدليل عليه أن
العبد اذا امتثل أمر السيد حسن أن يقال ان هذا العبد موافق للسيد ويجرى على وفق
أمره ولو لم يمتثل أمره يقال انه ما وافقه بل خالفه وحسن هذا الاطلاق معلوم بالضرورة
من أهل اللغة فثبت أن موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه قوله الموافقة عبارة عن
الاتيان بما يقتضيه الامر على الوجه الذى يقتضيه الامر قلنا لما سلمتم أن موافقة الامر
لا تحصل الا عند الاتيان بمقتضى الامر فنقول لا شك أن مقتضى الامر هو الفعل لان
قوله افعل لا يدل الا على اقتضاء الفعل واذا لم يوجد الفعل لم يوجد مقتضى الامر فلا
توجد الموافقة فوجب حصول المخالفة لانه ليس بين الموافقة والمخالفة واسطة قوله
الموافقة عبارة عن اعتقاد كون ذلك الامر حقا واجب القبول قلنا هذا لا يكون موافقة
للامر بل يكون موافقة للدليل الدال على أن ذلك الامر حق فان موافقة الشئ عبارة
عن الاتيان بما يقتضى تقرير مقتضاه فاذا دل الدليل على حقية الشئ كان الاعتراف
بحقيته يقتضى تقرير مقتضى ذلك الدليل أما الامر فلما اقتضى دخول الفعل
فى الوجود كانت موافقة عبارة عما يقرر ذلك الدخول وادخاله فى الوجود يقتضى تقرير
دخوله فى الوجود فكانت موافقة الامر عبارة عن فعل مقتضاه قوله لو كان كذلك
لكان تارك المندوب مخالفا فوجب أن يستحق العقاب قلنا هذا الالزام انما يصح أن
لو كان المندوب مأمورا به وهو ممنوع قوله لم لا يجوز أن يكون قوله فليحذر أمرا بالحذر
عن المخالفة لا أمرا للمخالف بالحذر قلنا لو كان كذلك لصار التقدير فليحذر المتسللون
لواذا عن الذين يخالفون أمره وحينئذ يبقى قوله أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم
ضائعا لان الحذر ليس فعلا يتعدى الى مفعولين قوله كلمة عن ليست بزائد قلنا ذكرنا
اختلاف الناس فيها فى المسئلة الاولى قوله لم قلتم ان قوله فليحذر يدل على وجوب الحذر
عن العقاب قلنا لا ندعى وجوب الحذر ولكن لا أقل من جواز الحذر وذلك مشروط
بوجود ما يقتضى وقوع العقاب قوله لم قلت ان الآية تدل على أن كل مخالف للامر
يستحق العقاب قلنا لانه تعالى رتب نزول العقاب على المخالفة فوجب أن يكون معللا به
فيلزم عمومه لعموم العلة قوله هب أن أمر الله أو أمر رسوله للوجوب فلم قلتم ان الامر
كذلك قلنا لانه لا قائل بالفرق والله أعلم (المسئلة الرابعة) من الناس من قال لفظ الامر
مشترك بين الامر القولى وبين الشان والطريق كما يقال أمر فلان مستقيم واذا ثبت ذلك
كان قوله تعالى عن أمره يتناول قول الرسول وفعله وطريقته وذلك يقتضى أن كل ما فعله
عليه الصلاة والسلام يكون واجبا علينا وهذه المسئلة مبنية على أن الكناية فى قوله
عن أمره راجعة الى النبى صلى الله عليه وسلم أما لو كانت راجعة الى الله تعالى فالبحث

ساقط بالكلية وتمام تقرير ذلك ذكرناه في أصول الفقه والله أعلم أما قوله تعالى أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم فالمراد أن مخالفة الامر توجب أحد هذين الامرين والمراد بالفتنة العقوبة في الدنيا وبالعذاب الاليم عذاب الآخرة وانما ردده الله تعالى حال ذلك المخالف بين هذين الامرين لان ذلك المخالف قد يموت من دون عقاب الدنيا وقد يعرض له ذلك في الدنيا فلهذا السبب أورده تعالى على سبيل الترديد ثم قال الحسن الفتنة هي ظهور نفاقهم وقال ابن عباس رضي الله عنهما القتل وقيل الزلازل والاهوال وعن جعفر بن محمد يسلط عليهم سلطان جائر أما قوله تعالى ألا ان لله ما في السموات والارض فذلك كالدلالة على قدرته تعالى عليهما وعلى ما بينهما وما فيهما واقتداره على المكلف فيما يعامل به من المجازاة بثواب أو بعقاب وعلمه بما يخفيه و يعلنه وكل ذلك كالزاجر عن مخالفة أمره أما قوله تعالى قد يعلم ما أنتم عليه فانما أدخل قد لتوكيد علمه بما هم عليه من المخالفة في الدين والنفاق ويرجع توكيد العلم الى توكيد الوعيد وذلك لان قد اذا دخلت على المضارع كانت بمعنى ربما فوافقت ربما في خروجها الى معنى التكثير كما في قول الشاعر

فان يمس مهجور الفناء فربما * أقام به بعد الوفود وفود

والخطاب والغيبة في قوله تعالى قد يعلم ما أنتم عليه و يوم يرجعون اليه يجوز أن يكونا جميعا للمنافقين على طريق الالتفات ويجوز أن يكون ما أنتم عليه عاما و يرجعون للمنافقين وقد تقدم في غير موضع أن الرجوع اليه هو الرجوع الى حيث لا حكم الا له فلا وجه لاعادته والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامي وعلى آله وصحبه وسلم

(سورة الفرقان سبع وسبعون آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذي له ملك السموات والارض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا)

اعلم ان الله سبحانه وتعالى تكلم في هذه السورة في التوحيد والنبوة وأحوال القيامة ثم ختمها بذكر صفات العباد المخلصين الموقنين ولما كان اثبات الصانع واثبات صفات جلاله يجب أن يكون مقدما على الكل لاجرم افتتح الله هذه السورة بذلك فقال تبارك الذي نزل الفرقان على عبده وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الزجاج تبارك تفاعل من البركة والبركة كثرة الخير و زيادته وفيه معنيان أحدهما تزايد خيره وتكاثره وهو المراد من قوله وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها (والثاني) تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في ذاته وصفاته وأفعاله وهو المراد من قوله ليس كمثله شيء وأما تعاليه عن كل شيء في ذاته فيحتمل أن يكون المعنى جل بوجوب وجوده وقدمه عن جواز الفناء والتغير عليه وأن يكون المعنى جل بفردانيته و وحدانيته عن مشابهة شيء من الممكنات وأما تعاليه عن كل شيء في صفاته فيحتمل أن يكون المعنى جل أن يكون علمه ضروريا أو كسبيا أو تصورا

ونهيا حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ومحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها أو على أنه نعت للموصول الاول

أو بيان له أو بدل منه ومابينهما ليس بأجنبي لا من تمام صلته ومعلومية مضمونه للكفرة مما لا ريب فيه لقوله تعالى قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله ونظائره أو مدح له تعالى بالرفع أو بالنصب (ولم يتخذ ولدا) كما يزعم الذين يقولون في حق المسيح والملائكة ما يقولون فسبحان الله عما يصفون وهو معطوف على ما قبله من الجملة الظرفية ونظمه في سلك الصلة للايذان بان مضمونه من الوضوح والظهور بحيث لا يكاد يجهله جاهل لاسيما بعد تقرير ما قبله (ولم يكن له شريك في الملك) أي ملك السموات والارض وهو أيضا عطف على الصلة وافراده بالذكر مع أن ما ذكر من اختصاص ملكهما به تعالى مستلزم له قطعا للتصريح ببطلان زعم الثنوية القائلين بتعدد الآلهة والدرء في نحورهم وتوسيط نفي اتخاذ الولد بينهما للتنبيه على استقلاله وأصالته والاحتراز عن توهم كونه تتمة للاول (وخلق كل شيء) أي أحدث كل موجود من الموجودات احداثا جاريا على سنن التقدير حسبما اقتضته ارادته المبنية على الحكم البالغة بأن خلق

أو تصديقا وفي قدرته أن يحتاج الى مادة ومدة ومثال وجلب غرض ومنال وامافي أفعاله فجل أن يكون الوجود والبقاء وصلاح حال الوجود الا من قبله وقال آخرون أصل الكلمة تدل على البقاء وهو مأخوذ من بروك البعير ومن بروك الطير على الماء سميت البركة بركة لثبوت الماء فيها والمعنى انه سبحانه وتعالى باق في ذاته أزلا وأبدا ممتنع التغير وباق في صفاته ممتنع التبدل ولما كان سبحانه وتعالى هو الخالق لوجوه المنافع والمصالح والمبقى لها وجب وصفه سبحانه بانه تبارك وتعالى (المسئلة الثانية) قال أهل اللغة كلمة الذي موضوعة للاشارة الى الشيء عند محاولة تعريفه بقضية معلومة وعند هذا يتوجه الاشكال وهو أن القوم ما كانوا عالمين بانه سبحانه هو الذي نزل الفرقان فكيف حسن ههنا لفظ الذي وجوابه أنه لما قامت الدلالة على كون القرآن معجزا ظهر بحسب الدليل كونه من عند الله فلقوة الدليل وظهوره أجراه سبحانه وتعالى مجرى المعلوم (المسئلة الثالثة) لا نزاع ان الفرقان هو القرآن وصف بذلك من حيث انه سبحانه فرق به بين الحق والباطل في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبين الحلال والحرام أو لانه فرق في النزول كما قال وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث وهذا التأويل أقرب لانه قال نزل الفرقان ولفظة نزل تدل على التفريق وأما لفظة أنزل فتدل على الجمع ولذلك قال في سورة آل عمران نزل عليك الكتاب بالحق وأنزل التوراة والانجيل (واعلم) انه سبحانه وتعالى لما قال أولا تبارك ومعناه كثرة الخير والبركة ثم ذكر عقبه أمر القرآن دل ذلك على ان القرآن منشأ الخيرات وأعم البركات لكن القرآن ليس الا منبعا للعلوم والمعارف والحكم فدل هذا على ان العلم أشرف المخلوقات وأعظم الاشياء خيرا وبركة (المسئلة الرابعة) لا نزاع ان المراد من العبد ههنا محمد صلى الله عليه وسلم عن ابن الزبير على عباده وهم رسول الله وأمته كما قال لقد أنزلنا اليكم قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وقوله ليكون للعالمين نذيرا فالمراد ليكون هذا العبد نذيرا للعالمين وقول من قال انه راجع الى الفرقان فاضاف الانذار اليه كما أضاف الهداية اليه في قوله ان هذا القرآن يهدى فبعيد وذلك لان المنذر والنذير من صفات الفاعل للتخويف واذا وصف به القرآن فهو مجاز وحمل الكلام على الحقيقة اذا أمكن هو الواجب ۞ ثم قالوا هذه الآية تدل على أحكام (الاول) ان العالم كل ما سوى الله تعالى ويتناول جميع المكلفين من الجن والانس والملائكة لكنا أجمعنا أنه عليه السلام لم يكن رسولا الى الملائكة فوجب أن يكون رسولا الى الجن والانس جميعا ويبطل بهذا قول من قال انه كان رسولا الى البعض دون البعض (الثاني) أن لفظ العالمين يتناول جميع المخلوقات فدلت الآية على انه رسول للخلق الى يوم القيامة فوجب أن يكون خاتم الانبياء والرسل (الثالث) قالت المعتزلة دلت الآية على انه سبحانه أراد الايمان وفعل الطاعات من الكل لانه انما بعثه الى الكل ليكون نذيرا للكل وأراد من الكل الاشتغال بالحسن والاعراض عن القبيح

كلا منهما من مواد مخصوصة على صور معينة ورتب فيه قوى وخواص مختلفة الآثار والاحكام (فقدره) أى هيأه لما أراد به من الخصائص والافعال اللائقة به (تقديرا) بديعا لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه كتهيئة الانسان للفهم والادراك والنظر والتدبر في أمور المعاش والمعاد واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الاعمال المختلفة وهكذا أحوال سائر الانواع وقيل أريد بالخلق مطلق الايجاد والاحداث مجازا من غير ملاحظة معنى التقدير وان لم يخل عنه في نفس الامر فالمعنى أوجد كل شيء فقدره في ذلك الايجاد تقديرا وأما ما قيل من أنه سمى احداثه تعالى خلقا لانه تعالى لا يحدث شيأ الا على وجه التقدير من غير تفاوت ففيه أن ارتكاب المجاز بحمل الخلق على مطلق الاحداث لتجريده عن معنى التقدير فاعتباره فيه بوجه من الوجوه مخل بالمرام قطعا وقيل المراد بالتقدير الثاني هو التقدير للبقاء الى الاجل المسمى وايا ما كان فالجملة جارية مجرى التعليل لما قبلها من الجمل المنتظمة مثلها في سلك الصلة فان خلقه تعالى لجميع الاشياء على ذلك النمط البديع كما يقتضى استقلاله تعالى باتصافه بصفات الالوهية يقتضى انتظام كل ما سواه كائنا ما كان تحت ملكوته القاهرة بحيث لا يرند عنها شيء ذلك قطعا

وماكان كذلك كيف يتوهم كونه ولدالله سبحانه أوشريكا فى ملكه (واتخذوا من دونه الهة) بعد مابين حقيقة الحق فى مطلع السورة الكريمة بذكر تنزيله تعالى للفرقان العظيم على رسوله صلى الله عليه وسلم ووصفه تعالى بصفات الكمال وتنزيهه عمالايليق بشانه الجليل عقب ذلك بحكاية أباطيل المشركين فى حق المنزل سبحانه والمنزل والمنزل عليه على الترتيب واظهار بطلانها والاضمار من غير جريان ذكرهم للثقة بدلالة ماقبله من نفى الشريك عليهم أى اتخذوا لانفسهم متجاوزين الله تعالى الذى ذكر بعض شؤنه الجليلة من اختصاص ملك السموات والارض به تعالى وانتفاء الولد والشريك عنه وخلق جميع الاشياء وتقديرها أبدع تقدير آلهة (لايخلقون شيأ) أى لايقدرون على خلق شئ من الاشياء أصلا (وهم يخلقون) كسائر المخلوقات وقيل لايقدرون على أن يختلقوا شيأ وهم يختلقون حيث تختلقهم عبدتهم بالنحت والتصوير وقوله تعالى (ولايملكون لانفسهم ضرا ولانفعا) لبيان ماليدل عليه ماقبله من مراتب عجزهم وضعفهم فان بعض المخلوقين العاجزين عن الخلق ربما يملك دفع الضر وجلب النفع فى الجملة كالحيوان

وعارضهم أصحابنا بقوله تعالى ولقدذرأنا لجهنم الاية (الرابع) لقائل أن يقول ان قوله تبارك كما دل على كثرة الخير والبركة لابد وأن يكون المذكور عقيبه مايكون سببا لكثرة الخير والمنافع والانذار يوجب الغم والخوف فكيف يليق هذا لهذا الموضع (جوابه) ان هذا الانذار يجرى مجرى تاديب الولد وكما أنه كلما كانت المبالغة فى تاديب الولد أكثر كان الاحسان اليه أكثر لما أن ذلك يؤدى فى المستقبل الى المنافع العظيمة فكذا ههنا كلما كان الانذار كثيرا كان رجوع الخلق الى الله أكثر فكانت السعادة الاخروية أتم وأكثر وهذا كالتنبيه على انه لاالتفات الى المنافع العاجلة وذلك لانه سبحانه لما وصف نفسه بانه الذى يعطى الخيرات الكثيرة لم يذكر الامنافع الدين ولم يذكر البتة شيأ من منافع الدنيا * ثم انه سبحانه وصف ذاته باربع انواع من صفات الكبرياء (أولها) قوله الذى له ملك السموات والارض وهذا كالتنبيه على الدلالة على وجوده سبحانه لانه لاطريق الى اثباته الا بواسطة احتياج أفعاله اليه فكان تقديم هذه الصفة على سائر الصفات كالامر الواجب وقوله له مافى السموات والارض اشارة الى احتياج هذه المخلوقات اليه سبحانه بزمان حدوثها وزمان بقائها فى ماهيتها وفى وجودها وانه سبحانه هو المتصرف فيها كيف يشاء (وثانيها) قوله ولم يتخذ ولدا فبين سبحانه انه هو المعبود أبدا ولايصح أن يكون غيره معبودا ووارثا للملك عنه فتكون هذه الصفة كالمؤكدة لقوله تبارك ولقوله الذى له ملك السموات والارض وهذا كالرد على النصارى (وثالثها) قوله ولم يكن له شريك فى الملك والمراد انه هو المنفرد بالالهية واذا عرف العبد ذلك انقطع خوفه ورجاؤه عن الكل ولايبقى مشغول القلب الا برحمته واحسانه وفيه الرد على الثنوية والقائلين بعبادة النجوم والقائلين بعبادة الاوثان (ورابعها) قوله وخلق كل شئ فقدره تقديرا وفيه سؤالات (الاول) هل فى قوله وخلق كل شئ دلالة على انه سبحانه خالق لاعمال العباد (والجواب) نعم من وجهين الاول ان قوله وخلق كل شئ يتناول جميع الاشياء فيتناول أفعال العباد والثانى وهو أنه تعالى بعد ان نفى الشريك ذكر ذلك والتقدير أنه سبحانه لما نفى الشريك كأن قائلا قال ههنا أقوام يعترفون بنفى الشركاء والانداد ومع ذلك يقولون انهم يخلقون أفعال أنفسهم فذكر الله تعالى هذه الآية لتكون معينة فى الرد عليهم قال القاضى الآية لاتدل عليه لوجوه (أحدها) انه سبحانه صرح بكون العبد خالقا فى قوله واذتخلق من الطين كهيئة الطير وقال فتبارك الله أحسن الخالقين (وثانيها) انه سبحانه تمدح بذلك فلايجوز أن يريد به خلق الفساد (وثالثها) انه سبحانه تمدح بانه قدر تقديرا ولايجوز ان يريد به الاالحسن والحكمة دون غيره فثبت بهذه الوجوه انه لابد من التأويل ولودلت الآية بظاهرها عليه فكيف ولادلالة فيها البتة لان الخلق عبارة عن التقدير فهو لايتناول الامايظهر فيه التقدير وذلك انما يظهر فى الاجسام لافى الاعراض *والجواب اماقوله واذتخلق وقوله

وهؤلاء لايقدرون على التصرف فى ضر مايدفعوه عن أنفسهم ولافى نفع ماحتى يجلبوه اليهم فكيف يملكون شيأ منهما لغيرهم وتقديم ذكر الضر لان دفعه مع كونه أهم فى نفسه أول مراتب النفع وأقدمها والتنصيص على قوله تعالى (ولايملكون موتا ولاحياة ولانشورا)

أى لايقدرون على التصرف فى شئ منها بامانة الاحياء واحياء الموتى و بعثهم بعد بيان عجزهم عماهو أهون
من هذه الامور من دفع الضر وجلب النفع للتصريح بعجزهم عن كل واحد مماذكر على التفصيل والتنبيه على
أن الاله يجب أن يكون قادرا على جميع ذلك وفيه ايذان بغاية جهلهم وسخافة عقولهم كأنهم
غيرعارفين بانتفاء ماذكر عن آلهتهم من الامور المذكورة مفتقرون الى التصريح بذلك (وقال الذين كفروا ان هذا الافك) شروع فى حكاية أباطيلهم المتعلقة بالمنزل والمنزل عليه معا وابطالها والموصول اماعبارة عن غلاتهم فى الكفر والطغيان وهم النضر ابن الحرث وعبد الله بن أمية ونوفل بن خويلد ومن ضامهم وروى عن الكلبى ومقاتل أن القائل هو النضر بن الحرث والجمع لمشايعة الباقين له فى ذلك واما عن كلهم ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بمافى حيز الصلة والايذان بان مانفوهوا به كفر عظيم وفى كلمة هذا حط لرتبة المشار اليه اى ماهذا الاكذب مصروف عن وجهه (افتراه) يريدون أنه اختلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم (وأعانه عليه) أى على اختلاقه (قوم آخرون) يعنون اليهود بان يلقوا اليه
أخبار الامم الدارجة وهو يعبر عنها بعبارته وقيل هما جبر ويسار كانا يصنعان السيف بمكة ويقرآن التوراة والانجيل وقيل هو عابس وقدمر تفصيله فى سورة النحل (فقدجاؤا ظلما) منصوب بجاؤا وأتى يستعملان فى معنى فعل

أحسن الخالقين فهما معارضان بقوله الله خالق كل شئ و بقوله هل من خالق غيرالله واما قوله لايجوز التمدح بخلق الفساد قلنا لم لايجوز أن يقع التمدح به نظرا الى تقادير القدرة والى ان صفة الايجاد من العدم والاعدام من الوجود ليست الا لله وأما قوله الخلق لايتناول الا الاجسام فنقول لوكان كذلك لكان قوله خالق كل شئ خطأ لانه يقتضى اضافة الخلق الى جميع الاشياء مع انه لايصح فى العقل اضافته اليها (السؤال الثانى) فى الخلق معنى التقدير فقوله وخلق كل شئ فقدره تقديرا معناه وقدر كل شئ فقدره تقديرا (والجواب) المعنى أحدث كل شئ احداثا يراعى فيه التقدير والتسوية فقدره تقديرا وهيأه لمايصلح له مثاله انه خلق الانسان على هذا الشكل المقدر المستوى الذى ترا فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به فى باب الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة بامثلة الحكمة والتدبير فقدره لامر ما ومصلحة مامطابقا لماقدر غيرمتخلف عنه (السؤال الثالث) هل فى قوله فقدره تقديرا دلالة على مذهبكم (الجواب) نعم وذلك من وجوه (أحدها) ان التقدير فى حقنا يرجع الى الظن والحسبان امافى حقه سبحانه فلامعنى له الا العلم به والاخبار عنه وذلك متفق عليه بيننا و بين المعتزلة فماعلم فى الشئ الفلانى انه لايقع فلووقع الشئ لزم انقلاب علمه جهلا وانقلاب خبره الصدق كذباوذلك محال والمفضى الى المحال محال فاذن وقوع ذلك الشئ محال والمحال غيرمراد فذلك الشئ غيرمراد وانه مأمور به فثبت ان الامر والارادة لايتلازمان وظهر ان السعيد من سعد فى بطن أمه والشقى من شقى فى بطن أمه (وثانيها) انه عند حصول القدرة والداعية الخالصة ان وجب الفعل كان فعل العبد يوجب فعل الله تعالى وحينئذ يبطل قول المعتزلة وان لم يجب فان استغنى عن المرجح فقد وقع الممكن لاعن مرجح وتجويزه يسد باب اثبات الصانع وان لم يستغن عن المرجح فالكلام يعود فى ذلك المرجح ولاينقطع الاعند الانتهاء الى واجب الوجود (وثالثها) ان فعل العبد لووقع بقدرته لماوقع الا الشئ الذى أراد تكوينه وايجاده لكن الانسان لايريد الا العلم والحق فلايحصل له الا الجهل والباطل فلوكان الامر بقدرته لما كان كذلك فان قيل انما كان لانه اعتقد شبهة أوجبت له ذلك الجهل قلنا ان اعتقد تلك الشبهة لشبهة أخرى لزم التسلسل وهومحال فلابد من الانتهاء الى جهل أول ووقع فى قلب الانسان لابسبب جهل سابق بل الانسان أحدثه ابتداء من غير موجب وذلك محال لان الانسان قط لايرضى لنفسه بالجهل ولايحاول تحصيل الجهل لنفسه بل لايحاول الا العلم فوجب أن لايحصل له الا ماقصده وأراده وحيث لم يكن كذلك علمنا ان الكل بقضاء سار وقدر نافذ وهو المراد من قوله وخلق كل شئ فقدره تقديرا * قوله تعالى (واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيأ وهم يخلقون ولايملكون لانفسهم ضرا ولانفعا ولايملكون موتا ولاحياة ولانشورا) اعلم انه سبحانه وتعالى لماوصف نفسه بصفات

﴿الجلال﴾

فيعديان تعديته أو بنزع الخافض أى بظلم قاله الزجاج والتنوين للتفخيم أى جاؤا بماقالوا ظلما هائلا عظيما لايقادر قدره حيث جعلوا الحق البحت الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه افكا مفترى من قبل البشر وهو من جهة نظمه الرائق وطرزه الفائق بحيث لواجتمعت الانس والجن على مباراته لعجزوا

الجلال والعزة والعلو أردف ذلك بتزييف مذهب عبدة الاوثان و بين نقصانها من وجوه (أحدها) انها ليست خالقة للاشياء والاله يجب أن يكون قادرا على الخلق والايجاد (وثانيها) انها مخلوقة والمخلوقة محتاج والاله يجب أن يكون غنيا (وثالثها) انها لاتملك لانفسها ضرا ولانفعا ومن كان كذلك فهو لايملك لغيره أيضا نفعا ومن كان كذلك فلا فائدة فى عبادته (ورابعها) انها لاتملك موتا ولاحياة ولانشورا أى لاتقدر على الاحياء والاماتة فى زمان التكليف وثانيا فى زمان المجازاة ومن كان كذلك كيف يسمى الها وكيف يحسن عبادته مع ان حق من يحق له العبادة ان ينعم بهذا النعم المخصوصة وههنا سؤالات (الاول) قوله واتخذوا من دونه آلهة هل يختص بعبدة الاوثان أو يدخل فيه النصارى وعبدة الكواكب وعبدة الملائكة (والجواب) قال القاضى بعيد أن يدخل فيه النصارى لانهم لم يتخذوا من دون الله آلهة على الجمع فالاقرب ان المراد به عباد الاصنام و يجوز أن يدخل فيه من عبد الملائكة لان لمعبودهم كثرة ولقائل أن يقول قوله واتخذوا صيغة جمع وقوله آلهة جمع والجمع اذاقوبل بالجمع يقابل المفرد بالمفرد فلم يكن كون معبود النصارى واحدا مانعا من دخوله تحت هذا اللفظ (السؤال الثانى) احتج بعض أصحابنا بقوله واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقون على ان فعل العبد مخلوق لله تعالى فقال ان الله تعالى عاب هؤلاء الكفار من حيث عبدوا مالايخلق شيئا وذلك يدل على ان من خلق يستحق أن يعبد فلو كان العبد خالقا لكان معبودا الها أجاب الكعبى عنه بانا لانطلق اسم الخالق الاعلى الله تعالى وقال بعض أصحابنا فى الخلق انه الاحداث لابعلاج وفكر وتعب ولايكون ذلك الا لله تعالى ثم قال وقد قال تعالى ألهم أرجل يمشون بها فى وصف الاصنام أفيدل ذلك على أن كل من له رجل يستحق أن يعبد فاذاقالوا لاقيل فكذلك ماذكرتم وقد قال تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين هذا كله كلام الكعبى والجواب قوله لايطلق اسم الخالق على العبد قلنا بل يجب ذلك لان الخلق فى اللغة هو التقدير والتقدير يرجع الى الظن والحسبان فوجب أن يكون اسم الخالق حقيقة فى العبد مجازا فى الله تعالى فكيف يمكنكم منع اطلاق لفظ الخالق على العبد اماقوله تعالى ألهم ارجل يمشون بها فالعيب انماوقع عليهم بالعجز فلاجرم ان كل من تحقق العجز فى حقه من بعض الوجوه لم يحسن عبادته وأماقوله تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين فقد تقدم الكلام عليه واعلم أن هذه الآية لايقوى استدلال أصحابنا بها لاحتمال ان العيب لايحصل الابمجموع أمرين أحدهما انهم ليسوا بخالقين والثانى أنهم مخلوقون والعبد وان كان خالقا الاأنه مخلوق فلزم أن لايكون الهامعبودا (السؤال الثالث) هل تدل هذه الآية على البعث الجواب نعم لانه تعالى ذكر النشور ومعناه ان المعبود يجب أن يكون قادرا على ايصال الثواب الى المطيعين والعقاب الى العصاة فمن لايكون كذلك وجب أن لايصلح للالهية * قوله تعالى (وقال الذين كفروا ان هذا

عن الاتيان بمثل آية من آياته ومن جهة أشتماله على الحكم الخفية والاحكام المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية والامور الغيبية بحيث لاتناله عقول البشر ولاتفى بفهمه القوى والقدر (وزورا) أى كذبا كبيرا لايبلغ غايته حيث نسبوا اليه عليه الصلاة والسلام ماهو برىء منه والفاء للترتيب ما بعدها على ماقبلها لكن لاعلى أنهما أمران متغايران حقيقة يقع أحدهما عقيب الآخر أو يحصل بسببه بل على أن الثانى هو عين الاول حقيقة وانما الترتيب بحسب التغاير الاعتبارى وقد لتحقيق ذلك المعنى فان ماجاؤه من الظلم والزور هو عين ماحكى عنهم لكنه لماكان مغايرا له فى المفهوم وأظهر منه بطلانا رتب عليه بالفاء ترتيب اللازم على الملزوم تهويلا لامره (وقالوا أساطير الاولين) بعدماجعلوا الحق الذى لامحيد عنه افكا مختلقا باعانة البشر بينوا على زعمهم الفاسد كيفية الاعانة والاساطير جمع اسطار أواسطورة كاحدوثة وهى ماسطره المتقدمون من الخرافات (اكتتبها) أى كتبها لنفسه على الاسناد المجازى أواستكتبها وقرىء على البناء للمفعول

لانه عليه الصلاة والسلام أمي وأصله اكتتبهاله كاتب فحذف اللام وأفضى الفعل الى الضمير فصار اكتتبها اياه كاتب ثم حذف الفاعل لعدم تعلق الغرض العلمي بخصوصه وبني الفعل للضمير المتصل فاستتر فيه (فهي تملى عليه) أي تلقى عليه تلك الاساطير بعدا كتتابها ﴿٤٤٨﴾ ليحفظها من أفواه من يمليها عليه من ذلك

الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤا ظلما وزورا وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض انه كان غفورا رحيما وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا)

اعلم انه سبحانه تكلم أولا في التوحيد وثانيا في الرد على عبدة الاوثان وثالثا في هذه الآية تكلم في مسئلة النبوة وحكى سبحانه شبههم في انكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (الشبهة الاولى) قولهم ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ونظيره قوله تعالى انما يعلمه بشر واعلم انه يحتمل أن يريدوا به انه كذب في نفسه ويحتمل أن يريدوا به انه كذب في اضافته الى الله تعالى ثم ههنا بحثان (الاول) قال أبو مسلم الافتراء افتعال من فريت وقد يقال في تقدير الاديم فريت الاديم فاذا أريد قطع الافساد قيل افريت وافتريت وخلقت واختلقت ويقال فيمن شتم امرأ بماليس فيه افترى عليه (الثاني) قال الكلبي ومقاتل نزلت في النضر بن الحرث فهو الذي قال هذا القول وأعانه عليه قوم آخرون يعني عداس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار غلام عامر بن الحضرمي وجبر مولى عامر وهؤلاء الثلاثة كانوا من أهل الكتاب وكانوا يقرؤن التوراة ويحدثون أحاديث منها فلما أسلموا وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتعهدهم فمن أجل ذلك قال النضر ما قال واعلم ان الله تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله فقد جاؤا ظلما وزورا وفيه ابحاث (الاول) ان هذا القدر انما يكفي جوابا عن الشبهة المذكورة لانه قد علم كل عاقل انه عليه السلام تحداهم بالقرآن وهم النهاية في الفصاحة وقد بلغوا في الحرص على ابطال أمره كل غاية حتى أخرجهم ذلك الى ما وصفوه به في هذه الآيات فلو أمكنهم ان يعارضوه لفعلوا ولكان ذلك أقرب الى أن يبلغوا مرادهم فيه مما أوردوه في هذه الآية وغيرها ولو استعان محمد عليه السلام في ذلك بغيره لأمكنهم أيضا أن يستعينوا بغيرهم لان محمدا صلى الله عليه وسلم كأولئك المنكرين في معرفة اللغة وفي المكنة من الاستعانة فلما لم يفعلوا ذلك والحالة هذه علم ان القرآن قد بلغ النهاية في الفصاحة وانتهى الى حد الاعجاز ولما تقدمت هذه الدلالة مرات وكرات في القرآن وظهر بسببها سقوط هذا السؤال ظهر ان اعادة هذا السؤال بعد تقدم هذه الادلة الواضحة لايكون الا للتمادي في الجهل والعناد فلذلك اكتفى الله في الجواب بقوله فقد جاؤا ظلما وزورا (البحث الثاني) قال الكسائي قوله تعالى فقد جاؤا ظلما وزورا أي أتوا ظلما وكذبا وهو كقوله لقد جئتم شيئا ادا فانتصب بوقوع المجئ عليه وقال الزجاج انتصب بنزع الخافض أي جاؤا بالظلم والزور (البحث الثالث) ان الله تعالى وصف كلامهم بانه ظلم وبأنه زور أما انه ظلم فلانهم نسبوا هذا الفعل القبيح الى من كان مبرأ عنه فقد وضعوا الشئ في غير موضعه وذلك هو الظلم

المكتتب لكونه أميا لايقدر على أن يتلقاها منه بالقراءة أو تملى على الكاتب على أن معنى اكتتبها أراد اكتتابها أو استكتابها ورجع الضمير المجرور اليه عليه الصلاة والسلام لاسناد الكتابة في ضمن الاكتتاب اليه عليه الصلاة والسلام (بكرة وأصيلا) أى دائما أو خفية قبل انتشار الناس وحين يأوون الى مساكنهم انظر الى هذه الرتبة من الجراءة العظيمة قاتلهم الله أنى يؤفكون (قل) لهم ردا عليهم وتحقيقا للحق (أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض) وصفه تعالى باحاطة علمه بجميع المعلومات الجلية والخفية للايذان بانطواء ما أنزله على أسرار مطوية عن عقول البشر مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم المحكية التي هي من جملة معلوماته تعالى أي ليس ذلك مما يفترى ويفتعل باعانة قوم وكتابة آخرين من الاحاديث الملفقة وأساطير الاولين بل هو أمر سماوي أنزله الله الذي لايعزب عن علمه شئ من الاشياء وأودع فيه فنون الحكم والاسرار على وجه بديع لايحوم حوله الافهام حيث أعجزكم ﴿ وأما

وأما الزور فلانهم كذبوا فيه وقال أبو مسلم الظلم تكذيبهم الرسول والرد عليه والزور كذبهم عليه (الشبهة الثانية لهم) قوله تعالى وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا وفيه ابحاث (البحث الاول) الاساطير ما سطره المتقدمون كاحاديث رستم واسفنديار جمع اسطار أو اسطورة كاحدوثة اكتتبها انتسخها محمد من أهل الكتاب يعنى عامرا ويسارا وجبرا ومعنى اكتتب ههنا أمر أن يكتب له كمايقال احتجم وافتصد اذا أمر بذلك فهى تملى عليه أى تقرأ عليه والمعنى انها كتبت له وهو أمى فهى تلقى عليه من كتابه ليحفظها لان صورة الالقاء على الحافظ كصورة الالقاء على الكاتب اما قوله بكرة وأصيلا فقال الضحاك مايملى عليه بكرة يقرؤه عليكم عشية ومايملى عليه عشية يقرؤه عليكم بكرة (البحث الثانى) قال الحسن قوله فهى تملى عليه بكرة وأصيلا كلام الله ذكره جوابا عن قولهم كأنه تعالى قال ان هذه الآيات تملى عليه الوحى حالا بعد حال فكيف ينسب الى أنه أساطير الاولين وأما جمهور المفسرين فقد اتفقوا على ان ذلك من كلام القوم وأرادوا به ان أهل الكتاب أملوا عليه فى هذه الاوقات هذه الاشياء ولاشك ان هذا القول أقرب لوجوه أحدها شدة تعلق هذا الكلام بماقبله فكأنهم قالوا اكتتب أساطير الاولين فهى تملى عليه وثانيها ان هذا هو المراد بقولهم وأعانه عليه قوم آخرون وثالثها انه تعالى أجاب بعد ذلك عن كلامهم بقوله قل أنزله الذى يعلم السر قال صاحب الكشاف وقول الحسن انما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذى فى معنى الانكار وحق الحسن أن يقف على الاولين وأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض انه كان غفورا رحيما (وفيه ابحاث البحث الاول) فى بيان ان هذا كيف يصلح أن يكون جوابا عن تلك الشبهة وتقريره ماقدمنا انه عليه السلام تحداهم بالمعارضة وظهر عجزهم عنها ولوكان عليه السلام أتى بالقرآن بان استعان باحد لكان من الواجب عليهم أيضا أن يستعينوا باحد فيأتوا بمثل هذا القرآن فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحى الله وكلامه فلهذا قال قل أنزله الذى يعلم السر وذلك لان القادر على تركيب ألفاظ القرآن لابد وأن يكون عالما بكل المعلومات ظاهرها وخافيها من وجوه أحدها أن مثل هذه الفصاحة لايتأتى الامن العالم بكل المعلومات (وثانيها) ان القرآن مشتمل على الاخبار عن الغيوب وذلك لايتأتى الامن العالم بكل المعلومات (وثالثها) ان القرآن مبرأ عن النقص وذلك لايتأتى الامن العالم على ماقال تعالى ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (ورابعها) اشتماله على الاحكام التى هى مقتضية لمصالح العالم ونظام العباد وذلك لايكون الامن العالم بكل المعلومات (وخامسها) اشتماله على أنواع العلوم وذلك لايتأتى الامن العالم بكل المعلومات فلمادل القرآن من هذه الوجوه على انه ليس الاكلام العالم بكل المعلومات لاجرم اكتفى فى جواب شبههم بقوله قل أنزله الذى يعلم السر (البحث الثانى) اختلفوا فى المراد بالسر فمنهم من قال المعنى

قاطبة بفصاحته وبلاغته واخبركم بغيبات مستقبلة وأمور مكنونة لايهتدى اليها ولايوقف عليها الابتوفيق العليم الخبير وقدجعلتموه افكا مفترى من قبيل الاساطير واستوجبتم بذلك أن يصب عليكم سوط العذاب صبا فقوله تعالى (انه كان غفورا رحيما) تعليل لماهو المشاهد من تأخير العقوبة أى انه تعالى ازلا وأبدا مستمر على المغفرة والرحمة المستتبعين للتأخير فلذلك لايعجل بعقوبتكم على ماتقولون فى حقه مع كمال استيجابه اياها وغاية قدرته تعالى عليها (وقالوا مال هذا الرسول) شروع فى حكاية جنايتهم المتعلقة بخصوصية المنزل عليه وما استفهامية بمعنى انكار الوقوع ونفيه مرفوعة على الابتداء خبرها مابعدها من الجار والمجرور وفى هذا تصغير لشأنه عليه الصلاة والسلام وتسميته عليه الصلاة والسلام رسولا بطريق الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام كماقال فرعون ان رسولكم الذى أرسل اليكم وقوله تعالى (يأكل الطعام) حال من الرسول والعامل فيها ماعمل فى الجار من معنى الاستقرار أى أى شئ وأى سبب حصل لهذا الذى يدعى الرسالة حال كونه يأكل الطعام كمانأكل (ويمشى فى الاسواق) لابتغاء الارزاق كمانفعله على توجيه الانكار والنفى الى السبب فقط مع تحقق المسبب الذى هو مضمون الجملة الحالية كما

ان العالم بكل سر فى السموات والارض هو الذى يمكنه انزال مثل هذا الكتاب وقال أبو مسلم المعنى أنه انزله من يعلم السر فلو كذب عليه لانتقم منه لقوله تعالى ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين وقال آخرون المعنى أنه يعلم كل سر خفى فى السموات والارض ومن جملته ماتسرونه أنتم من الكيد لرسوله مع علمكم بأن مايقوله حق ضرورة وكذلك باطن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبراءته مما تتهمونه به وهو سبحانه مجازيكم ومجاز على ماعلم منكم وعلم منه (البحث الثالث) انما ذكر الغفور الرحيم فى هذا الموضع لوجهين الاول قال أبو مسلم المعنى انه انما انزله لاجل الانذار فوجب أن يكون غفورا رحيما غير مستعجل فى العقوبة الثانى انه تنبيه على انهم استوجبوا بمكايدتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبا ولكن صرف ذلك عنهم كونه غفورا رحيما يمهل ولا يعجل (الشبهة الثالثة) وهى فى نهاية الركاكة ذكروا له صفات خمسة فزعموا أنها تخل بالرسالة احداها قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام وثانيتها قولهم ويمشى فى الاسواق يعنى انه لما كان كذلك فمن اين له الفضل علينا وهو مثلنا فى هذه الامور وثالثها قولهم لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا يصدقه أو يشهد له ويرد على من خالفه ورابعتها قولهم أو يلقى اليه كنز أى من السماء فينفقه فلا يحتاج الى التردد لطلب المعاش وخامستها قولهم اوتكون له جنة يأكل منها قرأ حمزة والكسائى نأكل منها بالنون وقرأ الباقون بالياء والمعنى ان لم يكن لك كنز فلا اقل من أن تكون كواحد من الدهاقين فيكون لك بستان تأكل منه وسادستها قولهم ان تتبعون الا رجلا مسحورا وقد تقدمت هذه القصة فى آخر سورة بنى اسرائيل فاجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه أحدها قوله انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا وفيه أبحاث الاول ان هذا كيف يصلح أن يكون جوابا عن تلك الشبهة وبيانه ان الذى يتميز الرسول به عن غيره هو المعجزة وهذه الاشياء التى ذكروها لايقدح شئ منها فى المعجزة فلا يكون شئ منها قادحا فى النبوة فكأنه تعالى قال انظر كيف اشتغل القوم بضرب هذه الامثال التى لافائدة فيها لاجل انهم لما ضلوا وارادوا القدح فى نبوتك لم يجدوا الى القدح فيه سبيلا البتة اذ الطعن عليه انما يكون بما يقدح فى المعجزات التى ادعاها لا بهذا الجنس من القول وفيه وجه آخر وهو انهم لما ضلوا لم يبق فيهم استطاعة قبول الحق وهذا انما يصح على مذهبنا وتقريره بالعقل ظاهر وذلك لان الانسان اما ان يكون مستوى الداعى الى الحق والباطل واما أن يكون داعيته الى أحدهما أرجح من داعيته الى الثانى فان كان الاول فحال الاستواء ممتنع الرجحان فيمتنع الفعل وان كان الثانى فحال رجحان احد الطرفين يكون حصول الطرف الآخر ممتنعا فثبت ان حال رجحان الضلالة فى قلبه استحال منه قبول الحق وماكان محالا لم يكن عليه قدرة فثبت انهم لما ضلوا ماكانوا مستطيعين قوله تعالى ❁(تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الانهار ويجعل ❁ لك ❁)

فى قوله تعالى خالهم لايؤمنون وقوله مالكم لاترجون لله وقارا فكما أن كلامن عدم الايمان وعدم الرجاء أمر محقق قد أنكر واستبعد تحققه لانتفاء سببه بل لوجود سبب نقيضه كذلك كل من الاكل والمشى أمر محقق قد استبعد تحققه لانتفاء سببه بل لوجود سبب عدمه خلا أن استبعاد المسبب وانكار السبب ونفيه فى عدم الايمان وعدم الرجاء بطريق التحقيق وفى الاكل والمشى بطريق التهكم والاستهزاء فانهم لايستبعدونهما ولا ينكرون سببهما حقيقة بل هم معترفون بوجودهما وتحقق سببهما وانما الذى يستبعدونه الرسالة المنافية لهما على زعمهم يعنون أنه ان صح مايدعيه فما باله لم يخالف حالنا وهل هو الالعمههم وركاكة عقولهم وقصور انظارهم على المحسوسات فان تميز الرسل عمن عداهم ليس بامور جسمانية وانما هو بامور روحانية كما أشير اليه بقوله تعالى قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد (لولا أنزل اليه ملك) أى على صورته وهيئته (فيكون معه نذيرا) تنزل منهم من اقتراح أن يكون ملكا مستغنيا عن الاكل والشرب الى اقتراح أن يكون معه ملك يصدقه ويكون ردأله فى الانذار وهو يعبر عنه ويفسره مايقوله للعامة وقوله تعالى (أو يلقى اليه كنز) تنزل من تلك المرتبة

لك قصورا بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا و زفيرا واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا) اعلم ان هذا هو الجواب الثانى عن تلك الشبهة فقوله تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك أى من الذى ذكروه من نعم الدنيا كالكنز والجنة وفسر ذلك الخير بقوله جنات تجرى من تحتها الانهار و يجعل لك قصورا نبه بذلك سبحانه قادر على أن يعطى الرسول كل ماذكروه ولكنه تعالى يدبر عباده بحسب المصالح او على وفق المشيئة ولا اعتراض لاحد عليه فى شئ من افعاله فيفتح على واحد ابواب المعارف والعلوم و يسد عليه ابواب الدنيا وفى حق الآخر بالعكس وماذاك الا أنه فعال لما يريد وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس خيرا من ذلك مما عيروك بفقده الجنة لانهم عيروك بفقد الجنة الواحدة وهو سبحانه قادر على ان يعطيك جنات كثيرة وقال فى رواية عكرمة خيرا من ذلك أى من المشى فى الاسواق وابتغاء المعاش (المسئلة الثانية) قوله ان شاء معناه انه سبحانه قادر على ذلك لا أنه تعالى شاك لان الشك لا يجوز على الله تعالى وقال قوم ان ههنا بمعنى اذا أى قد جعلنا لك فى الآخرة جنات و بنينا لك قصورا وانما أدخل ان تنبيها للعباد على انه لا ينال ذلك الا برحمته وانه معلق على محض مشيئته وانه ليس لاحد من العباد على الله حق لا فى الدنيا ولا فى الآخرة (المسئلة الثالثة) القصور جماعة قصر وهو المسكن الرفيع و يحتمل أن يكون لكل جنة قصر فيكون مسكنا ومنزها و يجوز أن يكون القصور مجموعة والجنات مجموعة وقال مجاهد ان شاء جعل لك جنات فى الآخرة وقصورا فى الدنيا (المسئلة الرابعة) اختلف القراء فى قوله و يجعل فرفع ابن كثير وابن عامر وعاصم اللام وجزمه الآخرون فمن جزم فلان المعنى ان شاء يجعل لك جنات و يجعل لك قصورا ومن رفع فعلى الاستئناف والمعنى سيجعل لك قصورا هذا قول الزجاج قال الواحدى و بين القراءتين فرق فى المعنى فمن جزم فالمعنى ان شاء يجعل لك قصورا فى الدنيا ولا يحسن الوقوف على الانهار ومن رفع حسن له الوقوف على الانهار واستأنف و يجعل أى و يجعل لك قصورا فى الآخرة وفى مصحف ابى وابن مسعود تبارك الذى ان شاء يجعل (المسئلة الخامسة) عن طاوس عن ابن عباس قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس و جبريل عليه السلام عنده قال جبريل عليه السلام هذا ملك قد نزل من السماء استأذن ربه فى زيارتك فلم يلبث الا قليلا حتى جاء الملك وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان الله يخيرك بين ان يعطيك مفاتيح كل شئ لم يعطها احدا قبلك ولا يعطيه احدا بعدك من غير ان ينقصك مما ادخر لك شيئا فقال عليه السلام بل يجمعها جميعا لى فى الآخرة فنزل قوله تبارك الذى ان شاء الآية وعن ابن عباس قال عليه السلام عرض على جبريل بطحاء مكة ذهبا فقلت بل شبعة وثلاث جوعات وذلك اكثر لذكرى ومسئلتى لربى وفى رواية صفوان بن سليم عن عبد الوهاب

الى اقتراح ان يلقى اليه من السماء كنز يستظهر به ولا يحتاج الى طلب المعاش و يكون دليلا على صدقه وقوله تعالى (أو تكون له جنة يأكل منها) تنزل من ذلك الى اقتراح ماهو ايسر منه وأقرب من الوقوع وقرئ نأكل بنون الحكاية وفيه مزيد مكابرة وفرط تحكم (وقال الظالمون) هم القائلون الاولون وانما وضع المظهر موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد فيما قالوه لكونه اضلالا خارجا عن حد الضلال مع ما فيه من نسبته عليه الصلاة والسلام الى المسحورية أى قالوا للمؤمنين (ان تتبعون) أى ما تتبعون (الا رجلا مسحورا) قد سحر فغلب على عقله وقيل ذا سحر وهى الرئة أى بشرا لا ملكا على أن الوصف لزيادة التقرير والاول هو الانسب بحالهم (انظر كيف ضربوا لك الامثال) استعظام للاباطيل التى اجترءوا على التفوه بها وتعجيب منها أى انظر كيف قالوا فى حقك تلك الاقاويل العجيبة الخارجة عن العقول الجارية لغرابتها مجرى الامثال واخترعوا لك تلك الصفات والاحوال الشاذة البعيدة من الوقوع (فضلوا) أى عن طريق المحاجة حيث لم يأتوا بشئ يمكن صدوره عمن له أدنى عقل وتمييز فبقوا متحيرين (فلا يستطيعون سبيلا) الى القدح فى نبوتك بأن يجدوا قولا يستقرون عليه وان

الاقتراح الاخير فانه غير مناف للحكمة بالكلية فان بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوتوا فى الدنيا مع النبوة ملكا عظيما (بل كذبوا بالساعة) اضراب عن توبيخهم بحكاية جنايتهم السابقة وانتقال منه الى توبيخهم بحكاية جناياتهم الاخرى للتخلص الى بيان مالهم فى الآخرة بسببها من فنون العذاب بقوله تعالى (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) الخ أى أعتدنا لهم نارا عظيمة شديدة الاشتعال شأنها كيت وكيت بسبب تكذيبهم بها على ما يشعر به وضع الموصول موضع ضميرهم أو لكل من كذب بها كائنا من كان وهم داخلون فى زمرتهم دخولا أوليا ووضع الساعة موضع ضميرها للمبالغة فى التشنيع ومدار اعتاد السعير لهم وان لم يكن مجرد تكذيبهم بالساعة بل مع تكذيبهم بسائر ما جاء به الشريعة الشريفة لكن الساعة لما كانت هى العلة القريبة لدخولهم السعير أشير الى سببية تكذيبها لدخولها وقيل هو عطف على وقالوا ما لهذا الخ على معنى بل أتوا بأعجب من ذلك حيث كذبوا بالساعة وأنكروها والحال أنا قد أعتدنا لكل من كذب بها سعيرا فان جراءتهم على التكذيب بها وعدم خوفهم مما أعد لمن كذب بها من أنواع العذاب أعجب من القول السابق وقيل هو متصل بما

جهلا وهذا الانقلاب محال والمؤدى الى المحال محال فصيرورة أولئك مؤمنين من أهل الثواب محال فثبت ان السعيد لا ينقلب شقيا والشقى لا ينقلب سعيدا ثم انه سبحانه وتعالى وصف السعير بصفات احداها قوله اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) السعير مذكر ولكن جاء ههنا مؤنثا لانه تعالى قال رأتهم وقال سمعوا لها وانما جاء مؤنثا على معنى النار (المسئلة الثانية) مذهب أصحابنا ان البنية ليست شرطا فى الحياة فالنار على ما هى عليه يجوز ان يخلق الله الحياة والعقل والنطق فيها وعند المعتزلة ذلك غير جائز وهؤلاء المعتزلة ليس لهم فى هذا الباب حجة الا استقراء العادات ولو صدق ذلك لوجب التكذيب بانخراق العادات فى حق الرسل فهؤلاء قولهم متناقض بل انكار العادات لا يليق الا بأصول الفلاسفة فعلى هذا قال اصحابنا قول الله تعالى فى صفة النار اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا يجب اجراؤه على الظاهر لانه لا امتناع فى أن تكون النار حية رائية مغتاظة على الكفار اما المعتزلة فقد احتاجوا الى التأويل وذكروا فيه وجوها أحدها قالوا معنى رأتهم ظهرت لهم من قولهم دورهم تتراءى وتتناظر وقال عليه السلام ان المؤمن والكافر لا تتراءى ناراهما أى لا تتقابلان لما يجب على المؤمن من مجانبة الكافر والمشرك ويقال دور فلان متناظرة أى متقابلة وثانيها ان أن النار لشدة اضطرامها وغليانها صارت ترى الكفار وتطلبهم وتتغيظ عليهم وثالثها قال الجبائى ان الله تعالى ذكر النار وأراد الخزنة الموكلة بتعذيب أهل النار لان الرؤية تصح منهم ولا تصح من النار فهو كقوله واسأل القرية أراد أهلها (المسئلة الثالثة) لقائل أن يقول التغيظ عبارة عن شدة الغضب وذلك لا يكون مسموعا فكيف قال الله تعالى سمعوا لها تغيظا وزفيرا والجواب عنه من وجوه أحدها أن التغيظ وان لم يسمع فانه قد يسمع ما يدل عليه من الصوت وهو كقوله رأيت غضب الامير على فلان اذا رأى ما يدل عليه وكذلك يقال فى المحبة فكذا ههنا والمعنى سمعوا لها صوتا يشبه صوت المتغيظ وهو قول الزجاج وثانيها المعنى علموا لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا وهذا قول قطرب وهو كقول الشاعر متقلدا سيفا ورمحا وثالثها المراد تغيظ الخزنة (المسئلة الرابعة) قال عبيد بن عمير ان جهنم لتزفر زفرة لا يبقى أحد الا ترعد فرائصه حتى ان ابراهيم عليه السلام يجثو على ركبتيه ويقول نفسى نفسى (الصفة الثانية للسعير) قوله تعالى واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا واعلم أن الله سبحانه لما وصف حال الكفار حين ما يكونون بالبعد من جهنم وصف حالهم عند ما يلقون فيها نعوذ بالله منه بما لا شئ أبلغ منه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى ضيقا قراءتان التشديد والتخفيف وهو قراءة ابن كثير (المسئلة الثانية) نقل فى تفسير الضيق أمور قال قتادة ذكر لنا عبد الله بن عمر قال ان جهنم لتضيق على الكافر كضيق الزج على الرمح وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال والذى نفسى بيده انهم يستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط قال الكلبى

كان باطلا فى نفسه اوفضلوا عن الحق ضلالا مبينا فلا يجدون طريقا موصلا اليه فان من اعتاد استعمال أمثال هذه الاباطيل لا يكاد يهتدى الى استعمال المقدمات الحقة

(تبارك الذى) أى تكاثر وتزايد خيره الذى (ان شاء جعل لك) فى الدنيا عاجلا شيئا (خيرا) لك (من ذلك) الذى اقترحوه من أن تكون لك جنة تأكل منها بأن يجعل لك مثل ما وعدك فى الآخرة وقوله تعالى (جنات تجرى من تحتها الانهار) بدل من خير اومحقق لخيريته مما قالوا لان ذلك كان مطلقا عن قيد التعدد وجريان الانهار (ويجعل لك قصورا) عطف على محل الجزاء الذى هو جعل وقرئ بالرفع عطفا على نفسه لان الشرط اذا كان ماضيا جاز فى جزائه الرفع والجزم كما فى قول القائل * وان أتاه خليل يوم مسئلة * يقول لا غائب مالى ولا حرم * ويجوز أن يكون استئنافا بوعد ما يكون له فى الآخرة وقرئ بالنصب على أنه جواب بالواو وتعليق ذلك بمشيئته تعالى للايذان بان عدم جعلها بمشيئته المبنية على الحكم والمصالح وعدم التعرض لجواب الاقتراحين الاولين للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل واستغنائهما عن الجواب لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة التشريعية ﴿ جهلا ﴾ وانما الذى له وجه فى الجملة هو

قال عليه السلام اشبع يوما واجوع ثلاثا فاحمدك اذا شبعت واتضرع اليك اذا جعت وعن الضحاك لما عيرالمشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فنزل جبريل عليه السلام معزياله وقال ان الله يقرؤك السلام ويقول وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا انهم لياكلون الطعام الآية قال فبينما جبريل عليه السلام والنبى صلى الله عليه وسلم يتحدثان اذفتح باب من أبواب السماء لم يكن فتح قبل ذلك ثم قال أبشر يامحمد هذا رضوان خازن الجنة قداتاك بالرضا من ربك فسلم عليه وقال ان ربك يخيرك بين أن تكون نبيا ملكا وبين أن تكون نبيا عبدا ومعه سفط من نوريتلألأ ثم قال هذه مفاتيح خزائن الدنيا فاقبضها من غير ان ينقصك الله مما اعدلك فى الآخرة جناح بعوضة فنظر النبى صلى الله عليه وسلم الى جبريل كالمستشير فاومأ بيده أن تواضع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نبيا عبدا قال فكان عليه السلام بعد ذلك لم ياكل متكأ حتى فارق الدنيا اما قوله تعالى بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا فهذا جواب ثالث عن تلك الشبهة كأنه سبحانه قال ليس ماتعلقوا به شبهة علمية فى نفس المسئلة بل الذى حملهم على تكذيبك تكذيبهم بالساعة استثقالا للاستعداد لها ويحتمل أن يكون المعنى أنهم يكذبون بالساعة فلا يرجون ثوابا ولا عقابا ولا يتحملون كلفة النظر والفكر فلهذا لا ينتفعون بما يورد عليهم من الدلائل ثم قال وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا وفيه مسائل (الاولى) قال أبو مسلم وأعتدنا أى جعلناها عتيدا ومعدة لهم والسعير النار الشديدة الاستعار وعن الحسن انه اسم من اسماء جهنم (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا على ان الجنة مخلوقة بقوله تعالى اعدت للمتقين وعلى ان النار التى هى دار العقاب مخلوقة بهذه الآية وهى قوله واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا وقوله اعتدنا اخبار عن فعل وقع فى الماضى فدلت الآية على ان دار العذاب مخلوقة قال الجبائى يحتمل وأعتدنا النار فى الدنيا وبهما نعذب الكفار والفساق فى قبورهم ويحتمل نار الآخرة ويكون معنى وأعتدنا أى سنعتدها لهم كقوله ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار واعلم ان هذا السؤال فى نهاية السقوط لان المراد من السعير اما نار الدنيا واما نار الآخرة فان كان الاول فاما أن يكون المراد أنه تعالى يعذبهم فى الدنيا بنار الدنيا او يعذبهم فى الآخرة بنار الدنيا والاول باطل لانه تعالى ماعذبهم بالنار فى الدنيا والثانى أيضا باطل لانه لم يقل أحد من الامة انه تعالى يعذب الكفرة فى الآخرة بنيران الدنيا فثبت ان المراد نار الآخرة وثبت انها معدة وحمل الآية على ان الله سيجعلها معدة ترك للظاهر من غير دليل وعلى ان الحسن قال السعير اسم من أسماء جهنم فقوله واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا صريح فى انه تعالى اعد جهنم (المسئلة الثالثة) احتج أصحابنا بهذه الآية على ان السعيد من سعد فى بطن امه فقالوا ان الذين اعد الله تعالى لهم السعير واخبر عن ذلك وحكم به انصار وا مؤمنين من اهل الثواب انقلب حكم الله بكونهم من اهل السعير كذبا وانقلب بذلك علمه

قبله من الجواب المبنى على التحقيق المنبئ عن الوعد بالجنات فى الآخرة مسوق لبيان أن ذلك لا يجدى نفعا ولا يحلى بطائل على طريقة قول من قال * عوجو النعم ﴿ ٤٥٤ ﴾ فحيوا دمنة الدار * ماذا تحيون من نؤى وأحجار * والمعنى انهم لا يؤمنون بالساعة فكيف يقتنعون بهذا الجواب وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك فى الآخرة وقيل المعنى بل كذبوا بها فقصرت أنظارهم على الحظوظ الدنيوية وظنوا أن الكرامة ليست الا بالمال وجعلوا فقرك ذريعة الى تكذيبك وقوله تعالى (اذا رأتهم) الخ صفة للسعير أى اذا كانت منهم بمرأى الناظر فى البعد كقوله عليه الصلاة والسلام لا تتراءى ناراهما أى لا تتقاربان بحيث تكون احداهما بمرأى من الاخرى على المجاز كأن بعضها يرى البعض ونسبة الرؤية اليها لا اليهم للايذان بأن التغيظ والزفير منها لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها اياهم حقيقة أو تمثيلا ومن فى قوله تعالى (من مكان بعيد) اشعار بان بعد ما بينها وبينهم من المسافة حين رأتهم خارج عن حدود البعد المعتاد فى المسافات المعهودة وفيه مزيد تهويل لامرها قال الكلبى والسدى من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة سنة (سمعوا لها تغيظا وزفيرا) أى صوت تغيظ على تشبيه صوت غليانها بصوت

الاسفلون يرفعهم اللهيب والاعلون يخفضهم الداخلون فيزدحمون فى تلك الابواب الضيقة قال صاحب الكشاف الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والارض وجاء فى الاحاديث ان لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا ولقد جمع الله على أهل النار انواع البلاء حيث ضم الى العذاب الشديد الضيق (المسئلة الثالثة) قالوا فى تفسير قوله تعالى مقرنين فى الاصفاد ان أهل النار مع ما هم فيه من العذاب الشديد والضيق الشديد يكونون مقرنين فى السلاسل قرنت أيديهم الى اعناقهم وقيل يقرن مع كل كافر شيطانه فى سلسلة وفى أرجلهم الاصفاد ثم انه سبحانه حكى عن اهل النار انهم حين ما يشاهدون هذا النوع من العقاب الشديد دعوا ثبورا والثبور الهلاك ودعاؤهم ان يقولوا واثبوراه أى بان يقولوا ياثبور هذا حينك وزمانك وروى انس مرفوعا اول من يكسى حلة من النار ابليس فيضعها على جانبيه ويسحبها من خلفه ذريته وهو يقول ياثبوراه وينادون ياثبورهم حتى يردوا النار اما قوله لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا أى يقال لهم ذلك وهم احقاء بأن يقال لهم ذلك وان لم يكن ثمة قول ومعنى وادعوا ثبورا كثيرا انكم وقعتم فيما ليس ثبوركم منه واحدا انما هو ثبور كثير اما لان العذاب انواع والوان لكل نوع منها ثبورا لشدته وفظاعته أو لانهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها أو لان ذلك العذاب دائم خالص عن الشوب فلهم فى كل وقت من الاوقات التى لا نهاية لها ثبور أو لانهم ربما يجدون بسبب ذلك القول نوعا من الخفة فان المعذب اذا صاح وبكى وجد بسببه نوعا من الخفة فيزجرون عن ذلك ويخبرون بان هذا الثبور سيزداد كل يوم ليزداد حزنهم وغمهم نعوذ بالله منه قال الكلبى نزل هذا كله فى حق أبى جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبهات * قوله تعالى (قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا لهم فيها ما يشاؤن خالدين كان على ربك وعدا مسؤلا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما وصف حال العقاب المعد للمكذبين بالساعة اتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة فقال لرسوله قل أذلك خير أم جنة الخلد ان يلتمسوها بالتصديق والطاعة فان قيل كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلد وهل يجوز أن يقول العاقل السكر أحلى ام الصبر قلنا هذا يحسن فى معرض التقريع كما اذا اعطى السيد عبده مالا فتمرد وأبى واستكبر فيضربه ضربا وجيعا ويقول على سبيل التوبيخ هذا أطيب أم ذاك (المسئلة الثانية) احتج اصحابنا بقوله وعد المتقون على أن الثواب غير واجب على الله تعالى لان من قال السلطان وعد فلانا أن يعطيه كذا فانه يحمل ذلك على التفضيل فاما لو كان ذلك الاعطاء واجبا لا يقال انه وعده به أما المعتزلة فقد احتجوا به أيضا على مذهبهم قالوا انه سبحانه اثبت ذلك الوعد للموصوفين بصفة التقوى وترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية فكذا يدل هذا على أن ذلك الوعد انما حصل معللا بصفة التقوى والتفضيل غير

المغتاظ وزفيره وهو صوت يسمع من جوفه هذا وان الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية أمكن أن يخلق الله تعالى
فيها حياة فترى وتتغيظ وتزفر وقيل ان ذلك لزبانيتها فنسب اليها على حذف المضاف (واذا

مختص بالمتقين فوجب أن يكون المختص بهم واجبا (المسئلة الثالثة) قال أبو مسلم جنة الخلد هي التي لا ينقطع نعيمها والخلد والخلود سواء كالشكر والشكور قال الله تعالى لا نريد منكم جزاء ولا شكورا فان قيل الجنة اسم لدار الثواب وهي مخلدة فاى فائدة فى قوله جنة الخلد قلنا الاضافة قد تكون للتمييز وقد تكون لبيان صفة الكمال كما يقال الله الخالق البارئ وما هنا من هذا الباب * أما قوله كانت لهم جزاء ومصيرا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) المعتزلة احتجوا بهذه الآية على اثبات الاستحقاق من وجهين الاول أن اسم الجزاء لا يتناول الا المستحق فاما الوعد بمحض التفضيل فانه لا يسمى جزاء والثانى لو كان المراد من الجزاء الامر الذى يصيرون اليه بمجرد الوعد فحينئذ لا يبقى بين قوله جزاء و بين قوله مصيرا تفاوت فيصير ذلك تكرارا من غير فائدة قال أصحابنا رحمهم الله لا نزاع فى كونه جزاء انما النزاع فى أن كونه جزاء ثبت بالوعد أو بالاستحقاق وليس فى الآية ما يدل على التعيين (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة الآية تدل على ان الله تعالى لا يعفو عن صاحب الكبيرة من وجهين الاول أن صاحب الكبيرة يستحق العقاب فوجب أن لا يكون مستحقا للثواب لان الثواب هو النفع الدائم الخالص عن شوب الضرر والعقاب هو الضرر الدائم الخالص عن شوب النفع والجمع بينهما محال وما كان ممتنع الوجود امتنع أن يحصل استحقاقه فاذن متى ثبت استحقاق العقاب وجب أن يزول استحقاق الثواب فنقول لو عفا الله عن صاحب الكبيرة لكان اما ان يخرجه من النار ولا يدخله الجنة وذلك باطل بالاجماع لانهم أجمعوا على أن المكلفين يوم القيامة اما أن يكونوا من أهل الجنة أو من أهل النار لانه تعالى قال فريق فى الجنة وفريق فى السعير واما ان يخرجه من النار و يدخله الجنة وذلك باطل لان الجنة حق المتقين لقوله تعالى كانت لهم جزاء ومصيرا فجعل الجنة لهم ومختصة بهم و بين انها انما كانت لهم لكونها جزاء لهم على أعمالهم فكانت حقا لهم واعطاء حق الانسان لغيره لا يجوز ولما بطلت الاقسام ثبت أن العفو غير جائز (اجاب) اصحابنا لم لا يجوز ان يقال المتقون يرضون بادخال الله أهل العفو فى الجنة فحينئذ لا يمتنع دخولهم فيها الوجه الثانى قالوا المتقى فى عرف الشرع مختص بمن اتقى الكفر والكبائر وانا وان اختلفنا فى أن صاحب الكبيرة هل يسمى مؤمنا أم لا لكنا اتفقنا على انه لا يسمى متقيا ثم قال فى وصف الجنة انها كانت لهم جزاء ومصيرا وهذا للحصر والمعنى انها مصير للمتقين لا لغيرهم واذا كان كذلك وجب أن لا يدخلها صاحب الكبيرة قلنا اقصى ما فى الباب ان هذا عموم صريح فى الوعيد فنخصه بآيات الوعد (المسئلة الثالثة) لقائل ان يقول ان الجنة ستصير للمتقين جزاء ومصيرا لكنها بعد ما صارت كذلك فلم قال الله تعالى كانت لهم جزاء ومصيرا جوابه من وجهين الاول ان ما وعد الله فهو فى تحققه كأنه قد كان والثانى انه كان مكتوبا فى اللوح قبل أن يخلقهم الله تعالى بأزمنة متطاولة ان الجنة جزاؤهم ومصيرهم * أما قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن

ألقوا منها مكانا) نصب على الظرفية ومنها حال منه لانه فى الاصل صفة له (ضيقا) صفة لمكانا مفيدة لزيادة شدة فان الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة وهو السر فى وصف الجنة بان عرضها السموات والارض وعن ابن عباس وابن عمر رضى الله تعالى عنهم تضيق جهنم عليهم كما يضيق الزج على الرمح وسئل النبى عليه الصلاة والسلام عن ذلك فقال والذى نفسى بيده انهم ليستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط قال الكلبى الاسفلون يرفعهم اللهب والاعلون يحطهم الداخلون فيزدحمون فيها وقرئ ضيقا بسكون الياء (مقرنين) حال من مفعول ألقوا اى اذا ألقوا منها مكانا ضيقا حال كونهم مقرنين قد قرنت أيديهم الى أعناقهم بالجوامع وقيل مقرنين مع الشياطين فى السلاسل كل كافر مع شيطان وفى أرجلهم الاصفاد (دعوا هنالك)
أى فى ذلك المكان الهائل والحالة الفظيعة (ثبورا) أى يتمنون هلاكا وينادونه يا ثبوراه تعالى فهذا حينك وأوانك (لا تدعوا اليوم

خالدين فهو نظير قوله ولكم فيها ماتشتهى الانفس وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لقائل ان يقول أهل الدرجات النازلة اذا شاهدوا الدرجات العالية لابد وان يريدوها فاذا سألوها ربهم فان اعطاهم اياها لم يبق بين الناقص والكامل تفاوت فى الدرجة وان لم يعطها قدح ذلك فى قوله لهم فيها مايشاؤن وأيضا فالاب اذا كان ولده فى درجات النيران وأشد العذاب اذا اشتهى أن يخلصه الله تعالى من ذلك العذاب فلابد وان يسأل ربه ان يخلصه منه فان فعل الله تعالى ذلك قدح فى أن عذاب الكافر مخلد وان لم يفعل قدح ذلك فى قوله ولكم فيها ماتشتهى انفسكم وفى قوله لهم فيها مايشاؤن وجوابه ان الله تعالى يزيل ذلك الخاطر عن قلوب أهل الجنة بل يكون اشتغال كل واحد منهم بمافيه من اللذات شاغلا عن الالتفات الى حال غيره (المسئلة الثانية) شرط نعيم الجنة ان يكون دائما اذلو انقطع لكان مشوبا بضرب من الغم ولذلك قال المتنبى

اشد الغم عندى فى سرور ❊ تيقن عنه صاحبه انتقالا

ولذلك اعتبر الخلود فيه فقال لهم فيها مايشاؤن خالدين (المسئلة الثالثة) قوله تعالى لهم فيها مايشاؤن كالتنبيه على أن حصول المرادات بأسرها لايكون الا فى الجنة فاما فى غيرها فلا يحصل ذلك بل لابد فى الدنيا من أن تكون راحاتها مشوبة بالجراحات ولذلك قال عليه السلام من طلب مالم يخلق اتعب نفسه ولم يرزق فقيل وما هو يارسول الله فقال سرور يوم ❊ اما قوله كان على ربك وعدا مسؤلا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) كلمة على للوجوب قال عليه السلام من نذر وسمى فعليه الوفاء بما سمى فقوله كان على ربك يفيد أن ذلك واجب على الله تعالى والواجب هو الذى لولم يفعل لاستحق تاركه بفعله الذم أو انه الذى يكون عدمه ممتنعا فان كان الوجوب على التفسير الاول كان تركه محالا لان تركه لما استلزم استحقاق الذم واستحقاق الله تعالى الذم محال ومستلزم المحال محال كان ذلك الترك محالا والمحال غير مقدور فلم يكن لله تعالى قادرا على أن لايفعل فيلزم أن يكون ملجأ الى الفعل وان كان الوجوب على التفسير الثانى وهو ان يقال الواجب ما يكون عدمه ممتنعا يكون القول بالالجاء لازما فلم يكن الله قادرا فان قيل انه ثبت بحكم الوعد فنقول لولم يفعل لانقلب خبره الصدق كذبا وعلمه جهلا وذلك محال والمؤدى الى المحال محال فالترك محال فيلزم أن يكون ملجأ الى الفعل والملجأ الى الفعل لايكون قادرا ولايكون مستحقا للثناء والمدح هذا تمام السؤال (وجوابه) أن فعل الشىء متقدم على الاخبار عن فعله وعن العلم بفعله فيكون ذلك الفعل فعلا لاعلى سبيل الالجاء فكان قادرا ومستحقا للثناء والمدح (المسئلة الثانية) قوله وعدا يدل ان الجنة حصلت بحكم الوعد لابحكم الاستحقاق وقد تقدم تقريره (المسئلة الثانية) قوله مسؤلا ذكروا فيه وجوها أحدها ان المكلفين سألوه بقولهم ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك وثانيها أن المكلفين سألوه بلسان الحال لانهم لما تحملوا المشقة الشديدة فى طاعته كان ذلك قائما مقام

ثبورا واحدا) على تقدير قول امامنصوب على أنه حال من فاعل دعوا أى دعوه مقولا لهم ذلك حقيقة بأن يخاطبهم الملائكة به لتنبيههم على خلود عذابهم وأنهم لايجابون الى مايدعونه ولاينالون ما يتمنونه من الهلاك المنجى أو تمثيلا وتصويرا لحالهم بحال من يقال له ذلك من غير أن يكون هناك قول ولا خطاب أى دعوه حال كونهم أحقاء بأن يقال لهم ذلك واما مستأنف وقع جوابا عن سؤال ينسحب عليه الكلام كأنه قيل فاذا يكون عند دعائهم المذكور فقيل يقال لهم ذلك اقناطا مما علقوا به أطماعهم من الهلاك وتنبيها على أن عذابهم الملجىء لهم الى استدعاء الهلاك بالمرة أبدى لاخلاص لهم منه أى لاتقتصروا على دعاء ثبور واحد (وادعوا ثبورا كثيرا) أى بحسب كثرة الدعاء المتعلق به لابحسب كثرته فى نفسه فان مايدعونه ثبور واحد فى حد ذاته لكنه كلما تعلق به دعاء من تلك الادعية الكثيرة صار كأنه ثبور مغاير لما تعلق به دعاء آخر منها وتحقيقه لاتدعوه دعاء واحدا وادعوه أدعية كثيرة فان ما أنتم فيه من العذاب لغاية شدته وطول مدته مستوجب لتكرير الدعاء فى كل آن وهذا أدل على فظاعة العذاب وهوله من جعل تعدد الدعاء وتجدده لتعدد العذاب بتعدد أنواعه وألوانه أوتعدده

بتجدد الجلود كما لا يخفى وأما ما قيل من أن المعنى انكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا انما هو ثبور كثير اما لان العذاب
أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته أولانهم كلما انضجت جلودهم بدلوا غيرها فلا غاية

السؤال قال المتنبى

وفى النفس حاجات وفيك فطانة * سكوتى كلام عندها وخطاب

وثالثها الملائكة سألوا الله تعالى ذلك بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن ورابعها وعدا مسؤلا أى واجبا يقال لاعطينك ألفا وعدا مسؤلا أى واجبا وان لم تسأل قاله الفراء وسائر الوجوه اقرب من هذا لان سائر الوجوه اقرب الى الحقيقة و ما قاله الفراء مجاز وخامسها مسؤلا أى من حقه ان يكون مسؤلا لانه حق واجب اما بحكم الاستحقاق على قول المعتزلة أو بحكم الوعد على قول أهل السنة * قوله تعالى (و يوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام و يمشون فى الاسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا) اعلم ان قوله تعالى ويوم نحشرهم راجع الى قوله واتخذوا من دونه الهة ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) نحشرهم فنقول كلاهما بالنون والياء وقرئ نحشرهم بكسر الشين (المسئلة الثانية) ظاهر قوله وما يعبدون انها الاصنام وظاهر قوله فيقول أأنتم أضللتم عبادى انه من عبد من الاحياء كالملائكة والمسيح وغيرهما لان الاضلال وخلافه منهم يصح فلاجل هذا اختلفوا فمن الناس من حمله على الاوثان فان قيل لهم الوثن جماد فكيف خاطبه الله تعالى و كيف قدر على الجواب فعند ذلك ذكروا وجهين احدهما ان الله تعالى يخلق فيهم الحياة فعند ذلك يخاطبهم فيردون الجواب وثانيها ان يكون ذلك الكلام لا بالقول اللسانى بل على سبيل لسان الحال كما ذكر بعضهم فى تسبيح الموات وكلام الايدى والارجل وكما قيل سل الارض من شق أنهارك و غرس اشجارك فان لم تجبك جوابا اجابتك اعتبارا وأما الاكثرون فزعموا أن المراد هو الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام قالوا ويتأكد هذا القول بقوله تعالى و يوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون واذا قيل لهم لفظة ما لا تستعمل فى العقلاء أجابوا عنه من وجهين الاول لانسلم ان كلمة ما لما لا يعقل بدليل انهم قالوا من لما لا يعقل والثانى أريد به الوصف كأنه قيل ومعبودهم وقوله تعالى والسماء وما بناها ولا انتم عابدون ما أعبد لا يستقيم الا على احد هذين الوجهين وكيف كان فالسؤال ساقط (المسئلة الثالثة) حاصل الكلام ان الله تعالى يحشر المعبودين ثم يقول لهم أأنتم أوقعتم عبادى فى الضلال عن طريق الحق أم هم ضلوا عنه أنفسهم قالت المعتزلة وفيه كسر بين لقول من يقول ان الله يضل عباده فى الحقيقة لانه لو كان الامر كذلك لكان الجواب الصحيح أن يقولوا الهنا ههنا قسم ثالث غيرهما وهو الحق وهو انك انت أضللتهم فلما لم يقولوا ذلك بل نسبوا اضلالهم الى انفسهم علمنا ان الله تعالى لا يضل أحدا

اهلاكهم فلا يلائم المقام كيف لا وهم انما يدعون هلاكا ينهى عذابهم وينجيهم منه فلا بد أن يكون الجواب اقناطا لهم من ذلك ببيان استحالته ودوام ما يوجب استدعاءه من العذاب الشديد وتقييد النهى و الامر باليوم لمزيد التهويل و التفظيع والتنبيه على أنه ليس كسائر الايام المعهودة (قل) تقريعا لهم تهكما بهم وتحسيرا على ما فاتهم (أذلك) اشارة الى ما ذكر من السعير باعتبار اتصافها بما فصل من الاحوال الهائلة وما فيه من معنى البعد للاشعار بكونها فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة أى قل لهم أذلك الذى ذكر من السعير التى أعتدت لمن كذب بالساعة و شانها كيت وكيت و شأن أهلها ذيت وذيت (خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون) أى وعدها المتقون واضافة الجنة الى الخلد للمدح

وقيل للتمييز عن جنات الدنيا والمراد بالمتقين المتصفون بمطلق التقوى لا بالمرتبة الثانية أو الثالثة
منها فقط (كانت) تلك الجنة (لهم) فى علم الله تعالى أو فى اللوح المحفوظ

خليلا والقراءة الاولى من المتعدى الى واحد وهو من أولياء والاصل ان نتخذ أولياء فزيدت من لتأكيد معنى النفى والثانية من المتعدى الى مفعولين فالاول ما بنى له الفعل والثانى من أولياء ومن للتبعيض أى لانتخذ بعضنا أولياء وتنكير اولياء من حيث انهم أولياء مخصوصون وهم الجن والاصنام (المسئلة الثانية) ذكروا فى تفسير هذه الآية وجوها أولها وهو الاصح الاقوى ان المعنى اذا كنا لانرى أن نتخذ من دونك أولياء فكيف ندعو غيرنا الى ذلك وثانيها ما كان ينبغى لنا أن نكون أمثال الشياطين فى توليهم الكفار كما يوليهم الكفار قال تعالى فقاتلوا أولياء الشيطان يريد الكفرة وقال والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت عن أبى مسلم وثالثها ما كان لنا أن نتخذ من دون رضاك من أولياء أى لما علمنا أنك لاترضى بهذا مافعلناه والحاصل انه حذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه ورابعها قالت الملائكة انهم عبيدك فلا ينبغى لعبيدك أن يتخذوا من دون اذنك وليا ولاحبيبا فضلا عن أن يتخذ عبد عبدا آخر الها لنفسه وخامسها أن على قراءة أبى جعفر الاشكال زائل فان قيل هذه القراءة غير جائزة لانه لامدخل لهم فى أن يتخذهم غيرهم أولياء قلنا المراد انا لانصلح لذلك فكيف ندعوهم الى عبادتنا وسادسها ان هذا قول الاصنام وانها قالت لايصح منا أن نكون من العابدين فكيف يمكننا ادعاؤنا أنا من المعبودين (المسئلة الثالثة) الآية تدل على انه لاتجوز الولاية والعداوة الا باذن الله فكل ولاية مبنية على ميل النفس ونصيب الطبع فذاك على خلاف الشرع * اما قوله تعالى ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا) ففيه مسائل (المسئلة الاولى) معنى الآية انك يا الهنا أكثرت عليهم وعلى آبائهم من النعم وهى توجب الشكر والايمان لا الاعراض والكفران والمقصود من ذلك بيان أنهم ضلوا من عند انفسهم لا باضلالنا فانه لولا عنادهم الظاهر والا فظهور هذه الحجة لايمكن الاعراض عن طاعة الله تعالى وقال آخرون ان هذا الكلام كالرمز فيما صرح به موسى عليه السلام فى قوله ان هى الا فتنتك وذلك لان المجيب قال الهى انت الذى أعطيته جميع مطالبه من الدنيا حتى صار كالغريق فى بحر الشهوات واستغراقه فيها صار صادا له عن التوجه الى طاعتك والاشتغال بخدمتك فان هى الا فتنتك (المسئلة الثانية) الذكر ذكر الله والايمان به والقرآن والشرائع أو ما فيه حسن ذكرهم فى الدنيا والآخرة (المسئلة الثالثة) قال أبو عبيدة يقال رجل بور ورجلان بور ورجال كذلك الانثى ومعناه هالك وقد يقال رجل بائر وقوم بور وهو مثل هائر وهور والبوار الهلاك وقد احتج أصحابنا بهذه الآية فى مسئلة القضاء والقدر ولاشك ان المراد منه وكانوا من الذين حكم عليهم فى الآخرة بالعذاب والهلاك فالذى حكم الله عليه بعذاب الآخرة وعلم ذلك وأثبته فى اللوح المحفوظ وأطلع الملائكة عليه لو صار مؤمنا لصار الخبر الصدق كذبا ولصار العلم جهلا ولصارت الكتابة المثبتة فى اللوح المحفوظ باطلة ولصار اعتقاد الملائكة جهلا وكل ذلك

الصلاة والسلام هو الفائز اثر ذى أثير بغنائم الوعد الكريم مالايخفى (ويوم يحشرهم) نصب على أنه مفعول لمضمر مقدم معطوف على قوله تعالى قل أذلك الخ أى واذكر لهم بعد التقريع والتحسير يوم يحشرهم الله عز وجل وتعليق التذكير باليوم مع ان المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث الهائلة قد مر وجهه غير مرة أو على أنه ظرف لمضمر مؤخر قد حذف للتنبيه على كمال هوله وفظاعة ما فيه والايذان بقصور العبارة عن بيانه أى يوم يحشرهم يكون من الاحوال والاهوال مالايفى ببيانه المقال وقرئ بنون العظمة بطريق الالتفات من الغيبة الى التكلم وبكسر الشين أيضا (وما يعبدون من دون الله) أريد به ما يعم العقلاء وغيرهم اما لان كلمة ما موضوعة للكل كما ينبئ عنه أنك اذا رأيت شبحا من بعيد تقول ما هو أو لانه أريد به الوصف لا الذات كأنه قيل ومعبوديهم أو لتغليب الاصنام على غيرها تنبيها على أنهم مثلها فى السقوط عن رتبة المعبودية أو اعتبارا لغلبة عبدتها أو أريد به الملائكة والمسيح وعزير بقرينة السؤال والجواب أو الاصنام ينطقها الله تعالى أو تتكلم بلسان الحال كما قيل فى شهادة الايدى والارجل (فيقول) أى الله عز وجل للمعبودين اثر حشر الكل تقريعا للعبدة وتبكيتا لهم وقرئ بالنون كما عطف عليه وقرئ هذا بالياء

اولان ماوعده الله تعالى فهو كائن لامحالة فحكى تحققه ووقوعه (جزاء) على اعمالهم حسبما من الوعد الكريم
(ومصيرا) ينقلبون اليه (لهم فيها مايشاؤن) اى مايشاؤنه ❊ ❊ من فنون الملاذ والمشتهيات وأنواع النعيم

كما فى قوله تعالى ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولعل كل فريق منهم يقتنع بما أبيح له من درجات النعيم ولاتمتد اعناق هممهم الى مافوق ذلك من المراتب العالية فلايلزم الحرمان ولاتساوى مراتب أهل الجنان (خالدين) حال من الضمير المستكن فى الجار والمجرور لاعتماده على المبتدأ وقيل من فاعل يشاؤن (كان) أى مايشاؤنه وقيل الوعد المدلول عليه بقوله تعالى وعد المتقون (على ربك وعدا مسؤلا) أى موعودا حقيقا بان يسأل و يطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون أومسؤلا يسأله الناس فى دعائهم ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك أوالملائكة بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم وما فى على من معنى الوجوب لامتناع الخلف فى وعده تعالى ولايلزم منه الالجاء الى الانجاز فان تعلق الارادة بالموعود متقدم على الوعد الموجب للانجاز وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه والاشعار بانه عليه

من عباده فان قيل لانسلم ان المعبودين ماتعرضوا لهذا القسم بل ذكروه فانهم قالوا ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وهذا تصريح بان ضلالهم انما حصل لاجل مافعل الله بهم وهو انه سبحانه وتعالى متعهم وآباءهم بنعيم الدنيا قلنا لوكان الامر كذلك لكان يلزمهم أن يصير الله محجوجا فى يد أولئك المعبودين ومعلوم انه ليس الغرض ذلك بل الغرض أن يصير الكافر محجوجا مفحما ملزما هذا تمام تقرير المعتزلة فى الآية أجاب اصحابنا بان القدرة على الضلال ان لم تصلح للاهتداء فالاضلال من الله تعالى وان صلحت له لم يترجح مصدريتها للاضلال على مصدريتها للاهتداء الالمرجح من الله تعالى وعند ذلك يعود السؤال وأما ظاهر هذه الآية فهو وان كان لهم لكنه معارض بسائر الظواهر المطابقة لقولنا (المسئلة الرابعة) ظاهر الآية يدل على أن هذا السؤال من الله تعالى وان احتمل أن يكون ذلك من الملائكة بأمر الله تعالى ❊ بقى على الآية سؤالات (الاول) مافائدة انتم وهم وهلا قيل أأضللتم عبادى هؤلاء أم ضلوا السبيل الجواب ليس السؤال عن الفعل ووجوده لانه لولا وجوده لماتوجه هذا العتاب وانما هو عن فاعله فلابد من ذكره وايلائه حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسؤل عنه (السؤال الثانى) انه سبحانه كان عالما فى الازل بحال المسؤل عنه فافائدة هذا السؤال الجواب هذا استفهام على سبيل التقريع للمشركين كما قال لعيسى أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ولان أولئك المعبودين لما برؤا أنفسهم وأحالوا ذلك الضلال عليهم صار تبرؤ المعبودين عنهم أشد فى حسرتهم وحيرتهم (السؤال الثالث) قال تعالى أم هم ضلوا السبيل والقياس ان يقال ضل عن السبيل الجواب الاصل ذلك الا أن الانسان اذا كان متناهيا فى التفريط وقلة الاحتياط يقال ضل السبيل أما قوله سبحانك فاعلم انه سبحانه حكى جوابهم وفى قوله سبحانك وجوه أحدها أنه تعجب منهم فقد تعجبوا مما قيل لهم لانهم ملائكة وانبياء معصومون فماأبعدهم عن الاضلال الذى هو مختص بابليس وحزبه وثانيها انهم نطقوا بسبحانك ليدلوا على انهم المسبحون المقدسون المؤمنون بذلك فكيف يليق بحالهم ان يضلوا عباده وثالثها قصدوا به تنزيهه عن الانداد سواء كان وثنا أونبيا أو ملكا ورابعها قصدوا تنزيهه ان يكون مقصوده من هذا السؤال استفادة علم أو ايذاء من كان بريئا عن الجرم بل انه انما سألهم تقريعا للكفار وتوبيخا لهم اما قوله ماكان ينبغى لنا ان نتخذ من دونك من أولياء ففيه مسائل (المسئلة الاولى) القراءة المعروفة ان نتخذ بفتح النون وكسر الخاء وعن أبى جعفر وابن عامر برفع النون وفتح الخاء على مالم يسم فاعله قال الزجاج اخطأ من قرأ أن نتخذ بضم النون لان من انما تدخل فى هذا الباب فى الاسماء اذا كانت مفعولا أولا ولاتدخل على مفعول الحال تقول مااتخذت من أحد وليا ولايجوز مااتخذت أحدا من ولى قال صاحب الكشاف اتخذ يتعدى الى مفعول واحد كقولك اتخذ وليا والى مفعولين كقولك اتخذ فلانا وليا قال الله تعالى واتخذ الله ابراهيم ❊ خليلا ❊

والاول بالنون على طريق الالتفات الى الغيبة (أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء) بان دعوتموهم الى عبادتكم كما فى قوله تعالى أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله (أم هم ضلوا السبيل) أى عن السبيل بأنفسهم لاخلالهم بالنظر الصحيح واعراضهم عن المرشد فحذف الجار وأوصل الفعل الى المفعول كقوله تعالى وهو يهدى السبيل والاصل الى السبيل أو للسبيل وتقديم الضميرين على الفعلين لان المقصود بالسؤال هو المتصدى للفعل لا نفسه (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية السؤال كأنه قيل فماذا قالوا فى الجواب فقيل قالوا (سبحانك) تعجبا مما قيل لهم لانهم اما ملائكة معصومون أو جمادات لا قدرة لها على شئ أو اشعارا بأنهم الموسومون بتسبيحه تعالى وتوحيده فكيف يتأتى منهم اضلال عباده أو تنزيها له تعالى عن الانداد (ما كان ينبغى لنا) أى ما صح وما استقام لنا (أن نتخذ من دونك) أى متجاوزين اياك (من أولياء) نعبدهم لما بنا من الحالة المنافية له فانى يتصور ان نحمل غيرنا على أن يتخذوا وليا غيرك فضلا أن يتخذنا وليا أو أن نتخذ من دونك أولياء أى أتباعا فان الولى كما يطلق على المتبوع يطلق على التابع كالولى يطلق على الاسفل ومنه أولياء الشياطين أى أتباعه وقرئ على

محال ومستلزم المحال محال فصدور الايمان منه محال فدل على أن السعيد لا يمكنه أن ينقلب شقيا والشقى لا يمكنه أن ينقلب سعيدا ومن وجه آخر وهو انهم ذكروا ان الله تعالى آتاهم اسباب الضلال وهو اعطاء المرادات فى الدنيا واستغراق النفس فيها ودلت الآية على أن ذلك السبب بلغ مبلغا يوجب البوار فان ذكر البوار عقيب ذلك السبب يدل على أن البوار انما حصل لاجل ذلك السبب فرجع حاصل الكلام الى انه تعالى فعل بالكافر ما صار معه بحيث لا يمكنه ترك الكفر وحينئذ ظهر أن السعيد لا ينقلب شقيا وان الشقى لا ينقلب سعيدا ☼ اما قوله تعالى فقد كذبوكم بما تقولون فاعلم انه قرئ يقولون بالياء والتاء فمعنى من قرأ بالتاء فقد كذبوكم بقولكم انهم آلهة أى كذبوكم فى قولكم انهم آلهة ومن قرأ بالياء المنقوطة من تحت فالمعنى أنهم كذبوكم بقولهم سبحانك ومثاله قولك كتبت بالقلم ☼ ان قوله فما يستطيعون صرفا ولا نصرا فاعلم انه قرئ يستطيعون بالياء والتاء أيضا يعنى فما تستطيعون أنتم يا أيها الكفار صرف العذاب عنكم وقيل الصرف التوبة وقيل الحيلة من قولهم انه ليتصرف أى يحتال أو فما تستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب وان يحتالوا لكم ☼ أما قوله تعالى ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرئ يذقه بالياء وفيه ضمير الله تعالى أو ضمير الظلم (المسئلة الثانية) أن المعتزلة تمسكوا بهذه الآية فى القطع بوعيد أهل الكبائر فقالوا ثبت أن من للعموم فى معرض الشرط وثبت أن الكافر ظالم لقوله ان الشرك لظلم عظيم والفاسق ظالم لقوله ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون فثبت بهذه الآية أن الفاسق لا يعفى عنه بل يعذب لا محالة والجواب انا لا نسلم ان كلمة من فى معرض الشرط للعموم والكلام فيه مذكور فى أصول الفقه سلمنا انه للعموم ولكن قطعا أم ظاهرا ودعوى القطع ممنوعة فانا نرى فى العرف العام المشهور استعمال صيغ العموم مع أن المراد هو الاكثر أو لان المراد أقوام معينون والدليل عليه قوله تعالى ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ثم ان كثيرا من الذين كفروا قد آمنوا فلا دافع له الا أن يقال قوله الذين كفروا وان كان يفيد العموم لكن المراد منه الغالب أو المراد منه أقوام مخصوصون وعلى التقديرين ثبت أن استعمال الفاظ العموم فى الاغلب عرف ظاهر واذا كان كذلك كانت دلالة هذه الصيغ على العموم دلالة ظاهرة لا قاطعة وذلك لا ينفى تجويز العفو سلمنا دلالته قطعا ولكنا أجمعنا على أن قوله ومن يظلم منكم مشروط بأن لا يوجد ما يزيله وعند هذا نقول هذا مسلم لكن لم قلت بأن لم يوجد ما يزيله فان العفو عندنا أحد الامور التى تزيله وذلك هو أحد الثلاثة أول المسئلة سلمنا دلالته على ما قال ولكنه معارض بآيات الوعد كقوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا فان قيل آيات الوعيد أولى لان السارق يقطع على سبيل التنكيل ومن لم يكن مستحقا للعقاب لا يجوز قطع يده على سبيل التنكيل فاذا ثبت انه مستحق للعقاب ثبت أن استحقاق

﴿ الثواب ﴾

البناء للمفعول من المتعدى الى مفعولين كما فى قوله تعالى واتخذ الله ابراهيم خليلا ومفعوله الثانى من أولياء على أن
من للتبعيض أى أن نتخذ بعض أولياء وهى على الاول مزيدة وتنكير أولياء من حيث انهم أولياء
مخصوصون وهم الجن والاصنام (ولكن متعتهم وآباءهم) استدراك مسوق لبيان أنهم هم الضالون بعد بيان تنزههم عن اضلالهم وقدنعى عليهم سوء صنيعهم حيث جعلوا أسباب الهداية أسبابا للضلالة أى ما أضللناهم ولكنك متعتهم وآباءهم بانواع النعم ليعرفوا حقها ويشكروها فاستغرقوا فى الشهوات وانهمكوا فيها (حتى نسوا الذكر) أى غفلوا عن ذكرك أوعن التذكر فى آلائك والتدبر فى آياتك فجعلوا أسباب الهداية بسوء اختيارهم ذريعة الى الغواية (وكانوا) أى فى قضائك المبنى على علمك الازلى المتعلق بما سيصدر عنهم فيما لايزال باختيارهم من الاعمال السيئة (قوما بورا) أى هالكين على أن بورا مصدر وصف به الفاعل مبالغة ولذلك يستوى فيه الواحد والجمع أوجمع بائر كعوذ فى جمع عائذ والجملة اعتراض
تذييلى مقرر لمضمون ماقبله وقوله تعالى (فقد كذبوكم) حكاية لاحتجاجه تعالى على العبدة بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن المعبودين عند تمام

الثواب أحبط لما بينا أن الجمع بين الاستحقاقين محال قلنا لانسلم أن السارق يقطع على
سبيل التنكيل الاترى انه لوتاب فانه يقطع لاعلى سبيل التنكيل بل على سبيل المحنة نزلنا
عن هذه المقامات ولكن قوله تعالى ومن يظلم منكم انه خطاب مع قوم مخصوصين معينين
فهب انه لايعفو عنهم فلم قلت انه لايعفو عن غيرهم اما قوله تعالى وما أرسلنا قبلك من
المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام و يمشون فى الاسواق فيه مسائل (المسئلة الاولى)
هذا جواب عن قولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام و يمشى فى الاسواق بين الله تعالى
ان هذه عادة مستمرة من الله فى كل رسله فلا وجه لهذا الطعن (المسئلة الثانية) حق
الكلام ان يقال الا أنهم بفتح الالف لانه متوسط والمكسورة لاتليق الابالابتداء فلاجل
هذا ذكروا وجوها احدها قال الزجاج الجملة بعد الا صفة لموصوف محذوف والمعنى وما
أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين الا آكلين وماشين وانما حذف لان فى قوله من المرسلين
دليلا عليه ونظيره قوله تعالى ومامنا الا له مقام معلوم على معنى ومامنا أحد وثانيها قال
الفراء انها صلة لاسم متروك اكتفى بقوله من المرسلين عنه والمعنى الامن أنهم كقوله
ومامنا الا له مقام معلوم أى من له مقام معلوم وكذلك قوله وان منكم الاواردها أى
الامن يردها فعلى قول الزجاج الموصوف محذوف وعلى قول الفراء الموصول هو
المحذوف ولايجوز حذف الموصول وتبقية الصلة عند البصريين وثالثها قال ابن
الانبارى تكسران بعد الاستثناء باضمار واو على تقدير الاوانهم ورابعها قال بعضهم
المعنى الاقيل انهم (المسئلة الثالثة) قرئ يمشون على البناء للمفعول أى يمشيهم حوائجهم
أوالناس ولوقرئ يمشون لكان أوجه لولا الرواية اما قوله تعالى وجعلنا بعضكم لبعض
فتنة ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فيه أقوال (أحدها) ان هذا فى رؤساء المشركين
وفقراء الصحابة فاذا رأى الشريف الوضيع قد أسلم قبله أنف ان يسلم فأقام على كفره
لئلا يكون للوضيع السابقة والفضل عليه ودليله قوله تعالى لوكان خيرا ماسبقونا اليه
وهذا قول الكلبى والفراء والزجاج (وثانيها) ان هذا عام فى جميع الناس روى أبو
الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ويل للعالم من الجاهل وويل للسلطان من
الرعية وويل للرعية من السلطان وويل للمالك من المملوك وويل للشديد من الضعيف
وللضعيف من الشديد بعضهم لبعض فتنة وقرأ هذه الآية (وثالثها) ان هذا فى أصحاب
البلاء والعافية هذا يقول لم لم اجعل مثله فى الخلق والخلق وفى العقل وفى العلم وفى الرزق
وفى الاجل وهذا قول ابن عباس والحسن (ورابعها) هذا احتجاج عليهم فى تخصيص
محمد بالرسالة مع مساواته اياهم فى البشرية وصفاتها فابتلى المرسلين بالمرسل اليهم وانواع
اذاهم على ماقال ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى
كثيرا والمرسل اليهم يتأذون أيضا من المرسل بسبب الحسد وصيرورته مكلفا بالخدمة
و بذل النفس والمال بعد أن كان رئيسا مخدوما والاولى حمل الآية على الكل لان بين

الجميع قدرا مشتركا (المسئلة الثانية) قال اصحابنا الآية تدل على القضاء والقدر لانه تعالى قال وجعلنا بعضكم لبعض فتنة قال الجبائى هذا الجعل هو بمعنى التعريف كما يقال فيمن سرق ان فلانا لص جعله لصا وهذا التأويل ضعيف لانه تعالى أضاف الجعل الى وصف كونه فتنة لا الى الحكم بكونه كذلك بل العقل يدل على أن المراد غير ماذكره وذلك لان فاعل السبب فاعل للمسبب فمن خلقه الله تعالى على مزاج الصفراء والحرارة وخلق الغضب فيه ثم خلق فيه الادراك الذى يطلعه على الشئ المغضب فمن فعل هذا المجموع كان هو الفاعل للغضب لامحالة وكذا القول فى الحسد وسائر الاخلاق والافعال وعند هذا يظهر أنه سبحانه هو الذى جعل البعض فتنة للبعض سلمنا ان المراد ماقاله الجبائى ان المراد من الجعل هو الحكم ولكن المجعول ان انقلب لزم من انقلابه انقلاب حكم الله تعالى من الصدق الى الكذب وذلك محال فانقلاب ذلك الجعل محال فانقلاب المجعول أيضا محال وعند ذلك يظهر القول بالقضاء والقدر (المسئلة الثالثة) الوجه فى تعلق هذه الآية بماقبلها ان القوم لما طعنوا فى الرسول صلى الله عليه وسلم بانه يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق وبأنه فقير كانت هذه الكلمات جارية مجرى الخرافات فانه لما قامت الدلالة على النبوة لم يكن لشئ من هذه الاشياء أثر فى القدح فيها فكان النبى صلى الله عليه وسلم يتأذى منهم من حيث انهم كانوا يشتمونه ومن حيث انهم كانوا يذكرون الكلام المعوج الفاسد وماكانوا يفهمون الجواب الجيد فلاجرم صبره الله تعالى على كل تلك الاذية وبين انه جعل الخلق بعضهم فتنة للبعض * أما قوله تعالى أتصبرون وكان ربك بصيرا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة لو كان المراد من قوله وجعلنا بعضكم لبعض فتنة الخبر لما ذكر عقيبه اتصبرون لان أمر العاجز غير جائز (المسئلة الثانية) المعنى اتصبرون على البلاء فقد علمتم ماوعد الله الصابرين وكان ربك بصيرا أى هو العالم بمن يصبر ومن لا يصبر فيجازى كلا منهم بما يستحقه من ثواب وعقاب (المسئلة الثالثة) قوله أتصبرون استفهام والمراد منه التقرير وموقعه بعد ذكر الفتنة موقع ايكم بعد الابتلاء فى قوله ليبلوكم أيكم أحسن عملا * قوله تعالى (وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) اعلم أن قوله تعالى وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا هو الشبهة الرابعة لمنكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وحاصلها لم لم ينزل الله الملائكة حتى يشهدوا أن محمدا محق فى دعواه أو نرى ربنا حتى يخبرنا بأنه أرسله الينا وتقرير هذه الشبهة أن من أراد تحصيل شئ وكان له الى تحصيله طريقان أحدهما يفضى اليه قطعا والآخر قد يفضى وقد لايفضى فالحكيم يجب عليه فى حكمته ان يختار فى تحصيل ذلك المقصود الطريق الاقوى والاحسن

جوابهم وتوجيهه الى العبدة مبالغة فى تقريعهم وتبكيتهم على تقدير قول مرتب على الجواب أى فقال الله تعالى عند ذلك فقد كذبوكم المعبودون أيها الكفرة (بما تقولون) أى فى قولكم انهم آلهة وقيل فى قولكم هؤلاء أضلونا ويأباه أن تكذيبهم فى هذا القول لاتعلق له بمابعده من عدم استطاعتهم للصرف والنصر أصلا وانما الذى يستتبعه تكذيبهم فى زعمهم أنهم آلهتهم وناصروهم وأياماكان فالباء بمعنى فى أوهى صلة للتكذيب على أن الجار والمجرور بدل اشتمال من الضمير المنصوب وقرئ بالياء أى كذبوكم بقولهم سبحانك الآية (فما تستطيعون) أى ماتملكون (صرفا) أى دفعا للعذاب عنكم بوجه من الوجوه كما يعرب عنه التنكير أى لابالذات ولابالواسطة وقيل حيلة من قولهم انه ليتصرف فى أموره أى يحتال فيها وقيل توبة (ولانصرا) أى فردا من أفراد النصر لامن جهة أنفسكم ولامن جهة غيركم والفاء لترتيب عدم الاستطاعة على ماقبلها من التكذيب لكن لاعلى معنى أنه لولاه لوجدت الاستطاعة حقيقة بل فى زعمهم حيث كانوا يزعمون أنهم يدفعون عنهم العذاب وينصرونهم وفيه ضرب تهكم بهم وقرئ يستطيعون على صيغة الغيبة أى مايستطيع آلهتكم

﴿ ولا ﴾

أن يصرفوا عنكم العذاب أو يحتالوا لكم ولأن ينصروكم وترتب مابعد الفاء على ماقبلها كما مر بيانه (ومن يظلم منكم) أيها المكلفون كدأب هؤلاء ﴿٤٦٣﴾ حيث ركبوا متن المكابرة والعناد واستمروا على ماهم عليه من الفساد وتجاوزوا في اللجاج كل حد معتاد (نذقه) في الآخرة (عذابا كبيرا) لايقادر قدره وهو عذاب النار وقرئ يذقه على أن الضمير لله سبحانه وتعالى وقيل لمصدر الفعل الواقع شرطا وتعميم الظلم لايستلزم اشتراك الفاسق للكافر في اذاقة العذاب الكبير فان الشرط في اقتضاء الجزاء مقيد بعدم المزاحم وفاقا وهو التوبة والاحباط بالطاعة اجماعا وبالعفو عندنا (وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق) جواب عن قولهم مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق والجملة الواقعة بعد الا صفة لموصوف قد حذف ثقة بدلالة الجار والمجرور عليه وأقيمت هي مقامه كما في قوله تعالى ومامنا الا له مقام معلوم والمعنى ماأرسلنا أحدا قبلك من المرسلين الا آكلين ماشين وقيل هي حال والتقدير الا وانهم ليأكلون الخ وقرئ يمشون على البناء للمفعول أي يمشيهم حوائجهم أو الناس

ولاشك أن انزال الملائكة ليشهدوا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم أكثر افضاء الى المقصود فلو أراد الله تعالى تصديق محمد صلى الله عليه وسلم لفعل ذلك وحيث لم يفعل ذلك علمنا انه ماأراد تصديقه هذا حاصل الشبهة ثم ههنا مسائل (الاولى) قال الفراء قوله تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا معناه لايخافون لقاءنا ووضع الرجاء في موضع الخوف لغة تهامية اذا كان معه جحد ومثله قوله تعالى مالكم لاترجون لله وقارا أي لاتخافون له عظمة وقال القاضي لاوجه لذلك لان الكلام متى أمكن حمله على الحقيقة لم يجز حمله على المجاز ومعلوم أن من حال عباد الاصنام انهم كما لايخافون العقاب لتكذيبهم بالمعاد فكذلك لايرجون لقاءنا ووعدنا على الطاعة من الجنة والثواب ومعلوم أن من لايرجو ذلك لايخاف العقاب أيضا فالخوف تابع لهذا الرجاء (المسئلة الثانية) المجسمة تمسكوا بقوله تعالى لقاءنا انه جسم وقالوا اللقاء هو الوصول يقال هذا الجسم لقي ذلك أي وصل اليه واتصل به وقال تعالى فالتقى الماء على أمر قد قدر فدلت الآية على انه سبحانه جسم والجواب على طريقين الاول طريق بعض أصحابنا قال المراد من اللقاء هو الرؤية وذلك لان الرائي يصل برؤيته الى حقيقة المرئي فسمي اللقاء أحد انواع الرؤية والنوع الآخر الاتصال والمماسة فدلت الآية من هذا الوجه على جواز الرؤية الطريق الثاني وهو كلام المعتزلة قال القاضي تفسير اللقاء برؤية البصر جهل باللغة فيقال في الدعاء لقاك الله الخير وقد يقول القائل لم ألق الامير وان رآه من بعد أو حجب عنه و يقال في الضرير لقي الامير اذا اذن له ولم يحجب وقد يلقاه في الليلة الظلماء ولايراه بل المراد من اللقاء ههنا هو المصير الى حكمه حيث لاحكم لغيره في يوم لاتملك نفس لنفس شيئا لا أنه رؤية البصر واعلم أن هذا الكلام ضعيف لانا لانفسر اللقاء برؤية البصر بل نفسره بمعنى مشترك بين رؤية البصر و بين الاتصال والمماسة وهو الوصول الى الشيء وقد بينا أن الرائي يصل برؤيته الى المرئي واللفظ بالموضوع لمعنى مشترك بين معان كثيرة ينطلق على كل واحد من تلك المعاني فيصح قوله لقاك الخير ويصح قول الاعمى لقيت الامير ويصح قول البصير لقيته بمعنى رأيته ومالقيته بمعنى ماوصلت اليه واذا ثبت هذا فنقول قوله وقال الذين لايرجون لقاءنا مذكور في معرض الذم لهم فوجب ان يكون رجاء اللقاء حاصلا ومسمى اللقاء مشترك بين الوصول المكاني و بين الوصول بالرؤية وقد تعذر الاول فتعين الثاني وقوله المراد من اللقاء الوصول الى حكمه صرف للفظ عن ظاهره بغير دليل فثبت دلالة والآية على صحة الرؤية بل على وجوبها بل على ان انكارها ليس الا من دين الكفار (المسئلة الثالثة) قوله لولا أنزل معناه هلا انزل قال الكلبي ومقاتل نزلت هذه الآية في أبي جهل والوليد وأصحابهم الذين كانوا منكرين للنبوة والبعث * اما قوله تعالى لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا فاعلم أن هذا هو الجواب عن تلك الشبهة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في تقرير كونه جوابا وذلك من وجوه (أحدها) أن القرآن لما

(وجعلنا بعضكم) تلوين للخطاب بتعميمه لسائر الرسل عليهم الصلاة والسلام بطريق التغليب والمراد بهذا البعض كفار الامم فان اختصاصهم بالرسل وتبعيتهم لهم مصحح لأن يعدوا بعضا منهم وبما في قوله تعالى (لبعض) رسلهم لكن لا على معنى جعلنا مجموع البعض الاول (فتنة) أي ابتلاء ومحنة لمجموع البعض الثاني ولا على معنى جعلنا كل فرد من أفراد البعض الاول فتنة لكل فرد من أفراد البعض الثاني ولا على معنى جعلنا بعضا منهم من الاولين فتنة لبعض منهم من الآخرين ضرورة أن مجموع الرسل من حيث هو مجموع غير مفتون بمجموع الامم ولا كل فرد منهم بكل فرد من الامم ولا بعض مبهم من الاولين ببعض مبهم من الآخرين بل على معنى جعلنا كل بعض معين من الامم فتنة لبعض معين من الرسل كأنه قيل وجعلنا كل أمة مخصوصة من الامم الكافرة فتنة لرسولها المعين المبعوث اليها وانما لم يصرح بذلك تعويلا على شهادة الحال هذا وأما تعميم الخطاب لجميع المكلفين وابقاء البعضين على العموم والابهام على معنى وجعلنا بعضكم أيها الناس فتنة لبعض آخر منكم فيأباه قوله تعالى (أتصبرون) فانه غاية للجعل المذكور ومن البين أن ليس ابتلاء كل أحد من آحاد الناس مغيابالصبر بل بما يناسب حاله على أن الاقتصار على ذكره من غير تعرض لمعادله مما يدل على أن اللائق بحال المفتونين والمتوقع صدوره عنهم هو الصبر لا غير فلا بد أن يكون المراد بهم الرسل فيحصل به تسليته عليه الصلاة والسلام فالمعنى جرت سنتنا بموجب حكمتنا على ابتلاء المرسلين بأممهم

ظهر كونه معجزا فقد ثبتت دلالة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فبعد ذلك يكون اقتراح امثال هذه الآيات لا يكون الا محض الاستكبار والتعنت (وثانيها) ان نزول الملائكة لو حصل لكان أيضا من جملة المعجزات ولا يدل على الصدق لخصوص كونه بنزول الملك بل لعموم كونه معجزا فيكون قبول ذلك المعجز ورد ذلك المعجز الآخر ترجيحا لاحد المثلين على الآخر من غير مزيد فائدة ومرجح وهو محض الاستكبار والتعنت (وثالثها) انهم بتقدير أن يروا الرب ويسألوه عن صدق محمد صلى الله عليه وسلم وهو سبحانه يقول نعم هو رسولي فذلك لا يزيد في التصديق على اظهار المعجز على يد محمد صلى الله عليه وسلم لانا بينا أن المعجز يقوم مقام التصديق بالقول اذ لا فرق وقد ادعى النبوة بين أن يقول اللهم ان كنت صادقا فاحي هذا الميت فيحييه الله تعالى والعادة لم تجر بمثله وبين أن يقول له صدقت واذا كان التصديق الحاصل بالقول أو الحاصل بالمعجز سببين في كونه تصديقا للمدعى كان تعيين أحدهما محض الاستكبار والتعنت (ورابعها) وهو انا نعتقد أن الله سبحانه وتعالى يفعل بحسب المصالح على ما يقوله المعتزلة أو نقول ان الله تعالى يفعل بحسب المشيئة على ما يقوله أصحابنا فان كان الاول لم يجز لهم أن يعينوا المعجز اذ ربما كان اظهار ذلك المعجز مشتملا على مفسدة لا يعرفها الا الله تعالى وكان التعيين استكبارا وعتوا من حيث انه لما ظنه مصلحة قطع بكونه مصلحة فمن قال ذلك فقد اعتقد في نفسه انه عالم بكل المعلومات وذلك استكبار عظيم وان كان الثاني وهو قول اصحابنا فليس للعبد ان يقترح على ربه فانه سبحانه فعال لما يريد فكان الاقتراح استكبارا وعتوا وخروجا عن حد العبودية الى مقام المنازعة والمعارضة وخامسها وهو أن المقصود من بعثة الانبياء الاحسان الى الخلق فالملك الكبير اذا أحسن الى بعض الضعفاء رحمة عليه فاخذ ذلك الضعيف الى اللجاج والنزاع ويقول لا أريد هذا بل أريد ذاك حسن أن يقال ان هذا المكدي قد استكبر في نفسه وعتا عتوا شديدا من حيث لا يعرف قدر نفسه ومنتهى درجته فكذا ههنا وسادسها يمكن أن يكون المراد ان الله تعالى قال لو علمت أنهم ماذكروا هذا السؤال لاجل الاستكبار والعتو الشديد لاعطيتهم مقترحهم ولكني علمت انهم ذكروا هذا الاقتراح لاجل الاستكبار والتعنت فلو اعطيتهم مقترحهم لما انتفعوا به فلا جرم لا أعطيهم ذلك وهذا التأويل يعرف من اللفظ (وسابعها) لعلهم سمعوا من أهل الكتاب ان الله تعالى لا يرى في الدنيا وانه تعالى لا ينزل الملائكة في الدنيا على عوام الخلق ثم علقوا ايمانهم على ذلك على سبيل التعنت أو على سبيل الاستهزاء (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة الآية دلت على أن الله تعالى لا تجوز رؤيته لان رؤيته لو كانت جائزة لما كان سؤالها عتوا واستكبارا قالوا وقوله لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ليس الا لاجل سؤال الرؤية حتى لو انهم اقتصروا على نزول الملائكة لما خوطبوا بذلك والدليل عليه ان الله تعالى ذكر أمر الرؤية في آية أخرى على حدة وذكر الاستعظام وهو

قوله لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وذكر نزول الملائكة على حدة
فى آية أخرى فلم يذكر الاستعظام وهو قولهم لولا انزل علينا الملائكة وهل نرى الملائكة
فثبت بهذا ان الاستكبار والعتو فى هذه الآية انما حصل لاجل سؤال الرؤية واعلم أن
الكلام على ذلك قد تقدم فى سورة البقرة والذى نريده ههنا انا بينا ان قوله وقال الذين
لايرجون لقاءنا يدل على الرؤية واما الاستكبار والعتو فلا يمكن أن يدل ذلك على أن
الرؤية مستحيلة لان من طلب شيئا محالا لايقال انه عتا واستكبر ألا ترى انهم لما قالوا
اجعل لنا آلها كما لهم آلهة لم يثبت لهم بطلب هذا المحال عتوا واستكبارا بل قال انكم قوم
تجهلون بل العتو والاستكبار لايثبت الا اذا طلب الانسان مالايليق به ممن فوقه أو كان
لأنقابه ولكنه يطلبه على سبيل التعنت وبالجملة فقد ذكرنا وجوها كثيرة فى تحقيق معنى
الاستكبار والعتو سواء كانت الرؤية ممتنعة أو ممكنة ومما يدل عليه ان موسى لما سأل
الرؤية ماوصفه الله تعالى بالاستكبار والعتو لانه عليه السلام طلب الرؤية شوقا وهؤلاء
طلبوها امتحانا وتعنتا لاجرم وصفهم بذلك فثبت فساد ماقاله المعتزلة (المسئلة الثالثة)
انما قال فى أنفسهم لانهم أضمروا الاستكبار فى قلوبهم واعتقدوه كما قال ان فى صدورهم
الا كبر ماهم ببالغيه وقوله وعتوا عتوا كبيرا أى تجاوزوا الحد فى الظلم يقال عتا فلان وقد
وصف العتو بالكبر فبالغ فى افراطه يعنى انهم لم يجترؤا على هذا القول العظيم الالانهم
بلغوا غاية الاستكبار واقصى العتو أما قوله تعالى يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ
للمجرمين ويقولون حجرا محجورا فهو جواب لقولهم لولا انزل علينا الملائكة فبين تعالى
ان الذى سألوه سيوجد ولكنهم يلقون منه مايكرهون وههنا مسائل (المسئلة الاولى)
ذكروا فى انتصاب يوم وجهين الاول أن العامل مادل عليه لابشرى أى يوم يرون
الملائكة يمنعون البشرى ويومئذ للتكرير الثانى ان التقدير اذكر يوم يرون الملائكة
(المسئلة الثانية) اختلفوا فى ذلك اليوم فقال ابن عباس يريد عند الموت وقال الباقون
يريد يوم القيامة (المسئلة الثالثة) انما يقال للكافر لابشرى لان الكافر وان كان ضالا مضلا
الا انه يعتقد فى نفسه انه كان هاديا مهتديا فكان يطمع فى ذلك الثواب العظيم ولانهم
ربما عملوا مارجوا فيه النفع كنصرة المظلوم وعطية الفقير وصلة الرحم ولكنه أبطلها
بكفره فبين سبحانه انهم فى اول الامر يشافهون بمايدل على نهاية اليأس والخيبة وذلك
هو النهاية فى الايلام وهو المراد من قوله وبدالهم من الله مالم يكونوا يحتسبون (المسئلة
الرابعة) حق الكلام ان يقال يوم يرون الملائكة لابشرى لهم لكنه قال لابشرى
للمجرمين وفيه وجهان أحدهما أنه ظاهر فى موضع ضمير والثانى انه عام فقد تناولهم
بعمومه قالت المعتزلة تدل الآية على القطع بوعيد الفساق وعدم العفو لان قوله
لابشرى للمجرمين نكرة فى سياق النفى فيعم جميع انواع البشرى فى جميع الاوقات بدليل
أن من أراد تكذيب هذه القضية قال بل له بشرى فى الوقت الفلانى فلما كان ثبوت

و بمناصبتهم لهم العداوة وايذائهم لهم وأقاويلهم الخارجة من حدود الانصاف لنعلم صبركم وقوله تعالى (وكان ربك
بصيرا) وعد كريم للرسول عليه الصلاة والسلام بالاجر الجزيل لصبره الجميل مع مزيد تشريفه له
عليه الصلاة والسلام بالالتفات الى اسم الرب مضافا الى ضميره صلى الله عليه وسلم (وقال الذين لايرجون لقاءنا) شروع فى حكاية بعض آخر من أقاويلهم الباطلة و بيان بطلانها اثر ابطال اباطيلهم السابقة والجملة معطوفة على قوله تعالى وقالوا ما لهذا الرسول الخ ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما فى حيز الصلة على أن ما يحكى عنهم من الشناعة بحيث لايصدر عمن يعتقد المصير الى الله عزوجل ولقاء الشئ عبارة عن مصادفته من غير أن يمنع مانع من ادراكه بوجه من الوجوه والمراد بلقائه تعالى اما الرجوع اليه تعالى بالبعث والحشر أو لقاء حسابه تعالى كما فى قوله تعالى انى ظننت أنى ملاق حسابيه و بعدم رجائهم اياه عدم توقعهم له أصلا لانكارهم البعث والحساب بالكلية لا عدم أملهم حسن اللقاء ولا عدم خوفهم سوء اللقاء لان عدمهما غير
مستلزم لما هم عليه من العتو والاستكبار وانكار البعث والحساب رأسا أى وقال الذين لايتوقعون
الرجوع الينا أوحسابنا المؤدى الى سوء العذاب

الذى تستوجبه مقالتهم (لولا أنزل علينا الملائكة) اى هلا أنزلوا علينا ليخبرونا بصدق محمد عليه الصلاة والسلام وقيل هلا أنزلوا علينا بطريق الرسالة وهو الانسب لقولهم (أونرى ربنا) من حيث ان كلا القولين ناشئ عن غاية غلوهم فى المكابرة والعتو حسبما يعرب عنه قوله تعالى (لقد استكبروا فى أنفسهم) أى فى شأنها حتى اجترؤا على التفوه بمثل هذه العظيمة الشنعاء (وعتوا) اى تجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان (عتوا كبيرا) بالغا أقصى غاياته حيث أملوا نيل مرتبة المفاوضة الالهية من غير توسط الرسول والملك كما قالوا لولا يكلمنا الله ولم يكتفوا بما عاينوا من المعجزات القاهرة التى تخر لها صم الجبال فذهبوا فى الاقتراح كل مذهب حتى منتهم أنفسهم الخبيثة أمالى لا تكاد تدنو اليها أحداق الامم ولا تمتد اليها أعناق الهمم ولا ينالها الا أولوا العزائم الماضية من الانبياء عليهم الصلاة والسلام واللام جواب قسم محذوف أى والله لقد استكبروا الآية وفيه من الدلالة على غاية قبح ماهم عليه والاشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم مالا يخفى (يوم يرون الملائكة) استئناف مسوق لبيان مايلقونه عند مشاهدتهم لما اقترحوه من نزول الملائكة عليهم السلام بعد استعظامه و بيان كونه فى غاية مايكون من الشناعة وانما قيل

البشرى فى وقت من الاوقات يذكر لتكذيب هذه القضية علمنا أن قوله تعالى لا بشرى يقتضى نفى جميع أنواع البشرى فى كل الاوقات ثم انه سبحانه أكد هذا النفى بقوله حجرا محجورا والعفو من الله أعظم البشرى والخلاص من النار بعد دخولها من أعظم البشرى وشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من أعظم البشرى فوجب أن لا يثبت ذلك لاحد من المجرمين والكلام على التمسك بصيغ العموم قد تقدم غير مرة قال المفسرون المراد بالمجرمين ههنا الكفار بدليل قوله انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة (المسئلة الخامسة) فى تفسير قوله حجرا محجورا ذكر سيبويه فى باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بافعال متروك اظهارها نحو معاذ الله وقعدك وعمرك وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو أو هجوم نازلة ونحو ذلك يضعونها موضع الاستعاذة قال سيبويه يقول الرجل للرجل يفعل كذا وكذا فيقول حجرا وهى من حجره اذا منعه لان المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقه فكان المعنى أسئل الله أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا ومجيئه على فعل أو فعل فى قراءة الحسن تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد فان قيل لما ثبت انه من باب المصادر فما معنى وصفه بكونه محجورا قلنا جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر كما قالوا ذيل ذايل فالذيل الهون وموت مائت وحرام محرم (المسئلة السادسة) اختلفوا فى ان الذين يقولون حجرا محجورا من هم على ثلاثة أقوال القول الاول انهم هم الكفار وذلك لانهم كانوا يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه ثم اذا أوهم عند الموت ويوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم لانهم لا يلقونهم الا بما يكرهون فقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو ونزول الشدة القول الثانى أن القائلين هم الملائكة ومعناه حراما محرما عليكم الغفران والجنة والبشرى أى جعل الله ذلك حراما عليكم ثم اختلفوا على هذا القول فقال بعضهم ان الكفار اذا اخرجوا من قبورهم قالت الحفظة لهم حجرا محجورا وقال الكلبى الملائكة على أبواب الجنة يبشرون المؤمنين بالجنة ويقولون للمشركين حجرا محجورا وقال عطية اذا كان يوم القيامة يلقى الملائكة المؤمنين بالبشرى فاذا رأى الكفار ذلك قالوا لهم بشرونا فيقولون حجرا محجورا القول الثالث وهو قول القفال والواحدى وروى عن الحسن ان الكفار يوم القيامة اذا شاهدوا مايخافونه فيتعوذون منه ويقولون حجرا محجورا فتقول الملائكة لا يعاذ من شر هذا اليوم اما قوله تعالى وقدمنا فقد استدلت المجسمة بقوله وقدمنا لان القدوم لا يصح الا على الاجسام وجوابه انه لما قامت الدلالة على امتناع القدوم عليه لان القدوم حركة والموصوف بالحركة محدث ولذلك استدل الخليل عليه السلام بافول الكواكب على حدوثها وثبت ان الله عزوجل لا يجوز أن يكون محدثا فوجب تأويل لفظ القدوم وهو من وجوه أحدها وقدمنا الى ما عملوا من عمل أى وقصدنا الى أعمالهم فان القادم الى شئ قاصد له فالقصد هو المؤثر فى القدوم اليه واطلق المسبب

على السبب مجازا وثانيها المراد قدوم الملائكة الى موضع الحساب فى الآخرة ولما كانوا بأمره يقدمون جاز أن يقول وقدمنا على سبيل التوسع ونظيره قوله فلما آسفونا انتقمنا منهم وثالثها ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها فلما أباد الله أعمالهم وافسدها بالكلية صارت شبيهة بالمواضع التى يقدمها الملك فلا جرم قال وقدمنا اما قوله الى ما عملوا من عمل يعنى الاعمال التى اعتقدوها برا وظنوا انها تقربهم الى الله تعالى المعنى الى ما عملوا من أى عمل كان اما قوله فجعلناه هباء منثورا فالمراد أبطلناه وجعلناه بحيث لا يمكن الانتفاع به كالهباء المنثور الذى لا يمكن القبض عليه ونظيره قوله تعالى كسراب بقيعة وكرماد اشتدت به الريح وكعصف مأكول قال أبو عبيدة والزجاج الهباء مثل الغبار يدخل من الكوة مع ضوء الشمس وقال مقاتل انه الغبار الذى يستطير من حوافر الدواب اما قوله أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا فاعلم انه سبحانه لما بين حال الكفار فى الخسار الكلى والخيبة التامة شرع وصف أهل الجنة تنبيها على ان الحظ كل الحظ فى طاعة الله تعالى * وههنا سؤالات (الاول) كيف يكون أصحاب الجنة خيرا مستقرا من أهل النار ولا خير فى النار ولا يقال فى العسل هو أحلى من الخل (الجواب) من وجوه الاول ما تقدم فى قوله أذلك خير أم جنة الخلد والثانى يجوز أن يريد انهم فى غاية الخير لان مستقره خير من النار كقول الشاعر

ان الذى سمك السماء بنى لنا * بيتا دعائمه أعز وأطول

الثالث التفاضل الذى ذكر بين المنزلتين انما يرجع الى الموضع والموضع من حيث انه موضع لا شر فيه الرابع هذا التفاضل واقع على هذا التقدير أى لو كان لهم مستقر فيه خير لكان مستقر أهل الجنة خيرا منه (السؤال الثانى) الآية دلت على أن مستقرهم غير مقيلهم فكيف ذلك والجواب من وجوه (الاول) ان المستقر مكان الاستقرار والمقيل زمان القيلولة فهذا اشارة الى انهم من المكان فى أحسن مكان ومن الزمان فى أطيب زمان (الثانى) ان مستقر أهل الجنة غير مقيلهم فانهم يقيلون فى الفردوس ثم يعودون الى مستقرهم (الثالث) أن بعد الفراغ من المحاسبة والذهاب الى الجنة يكون الوقت وقت القيلولة قال ابن مسعود لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة فى الجنة واهل النار فى النار وقرأ ابن مسعود ثم ان مقيلهم لالى الجحيم وقال سعيد بن جبير ان الله تعالى اذا أخذ فى فصل القضاء قضى بينهم بقدر ما بين صلاة الغداة الى انتصاف النهار فيقيل اهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار وقال مقاتل يخفف الحساب على أهل الجنة حتى يكون بمقدار نصف يوم من أيام الدنيا ثم يقيلون من يومهم ذلك فى الجنة (السؤال الثالث) كيف يصح القيلولة فى الجنة والنار وعندكم ان أهل الجنة فى الآخرة لا ينامون وأهل النار أبدا فى عذاب يعرفونه وأهل الجنة فى نعيم يعرفونه والجواب قال الله تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا وليس فى الجنة بكرة وعشى لقوله تعالى لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ولانه اذا لم يكن

يوم يرون دون أن يقال يوم ينزل الملائكة ايذانا من أول الامر بان رؤيتهم لهم ليست على طريق الاجابة الى ما اقترحوه بل على وجه آخر غير معهود و يوم منصوب على الظرفية بما يدل عليه قوله تعالى (لا بشرى يومئذ للمجرمين) فانه فى معنى لا يبشر يومئذ المجرمون والعدول الى نفى الجنس للمبالغة فى نفى البشرى وما قيل من انه بمعنى يمنعون البشرى أو يعدمونها تهوين للخطب فى مقام التهويل فان منع البشرى وفقدانها مشعران بأن هناك بشرى يمنعونها أو يفقدونها وأين هذا من نفيها بالكلية وحيث كان نفيها كناية عن اثبات ضدها كما أن نفى المحبة فى مثل قوله تعالى والله لا يحب الكافرين كناية عن البغض والمقت دل على ثبوت الندرى لهم على أبلغ وجه وآكده وقيل منصوب بفعل مقدر يؤكده بشرى على أن لا غير نافية للجنس وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم عليه أى اذكر يوم رؤيتهم الملائكة و يومئذ على كل حال تكرير للتاكيد والتهويل مع ما فيه من الايذان بأن تقديم الظرف للاهتمام لا لقصر نفى البشرى على ذلك الوقت فقط فان ذلك مخل بتفظيع حالهم وللمجرمين تبيين على أنه مظهر وضع موضع الضمير تسجيلا بالاجرام مع ما هم عليه من الكفر وحمله على العموم بحيث يتناول فساق

المؤمنين ثم الالتجاء فى اخراجهم عن الحرمان الكلى الى أن نفى البشرى حينئذ لا تستلزم نفيه فى جميع الاوقات فيجوز أن يبشروا بالعفو والشفاعة فى وقت آخر بمعزل عن الحق بعيد ﴿٤٦٨﴾ (ويقولون) عطف على ما ذكر من الفعل المنفى المنبئ عن كمال فظاعة ما يحيق بهم من الشر وغاية هول مطلعه ببيان أنهم يقولون عند مشاهدتهم له (حجرا محجورا) وهى كلمة يتكلمون بها عند لقاء عدو موتور وهجوم نازلة هائلة يضعونها موضع الاستعاذة حيث يطلبون من الله تعالى أن يمنع المكروه فلا يلحقهم فكان المعنى نسأل الله تعالى أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا وكسر الحاء تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد كما فى قعدك وعمرك وقد قرئ حجرا بالضم والمعنى أنهم يطلبون نزول الملائكة عليهم السلام ويقترحونه وهم اذا رأوهم كرهوا لقاءهم أشد كراهة وفزعوا منهم فزعا شديدا وقالوا ما كانوا يقولونه عند نزول خطب شنيع وحلول بأس شديد فظيع ومحجورا صفة لحجرا واردة للتأكيد كما قالوا ذيل ذابل وليل أليل وقيل يقولها الملائكة اقناطا للكفرة بمعنى حراما محرما عليكم الغفران أو الجنة أو البشرى أى جعل الله تعالى ذلك حراما عليكم وليس بواضح (وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) بيان لحال ما كانوا يعملونه فى الدنيا من صلة

هناك شمس لم يكن هناك نصف النهار ولا وقت القيلولة بل المراد منه بيان أن ذلك الموضع أطيب المواضع وأحسنها كما أن موضع القيلولة يكون أطيب المواضع والله أعلم * قوله تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا لقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا) اعلم أن هذا الكلام مبنى على ما استدعوه من انزال الملائكة فبين سبحانه أنه يحصل ذلك فى يوم له صفات (الصفة الاولى) ان فى ذلك اليوم تشقق السماء بالغمام وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله اذا السماء انفطرت يدل على التشقق وقوله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام يدل على الغمام فقوله تشقق السماء بالغمام جامع لمعنى الآيتين ونظيره قوله تعالى وفتحت السماء فكانت أبوابا وقوله فهى يومئذ واهية (المسئلة الثانية) قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة بتخفيف الشين ههنا وفى سورة ق والباقون بالتشديد قال أبو عبيدة الاختيار التخفيف كما يخفف تساءلون ومن شدد فمعناه تتشقق (المسئلة الثالثة) قال الفراء المراد من قوله بالغمام أى عن الغمام لان السماء لا تتشقق بالغمام بل عن الغمام وقال القاضى لا يمتنع أن يجعل تعالى الغمام بحيث تتشقق السماء باعتماده عليه وهو كقوله السماء منفطر به (المسئلة الرابعة) لابد من أن يكون لهذا التشقق تعلق بنزول الملائكة فقيل الملائكة فى أيام الانبياء عليهم السلام كانوا ينزلون من مواضع مخصوصة والسماء على اتصالها فى ذلك اليوم تتشقق السماء فاذا انشقت خرج من أن يكون حائلا بين الملائكة وبين الارض فنزلت الملائكة الى الارض (المسئلة الخامسة) قوله ونزل الملائكة صيغة عموم فيتناول الكل ولان السماء مقر الملائكة فاذا انشق وجب أن ينزلوا الى الارض ثم قال مقاتل تشقق سماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر من سكان الدنيا كذلك تتشقق سماء سماء ثم ينزل الكروبيون وحملة العرش ثم ينزل الرب تعالى وروى الضحاك عن ابن عباس قال تشقق كل سماء وينزل سكانها فيحيطون بالعالم ويصيرون سبع صفوف حول العالم واعلم أن نزول الرب بالذات باطل قطعا لان النزول حركة والموصوف بالحركة محدث والاله لا يكون محدثا وأما نزول الملائكة الى الارض فعليه سؤال وذلك لانه ثبت أن الارض بالقياس الى سماء الدنيا كحلقة فى فلاة فكيف بالقياس الى الكرسى والعرش فلائكة هذه المواضع بأسرها كيف تتسع لهم الارض جميعا فلعل الله تعالى يزيد فى طول الارض وعرضها ويبلغها مبلغا يتسع لكل هؤلاء ومن المفسرين من قال الملائكة يكونون فى الغمام منه والله تعالى يسكن الغمام فوق أهل القيامة ويكون ذلك الغمام مقر الملائكة قال الحسن والغمام سترة بين السماء والارض تعرج الملائكة فيه بنسخ أعمال بنى آدم والمحاسبة تكون فى الارض (المسئلة السادسة) اما نزول الملائكة فظاهر ومعنى تنزيلا توكيد ﴿للنزول﴾

للنزول ودلالة على اسراعهم فيه (المسئلة السابعة) الالف واللام فى الغمام ليس للعموم فهو للمعهود والمراد ماذكروه فى قوله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة (المسئلة الثامنة) قرئ وننزل الملائكة وننزل الملائكة ونزل الملائكة ونزلت الملائكة ونزل الملائكة على حذف النون الذى هو فاء الفعل من نزل قراءة أهل مكة (الصفة الثانية لذلك اليوم) قوله الملك يومئذ الحق للرحمن قال الزجاج الحق صفة للملك وتقديره الملك الحق يومئذ الرحمن ويجوز الحق بالنصب على تقدير أعنى ولم يقرأ به ومعنى وصفه بكونه حقا انه لا يزول ولا يتغير فان قيل مثل هذا الملك لم يكن قط الا للرحمن فا الفائدة فى قوله يومئذ قلنا لان فى ذلك اليوم لا مالك سواه لا فى الصورة ولا فى المعنى فتخضع له الملوك وتعنو له الوجوه وتذل له الجبابرة بخلاف سائر الايام واعلم ان هذه الآية دالة على فساد قول المعتزلة فى أنه يجب على الله الثواب والعوض وذلك لانه لو وجب لاستحق الذم بتركه فكان خائفا من ان لا يفعل فلم يكن ملكا مطلقا وأيضا فقوله الملك يومئذ للرحمن يفيد انه ليس لغيره ملك وذلك لا يتم على قول المعتزلة لان كل من استحق عليه شيئا فانه يكون مالكا له ولا يكون هو سبحانه مالكا لذلك المستحق ولانه سبحانه اذا استحق على أحد شيأ أمكنه أن يعفو عنه اما غيره اذا استحق عليه شيئا فانه لا يصح ابراؤه عنه فكانت العبودية ههنا أتم ولان من كفر بالله الى آخر عمره ثم فى آخر عمره عرف الله لحظة ومات فهو سبحانه لو أعطاه ألف ألف سنة انواع الثواب واراد بعد ذلك أن لا يعطيه لحظة واحدة صار سفيها وهذا نهاية العبودية والذل فكيف يليق بمن هذا حاله ان يقال له الملك يومئذ الحق للرحمن وأيضا فكل من فعل فعلا لو لم يفعله لكان مستوجبا للذم وكان بذلك الفعل مكتسبا للكمال و بتركه مكتسبا للنقصان فلم يكن ملكا بل فقيرا مستحقا فثبت أن قوله سبحانه الملك يومئذ الحق للرحمن غير لائق باصول المعتزلة (الصفة الثالثة) قوله وكان يوما على الكافرين عسيرا فالمعنى ظاهر لانه تعالى عالم بالاحوال قادر على كل مايريده وأما غيره فالكل فى ربقة العجز ولجام القهر فكان فى نهاية العسر على الكافر (الصفة الرابعة) قوله ويوم يعض الظالم على يديه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الالف واللام فى الظالم فيه قولان أحدهما انه للعموم والثانى أنه للمعهود والقائلون بالمعهود على قولين الاول قال ابن عباس المراد عقبة بن أبى معيط بن أمية بن عبد شمس كان لا يقدم من سفر الا صنع طعاما يدعوا اليه جيرانه من أهل مكة و يكثر مجالسة الرسول ويعجبه حديثه فصنع طعاما ودعا الرسول فقال صلى الله عليه وسلم ما آكل من طعامك حتى تأتى بالشهادتين ففعل فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من طعامه فبلغ هذا أمية بن خلف فقال صبوت ياعقبة وكان خليله فقال انما ذكرت ذلك ليأكل من طعامى فقال لا أرضى أبدا حتى تاتيه فتبزق فى وجهه وتطأ على عنقه ففعل فقال عليه السلام لا ألقاك خارجا من مكة الا علوت رأسك بالسيف فنزل و يوم يعض الظالم على يديه ندامة يعنى عقبة يقول ياليتنى لم أتخذ أمية خليلا

رحم واغاثة ملهوف وقرى ضيف ومن على أسير وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم التى لو كانوا عملوها مع الايمان لنالوا ثوابها بتمثيل حالهم وحال أعمالهم المذكورة بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه فقدم الى اشيائهم وقصد ماتحت أيديهم فانحى عليها بالافساد والتحريق ومزقها كل تمزيق بحيث لم يدع لها عينا ولا أثرا أى عمدنا اليها وأبطلناها أى أظهرنا بطلانها بالكلية من غير أن يكون هناك قدوم ولا شئ يقصد تشبيهه به والهباء شبه غبار يرى فى شعاع الشمس يطلع من الكوة من الهبوة وهى الغبار ومنثورا صفته شبه به أعمالهم المحبطة فى الحقارة وعدم الجدوى ثم بالمنثور منه فى الانتشار بحيث لا يمكن نظمه أو مفعول ثالث من حيث انه كالخبر بعد الخبر كما فى قوله تعالى كونوا قردة خاسئين (أصحاب الجنة) هم المؤمنون المشار اليهم فى قوله تعالى قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون الخ (يومئذ) أى يوم اذ يكون ماذكر من عدم التبشير وقولهم حجرا محجورا وجعل أعمالهم هباء منثورا (خير مستقرا) المستقر المكان الذى يستقر فيه فى أكثر الاوقات للتجالس والتحادث (وأحسن مقيلا) المقيل المكان الذى يؤوى اليه للاسترواح الى الازواج والتمتع بمغازلتهن سمى بذلك لما أن التمتع به يكون وقت القيلولة غالبا وقيل

اما لارادة الزيادة على الاطلاق أى هم فى أقصى مايكون من خيرية المستقر وحسن المقيل واما بالاضافة الى ماللكفرة المتنعمين فى الدنيا أوالى مالهم فى الآخرة بطريق التهكم بهم كما مر فى قوله تعالى قل أذلك خير الآية هذا وقد جوز أن يراد باحدهما المصدر أو الزمان اشارة الى أن مكانهم وزمانهم أطيب مايتخيل من الامكنة والازمنة (ويوم تشقق السماء) أى تتفتح واصله تتشقق فحذفت احدى التاءين كما فى تلظى وقرئ بادغام التاء فى الشين (بالغمام) بسبب طلوع الغمام منها وهو الغمام الذى ذكر فى قوله تعالى هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة قيل هو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن الالبنى اسرائيل (ونزل الملائكة تنزيلا) أى تنزيلا عجيبا غير معهود قيل تنشق سماء و ينزل الملائكة خلال ذلك الغمام بصحائف أعمال العباد

لقد أضلنى عن الذكر أى صرفنى عن الذكر وهو القرآن والايمان بعد اذ جاءنى مع محمد عليه السلام فأسر عقبة يوم بدر فقتل صبرا ولم يقتل يومئذ من الاسارى غيره وغير النضر ابن الحرث الثانى قالت الرافضة هذا الظالم هو رجل بعينه وان المسلمين غيروا اسمه وكتموه وجعلوا فلانا بدلا من اسمه وذكروا فاضلين من أصحاب رسول الله واعلم ان اجراء اللفظ على العموم ليس لنفس اللفظ لانا بينا فى أصول الفقه أن الالف واللام اذا دخل على الاسم المفرد لايفيد العموم بل انما يفيده للقرينة من حيث ان ترتيب الحكم على الوصف مشعر بعلية الوصف فدل ذلك على ان المؤثر فى العض على اليدين كونه ظالما وحينئذ يعم الحكم لعموم علته وهذا القول أولى من التخصيص بصورة واحدة لان هذا الذى ذكرناه يقتضى العموم ونزوله فى واقعة أخرى خاصة لاينافى أن يكون المراد هو العموم حتى يدخل فيه تلك الصورة وغيرها ولان المقصود من الآية زجر الكل عن الظلم وذلك لايحصل الا بالعموم وأما قول الرافضة فذلك لايتم الا بالطعن فى القرآن واثبات انه غير و بدل ولا نزاع فى انه كفر (المسئلة الثانية) استدلت المعتزلة بقوله و يوم يعض الظالم على يديه قالوا الظالم يتناول الكافر والفاسق فدل على أن الله تعالى لايعفو عن صاحب الكبيرة والكلام عليه تقدم (المسئلة الثالثة) قوله يعض الظالم على يديه قال الضحاك يأكل يديه الى المرفق ثم تنبت فلا يزال كذلك كلما أكلها نبتت وقال أهل التحقيق هذه اللفظة مشعرة بالتحسر والغم يقال عض أنامله وعض على يديه (المسئلة الرابعة) كما بينا ان الظالم غير مخصوص بشخص واحد بل يعم جميع الظلمة فكذا المراد بقوله فلانا ليس شخصا واحدا بل كل من أطيع فى معصية الله واستشهد القفال بقوله وكان الكافر على ربه ظهيرا و يقول الكافر ياليتنى كنت ترابا يعنى به جماعة الكفار (المسئلة الخامسة) قرئ ياويلتى بالياء وهو الاصل لان الرجل ينادى و يلته وهى هلكته يقول لها تعالى فهذا أوانك وانما قلبت الياء ألفا كما فى صحارى وعذارى (المسئلة السادسة) قوله عن الذكر أى عن ذكر الله أو القرآن وموعظة الرسول و يجوز أن يريد نطقه بشهادة الحق وغيرته على الاسلام والشيطان اشارة الى خليله سماه شيطانا لانه أضله كما يضل الشيطان ثم خذله ولم ينفعه فى العاقبة أو أراد ابليس فانه هو الذى حمله على ان صار خليلا لذلك المضل ومخالفة الرسول ثم خذله أو أراد الجنس وكل من تشيطن من الجن والانس و يحتمل أن يكون وكان الشيطان حكاية كلام الظالم وان يكون كلام الله

* قوله تعالى (وقال الرسول يارب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا) اعلم أن الكفار لما أكثروا من الاعتراضات الفاسدة ووجوه التعنت ضاق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم وشكاهم الى الله تعالى وقال يارب ان قومى اتخذوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) أكثر المفسرين انه قول واقع من الرسول صلى الله عليه وسلم وقال أبو مسلم بل المراد أن الرسول عليه

وقرئ ونزلت الملائكة ونزل وننزل على صيغة المتكلم من الانزال والتنزيل ونزل الملائكة ﴿ السلام ﴾
وأنزل الملائكة ونزل

الملائكة على حذف النون الذى هو فاء الفعل من نزّل (الملك يومئذ للرحمن) أى السلطنة القاهرة والاستيلاء الكلى
العام الثابت صورة ومعنى ظاهرا و باطنا بحيث لا زوال له أصلا ثابت للرحمن يومئذ فالملك مبتدأ

السلام يقول فى الآخرة وهو كقوله فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على
هؤلاء شهيدا والاول أولى لانه موافق للفظ ولان ما ذكره الله تعالى من قوله وكذلك
جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ولا يليق الا اذا كان وقع
ذلك القول منه (المسئلة الثانية) ذكروا فى المهجور قولين الاول انه من الهجران أى تركوا
الايمان به ولم يقبلوه وأعرضوا عن استماعه الثانى انه من أهجر أى مهجورا فيه ثم حذف
الجار و يؤكده قوله تعالى مستكبرين به سامرا تهجرون ثم هجرهم فيه انهم كانوا
يقولون انه سحر وشعر وكذب وهجر أى هذيان وروى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم
انه قال من تعلم القرآن وعلق مصحفه لم يتعهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيمة متعلقا به يقول
يارب العالمين عبدك هذا اتخذنى مهجورا اقض بينى و بينه ثم انه تعالى قال مسليا
لرسوله عليه الصلاة والسلام ومعزيا له وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين بين بذلك
ان له أسوة بسائر الرسل فليصبر على ما يلقاه من قومه كما صبروا ثم فيه مسائل (المسئلة
الاولى) احتج أصحابنا بهذه الآية على انه تعالى خالق الخير والشر لان قوله تعالى جعلنا
لكل نبى عدوا يدل على أن تلك العداوة من جعل الله ولاشك أن تلك العداوة كفر قال
الجبائى المراد من الجعل التبيين فانه تعالى لما بين انهم اعداؤه جاز أن يقول جعلناهم
اعداءه كما اذا بين الرجل ان فلانا لص يقال جعله لصا كما يقال فى الحاكم عدل فلانا
وفسق فلانا وجرحه قال الكعبى انه تعالى لما أمر الانبياء بعداوة الكفار وعداوتهم
للكفار تقتضى عداوة الكفار لهم فلهذا جاز أن يقول وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من
المجرمين لانه سبحانه هو الذى حمله ودعاه الى ما استعقب تلك العداوة وقال أبو مسلم يحتمل
فى العدو أنه البعيد لا القريب اذ المعاداة المباعدة كما أن النصر القرب والمظاهرة وقد
باعد الله تعالى بين المؤمنين والكافرين والجواب عن الاول ان التبيين لا يسمونه البتة
جعلا لان من بين لغيره وجود الصانع وقدمه لا يقال انه جعل الصانع وجعل قدمه
والجواب عن الثانى أن الذى أمره الله تعالى به هل له تأثير فى وقوع العداوة فى قلوبهم
أو ليس له تاثير فان كان الاول فقد تم الكلام لان عداوتهم للرسول صلى الله عليه وسلم
كفر فاذا أمر الله الرسول بماله أثر فى تلك العداوة فقد أمره بماله اثر فى وقوع الكفر
وان لم يكن فيه تاثير البتة كان منقطعا عنه بالكلية فيمتنع اسناده اليه وهذا هو الجواب
عن قول أبى مسلم (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول ان قول محمد عليه السلام يارب ان
قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا فى المعنى كقول نوح عليه السلام رب انى دعوت
قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى الافرارا وكما أن المقصود من هذا انزال العذاب فكذا
ههنا فكيف يليق هذا بمن وصفه الله بالرحمة فى قوله وما أرسلناك الا رحمة للعالمين جوابه
أن نوحا عليه السلام لما ذكر ذلك دعا عليهم واما محمد عليه الصلاة والسلام فلما ذكر هذا
ما دعا عليهم بل انتظر فلما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين كان ذلك

والحق صفته وللرحمن
خبره و يومئذ ظرف لثبوت
الخبر للمبتدا وفائدة التقييد
أن ثبوت الملك المذكور
له تعالى خاصة يومئذ
وأما فيما عداه من أيام
الدنيا فيكون لغيره أيضا
تصرف صورى فى الجملة
وقيل الملك مبتدأ والحق
خبره و للرحمن متعلق
بالحق أو بمحذوف على
التبيين أو بمحذوف هو
صفة للحق و يومئذ
معمول للملك وقيل الخبر
يومئذ والحق نعت للملك
وللرحمن على ما ذكروا
أياما كان فالجملة بمعناها
عاملة فى الظرف أى ينفرد
الله تعالى بالملك يوم
تشقق وقيل الظرف
منصوب بما ذكر فالجملة
حينئذ استئناف مسوق
لبيان أحواله وأهواله
وايراده تعالى بعنوان
الرحمانية للايذان
بان اتصافه تعالى بغاية
الرحمة لا يهون الخطب
على الكفرة لعدم
استحقاقهم للرحمة
كما فى قوله تعالى يا أيها
الانسان ما غرك بربك
الكريم والمعنى ان الملك
الحقيقى يومئذ للرحمن (وكان) ذلك اليوم مع كون الملك فيه لله تعالى المبالغ فى الرحمة لعباده (يوما على
الكافرين عسيرا) شديدا لهم وتقديم الجار والمجرور لمراعاة

الفواصل وأما المؤمنين فيكون يسيرا بفضل الله تعالى وقد جاء فى الحديث أنه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاها فى الدنيا والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله (ويوم يعض الظالم على يديه) عض اليدين والانامل وأكل البنان وحرق

الاسنان ونحوها كنايات عن الغيظ والحسرة لانها من روادفهما والمراد بالظالم اما عقبة ابن أبى معيط على ماقيل من انه كان يكثر مجالسة النبى صلى الله عليه وسلم فدعاه عليه الصلاة والسلام يوما الى ضيافته فابى عليه الصلاة والسلام أن ياكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل وكان أبى بن خلف صديقه فعاتبه فقال صبأت فقال لا ولكن أبى أن يأكل من طعامى وهو فى بيتى فاستحييت منه فشهدت له فقال انى لا أرضى منك الا ان تأتيه فتطأ قفاه وتبزق فى وجهه فاتاه فوجده ساجدا فى دار الندوة ففعل ذلك فقال عليه الصلاة والسلام لا ألقاك خارجا من مكة الا علوت رأسك بالسيف فاسر يوم بدر فامر عليا رضى الله عنه فقتله وقيل قتله عاصم بن ثابت الانصارى وطعن عليه الصلاة والسلام أبيا يوم أحد فى المبارزة فرجع الى مكة ومات واما جنس الظالم وهو داخل فيه دخولا أوليا وقوله تعالى (يقول الخ) حال من فاعل يعض وقوله تعالى (ياليتنى الخ) محكى به ويا اما لمجرد التنبيه من غير قصد الى تعيين المنبه أو المنادى محذوف أى ياهؤلاء ليتنى (اتخذت مع الرسول سبيلا) أى طريقا واحدا منجيا من هذه الورطات وهو

كالامر له بالصبر على ذلك وترك الدعاء عليهم فظهر الفرق (المسئلة الثالثة) قوله جعلنا صيغة العظماء والعظيم اذا ذكر نفسه فى كل معرض من التعظيم وذكرانه يعطى فلابد وان تكون تلك العطية عظيمة كقوله ولقد آتيناك سبعا من المثانى وقوله انا أعطيناك الكوثر فكيف يليق بهذه الصيغة ان تكون تلك العطية هى العداوة التى هى منشأ الضرر فى الدين والدنيا وجوابه ان خلق العداوة سبب لازدياد المشقة التى هى موجبة لمزيد الثواب والله أعلم (المسئلة الرابعة) يجوز أن يكون العدو واحدا وجمعا كقوله فانهم عدولى وجاء فى التفسير أن عدو الرسول صلى الله عليه وسلم أبو جهل اما قوله وكفى بربك هاديا ونصيرا فقال الزجاج الباء زائدة يعنى كفى ربك وهاديا ونصيرا منصوبان على الحال هاديا الى مصالح الدين والدنيا ونصيرا على الاعداء ونظيره ياأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين * قوله تعالى (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا) اعلم ان هذا هو الشبهة الخامسة لمنكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وان أهل مكة قالوا تزعم انك رسول من عند الله افلا تأتينا بالقرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة جملة على موسى والانجيل على عيسى والزبور على داود وعن ابن جريج بين أوله وآخره ثنتان أو ثلاث وعشرون سنة وأجاب الله بقوله كذلك لنثبت به فؤادك وبيان هذا الجواب من وجوه أحدها انه عليه السلام لم يكن من أهل القراءة والكتابة فلو انزل عليه ذلك جملة واحدة كان لا يضبطه ولجاز عليه الغلط والسهو وانما نزلت التوراة جملة لانها مكتوبة يقرؤها موسى وثانيها أن من كان الكتاب عنده فربما اعتمد على الكتاب وتساهل فى الحفظ فالله تعالى ما أعطاه الكتاب دفعة واحدة بل كان ينزل عليه وظيفة ليكون حفظه له أكمل فيكون أبعد عن المساهلة وقلة التحصيل وثالثها انه تعالى لو أنزل الكتاب جملة واحدة على الخلق لنزلت الشرائع باسرها دفعة واحدة على الخلق فكان يثقل عليهم ذلك اما لما نزل مفرقا منجما لا جرم نزلت التكاليف قليلا قليلا فكان تحملها أسهل ورابعها انه اذا شاهد جبريل حالا بعد حال يقوى قلبه بمشاهدته فكان أقوى على أداء ما حمل وعلى الصبر على عوارض النبوة وعلى احتماله أذية قومه وعلى الجهاد وخامسها انه لما تم شرط الاعجاز فيه مع كونه منجما ثبت كونه معجزا فانه لو كان ذلك مقدور البشر لوجب أن ياتوا بمثله منجما مفرقا وسادسها كان القرآن ينزل بحسب أسئلتهم والوقائع الواقعة لهم فكانوا يزدادون بصيرة لان بسبب ذلك كان ينضم الى الفصاحة الاخبار عن الغيوب وسابعها ان القرآن لما نزل منجما مفرقا وهو عليه السلام كان يتحداهم من أول الامر فكأنه تحداهم بكل واحد من نجوم القرآن فلما عجزوا عنه كان عجزهم عن معارضة الكل أولى فبهذا الطريق ثبت فى فؤاده ان القوم عاجزون عن المعارضة لا محالة وثامنها ان

طريق الحق ولم تتشعب بى طرق الضلالة أوحصلت فى صحبته عليه الصلاة والسلام طريقا ولم أكن ضالا لا طريق لى قط

السفارة بين الله تعالى و بين أنبيائه وتبليغ كلامه الى الخلق منصب عظيم فيحتمل أن يقال انه تعالى لو أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة لبطل ذلك المنصب على جبريل عليه السلام فلما أنزله مفرقا منجما بقى ذلك المنصب العالى عليه فلاجل ذلك جعله الله سبحانه وتعالى مفرقا منجما اما قوله كذلك ففيه وجهان الاول انه من تمام كلام المشركين أى جملة واحدة كذلك أى كالتوراة والانجيل وعلى هذا الاحتياج الى اضمار فى الآية وهوان يقول أنزلناه مفرقا لنثبت به فؤادك الثانى انه كلام الله تعالى ذكره جوابا لهم أى كذلك أنزلناه مفرقا فان قيل ذلك فى كذلك يجب أن يكون اشارة الى شئ تقدمه والذى تقدم فهوانزاله جملة فكيف فسر به كذلك أنزلناه مفرقا قلنا لان قولهم لولا نزل عليه جملة واحدة معناه لم نزل مفرقا فذلك اشارة اليه اما قوله تعالى ورتلناه ترتيلا فمعنى الترتيل فى الكلام أن يأتى بعضه على أثر بعض على تؤدة وتمهل وأصل الترتيل فى الاسنان وهو تفلجها يقال ثغر رتل ومرتل وهو ضد المتراص ثم انه سبحانه وتعالى لما بين فساد قولهم بالجواب الواضح قال ولا يأتونك بمثل من الجنس الذى تقدم ذكره من الشبهات الا جئناك بالحق الذى يدفع قولهم كما قال تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق وبين أن الذى يأتى به أحسن تفسيرا لاجل مافيه من المزية فى البيان والظهور ولما كان التفسير هو الكشف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل معناه كذا ☼ أما قوله الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس على ثلاثة أصناف صنف على الدواب وصنف على الاقدام وصنف على الوجوه وعنه عليه السلام ان الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (المسئلة الثانية) الاقرب أنه صفة للقوم الذين أوردوا هذه الاسئلة على سبيل التعنت وان كان غيرهم من أهل النار يدخل معهم (المسئلة الثالثة) حمله بعضهم على انهم يمشون فى الآخرة مقلوبين وجوههم الى القرار وأرجلهم الى فوق روى ذلك عن الرسول صلى الله عليه وسلم وقال آخرون المراد انهم يحشرون ويسحبون على وجوههم وهذا أيضا مروى عن الرسول عليه الصلاة والسلام وهو أولى وقال الصوفية الذين تعلقت قلوبهم بما سوى الله فاذا ماتوا بقى ذلك التعلق فعبر عن تلك الحالة بأنهم يحشرون على وجوههم الى جهنم ثم بين تعالى انهم شر مكانا من أهل الجنة وأضل سبيلا وطريقا والمقصود منه الزجر عن طريقهم والسؤال عليه كما ذكرناه على قوله أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وقد تقدم الجواب عنه واعلم أنه تعالى بعد أن تكلم فى التوحيد ونفى الانداد واثبات النبوة والجواب عن شبهات المنكرين لها وفى احوال القيامة شرع فى ذكر القصص على السنة المعلومة (القصة الاولى) ☼ قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا

فهذا أى هلكتى تعالى واحضرى فهذا أوانك (ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا) يريد من أضله فى الدنيا فان فلانا كناية عن الاعلام كما أن الهن كناية عن الاجناس وقيل فلان كناية عن علم ذكور من يعقل وفلانة عن علم اناثهم وقيل فلانة كناية عن نكرة من يعقل من الذكور وفلانة عمن يعقل من الاناث والفلان والفلانة من غير العاقل ويختص فل بالنداء الا فى ضرورة كما فى قوله ☼ فى لجة أمسك فلانا عن فل ☼ وقوله ☼ خذا حدثانى عن فل وفلان وليس فل مرخما من فلان خلافا للفراء واختلفوا فى لام فل وفلان فقيل واو وقيل ياء وهذا فان أريد بالظالم عقبة ففلان كناية عن أبى وان أريد به الجنس فهو كناية عن علم كل من يضله كائنا من كان من شياطين الانس والجن وهذا التمنى منه وان كان مسوقا لابراز الندم والحسرة لكنه

متضمن لنوع تعلل واعتذار لتوريك جنايته الى الغير وقوله تعالى (لقد أضلنى عن الذكر) تعليل لتمنيه المذكور وتوضيح لتعلله وتصديره باللام القسمية للمبالغة فى بيان خطائه واظهار ندمه وحسرته أى والله لقد أضلنى عن ذكر الله تعالى أو عن القرآن أو عن موعظة الرسول عليه الصلاة والسلام أو كلمة الشهادة (بعد اذ جاءنى) وتمكنت منه

وقوله تعالى (وكان الشيطان للانسان خذولا) أى مبالغا فى الخذلان حيث يواليه حتى يؤديه الى الهلاك ثم يتركه ولا ينفعه اعتراض مقرر لمضمون ماقبله امامن جهته تعالى * * اومن تمام كلام الظالم على أنه سمى خليله شيطانا بعد وصفه بالاضلال الذى هو أخص الاوصاف الشيطانية أوعلى أنه اراد بالشيطان ابليس لانه الذى حمله على مخالة الضالين ومخالفة الرسول الهادى عليه الصلاة والسلام بوسوسته واغوائه لكن وصفه بالخذلان يشعر بأنه كان يعده فى الدنيا ويمنيه بانه ينفعه فى الآخرة وهو أوفق بحال ابليس (وقال الرسول) عطف على قوله تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا ومابينهما اعتراض مسوق لاستعظام ماقالوه وبيان مايحيق بهم فى الآخرة من الاهوال والخطوب وايراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتحقيق الحق والرد على نحورهم حيث كان ماحكى عنهم قدحا فى رسالته عليه الصلاة والسلام أى قالوا كيت وكيت وقال الرسول اثر ماشاهد منهم غاية العتو ونهاية الطغيان بطريق البث الى ربه عزوجل (يارب ان قومى) يعنى الذين حكى عنهم ماحكى من الشنائع (اتخذوا هذا القرآن) الذى من جملته هذه الآيات الناطقة بمايحيق بهم فى الآخرة من فنون العقاب كما ينبئ عنه كلمة الاشارة (مهجورا) أى متروكا بالكلية ولم يؤمنوا به ولم يرفعوا اليه رأسا ولم يتأثروا بوعيده وفيه تلويح بان من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد

فدمرناهم تدميرا) اعلم أنه تعالى لما قال وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا أتبعه بذكر جماعة من الانبياء وعرفه بما نزل بمن كذب من أممهم فقال ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه اخاه هرون وزيرا والمعنى لست يامحمد باول من أرسلناه فكذب وآتيناه الآيات فرد فقد آتينا موسى التوراة وقوينا عضده بأخيه هرون ومع ذلك فقد رد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كونه وزيرا لايمنع من كونه شريكا له فى النبوة فلا وجه لقول من قال فى قوله فقلنا اذهبا انه خطاب لموسى عليه السلام وحده بل يجرى مجرى قوله اذهبا الى فرعون انه طغى فان قيل ان كونه وزيرا كالمنافى لكونه شريكا بل يجب ان يقال انه لما صار شريكا خرج عن كونه وزيرا قلنا لامنافاة بين الصفتين لانه لايمتنع أن يشركه فى النبوة ويكون وزيرا وظهيرا ومعينا له (المسئلة الثانية) قال الزجاج الوزير فى اللغة الذى يرجع اليه ويتحصن برأيه والوزر مايعتصم به ومنه كلا لاوزر أى لامنجى ولاملجأ قال القاضى ولذلك لايوصف تعالى بان له وزيرا ولايقال فيه أيضا بانه وزير لان الالتجاء اليه فى المشاورة والرأى على هذا الحد لايصح (المسئلة الثالثة) دمرناهم أهلكناهم اهلاكا فان قيل الفاء للتعقيب والاهلاك لم يحصل عقيب ذهاب موسى وهرون اليهم بل بعد مدة مديدة قلنا التعقيب محمول ههنا على الحكم لاعلى الوقوع وقيل انه تعالى أراد اختصار القصة فذكر حاشيتيها أولها وآخرها لانهما المقصود من القصة بطولها أعنى الزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم (المسئلة الرابعة) قوله تعالى اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا ان حملنا تكذيب الآيات على تكذيب آيات الالهية فلا اشكال وان حملناه على تكذيب آيات النبوة فاللفظ وان كان للماضى الا ان المراد هو المستقبل

(القصة الثانية) قصة نوح عليه السلام * قوله تعالى (وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما) اعلم انه تعالى انما قال كذبوا الرسل امالانهم كانوا من البراهمة المنكرين لكل الرسل أولانه كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيبا للجميع لان تكذيب الواحد منهم لايمكن الابالقدح فى المعجز وذلك يقتضى تكذيب الكل أولان المراد بالرسل وان كان نوحا عليه السلام وحده ولكنه كما يقال فلان يركب الافراس اما قوله أغرقناهم فقال الكلبى أمطر الله عليهم السماء أربعين يوما وأخرج ماء الارض أيضا فى تلك الاربعين فصارت الارض بحرا واحدا وجعلناهم أى وجعلنا اغراقهم أوقصتهم آية وأعتدنا للظالمين أى لكل من سلك سبيلهم فى تكذيب الرسل عذابا أليما ويحتمل أن يكون المراد قوم نوح

(القصة الثالثة) * قوله تعالى (وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيرا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) عطف عادا على هم فى وجعلناهم أو على الظالمين لان المعنى ووعدنا الظالمين (المسئلة الثانية) قرئ وثمود على تأويل القبيلة واما على المنصرف فعلى تأويل الحى أولانه اسم للاب الاكبر (المسئلة الثالثة) قال أبو عبيدة

﴿ الرس ﴾

الرس هو البئر غير المطوية قال أبو مسلم في البلاد موضع يقال له الرس فجائز أن يكون ذلك الوادي سكنا لهم والرس عند العرب الدفن ويسمى به الحفر يقال رس الميت اذا دفن وغيب في الحفرة وفي التفسير انه البئر وأي شيء كان أخبر الله تعالى عن أهل الرس بالهلاك انتهى (المسئلة الرابعة) ذكر المفسرون في أصحاب الرس وجوها أحدها كانوا قوما من عبدة الاصنام أصحاب آبار ومواش فبعث الله تعالى اليهم شعيبا عليه السلام فدعاهم الى الاسلام فتمادوا في طغيانهم وفي ايذائه فبينما هم حول الرس خسف الله بهم وبدارهم وثانيها الرس قرية بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فهلكوا وهم بقية ثمود وثالثها هم أصحاب النبي حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء وهي أعظم ما يكون من الطير سميت بذلك لطول عنقها وكانت تسكن في جبلهم الذي يقال له فتخ وهي تنقض على صبيانهم فتخطفهم ان أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ثم انهم قتلوا حنظلة فاهلكوا ورابعها هم أصحاب الاخدود والرس هو الاخدود وخامسها الرس انطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار وقيل كذبوه ورسوه في بئر أي دسوه فيها وسادسها عن علي عليه السلام انهم كانوا قوما يعبدون شجرة الصنوبر وانما سموا بأصحاب الرس لانهم رسوا نبيهم في الارض وسابعها أصحاب الرس قوم كانت لهم قرى على شاطئ نهر يقال له الرس من بلاد المشرق فبعث الله تعالى اليهم نبيا من ولد يهودا بن يعقوب فكذبوه فلبث فيهم زمنا فشكى الى الله تعالى منهم فحفروا بئرا ورسوه فيها وقالوا نرجو أن يرضى عنا الهنا وكانوا عامة يومهم يسمعون انين نبيهم يقول الهي وسيدي ترى ضيق مكاني وشدة كربي وضعف قلبي وقلة حيلتي فعجل قبض روحي حتى مات فأرسل الله تعالى ريحا عاصفة شديدة الحمرة فصارت الارض من تحتهم حجر كبريت متوقد وأظلتهم سحابة سوداء فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص وثامنها ما روى ابن جرير عن الرسول صلى الله عليه وسلم ان الله بعث نبيا الى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها أحد الا عبد أسود ثم عدوا على الرسول فحفروا له بئرا فالقوه فيها وأطبقوا عليه حجرا ضخما وكان ذلك العبد يحتطب فيشتري له طعاما وشرابا ويرفع الصخرة ويدليه فكان ذلك ماشاء الله فاحتطب يوما فلما أراد أن يحملها وجد نوما فاضطجع فضرب الله على اذنه سبع سنين نائما ثم انتبه وتمطى وتحول لشقه الآخر فنام سبع سنين أخرى ثم هب فحمل حزمته فظن انه نام ساعة من نهار فجاء الى القرية فباع حزمته واشترى طعاما وشرابا وذهب الى الحفرة فلم يجد أحدا وكان قومه قد استخرجوه وآمنوا به وصدقوه وكان ذلك النبي يسألهم عن الاسود فيقولون لا ندري حاله حتى قبض الله النبي وقبض ذلك الاسود فقال عليه السلام ان ذلك الاسود لاول من يدخل الجنة (واعلم) أن القول ما قاله أبو مسلم وهو أن شيئا من هذه الروايات غير معلوم بالقرآن ولا بخبر قوي الاسناد ولكنهم كيف كانوا فقد أخبر الله تعالى عنهم انهم أهلكوا بسبب كفرهم (المسئلة الخامسة) قال النخعي القرن أربعون سنة وقال علي عليه السلام

للقرآن كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم فانه روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال من تعلم القرآن وعلق مصحفا لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقا به يقول يارب العالمين عبدك هذا اتخذني مهجورا اقض بيني وبينه وقيل هو من هجر اذا هذى أي جعلوه مهجورا فيه اما على زعمهم الباطل واما بان هجروا فيه اذا سمعوه كما يحكى عنهم من قولهم لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه وقد جوز أن يكون المهجور بمعنى الهجر كالمجلود والمعقول فالمعنى اتخذوه هجرا وهذيانا وفيه من التحذير والتخويف مالا يخفى فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام اذا شكوا الى الله تعالى قومهم عجل لهم العذاب ولم ينظروا وقوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحمل له على الاقتداء بمن قبله من الانبياء عليهم الصلاة والسلام أي كما جعلنالك أعداء من المشركين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون من الاباطيل جعلنا لكل نبي من الانبياء الذين هم أصحاب الشريعة والدعوة اليها عدوا من مجرمي قومهم فاصبر كما صبروا وقوله تعالى (وكفى بربك هاديا ونصيرا) وعد كريم له عليه الصلاة والسلام بالهداية الى كافة مطالبه والنصر على أعدائه أي كفاك مالك أمرك ومبلغك الى الكمال هاديا لك الى ما يوصلك الى غاية الغايات التي من جملتها تبليغ الكتاب أجله واجراء أحكامه في أكناف الدنيا الى يوم القيامة ونصيرا لك على

تعالى أخبر عن المشركين انهم متى رأوا الرسول أتوا بنوعين من الافعال أحدهما انهم يستهزؤن به وفسر ذلك الاستهزاء بقوله أهذا الذى بعث الله رسولا وذلك جهل عظيم لان الاستهزاء اما ان يقع بصورته أو بصفته أما الاول فباطل لانه عليه الصلاة والسلام كان أحسن منهم صورة وخلقة و بتقدير انه لم يكن كذلك لكنه عليه السلام ما كان يدعى التميز عنهم بالصورة بل بالحجة وأما الثانى فباطل لانه عليه السلام ادعى التميز عنهم فى ظهور المعجز عليه دونهم وانهم ماقدروا على القدح فى حجته ودلالته ففى الحقيقة هم الذين يستحقون ان يهزأبهم ثم انهم لوقاحتهم قلبوا القضية واستهزؤا بالرسول عليه السلام وذلك يدل على انه ليس للمبطل فى كل الاوقات الا السفاهة والوقاحة وثانيهما انهم كانوا يقولون فيه ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها وذلك يدل على أمور (الاول) انهم سموا ذلك اضلالا وذلك يدل على انهم كانوا مبالغين فى تعظيم آلهتهم وفى استعظام صنيعه صلى الله عليه وسلم فى صرفهم عنه وذلك يدل على انهم كانوا يعتقدون أن هذا هو الحق فن هذا الوجه يبطل قول أصحاب المعارف فى انه لايكفر الامن يعرف الدلائل لانهم جهلوه ثم نسبهم الله تعالى الى الكفر والضلال وقولهم لولا ان صبرنا عليها يدل أيضا على ذلك (الثانى) يدل هذا القول منهم على جد الرسول عليه السلام واجتهاده فى صرفهم عن عبادة الاوثان ولولا ذلك لما قالوا ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها وهكذا كان عليه السلام فانه فى أول الامر بالغ فى ايراد الدلائل والجواب عن الشبهات وتحمل ما كانوا يفعلونه من أنواع السفاهة وسوء الادب (الثالث) أن هذا يدل على اعتراف القوم بانهم لم يعترضوا البتة على دلائل الرسول صلى الله عليه وسلم وما عارضوها الا بمحض الجحود والتقليد لان قولهم لولا ان صبرنا عليها اشارة الى الجحود والتقليد ولو ذكروا اعتراضا على دلائل الرسول عليه السلام لكان ذكر ذلك أولى من ذكر مجرد الجحود والاصرار الذى هو دأب الجهال وذلك يدل على أن القوم كانوا مقهورين تحت حجته عليه السلام وانه ماكان فى أيديهم الا مجرد الوقاحة (الرابع) الآية تدل على أن القوم صاروا فى ظهور حجته عليه السلام عليهم كالمجانين لانهم استهزؤا به أولا ثم وصفوه بأنه كاد يضلنا عن آلهتنا لولا أن قابلناه بالجحود والاصرار فهذا الكلام الاخير يدل على أن القوم سلموا له قوة الحجة وكمال العقل والكلام الاول وهو السخرية والاستهزاء لايليق الا بالجاهل العاجز فالقوم لما جمعوا بين هذين الكلامين دل ذلك على انهم كانوا كالمتحيرين فى أمره فتارة بالوقاحة يستهزؤن منه وتارة يصفونه بما لايليق الا بالعالم الكامل ثم انه سبحانه لما حكى عنهم هذا الكلام زيف طريقتهم فى ذلك من ثلاثة أوجه (اولها) قوله وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا لانهم لما وصفوه بالاضلال فى قولهم ان كاد ليضلنا بين تعالى انه سيظهر لهم من المضل ومن الضال عند مشاهدة العذاب الذى لامخلص لهم منه فهو وعيد شديد لهم على التعامى والاعراض عن الاستدلال والنظر

مغايراله لتقوى بذلك التنزيل المفرق فؤادك فان فيه تيسيرا لحفظ النظم وفهم المعانى وضبط الاحكام والوقوف على تفاصيل ماروى فيها من الحكم والمصالح المبنية على المناسبة على أنها منوطة بأسبابها الداعية الى شرعها ابتداء أوتبديلا بالنسخ من أحوال المكلفين و كذلك عامة ماورد فى القرآن المجيد من الاخبار وغيرها متعلقة بامور حادثة من الاقاويل والافاعيل ومن قضية تجددها تجدد مايتعلق بها كالاقتراحات الواقعة من الكفرة الداعية الى حكايتها وابطالها و بيان مايؤل اليه حالهم فى الآخرة على أنهم فى هذا الاقتراح كالباحث عن حتفه بظلفه حيث أمروا بالاتيان بمثل نوبة من نوب التنزيل فظهر عجزهم عن المعارضة وضاقت عليهم الارض بما رحبت فكيف لوتحدوا بكلمة وقوله تعالى (ورتلناه ترتيلا) عطف على ذلك المضمر وتنكير ترتيلا للتفخيم أى كذلك نزلناه ورتلناه ترتيلا بديعا لايقادر قدره ومعنى ترتيله تفريقه آية بعد آية قاله النخعى والحسن وقتادة وقال ابن عباس رضى الله عنهما بيناه بيانا فيه ترتيل وتثبيت وقال السدى فصلناه تفصيلا وقال مجاهد جعلناه بعضه فى اثر بعض وقيل هو الامر بترتيل قراءته بقوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا وقيل قرأناه عليك بلسان جبريل عليه السلام شيأ فشيأ فى عشرين أوفى ثلاث وعشرين سنة على تؤدة وتمهل (ولا يأتونك بمثل) من الامثال التى من جملتها ماحكى من اقتراحاتهم القبيحة

جميع من يعاديك (وقال الذين كفروا) حكاية لاقتراحهم الخاص بالقرآن الكريم بعد حكاية اقتراحهم في حقه عليه الصلاة والسلام والقائلون هم القائلون أولا وايرادهم بعنوان الكفر لذمهم به والاشعار بعلة الحكم (لولا نزل عليه القرآن) التنزيل ههنا مجرد عن معنى التدريج

كما في قوله تعالى يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء ويجوز أن يراد به الدلالة على كثرة المنزل في نفسه أي هلا أنزل كله (جملة واحدة) كالكتب الثلاثة وبطلان هذه الكلمة الحمقاء مما لا يكاد يخفى على أحد فان الكتب المتقدمة لم يكن شاهدا صحتها ودليل كونها من عند الله تعالى اعجازها وأما القرآن الكريم فبينة صحته وآية كونه من عند الله تعالى نظمه المعجز الباقي على مر الدهور المتحقق في كل جزء من أجزائه المقدرة بمقدار أقصر السور حسبما وقع به التحدي ولا ريب في أن مايدور عليه فلك الاعجاز هو المطابقة لما تقتضيه الاحوال ومن ضرورة تغيرها وتجددها تغير ما يطابقها حتما على أن فيه فوائد جمة قد اشير الى بعض منها بقوله تعالى (كذلك لنثبت به فؤادك) فانه استئناف وارد من جهته تعالى لرد مقالتهم الباطلة وبيان الحكمة في التنزيل التدريجي ومحل الكاف النصب على انها صفة لمصدر مؤكد لمضمر معلل بما بعده وذلك اشارة الى ما يفهم من كلامهم أي ﴿ تعالى ﴾ مثل ذلك التنزيل المفرق الذي قدحوا فيه واقترحوا خلافه نزلناه لا تنزيلا

بل سبعون سنة وقيل مائة وعشرون (المسئلة السادسة) قوله بين ذلك اى بين ذلك المذكور وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير اليها بذلك ويحسب الحاسب اعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت على معنى فذلك المحسوب أو المعدود أما قوله وكلا ضربنا له الامثال فالمراد بيناهم وازحنا عللهم فلما كذبوا تبرناهم تتبيرا ويحتمل وكلا ضربنا له الامثال بان أجبنا هم عما أوردوه من الشبه في تكذيب الرسل كما أورده قومك يا محمد فلما لم ينجع فيهم تبرناهم تتبيرا فحذر تعالى بذلك قوم محمد صلى الله عليه وسلم في الاستمرار على تكذيبه لئلا ينزل بهم مثل الذى نزل بالقوم عاجلا وآجلا (المسئلة السابعة) كلا الاول منصوب بما دل عليه ضربنا له الامثال وهو انذرنا أو حذرنا والثاني بتبرنا لانه فارغ له (المسئلة الثامنة) التتبير التفتيت والتكسير ومنه التبر وهو كسارة الذهب والفضة والزجاج القصة الرابعة * قوله تعالى (ولقد اتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لايرجون نشورا) واعلم انه تعالى أراد بالقرية سدوم من قرى قوم لوط عليه السلام وكانت خمسا وأهلك الله تعالى أربعا باهلها وبقيت واحدة ومطر السوء الحجارة يعنى ان قريشا مروا مرارا كثيرة في متاجرهم الى الشام على تلك القرية التى أهلكت بالحجارة من السماء أفلم يكونوا في مرورهم ينظرون الى آثار عذاب الله تعالى ونكاله بل كانوا قوما كفرة لايرجون نشورا وذكروا في تفسير يرجون وجوها أحدها وهو الذى قاله القاضي وهو الاقوى انه محمول على حقيقة الرجاء لان الانسان لا يتحمل متاعب التكاليف ومشاق النظر والاستدلال الا رجاء ثواب الآخرة فاذا لم يؤمن بالآخرة لم يرج ثوابها فلا يتحمل تلك المشاق والمتاعب وثانيها معناه لايتوقعون نشورا فوضع الرجاء موضع التوقع لانه انما يتوقع العاقبة من يؤمن وثالثها معناه لايخافون على اللغة التهامية وهو ضعيف والاول هو الحق * قوله تعالى (واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا اهذا الذى بعث الله رسولا ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا) اعلم انه سبحانه لما بين مبالغة المشركين في انكار نبوته وفي ايراد الشبهات في ذلك بين بعد ذلك انهم اذا رأوا الرسول اتخذوه هزوا فلم يقتصروا على ترك الايمان به بل زادوا عليه بالاستهزاء والاستحقار ويقول بعضهم لبعض أهذا الذى بعث الله رسولا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف ان الاولى نافية والثانية مخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة بينهما (المسئلة الثانية) جواب اذا هو ما ضمر من القول يعنى واذا رأوك مستهزئين قالوا أبعث الله هذا رسولا وقوله ان يتخذونك جملة اعترضت بين اذا وجوابها (المسئلة الثالثة) اتخذوه هزوا في معنى استهزؤا به والاصل اتخذوه موضع هزء او مهزوأ به (المسئلة الرابعة) اعلم أن الله

الخارجة عن دائرة العقول الجارية لذلك مجرى الامثال أى لا يأتونك بكلام عجيب هو مثل فى البطلان يريدون به القدح فى حقك وحق القرآن (الاجئناك) فى مقابلته (بالحق) أى بالجواب الحق الثابت الذى ينحى عليه بالابطال ويحسم مادة القيل والقال كما مر من الاجوبة الحقة ﴿٤٧٨﴾ القالعة لعروق أسئلتهم الشنيعة الدامغة لها بالكلية وقوله تعالى (وأحسن تفسيرا) عطف على الحق أى جئناك باحسن تفسيرا أو على محل بالحق أى آتيناك الحق وأحسن تفسيرا أى بيانا وتفصيلا على معنى أنه فى غاية مايكون من الحسن فى حد ذاته لان مايأتون به له حسن فى الجملة وهذا أحسن منه كما مر والاستثناء مفرغ محله النصب على الحالية أى لايأتونك بمثل الاحال ايتائنا اياك الحق الذى لامحيد عنه وفيه من الدلالة على المسارعة الى ابطال ماأتوا به وتثبيت فؤاده عليه الصلاة والسلام مالايخفى وهذا بعبارته ناطق ببطلان جميع الاسئلة وبصحة جميع الاجوبة وباشارته منبئ عن بطلان السؤال الاخير وصحة جوابه اذلولا أن تنزيل القرآن على التدريج لما أمكن ابطال تلك الاقتراحات الشنيعة ولما حصل تثبيت فؤاده عليه الصلاة والسلام من تلك الحيثية هذا وقد جوز أن يكون المثل عبارة عن الصفة الغريبة التى كانوا يقترحون كونه عليه الصلاة والسلام عليها من مقارنة الملك والاستغناء ﴿لسوء﴾ عن الاكل والشرب وحيازة الكنز والجنة ونزول القرآن عليه جملة واحدة على معنى لايأتونك بحال عجيبة يقترحون اتصافك بها قائلين هلا كان على هذه الحالة الاأعطيناك نحن

(وثانيها) قوله تعالى أرأيت من اتخذ الهه هواه افأنت تكون عليه وكيلا والمعنى انه سبحانه بين ان بلوغ هؤلاء فى جهالتهم واعراضهم عن الدلائل انما كان لاستيلاء التقليد عليهم وانهم اتخذوا أهواءهم آلهة فكل مادعاهم الهوى اليه انقادواله سواء منع الدليل منه أولم يمنع ثم ههنا ابحاث (الاول) قوله أرأيت كلمة تصلح للاعلام والسؤال وههنا هى تعجيب من جهل من هذا وصفه ونعته (الثانى) قوله اتخذ الهه هواه معناه اتخذ الهه مايهواه أو الها يهواه وقيل هو مقلوب ومعناه اتخذ هواه الهه وهذا ضعيف لان قوله اتخذ الهه هواه يفيد الحصر أى لم يتخذ لنفسه الها الاهواه وهذا المعنى لايحصل عند القلب قال ابن عباس الهوى اله يعبد وقال سعيد بن جبير كان الرجل من المشركين يعبد الصنم فاذا رأى أحسن منه رماه واتخذ الآخر وعبده (الثالث) قوله أفأنت تكون عليه وكيلا أى حافظا تحفظه من اتباع هواه أى لست كذلك (الرابع) نظير هذه الآية قوله تعالى لست عليهم بمسيطر وقوله وما أنت عليهم بجبار وقوله لااكراه فى الدين قال الكلبى نسختها آية القتال (وثالثها) قوله أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون أم ههنا منقطعة معناه بل تحسب وذلك يدل على أن هذه المذمة أشد من التى تقدمتها حتى حقت بالاضراب عنها اليها وهى كونهم مسلوبى الاسماع والعقول لانهم لشدة عنادهم لايصغون الى الكلام واذا سمعوه لايتفكرون فيه فكانه ليس لهم عقل ولاسمع البتة فعند ذلك شبههم بالانعام فى عدم انتفاعهم بالكلام وعدم اقدامهم على التدبر والتفكر واقبالهم على اللذات الحاضرة الحسية واعراضهم عن طلب السعادات الباقية العقلية وهاهنا سؤالات (السؤال الاول) لم قال أم تحسب أن أكثرهم فحكم بذلك على الاكثر دون الكل والجواب لانه كان فيهم من يعرف الله تعالى ويعقل الحق الا انه ترك الاسلام لمجرد حب الرياسة لا للجهل (السؤال الثانى) لم جعلوا أضل من الانعام الجواب من وجوه (أحدها) ان الانعام تنقاد لاربابها وللذى يعلفها ويتعهدها وتميز بين من يحسن اليها وبين من يسئ اليها وتطلب ماينفعها وتجتنب مايضرها وهؤلاء لاينقادون لربهم ولا يميزون بين احسانه اليهم وبين اساءة الشيطان اليهم الذى هو عدو لهم ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ولايحترزون من العقاب الذى هو أعظم المضار (وثانيها) ان قلوب الانعام كما انها تكون خالية عن العلم فهى خالية عن الجهل الذى هو اعتقاد المعتقد على خلاف ماهو عليه مع التصميم واما هؤلاء فقلوبهم كما خلت عن العلم فقد اتصفت بالجهل فانهم لايعلمون ولايعلمون انهم لايعلمون بل هم مصرون على انهم يعلمون (وثالثها) أن عدم علم الانعام لايضر باحد أما جهل هؤلاء فانه منشأ للضرر العظيم لانهم يصدون الناس عن سبيل الله و يبغونها عوجا (ورابعها) أن الانعام لاتعرف شيأ ولكونهم عاجزين عن الطلب وأما هؤلاء الجهال فانهم ليسوا عاجزين عن الطلب والمحروم عن طلب المراتب العالية اذا عجز عنه لايكون فى استحقاق الذم كالقادر عليه التارك له

من الاحوال الممكنة مايحق لك فى حكمتنا ومشيئتنا أن نعطاه وماهو أحسن تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته وهو الذى أنت عليه فى الذات والصفات و يأباه الاستثناء المذكور فان المتبادر منه أن يكون ما اعطاه الله تعالى من الحق مترتبا على ما أتوا به من الاباطيل دامغا لها ولا ريب فى أن ما آتاه الله تعالى من الملكات السنية اللائقة بالرسالة قد أتاه من أول الامر لا بمقابلة ماحكى عنهم من الاقتراحات لاجل دمغها وابطالها لها (الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم) أى يحشرون كائنين على وجوههم يسحبون عليها و يجرون الى جهنم وقيل مقلوبين وجوههم على قفاهم وأرجلهم الى فوق روى عنه عليه الصلاة والسلام يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاث ثلث على الدواب وثلث على وجوههم وثلث على أقدامهم ينسلون نسلا وأماما قيل متعلقة قلوبهم بالسفليات متوجهة وجوههم اليها فبعيد لان هول ذلك اليوم ليس بحيث يبقى لهم عنده تعلق بالسفليات أو توجه اليها فى الجملة ومحل الموصول ان النصب أو الرفع على الذم أو الرفع على الابتداء وقوله تعالى (أولئك) بدل منه أو بيان له وقوله تعالى (شر مكانا وأضل سبيلا) خبر له او اسم الاشارة مبتدأ ثان وشر خبره والجملة خبر للموصول ووصف السبيل بالضلال من باب الاسناد المجازى للمبالغة والمفضل عليه الرسول عليه الصلاة والسلام على منهاج قوله تعالى قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه كأنه قيل ان حاملهم على هذه الاقتراحات تحقير مكانه عليه الصلاة والسلام وتضليل

لسوء اختياره (وخامسها) أن البهائم لا تستحق عقابا على عدم العلم أما هؤلاء فانهم يستحقون عليه أعظم العقاب (وسادسها) أن البهائم تسبح الله تعالى على مذهب بعض الناس على ماقال وان من شئ الا يسبح بحمده وقال ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات الى قوله والدواب وقال والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه واذا كان كذلك فضلال الكفار أشد وأعظم من ضلال هذه الانعام (السؤال الثالث) انه سبحانه لما نفى عنهم السمع والعقل فكيف ذمهم على الاعراض عن الدين وكيف بعث الرسول اليهم فان من شرط التكليف العقل (الجواب) ليس المراد انهم لايعقلون بل انهم لا ينتفعون بذلك العقل فهو كقول الرجل لغيره اذا لم يفهم انما أنت اعمى وأصم ❋ قوله تعالى (ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا وهو الذى ارسل الرياح بشرى بين يدى رحمته وانزلنا من السماء ماء طهورا لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا انعاما وأناسى كثيرا) اعلم انه تعالى لما بين جهل المعرضين عن دلائل الله تعالى وفساد طريقهم فى ذلك ذكر بعده أنواعا من الدلائل الدالة على وجود الصانع (النوع الاول) الاستدلال بحال الظل فى زيادته ونقصانه وتغيره من حال الى حال وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ألم تر فيه وجهان أحدهما انه من رؤية العين والثانى انه من رؤية القلب يعنى العلم فان حملناه على رؤية العين فالمعنى الم تر الى الظل كيف مده ربك وان كان تخريج لفظه على عادة العرب أفصح وان حملناه على العلم وهو اختيار الزجاج فالمعنى ألم تعلم وهذا أولى وذلك أن الظل اذا جعلناه من المبصرات فتأثير قدرة الله تعالى فى تمديده غير مرئى بالاتفاق ولكنه معلوم من حيث ان كل متغير جائز وكل جائز فله مؤثر فحمل هذا اللفظ على رؤية القلب أولى من هذا الوجه (المسئلة الثانية) المخاطب بهذا الخطاب وان كان هو الرسول عليه السلام بحسب ظاهر اللفظ ولكن الخطاب عام فى المعنى لان المقصود من الآية بيان نعم الله تعالى بالظل وجميع المكلفين مشتركون فى انه يجب تنبههم لهذه النعمة وتمكنهم من الاستدلال بها على وجود الصانع (المسئلة الثالثة) الناس أكثروا فى تأويل هذه الآية والكلام الملخص يرجع الى وجهين الاول ان الظل هو الامر المتوسط بين الضوء الخالص و بين الظلمة الخالصة وهو مابين ظهور الفجر الى طلوع الشمس وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران وهذه الحالة أطيب الاحوال لان الظلمة الخالصة يكرهها الطبع و ينفر عنها الحس وأما الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهى لقوتها تبهر الحس البصرى وتفيد السخونة القوية وهى مؤذية فاذن أطيب الاحوال هو الظل ولذلك وصف الجنة به فقال وظل ممدود واذا ثبت هذا فنقول انه سبحانه بين انه من النعم العظيمة والمنافع الجليلة ثم ان الناظر الى الجسم الملون وقت الظل كأنه لايشاهد شيئا سوى الجسم وسوى اللون

سبيله ولايغلون حالهم ليعلموا أنهم شر مكانا واضل سبيلا وقيل هو متصل بقوله تعالى أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا (ولقد آتينا موسى الكتاب) مستأنفة سيقت قلنا كيدما مر من التسلية والوعد بالهداية والنصر فى قوله تعالى وكفى بربك هاديا ونصيرا بحكاية ماجرى بين من ذكر من الانبياء عليهم الصلاة والسلام وبين قومهم

ونقول الظل ليس أمرا ثابتا ولا يعرف ولا يعرف به الا انه اذا طلعت الشمس ووقع ضوءها على الجسم زال ذلك الظل فلولا الشمس ووقوع ضوئها على الاجرام لما عرف ان للظل وجودا وماهية لان الاشياء انما تعرف باضدادها فلولا الشمس لما عرف الظل ولولا الظلمة لما عرف النور فكأنه سبحانه وتعالى لما أطلع الشمس على الارض وزال الظل فحينئذ ظهر للعقول أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون فلهذا قال سبحانه ثم جعلنا الشمس عليه دليلا أى خلقنا الظل أولا بما فيه من المنافع واللذات ثم انا هدينا العقول الى معرفة وجوده بان أطلعنا الشمس فكانت الشمس دليلا على وجود هذه النعمة ثم قبضناه أى ازلنا الظل لا دفعة بل يسيرا يسيرا فانه كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل فى جانب المغرب ولما كانت الحركات المكانية لا توجد دفعة بل يسيرا يسيرا فكذا زوال الاظلال لا يكون دفعة بل يسيرا يسيرا ولان قبض الظل لو حصل دفعة لاختلت المصالح ولكن قبضها يسيرا يسيرا يفيد معه أنواع مصالح العالم والمراد بالقبض الازالة والاعدام هذا أحد التأويلين (التأويل الثانى) وهو انه سبحانه وتعالى لما خلق الارض والسماء وخلق الكواكب والشمس والقمر وقع الظل على الارض ثم انه سبحانه خلق الشمس دليلا عليه وذلك لان بحسب حركات الاضواء تتحرك الاظلال فانهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما فبمقدار ما يزداد أحدهما ينقص الآخر وكما أن المهتدى يهتدى بالهادى والدليل ويلازمه فكذا الاظلال كأنها مهتدية وملازمة للاضواء فلهذا جعل الشمس دليلا عليها واما قوله ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا فاما ان يكون المراد منه انتهاء الاظلال يسيرا يسيرا الى غاية نقصاناتها فسمى ازالة الاظلال قبضا لها أو يكون المراد من قبضها يسيرا قبضها عند قيام الساعة وذلك بقبض اسبابها وهى الاجرام التى تلقى الاظلال وقوله يسيرا هو كقوله ذلك حشر علينا يسير فهذا هو التأويل الملخص (المسئلة الرابعة) وجه الاستدلال به على وجود الصانع المحسن أن حصول الظل أمر نافع للاحياء والعقلاء واما حصول الضوء الخالص أو الظلمة الخالصة فهو ليس من باب المنافع فحصول ذلك الظل اما ان يكون من الواجبات أو من الجائزات والاول باطل والا لما تطرق التغير اليه لان الواجب لا يتغير فوجب أن يكون من الجائزات فلا بد له فى وجوده بعد العدم وعدمه بعد الوجود من صانع قادر مدبر محسن يقدره بالوجه النافع وما ذاك الا من يقدر على تحريك الاجرام العلوية وتدبير الاجرام الفلكية وترتيبها على الوصف الاحسن والترتيب الاكمل وما هو الا الله سبحانه وتعالى فان قيل الظل عبارة عن عدم الضوء عما شأنه ان يضىء فكيف استدل بالامر العدمى على ذاته وكيف عده من النعم قلنا الظل ليس عدما محضا بل هو اضواء مخلوطة بظلم والتحقيق أن الظل عبارة عن الضوء الثانى وهو أمر وجودى وفى تحقيقه وبسطه كلام دقيق يرجع فيه الى كتبنا العقلية (النوع الثانى) قوله تعالى وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل * النهار *

حكاية اجمالية كافية فيما هو المقصود واللام جواب القسم محذوف أى والله لقد آتينا موسى التوراة أى أنزلناها عليه بالآخرة (وجعلنا معه) الظرف متعلق بجعلنا وقوله تعالى (أخاه) مفعول أول له وقوله تعالى (هرون) بدل من أخاه أو عطف بيان له على عكس ما وقع فى سورة طه وقوله تعالى (وزيرا) مفعول ثان له وقد مر ثمة معنى الوزير أى جعلناه فى أول الامر وزيرا له (فقلنا) لهما حينئذ (اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا) هم فرعون وقومه والآيات هى المعجزات التسع المفصلات الظاهرة على يدى موسى عليه السلام ولم يوصف القوم لهما عند ارسالهما اليهم بهذا الوصف ضرورة تأخر تكذيب الآيات عن اظهارها المتأخر عن ذهابهما المتأخر عن الامر به بل انما وصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بيانا لعلة استحقاقهم لما يحكى بعده من التدمير أى فذهبا اليهم فأرياهم آياتنا كلها فكذبوها تكذيبا مستمرا (فدمرناهم) اثر ذلك التكذيب المستمر (تدميرا) عجيبا هائلا لا يقادر قدره ولا يدرك كنهه فاقتصر على حاشيتى القصة اكتفاء بما هو المقصود وحل

قوله تعالى فدمرناهم على معنى فحكمنا بتدميرهم مع كونه تعسفا ظاهرا اماوجه له اذ لافائدة يعتد بها فى
قدوقع وانقضى، التعرض فى مطلع القصة لايتاء الكتاب مع أنه كان بعد مهلك القوم ولم يكن له مدخل فى هلاكهم
كسائر الآيات للايذان من أول الامر ببلوغه ❊ ❊ عليه الصلاة والسلام غاية الكمال ونيله نهاية الآمال

التى هى انجاء بنى اسرائيل من ملكة فرعون وارشادهم الى طريق الحق بما فى التوراة من الاحكام اذ به يحصل تأكيد الوعد بالهداية على الوجه الذى مر بيانه وقرئ فدمرتهم وفدمرهم وفدمرنهم على التأكيد بالنون الثقيلة (وقوم نوح) منصوب بمضمر يدل عليه قوله تعالى فدمرناهم أى ودمرنا قوم نوح وقيل عطف على مفعول فدمرناهم وليس من ضرورة ترتب تدميرهم على ماقبله ترتب تدمير هؤلاء عليه لاسيما وقد بين سببه بقوله تعالى (لما كذبوا الرسل) أى نوحا ومن قبله من الرسل أو نوحا وحده لان تكذيبه تكذيب للكل لاتفاقهم على التوحيد والاسلام وقيل هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (أغرقناهم) وانما يبنى ذلك على تقدير كون كلمة لما ظرف زمان وأما على تقدير كونها حرف وجود

لوجود فلا لانه حينئذ جواب ❊ ❊ لها وجواب لما لا يفسر ماقبله مع أنه مخل بعطف المنصوبات الآتية على قوم نوح لما أن اهلاكهم ليس بالاغراق فالوجه ماتقدم وقوله تعالى اغرقناهم استئناف مبين لكيفية تدميرهم (وجعلناهم) أى جعلنا اغراقهم أو قصتهم (للناس آية) أى آية عظيمة

النهار نشورا اعلم انه تعالى شبه الليل من حيث انه يستر الكل و يغطى كاللباس الساتر للبدن ونبه على ما لنا فيه من النفع بقوله والنوم سباتا والسبات الراحة وجعل النوم سباتا لانه سبب للراحة قال أبو مسلم السبات الراحة ومنه يوم السبت لما جرت به العادة من الاستراحة فيه و يقال للعليل اذا استراح من تعب العلة مسبوت وقال صاحب الكشاف السبات الموت والمسبوت الميت لانه مقطوع الحياة قال وهذا كقوله وهو الذى يتوفاكم بالليل وانما قلنا ان تفسيره بالموت أولى من تفسيره بالراحة لان النشور فى مقابلته يأباه قال أبو مسلم وجعل النهار نشورا هو بمعنى الانتشار والحركة كما سمى تعالى نوم الانسان وفاة فقال الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها كذلك وفق بين القيام من النوم والقيام من الموت فى التسمية بالنشور وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها اظهار لنعمه على خلقه لان الاحتجاب بستر الليل كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية والنوم واليقظة شبههما بالموت والحياة وعن لقمان أنه قال لابنه كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتحشر (النوع الثالث) قوله وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وقد تقدم تفسيره فى سورة الاعراف ثم فيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ الريح والرياح قال الزجاج وفى نشرا خمسة أوجه بفتح النون وبضمها و بضم النون والشين و بالباء الموحدة مع ألف المؤنث و بشرا بالتنوين قال أبو مسلم من قرأ بشرا أراد جمع بشير مثل قوله تعالى ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات واما بالنون فهو فى معنى قوله والناشرات نشرا وهى الرياح والرحمة الغيث والماء والمطر (المسئلة الثانية) قوله وأنزلنا من السماء ماء طهورا نص فى انه تعالى ينزل الماء من السماء لا من السحاب وقول من السحاب سماء ضعيف لان ذلك بحسب الاشتقاق واما بحسب وضع اللغة فالسماء اسم لهذا السقف المعلوم فصرفه عنه ترك للظاهر (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى ان الطهور ماهو قال كثير من العلماء الطهور ما يتطهر به كالفطور ما يفطر به والسحور ما يتسحر به وهو مروى أيضا عن ثعلب وأنكر صاحب الكشاف ذلك وقال ليس فعول من التفعيل فى شئ والطهور على وجهين فى العربية صفة واسم غير صفة فالصفة قولك ماء طهور كقولك طاهر والاسم قولك طهور لما يتطهر به كالوضوء والوقود لما يتوضأ به و يوقد به النار حجة القول الاول قوله عليه السلام التراب طهور المسلم ولو لم يجد الماء عشر حجج ولو كان معنى الطهور الطاهر لكان معناه التراب طاهر للمسلم وحينئذ لا ينتظم الكلام وكذا قوله عليه السلام طهور اناء أحدكم اذا ولغ الكلب فيه أن يغسله سبعا ولو كان الطهور الطاهر لكان معناه طاهر اناء أحدكم وحينئذ لا ينتظم الكلام ولانه تعالى قال وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به فبين أن المقصود من الماء انما هو التطهر به فوجب أن يكون المراد من كونه طهورا انه هو المطهر به لانه تعالى ذكره فى معرض الانعام فوجب حمله على الوصف الاكمل ولاشك أن المطهر أكمل من الطاهر (المسئلة الرابعة)

اعلم ان الله تعالى ذكر من منافع الماء أمرين أحدهما ما يتعلق بالنبات والثاني ما يتعلق بالحيوان اما أمر النبات فقوله لنحيي به بلدة ميتا وفيه سؤالات (السؤال الاول) لم قال لنحيي به بلدة ميتا ولم يقل ميتة (الجواب) لان البلدة في معنى البلد في قوله فسقناه الى بلد ميت (السؤال الثاني) ما المراد من حياة البلد وموتها (الجواب) الناس يسمون ما لا عمارة فيه من الارض مواتا وسقيها المقتضي لعمارتها احياء لها (السؤال الثالث) ان جماعة الطبائعيين وكذا الكعبي من المعتزلة قالوا ان بطبع الارض والماء وتأثير الشمس فيهما يحصل النبات وتمسكوا بقوله تعالى لنحيي به بلدة ميتا فان الباء في به تقتضي أن للماء تأثيرا في ذلك (الجواب) الظاهر وان دل عليه لكن المتكلمون تركوه لقيام الدلالة على فساد الطبع واما أمر الحيوان فقوله سبحانه ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا وفيه سؤالات (السؤال الاول) لم خص الانسان والانعام ههنا بالذكر دون الطير والوحش مع انتفاع الكل بالماء (الجواب) لان الطير والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الانعام لانها قنية الاناسي وعامة منافعهم متعلقة بها فكان الانعام عليهم بسقي انعامهم كالانعام عليهم بسقيهم (السؤال الثاني) ما معنى تنكير الانعام والاناسي ووصفهما بالكثير (الجواب) معناه ان أكثر الناس يجتمعون في البلاد القريبة من الاودية والانهار ومنافع المياه فهم غنية في شرب الماء عن المطر وكثير منهم نازلون في البوادي فلا يجدون المياه للشرب الا عند نزول المطر وذلك قوله لنحيي به بلدة ميتا يريد بعض بلاد هؤلاء المتباعدين عن مظان الماء ويحتمل في كثير أن يرجع الى قوله ونسقيه لان الحي يحتاج الى الماء حالا بعد حال وهو مخالف للنبات الذي يكفيه من الماء قدر معين حتى لو زيد عليه بعد ذلك لكان الى الضرر أقرب والحيوان يحتاج اليه حالا بعد حال ما دام حيا (السؤال الثالث) لم قدم احياء الارض وسقي الانعام على سقي الاناسي (الجواب) لان حياة الاناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم فقدم ما هو سبب حياتهم ومعيشتهم على سقيهم لانهم اذا ظفروا بما يكون سقيا لارضهم ومواشيهم فقد ظفروا أيضا بسقياهم وأيضا فقوله تعالى ولقد صرفناه بينهم يعني صرف المطر كل سنة الى جانب آخر واذا كان كذلك فلا يسقى الكل منه بل يسقى كل سنة اناسي كثيرا منه (السؤال الرابع) ما الاناسي الجواب قال الفراء والزجاج الانسي والاناسي كالكرسي والكراسي ولم يقل كثيرين لانه قد جاء فعيل مفردا ويراد به الكثرة كقوله وقرونا بين ذلك كثيرا وحسن أولئك رفيقا واعلم ان الفقهاء قد استنبطوا أحكام المياه من قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا ونحن نشير الى معاقد تلك المسائل فنقول ههنا نظران أحدهما ان الماء مطهر والثاني ان غير الماء هل هو مطهر أم لا (النظر الاول) ان نقول الماء اما أن لا يتغير أو يتغير القسم الاول وهو الذي لا يتغير فهو طاهر في ذاته مطهر لغيره الا الماء المستعمل فانه عند الشافعي طاهر وليس بمطهر وقال مالك والثوري يجوز الوضوء به وقال أبو حنيفة في رواية أبي يوسف

يعتبر بها كل من شاهدها وسمعها وهي مفعول ثان لجعلنا وللناس ظرف لغو له أو متعلق بمحذوف وقع حالا من آية اذ لو تأخر عنها لكان صفة لها (وأعتدنا للظالمين) أي لهم والاظهار في موقع الاضمار للايذان بتجاوزهم الحد في الكفر والتكذيب (عذابا أليما) هو عذاب الآخرة اذ لا فائدة في الاخبار باعتاد العذاب الذي قد أخبر بوقوعه من قبل أو لجميع الظالمين الباقين الذين لم يعتبروا بما جرى عليهم من العذاب فيدخل في زمرتهم قريش دخولا أوليا ويحتمل العذاب الدنيوي والاخروي (وعادا) عطف على قوم نوح وقيل على المفعول الاول لجعلناهم وقيل على محل الظالمين اذ هو في معنى وعدنا الظالمين وكلاهما بعيد (وثمود) الكلام فيه وفيما بعده كما فيما قبله وقرئ وثمودا على تأويل الحي أو على أنه اسم الاب الاقصى (وأصحاب الرس) هم قوم يعبدون الاصنام فبعث الله تعالى اليهم شعيبا عليه السلام فكذبوه فبينما هم حول الرس وهي البئر التي لم تطو بعد اذ انهارت فخسف بهم وبديارهم وقيل الرس قرية بفلج اليمامة كان فيها بقايا ثمود فبعث اليهم نبي فقتلوه فهلكوا وقيل هو الاخدود وقيل بئر بانطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار وقيل هم أصحاب حنظلة بن صفوان النبي عليه السلام ابتلاهم الله تعالى بطير عظيم كان فيها من كل لون وسموها عنقاء لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتخ أو دمخ فتنقض على صبيانهم فتخطفهم ان أعوزها الصيد ولذلك شميت مغربا فدعا عليها حنظلة عليه السلام فأصابتها الصاعقة ثم انهم قتلوه عليه السلام فأهلكوا

وقيل قوم كذبوا رسولهم فرسوه فى بئر (وقرونا) أى أهل قرون قيل القرن أربعون سنة وقيل سبعون وقيل مائة وقيل مائة وعشرون (بين ذلك) أى بين ذلك المذكور من الطوائف والامم وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير اليها بذلك ويحسب الحاسب أعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت على ذلك المذكور وذلك المحسوب (كثيرا) لايعلم مقدارها الا العليم الخبير ولعل الاكتفاء فى شؤن تلك القرون بهذا البيان الاجمالى لما أن كل قرن منها لم يكن فى الشهرة وغرابة القصة بمثابة الامم المذكورة (وكلا) منصوب بمضمر يدل عليه مابعده فان ضرب المثل فى معنى التذكير والتحذير والمحذوف الذى عوض عنه التنوين عبارة اما عن الامم التى لم يذكر أسباب اهلاكهم واما عن الكل فان ماحكى عن قوم نوح وقوم فرعون تكذيبهم للآيات والرسل لاعدم التأثر من الامثال المضروبة أى ذكرنا وأنذرنا كل واحد من المذكورين (ضربنا له الامثال) أى بينا له القصص العجيبة الزاجرة عما هم عليه من من الكفر والمعاصى بواسطة الرسل (وكلا) أى كل واحد منهم لا بعضهم دون بعض (تبرنا تتبيرا) عجيبا هائلا لما أنهم لم يتأثروا بذلك ولم يرفعوا له رأسا وتمادوا على ماهم عليه من الكفر والعدوان وأصل التتبير التفتيت قال الزجاج كل شئ كسرته وفتتته فقد تبرته ومنه التبر لفتات الذهب والفضة (ولقد أتوا) جملة مستأنفة مسوقة لبيان مشاهدتهم لآثار هلاك بعض الامم المتبرة وعدم اتعاظهم بها وتصديرها بالقسم لمزيد تقرير مضمونها أى وبالله لقد أتى قريش

انه نجس فههنا مسائل (المسئلة الاولى) فى بيان انه ليس بطهور دليلنا قوله عليه السلام لايغتسل أحدكم فى الماء الدائم وهو جنب ولو بقى الماء كما كان طاهرا مطهرا لما كان للمنع منه معنى ومن وجه القياس ان الصحابة كانوا يتوضؤن فى الاسفار وما كانوا يجمعون تلك المياه مع علمهم باحتياجهم بعد ذلك الى الماء ولو كان ذلك الماء مطهرا لحملوه ليوم الحاجة واحتج مالك بالآية والخبر والقياس اما الآية فمن وجهين (الاول) قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا وقوله وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به فدلت الآية على حصول وصف المطهرية للماء والاصل فى الثابت بقاؤه فوجب الحكم ببقاء هذه الصفة للماء بعد صيرورته مستعملا وأيضا قوله طهورا يقتضى جواز التطهر به مرة بعد أخرى (والثانى) انه أمر بالغسل مطلقا فى قوله فاغسلوا واستعمال كل المائعات غسل لانه لامعنى للغسل الا امرار الماء على العضو قال الشاعر

✻ فيا حسنها اذ يغسل الدمع كحلها ✻

فمن اغتسل بالماء المستعمل فقد أتى بالغسل فوجب أن يكون مجزئا له لانه أتى بما أمر به فوجب أن يخرج عن العهدة (وأما السنة) فما روى انه عليه السلام توضأ فمسح رأسه بفضل ما فى يده وعنه عليه السلام أنه توضأ فاخذ من بلل لحيته فمسح به رأسه وعن ابن عباس انه عليه السلام اغتسل فرأى لمعة فى جسده لم يصبها الماء فأخذ شعرة عليها بلل فأمرها على تلك اللمعة (وأما القياس) فانه ماء طاهر لاقى جسدا طاهرا فأشبه ما اذا لقى حجارة أو حديدا وكذا الماء المستعمل فى الكرة الرابعة والمستعمل فى التبرد والتنظف ولانه لاخلاف انه اذا وضع الماء على أعلى وجهه وسقط به فرض ذلك الموضع ثم نزل ذلك الماء بعينه الى بقية الوجه فانه يجزيه مع أن ذلك الماء صار مستعملا فى أعلى الوجه (المسئلة الثانية) الدليل على أن الماء المستعمل طاهر قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا ومن السنة انه عليه السلام أخذ من بلل لحيته ومسح به رأسه وقال خلق الماء طهورا لاينجسه شئ الا ما غير طعمه أو ريحه أو لونه وقال الشافعى انه عليه السلام توضأ ولاشك انه أصابه ما تساقط منه ولم ينقل انه غير ثوبه ولانه غسله ولا أحد من المسلمين فعل ذلك فثبت انهم أجمعوا على انه ليس بنجس ولانه ماء طاهر لاقى جسما طاهرا فأشبه ما اذا لاقى حجارة (المسئلة الثالثة) الماء المستعمل اما ان يكون مستعملا فى اعضاء الوضوء أو فى غسل الثياب اما المستعمل فى اعضاء الوضوء فاما أن يكون مستعملا فيما كان فرضا وعبادة أو فيما كان فرضا ولا يكون عبادة أو فيما كان عبادة ولا يكون فرضا أو فيما لايكون فرضا ولا عبادة أما القسم الاول وهو المستعمل فيما كان فرضا وعبادة فهو غير مطهر باتفاق أصحاب الشافعى وأما القسم الثانى فهو كالماء الذى استعملته الذمية التى تحت الزوج المسلم أى فى غسل حيضها ليحل للزوج غشيانها وأما القسم الثالث فهو كالماء المستعمل فى الكرة الثانية والثالثة والماء المستعمل فى تجديد الوضوء والماء المستعمل

فى متاجرهم الى الشام (على القرية التى أمطرت) أى أهلكت بالحجارة وهى قرى قوم لوط وكانت خمس قرى ما نجت منها الا واحدة كان أهلها لا يعملون العمل الخبيث وأما البواقى فاهلكها الله تعالى بالحجارة وهى المرادة بقوله تعالى (مطر السوء) وانتصابه اما على أنه مصدر مؤكد بحذف الزوائد كما قيل فى أنبته الله تعالى نباتا حسنا أى امطار السوء أو على أنه مفعول ثان اذ المعنى اعطيت او أوليت مطر السوء (أفلم يكونوا يرونها) توبيخ لهم على تركهم التذكر عند مشاهدة ما يوجبه والهمزة لانكار نفى استمرار رؤيتهم لها وتقرير استمرارها حسب استمرار ما يوجبها من اتيانهم عليها لا لانكار استمرار نفى رؤيتهم وتقرير رؤيتهم لها فى الجملة والفاء لعطف مدخولها على مقدر يقتضيه المقام أى ألم يكونوا ينظرون اليها فلم يكونوا يرونها أو أكانوا ينظرون اليها فلم يكونوا يرونها فى مرار مرورهم ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب فالمنكر فى الاول ترك النظر وعدم الرؤية معا وفى الثانى عدم الرؤية مع تحقق النظر الموجب لها وقوله تعالى (بل كانوا لا يرجون نشورا) اما اضراب عما قبله من عدم رؤيتهم لآثار ما جرى على أهل القرى من العقوبة وبيان لكون عدم اتعاظهم بسبب انكارهم لكون ذلك عقوبة لمعاصيهم لا لعدم رؤيتهم لآثارها خلا أنه اكتفى عن التصريح ❊ احدها ❊ بانكارهم ذلك بذكر ما يستلزمه من انكارهم للجزاء الاخروى الذى هو الغاية من خلق العالم وقد كنى عن ذلك بعدم رجاء النشور أى عدم توقعه كأنه قيل بل كانوا

فى الاغسال المسنونة فلاصحاب الشافعى فى هذين القسمين وجهان وأما القسم الرابع فهو كالماء المستعمل فى الكرة الرابعة وفى التبرد والتنظف فذاك باتفاق أصحاب الشافعى غير مستعمل وهو طاهر مطهر اما الماء المستعمل فى غسل الثياب فاذا غسل ثوبا من نجاسة وطهر بغسلة واحدة يستحب أن يغسله ثلاثا فالمنفصل فى الكرة الثانية والثالثة مطهر على الاصح (القسم الثانى) الماء الذى يتغير فنقول الماء اذا تغير فاما أن يتغير بنفسه أو بغيره أما الاول فكالمتغير لطول المكث فيجوز الوضوء به لانه عليه السلام كان يتوضأ من بئر بضاعة وكان ماؤها كأنه نقاعة الحناء أما المتغير بسبب غيره فذلك الغير اما أن لا يكون متصلا به أو يكون متصلا به اما الذى لا يكون متصلا به فهو كما لو وقع بقرب الماء جيفة فصار الماء منتنا بسببها فهو أيضا مطهر وأما اذا تغير بسبب شئ متصل به فذلك المتصل اما أن يكون طاهرا أو نجسا (القسم الاول) اذا كان طاهرا فهو اما أن لا يخالطه أو يخالطه فان لم يخالطه فهو كالماء المتغير بسبب وقوع الدهن والطيب والعود والعنبر والكافور الصلب فيه وهذا أيضا مطهر كما لو كان بقرب الماء جيفة ولان الطهورية ثبتت بقوله وأنزلنا من السماء ماء طهورا والاصل فى الثابت بقاؤه وأما المتغير بسبب شئ يخالطه فذلك المخالط اما أن لا يمكن صون الماء عنه أو يمكن اما الذى لا يمكن فكالمتغير بالتراب والحمأة والاوراق التى تقع فيه والطحلب الذى يتولد فيه وهذا أيضا مطهر لان الطهورية ثبتت بالآية والاحتراز عن ذلك عسير فيكون مرفوعا لقوله ما جعل عليكم فى الدين من حرج وكذا لو جرى الماء فى طريقه على معدن زرنيخ أو نورة أو كحل أو وقع شئ منها فيه أو نبع من معادنها اما اذا تغير الماء بسبب مخالطة ما يستغنى الماء عن جنسه نظر ان كان التغير قليلا بحيث لا يضاف الماء اليه بأن وقع فيه زعفران فاصفر قليلا أو دقيق فابيض قليلا جاز الوضوء به على الصحيح من المذهب لانه لم يسلبه اطلاق اسم الماء واما ان كان التغير كثيرا فان استحدث اسما جديدا كالمرقة لم يجز الوضوء به بالاتفاق وان لم يستحدث اسما جديدا فعند الشافعى لا يجوز الوضوء به وعند أبى حنيفة يجوز (حجة الشافعى) من وجوه أحدها انه عليه السلام توضأ ثم قال هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة الا به فذلك الوضوء ان كان واقعا بالماء المتغير وجب أن لا يجوز الا به وبالاتفاق ليس الامر كذلك فثبت انه كان بماء غير متغير وهو المطلوب (ثانيها) انه اذا اختلط ماء الورد بالماء ثم توضأ الانسان به فيحتمل ان بعض الاعضاء قد انغسل بماء الورد دون الماء واذا كان كذلك فقد وقع الشك فى حصول الوضوء وكان تيقن الحدث قائما والشك لا يعارض اليقين فوجب أن يبقى على الحدث بخلاف ما اذا كان قليلا لا يظهر أثره فانه صار كالمعدوم اما اذا ظهر أثره علمنا انه باق فيتوجه ما ذكر (وثالثها) ان الوضوء تعبد لا يعقل معناه فانه لو توضأ بماء الورد لا يصح وضوءه ولو توضأ بالماء الكدر المتعفن صح وضوءه وما لا يعقل معناه وجب الاقتصار فيه على مورد النص وترك القياس (حجة ابى حنيفة) وجوه

أحدها قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا دلت الآية على كون الماء مطهرا
والاصل فى الثابت بقاؤه فوجب بقاء هذه الصفة بعد التغير بالمخالطة (وثانيها) قوله تعالى
فاغسلوا أمر بمطلق الغسل وقد أتى به فوجب أن يخرج عن العهدة وقد بينا تقرير هذا
الوجه فيما تقدم (وثالثها) قوله تعالى فلم تجدوا ماء فتيمموا على جواز التيمم بعدم
وجدان الماء وواجد هذا الماء المتغير واجد للماء لان الماء المتغير ماء مع صفة التغير
والموصوف موجود حال وجود الصفة فوجب أن لايجوز له التيمم (ورابعها) قوله عليه
السلام فى البحر هو الطهور ماؤه طاهره يقتضى جواز الطهارة به وان خالطه غيره لان
النبى صلى الله عليه وسلم أطلق ذلك (وخامسها) انه عليه السلام أباح الوضوء بسؤر
الهرة وسؤر الحائض وان خالطه شئ من لعابهما (وسادسها) لاخلاف فى جواز الوضوء
بماء المد والسيول مع تغير لونه بمخالطة الطين ومايكون فى الصحارى من الحشيش
والنبات ومن أجل مخالطة ذلك له يرى تارة متغيرا الى السواد وأخرى الى الحمرة والصفرة
فصار ذلك أصلا فى جميع ماخالط الماء اذا لم يغلب عليه فيسلبه اسم الماء (القسم الثانى)
اذا كان المخالط للماء شيأ نجسا فمن الناس من زعم أن الماء لاينجس مالم يتغير بالنجاسة
سواء كان قليلا أوكثيرا وهو قول الحسن البصرى والنخعى ومالك وداود واليه مال
الشيخ الغزالى فى كتاب الاحياء وقال أبو بكر الرازى مذهب اصحابنا ان كل ماتيقنا فيه
جزأ من النجاسة أوغلب على الظن ذلك لم يجز استعماله ولايختلف على هذا الحد ماء
البحر وماء البئر والغدير والراكد والجارى لان ماء البحر لووقعت فيه نجاسة لم يجز
استعمال الماء الذى فيه النجاسة وكذلك الماء الجارى وأما اعتبار أصحابنا للغدير الذى
اذا حرك أحد طرفيه لم يتحرك الطرف الآخر فانماهو كلام فى جهة تغليب الظن فى بلوغ
النجاسة الواقعة فى أحد طرفيه الى الطرف الآخر وليس هو كلامنا فى أن بعض المياه
الذى فيه النجاسة قد يجوز استعمالها و بعضها لايجوز استعماله هذا كله كلام أبى بكر
(وأقول) من الناس من فرق بين القليل والكثير فعن عبد الله بن عمر اذا كان الماء
أربعين قلة لم ينجسه شئ وعن ابن عباس رضى الله عنهما الحوض لايغتسل فيه جنب الا
أن يكون فيه أربعون غرباوهو قول محمد بن كعب القرظى وقال مسروق وابن سيرين
اذا كان الماء كثيرا لاينجسه شئ وقال سعيد بن جبير الماء الراكد لاينجسه شئ اذا كان
قدر ثلاث قلال (وقال الشافعى) اذا كان الماء قلتين بقلال هجر لم ينجسه الا ماغير طعمه
أوريحه أولونه وان كان أقل ينجس لظهور النجاسة فيه واعلم انه يمكن التمسك لنصرة
قول مالك بوجوه أحدها قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا ترك العمل به فى الماء
الذى تغيرلونه أوطعمه أوريحه لظهور النجاسة فيه فيبقى فيما عداه على الاصل (وثانيها)
قوله عليه السلام خلق الله الماء طهورا لاينجسه شئ الا ماغير طعمه أولونه أوريحه وهو
نص فى الباب (وثالثها) قوله تعالى فاغسلوا وجوهكم والمتوضئ بهذا الماء قد غسل

ينكرون النشور المستتبع للجزاء الاخروى ولايرون لنفس من النفوس نشورا أصلا مع تحققه حتما وشموله للناس
عموما واطراده وقوعا فكيف يعترفون بالجزاء الدنيوى فى حق طائفة خاصة مع عدم الاطراد والملازمة بينه وبين
المعاصى حتى يذكروا و يتعظوا بما شاهدوه من آثار الهلاك وانما يحملونه على الاتفاق واما انتقال
من التوبيخ بما ذكر من
ترك التذكر الى التوبيخ
بماهو أعظم منه من عدم
توقع النشور (واذا رأوك
ان يتخذونك الاهزوا)
أى مايتخذونك الامهزوأ
به على معنى قصر معا
ملتهم معه عليه الصلاة
والسلام على اتخاذهم
اياه عليه الصلاة والسلام
هزوأ لاعلى معنى قصر
اتخاذهم على كونه هزوا
كما هو المتبادر من ظاهر
العبارة كأنه قيل مايفعلون
بك الا اتخاذك هزوا
وقدمر تحقيقه فى قوله
تعالى ان أتبع الامايوحى
الى من سورة الانعام
وقوله تعالى (أهذا الذى
بعث الله رسولا) محكى
بعد قول مضمر هو حال
من فاعل يتخذونك أى
يستهزؤن بك قائلين
أهذا الذى الخ والاشارة
للاستحقار وابراز بعث
الله رسولا فى معرض
التسليم بجعله صلة
للموصول الذى هو صفته
عليه الصلاة والسلام
مع كونهم فى غاية النكير
لبعثه عليه الصلاة
والسلام بطريق التهكم
والاستهزاء والا لقالوا أبعث الله هذا رسولا أوأهذا الذى يزعم أنه بعثه الله رسولا (ان كاد) ان مخففة من ان وضمير
الشان محذوف أى انه كاد (ليضلنا عن آلهتنا) أى ليصرفنا عن عبادتها صرفا كليا بحيث يبعدنا عنها
لاعن عبادتها فقط والعدول الى الاضلال لغاية

ضلالهم بادعاء أن عبادتها طريق سوى (لولا أن صبرنا عليها) ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها ولولا في أمثال هذا الكلام تجرى مجرى التقييد للحكم المطلق من حيث المعنى كما أشير اليه فى قوله تعالى ولقد همت به الخ وهذا اعتراف منهم بأنه عليه الصلاة والسلام قد بلغ ﴿٤٨٦﴾ من الاجتهاد فى الدعوة الى الحق واظهار المعجزات واقامة الحجج والبينات الى حيث شارفوا أن يتركوا دينهم لولا فرط لجاجهم وغاية عنادهم يروى أنه من قول أبي جهل (وسوف يعلمون) جواب من جهته تعالى لآخر كلامهم ورد لما ينبئ عنه من نسبته عليه الصلاة والسلام الى الضلال فى ضمن الاضلال أى سوف يعلمون البتة وان تراخى (حين يرون العذاب) الذى يستوجبه كفرهم وعنادهم (من أضل سبيلا) وفيه ما لا يخفى من الوعيد والتنبيه على أنه تعالى لا يهملهم وان امهلهم (أرأيت من اتخذ الهه هواه) تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من شناعة حالهم بعد حكاية قبائحهم من الاقوال والافعال وبيان مالهم من المصير والمآل وتنبيه على ان ذلك من الغرابة بحيث يجب أن يرى ويتعجب منه والهه مفعول ثان لاتخذ قدم على الاول للاعتناء به لانه الذى يدور عليه أمر التعجيب ومن توهم انهما على الترتيب بناء على تساويهما فى التعريف ﴿ ذلك ﴾ فقد زل منه أن المفعول الثانى فى هذا الباب هو المتلبس بالحالة الحادثة أى أرأيت من جعل هواه الها لنفسه من غير أن

وجهه فيكون آتيا بما أمر به فيخرج عن العهدة (ورابعها) أن من شأن كل مختلطين كان أحدهما غالبا على الآخر أن يتكيف المغلوب بكيفية الغالب فالقطرة من الخل لو وقعت فى الماء الكثير بطلت صفة الخلية عنها واتصفت بصفة الماء وكون أحدهما غالبا على الآخر انما يعرف بغلبة الخواص والآثار المحسوسة وهى الطعم أو اللون أو الريح فلا جرم مهما ظهر طعم النجاسة أو لونها أو ريحها كانت النجاسة غالبة على الماء وكان الماء مستهلكا فيها فلا جرم يغلب حكم النجاسة فاذا لم تظهر شئ من ذلك كان الغالب هو الماء وكانت النجاسة مستهلكة فيه فيغلب حكم الطهارة (وخامسها) ما روى عن عمر توضأ من جرة نصرانية مع أن نجاسة أوانى النصارى معلومة بظن قريب من العلم وذلك يدل على أن عمر لم يعول الا على عدم التغير (وسادسها) أن تقدير الماء بمقدار معلوم لو كان معتبرا كالقلتين عند الشافعى وعشر فى عشر عند أبى حنيفة رضى الله عنه لكان أولى المواضع بالطهارة مكة والمدينة لانه لا تكثر المياه هناك لا الجارية ولا الراكدة الكثيرة ومن أول عصر الرسول صلى الله عليه وسلم الى آخر عصر الصحابة لم ينقل انهم خاضوا فى تقدير المياه بالمقادير المعينة ولا انهم سألوا عن كيفية حفظ المياه عن النجاسات وكانت أوانى مياههم يتعاطاها الصبيان والاماء الذين لا يحترزون عن النجاسات (وسابعها) اصغاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الاناء للهرة وعدم منعهم الهرة من شرب الماء من أوانيهم بعد أن كانوا يرون انها تأكل الفأرة ولم يكن فى بلادهم حياض تلغ السنانير فيها وكانت لا تنزل الآبار (وثامنها) أن الشافعى نص على ان غسالة النجاسات طاهرة اذا لم تتغير ونجسة اذا تغيرت وأى فرق بين أن يلاقى الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه وأى معنى لقول القائل ان قوة الورود تدفع النجاسة مع أن قوة الورود لم تمنع المخالطة (وتاسعها) انهم كانوا يستنجون على أطراف المياه الجارية القليلة ولا خلاف ان مذهب الشافعى اذا وقع بول فى ماء جار ولم يتغير أنه يجوز الوضوء به وان كان قليلا وأى فرق بين الجارى والراكد وليت شعرى الحوالة على عدم التغير أولى أو على قوة الماء بسبب الجريان (وعاشرها) اذا وقع بول فى قلتين ثم فرقنا فكل كوز يؤخذ منه فهو طاهر على قول الشافعى ومعلوم أن البول منتشر فيه وهو قليل فأى فرق بينه اذا وقع ذلك القليل فى ذلك القدر من الماء ابتداء وبينه اذا وصل اليه عند اتصال غيره به (وحادى عشرها) أن الحمامات لم تزل فى الاعصار الخالية يتوضأ فيها المتقشفون ويغمسون الايدى والاوانى فى ذلك القليل من الماء من تلك الحياض مع علمهم بان الايدى الطاهرة والنجسة كانت تتوارد عليها ولو كان التقدير بالقلتين معتبرا لاشتهر ذلك ولبلغ ذلك الى حد التواتر لان الامر الذى تشتد حاجة الجمهور اليه يجب بلوغ نقله الى حد التواتر ولما لم يكن كذلك علمنا أنه غير معتبر (وثانى عشرها) أنا لو حكمنا بنجاسة الماء فلا يمكننا أن نحكم بنجاسة الماء ان كان فى غاية الكثرة مثل ماء الاودية العظيمة والغدران الكبار فان

يلاحظه وبنى عليه أمر دينه معرضا عن استماع الحجة الباهرة والبرهان المنير بالكلية على معنى انظر اليه وتعجب
منه وقوله تعالى (أفأنت تكون عليه وكيلا) انكار واستبعاد لكونه عليه الصلاة والسلام حفيظا عليه يزجره
عما هو عليه من الضلال ويرشده الى الحق طوعا أو كرها والفاء لترتيب الانكار على ماقبله
من الحالة الموجبة له كأنه قيل أبعد ماشاهدت غلوه في طاعة الهوى وعتوه عن اتباع الهدى تقسره على الايمان شاء أو أبى وقوله تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون) اضراب وانتقال عن الانكار المذكور الى انكار حسبانه عليه الصلاة والسلام انهم ممن يسمع أو يعقل حسبما ينبئ عنه جده عليه الصلاة والسلام في الدعوة واهتمامه بالارشاد والتذكير لكن لاعلى أنه لايقع كالاول بل على أنه لاينبغي أن يقع أي بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون ماتتلو عليهم من الآيات حق السماع أو يعقلون مافي تضاعيفها من المواعظ الزاجرة عن القبائح الداعية الى المحاسن فتعتني بشأنهم وتطمع في ايمانهم وضمير أكثرهم لمن وجمعه باعتبار معناها كما أن الافراد في الضمائر الاول باعتبار لفظها وضمير الفعلين لاكثر لا
لما أضيف هو اليه وقوله تعالى (ان هم الا كالانعام) الخ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير النكير وتأكيده وحسم مادة
الحسبان بالمرة أي ماهم في عدم الانتفاع بمايقرع آذانهم من قوارع الآيات

ذلك بالاجماع باطل فلابد من التقدير بمقدار معين وقد نقلنا عن الناس تقديرات مختلفة
فليس بعضها أولى من بعض فوجب التعارض والتساقط اما تقدير أبي حنيفة بعشر
في عشر فمعلوم انه مجرد تحكم وأما تقدير الشافعي بالقلتين بناء على قوله عليه السلام اذا
بلغ الماء القلتين لم يحمل خبثا فضعيف أيضا لان الشافعي لما روى هذا الخبر قال أخبرني
رجل فيكون الراوي مجهولا ويكون الحديث مرسلا وهو عنده ليس بحجة وأيضا زعم
كثير من المحدثين انه موقوف على ابن عمر رضي الله عنه سلمنا صحة الرواية لكنه احالة
مجهول على مجهول لان القلة غير معلومة فانها تصلح للكوز والجرة ولكل ماتقل باليد
وهو أيضا اسم لهامة الرجل ولقلة الجبل سلمنا كون القلة معلومة لكن في متن الخبر
اضطراب فانه روى اذا بلغ الماء قلتين وروى اذا بلغ قلة وروى أربعين قلة وروى اذا
بلغ قلتين أو ثلاثا وروى اذا بلغ كوزين سلمنا صحة المتن ولكنه متروك الظاهر لان قوله
لم يحمل خبثا لايمكن اجراؤه على ظاهره فان الخبث اذا ورد عليه فقد حمله سلمنا امكان
اجرائه على ظاهره لكن الخبث على قسمين خبث شرعي وخبث حقيقي والاسم اذا دار
بين المسمى اللغوي والمسمى الشرعي كان حمله على المسمى اللغوي أولى لان الاسم حقيقة
في المسمى اللغوي مجاز في المسمى الشرعي دفعا للاشتراك والنقل واذا كان كذلك وجب
حمله عليه والمسمى اللغوي للخبث المستقذر بالطبع قال عليه السلام مااستخبثته العرب
فهو حرام اذا ثبت هذا فنقول معنى قوله لم يحمل خبثا أي لايصير مستقذرا طبعا ونحن
نقول بموجبه لكن لم قلت انه لاينجس شرعا سلمنا أن المراد من الخبث النجاسة الشرعية
لكن قوله لم يحمل خبثا أي يضعف عن حمله ومعنى الضعف عن حمله تأثره فيكون هذا دليلا على
صيرورته نجسا لاعلى بقائه طاهرا (لايقال) الجواب عن هذه المسئلة أن يقال ان الشافعي
وان لم يذكر اسم الراوي في بعض المواضع فقد ذكره في سائر المواضع فخرج عن كونه
مرسلا ولان سائر المحدثين قد عينوا اسم الراوي قوله انه موقوف على ابن عمر قلنا لانسلم
فان يحيى بن معين قال انه جيد الاسناد فقيل له ان ابن علية وقفه على ابن عمر فقال ان كان
ابن علية وقفه فحماد بن سلمة رفعه وقوله القلة مجهولة قلنا لانسلم لان ابن جريج قال في
روايته بقلال هجر ثم قال وقد شاهدت قلال هجر فكانت القلة تسع قربتين أو قربتين
وشيأ قوله في متنه اضطراب قلنا لانسلم لانا وأنتم توافقنا على أن سائر المقادير غير معتبرة
فيبقى ماذكرناه معتبرا قوله انه متروك الظاهر قلنا اذا حملناه على الخبث الشرعي اندفع
ذلك وذلك أولى لان حمل كلام الشرع على الفائدة الشرعية أولى من حمله على المعنى
العقلي لاسيما وفي حمله على المعنى العقلي يلزم التعطيل قوله المراد أنه يضعف عن حمله قلنا
صح في بعض الروايات أنه قال اذا كان الماء قلتين لم ينجس ولانه عليه السلام جعل
القلتين شرطا لهذا الحكم والمعلق على الشرط عدم عند عدم الشرط وعلى ماذكروه
لايبقى للقلتين فائدة (لانا نقول) لاشك أن هذا الخبر بتقدير الصحة يقتضي تخصيص عموم

قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا وعموم قوله ولكن يريد ليطهركم وعموم قوله فاغسلوا وجوهكم وعموم قوله صلى الله عليه وسلم خلق الماء طهورا لاينجسه شئ وهذا المخصص لابد وأن يكون بعيدا عن الاحتمال والاشتباه وقلال هجر مجهولة وقول ابن جريج القلة تسع قربتين أو قربتين وشيئا ليس بحجة لان القلة كما انها مجهولة فكذا القربة مجهولة فانها قد تكون كبيرة وقد تكون صغيرة ولان الروايات أيضا مختلفة فتارة قال اذا بلغ الماء قلتين وتارة أربعين قلة وتارة كرين فاذا تدافعت وتعارضت لم يجز تخصيص عموم الكتاب والسنة الظاهرة البعيدة عن الاحتمال بمثل هذا الخبر هذا تمام الكلام فى نصرة قول مالك واحتج من حكم بنجاسة الماء الذى تقع النجاسة فيه بوجوه (أولها) قوله تعالى ويحرم عليهم الخبائث والنجاسات من الخبائث وقال تعالى انما حرم عليكم الميتة والدم وقال فى الخمر رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ومر عليه السلام بقبرين فقال انهما ليعذبان ومايعذبان فى كبير ان أحدهما كان لايستبرئ من البول والآخر كان يمشى بالنميمة فحرم الله هذه الاشياء تحريما مطلقا ولم يفرق بين حال انفرادها واختلاطها بالماء فوجب تحريم استعمال كل مايتيقن فيه جزء من النجاسة أكثر مافى الباب أن الدلائل الدالة على كون الماء مطهرا يقتضى جواز الطهارة به ولكن تلك الدلائل مبيحة والدلائل التى ذكرناها حاظرة والمبيح والحاظر اذا اجتمعا فالغلبة للحاظر ألاترى ان الجارية بين رجلين لوكان لاحدهما منها مائة جزء وللآخر جزء واحد ان جهة الحظر فيها أولى من جهة الاباحة وأنه غير جائز لواحد منهما وطؤها فكذا ههنا (وثانيها) قوله عليه السلام لايبولن أحدكم فى الماء الدائم ثم يغتسل فيه من الجنابة ذكره على الاطلاق من غير فرق بين القليل والكثير (وثالثها) قوله عليه السلام اذا استيقظ أحدكم من منامه فليغسل يده ثلاثا قبل ان يدخلها الاناء فانه لايدرى أين باتت يده فأمر بغسل اليد احتياطا من نجاسة قد أصابته من موضع الاستنجاء ومعلوم ان مثلها اذا أدخلت الماء لم تغيره ولولا انها تفسده ماكان الامر بالاحتياط منها معنى (ورابعها) قوله عليه السلام اذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا يدل بمفهومه على انه اذا لم يبلغ قلتين وجب أن يحمل الخبث أجاب مالك عن الوجه الاول فقال لانزاع فى أنه يحرم استعمال النجاسة ولكن الجزء القليل من النجاسة المائعة اذا وقع فى الماء لم يظهر فيه لونه ولاطعمه ولارائحته فلم قلتم ان تلك النجاسة بقيت ولم لايجوز أن يقال انها انقلبت عن صفتها وتقريره ماقدمناه وأماقوله عليه السلام لايبولن أحدكم فى الماء الدائم فلم قلتم ان هذا النهى ليس الالما ذكرتموه بل لعل النهى انما كان لانه ربما شربه انسان وذلك ممايتنفر طبعه عنه وليس الكلام فى نفرة الطبع وأماقوله اذا استيقظ أحدكم من منامه فليغسل يده ثلاثا فقد أجمعنا على أن هذا الامر استحباب فالمرتب عليه كيف يكون أمر ايجاب ثم بتقدير أن يكون أمر ايجاب فلم قلتم انه لم يوجد ذلك الايجاب الالما ذكرتموه وأماقوله

﴿ عليه ﴾

وانتفاء التدبر فيما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات الا كالبهائم التى هى مثل فى الغفلة وعلم فى الضلالة (بل هم أضل) منها (سبيلا) لما أنها تنقاد لصاحبها الذى يعلفها ويتعهدها وتعرف من يحسن اليها ممن يسئ اليها وتطلب ماينفعها وتجتنب مايضرها وتهتدى لمراعيها ومشاربها ﴿ ٤٨٨ ﴾ وتأوى الى معاطنها وهؤلاء لاينقادون لربهم وخالقهم ورازقهم ولا يعرفون احسانه اليهم من اساءة الشيطان الذى هو أعدى عدوهم ولايطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ولايتقون العقاب الذى هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى والمورد العذب الروى ولانها انلم تعتقد حقا مستتبعا لاكتساب الخير لم تعتقد باطلا مستوجبا لاقتراف الشر بخلاف هؤلاء حيث مهدوا قواعد الباطل وفرعوا عليها أحكام الشرور ولان أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة على أنفسها لاتتعدى الى أحد وجهالة هؤلاء مؤدية الى ثوران الفتنة والفساد وصد الناس عن سنن السداد وهيجان الهرج والمرج فيمابين العباد ولانها غير معطلة لقوة من القوى المودعة بل صارفة لها الى ما خلقت هى له فلا تقصير من قبلها فى طلب الكمال وأما هؤلاء فهم معطلون لقواهم العقلية مضيعون للفطرة الاصلية التى فطر الناس عليها مستحقون بذلك أعظم العقاب وأشد

النكال (ألم تر الى ربك) بيان لبعض دلائل التوحيد اثر بيان جهالة المعرضين عنها وضلالتهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والهمزة للتقرير والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه عليه الصلاة والسلام والايذان بأن ما يعقبه من آثار ربوبيته ورحمته تعالى أي ألم تنظر الى بديع صنعه تعالى (كيف مد الظل) أي كيف أنشأ الظل أي ظل كان من جبل أو بناء أو شجر عند ابتداء طلوع الشمس ممتدا لانه تعالى مده بعد أن لم يكن كذلك كما بعد نصف النهار الى غروبها فان ذلك مع خلوه عن التصريح بكون نفسه بانشائه تعالى واحداثه يأباه سياق النظم الكريم وأما ما قيل من أن المراد بالظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس وانه أطيب الاوقات فان الظلمة الخالصة تنفر عنها الطباع وشعاع الشمس يسخن الجو ويبهر البصر ولذلك وصف به الجنة في قوله تعالى وظل ممدود فغير سديد اذ لا ريب في أن المراد تنبيه الناس على عظيم قدرة الله عز وجل وبالغ حكمته فيما يشاهدونه فلا بد أن يراد بالظل ما يتعارفونه من حالة مخصوصة يشاهدونها في موضع يحول بينه وبين الشمس جسم كثيف مخالفة لما في جوانبه من مواقع ضح الشمس وما ذكر وان كان في الحقيقة ظلا للافق الشرقي لكنهم لا يعدونه ظلا ولا يصفونه بأوصافه المعهودة ولعل توجيه الرؤية اليه سبحانه وتعالى مع أن المراد تقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام لكيفية مد الظل للتنبيه على أن نظره عليه الصلاة والسلام غير مقصور

عليه السلام اذا بلغ الماء قلتين فقد سبق الكلام عليه ثم بعد النزول عن كل ما قلناه فهو تمسك بالمفهوم والنصوص التي ذكرناها منطوقة والمنطوق راجح على المفهوم والله أعلم (النظر الثاني) في ان غير الماء هل هو طهور أم لا فقال الاصم والاوزاعي يجوز الوضوء بجميع المائعات وقال أبو حنيفة يجوز الوضوء بنبيذ التمر في السفر وقال أيضا تجوز ازالة النجاسة بجميع المائعات التي تزيل اعيان النجاسات وقال الشافعي رضي الله عنه الطهورية مختصة بالماء على الاطلاق ودليله صورة الحدث قوله تعالى فان لم تجدوا ماء فتيمموا أوجب التيمم عند عدم الماء ولو جاز الوضوء بالخل أو نبيذ التمر لما أوجب التيمم عند عدم الماء وأما في صورة الخبث فلان الخل لو أفاد طهارة الخبث لكان طهورا لانه لا معنى للطهور الا المطهر ولو كان طهورا لوجب أن يجوز به طهارة الحدث لقوله عليه السلام لا يقبل الله صلاة أحدكم حتى يضع الطهور مواضعه وكلمة حتى لانتهاء الغاية فوجب انتهاء عدم القبول عند استعمال الطهور وانتهاء عدم القبول يكون بحصول القبول فلو كان الخل طهورا لحصل باستعماله قبول الصلاة وحيث لم يحصل علمنا أن الطهورية في الخبث أيضا مختصة بالماء * قوله تعالى (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس الا كفورا ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنهم اختلفوا في أن الهاء في قوله ولقد صرفناه الى أي شئ يرجع وذكروا فيه ثلاثة أوجه (أحدها) وهو الذي عليه الجمهور انه يرجع الى المطر ثم من هؤلاء من قال معنى صرفناه أنا أجريناه في الانهار حتى انتفعوا بالشرب والزراعات وأنواع المعاش به وقال آخرون معناه أنه سبحانه ينزله في مكان دون مكان وفي عام دون عام ثم في العام الثاني يقع بخلاف ما وقع في العام الاول قال ابن عباس ما عام بأكثر مطرا من عام ولكن الله يصرفه في الارض ثم قرأ هذه الآية وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من عام بأمطر من عام ولكن اذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك الى غيرهم فاذا عصوا جميعا صرف الله ذلك الى الفيافي (وثانيها) وهو قول أبي مسلم أن قوله صرفناه راجع الى المطر والرياح والسحاب والاظلال وسائر ما ذكر الله تعالى من الادلة (وثالثها) ولقد صرفناه أي هذا القول بين الناس في القرآن وسائر الكتب والصحف التي أنزلت على الرسل وهو ذكر انشاء السحاب وانزال القطر ليتفكروا ويستدلوا به على الصانع والوجه الاول أقرب لانه أقرب المذكورات الى الضمير (المسئلة الثانية) قال الجبائي قوله تعالى ليذكروا يدل على أنه تعالى مريد من الكل ان يتذكروا ويشكروا ولو أراد منهم أن يكفروا ويعرضوا لما صح ذلك وذلك يبطل قول من قال ان الله تعالى مريد للكفر ممن يكفر قال ودل قوله فأبى أكثر الناس الا كفورا على قدرتهم على فعل هذا التذكر اذ لو لم يقدروا لما جاز أن يقال أبوا أن يفعلوه كما لا يقال في الزمن أبى أن يسعى وقال الكعبي قوله ولقد صرفناه بينهم ليذكروا حجة

على من زعم أن القرآن وبال على الكافرين وأنه لم يرد بانزاله ان يؤمنوا لان قوله ليذكروا عام فى الكل وقوله فأبى أكثر الناس يقتضى أن يكون هذا الاكثر داخلا فى ذلك العام لانه لا يجوز أن يقال أنزلناه على قريش ليؤمنوا فابى أكثر بنى تميم الا كفورا واعلم أن الكلام عليه قد تقدم مرارا (المسئلة الثالثة) قوله فابى أكثر الناس الا كفورا المراد كفران النعمة وجحودها من حيث لا يتفكرون فيها ولا يستدلون بها على وجود الصانع وقدرته واحسانه وقيل المراد من الكفر هو الكفر وذلك الكفر انما حصل لانهم يقولون مطرنا بنوء كذا لان من جحد كون النعم صادرة من المنعم وأضاف مثل هذه النعمة الى الافلاك والكواكب فقد كفر واعلم أن التحقيق أن من جعل الافلاك والكواكب مستقلة باقتضاء هذه الاشياء فلا شك فى كفره وأما من قال الصانع تعالى جبلها على خواص وصفات تقتضى هذه الحوادث فلعله لا يبلغ خطاؤه الى حد الكفر (المسئلة الرابعة) قالوا الآية دلت على أن خلاف معلوم الله مقدور له لان كلمة لو دلت على أنه تعالى ماشاء أن يبعث فى كل قرية نذيرا ثم انه تعالى أخبر عن كونه قادرا على ذلك فدل ذلك على ان خلاف معلوم الله مقدور له ❊ أما قوله تعالى ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا فالاقوى أن المراد من ذلك تعظيم النبى صلى الله عليه وسلم وذلك لوجوه (أحدها) كانه تعالى بين له انه مع القدرة على بعثة رسول ونذير فى كل قرية خصه بالرسالة وفضله بها على الكل ولذلك أتبعه بقوله فلا تطع الكافرين أى لا توافقهم (وثانيها) المراد ولو شئنا لخففنا عنك أعباء الرسالة الى كل العالمين ولبعثنا فى كل قرية نذيرا ولكنا قصرنا الامر عليك وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل فقابل هذا الاجلال بالتشدد فى الدين (وثالثها) ان الآية تقتضى مزج اللطف بالعنف لانها تدل على القدرة على أن يبعث فى كل قرية نذيرا مثل محمد وانه لا حاجة بالحضرة الالهية الى محمد البتة وقوله ولو يدل على انه سبحانه لا يفعل ذلك فبالنظر الى الاول يحصل التأديب وبالنظر الى الثانى يحصل الاعزاز أما قوله فلا تطع الكافرين فالمراد نهيه عن طاعتهم ودلت هذه الآية على أن النهى عن الشئ لا يقتضى كون المنهى عنه مشتغلا به وأما قوله وجاهدهم به جهادا كبيرا فقال بعضهم المراد بذل الجهد فى الاداء والدعاء وقال بعضهم المراد القتال وقال آخرون كلاهما والاقرب الاول لان السورة مكية والامر بالقتال ورد بعد الهجرة بزمان وانما قال جهادا كبيرا لانه لو بعث فى كل قرية نذيرا لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات وكثر جهاده من أجل ذلك وعظم فقال له وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة القرى جهادا كبيرا جامعا لكل مجاهدة

❊ قوله تعالى (وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا) اعلم أن هذا هو النوع الرابع من دلائل التوحيد وقوله مرج البحرين أى خلاهما وأرسلهما يقال مرجت الدابة اذا خليتها ترعى وأصل المرج ﴿ الارسال ﴾

[...] معرفة شؤن الصانع المجيد وقوله تعالى (ولوشاء لجعله ساكنا) جملة اعترضت بين المعطوفين للتنبيه من أول الأمر على أنه لا مدخل فيما ذكر من المد للاسباب العادية وانما المؤثر فيه المشيئة والقدرة ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء أى ولوشاء سكونه لجعله ساكنا أى ثابتا على حاله من الطول والامتداد وانما عبر عن ذلك بالسكون لما أن مقابله الذى هو تغير حاله حسب تغير الاوضاع بين المظل وبين الشمس يرى رأى العين حركة وانتقالا وحاصله أنه لا يعتريه اختلاف حال بان لا تنسخه الشمس وأما التعليل بان يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد فمداره الغفول عما سيق له النظم الكريم ونطق به صريحا من بيان كمال قدرته القاهرة وحكمته الباهرة بنسبة جميع الامور الحادثة اليه تعالى بالذات واسقاط الاسباب العادية عن رتبة السببية والتأثير بالكلية وقصرها على مجرد الدلالة على وجود المسببات لا بذكر قدرته تعالى على بعض الخوارق كاقامة الشمس فى مقام واحد على أنها أعظم من ابقاء الظل على حاله فى الدلالة على ماذكر من كمال القدرة والحكمة لكونه فروعها ومستتبعاتها فهى أولى وأحق بالايراد فى معرض البيان وقوله تعالى (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) عطف على مد داخل فى حكمه أى جعلناها علامة يستدل باحوالها المتغيرة على أحواله من غير أن يكون بينهما سببية وتأثير قطعا

حسبما نطق به الشرطية المعترضة والالتفات الى نون العظمة لما فى الجعل المذكور العارى عن التأثير مع مايشاهد بين الشمس والظل من الدوران المطرد المنبئ عن السببية مزيد دلالة على عظم القدرة ودقة الحكمة وهو السر فى ايراد كلمة التراخى وقوله تعالى (ثم قبضناه) عطف على مد داخل فى حكمه وثم للتراخى الزمانى لما أن فى بيان كون القبض والمد مرتبين دائرين على قطب مصالح المخلوقات مزيد دلالة على الحكمة الربانية ويجوز أن تكون للتراخى الرتبى أى أزلناه بعدما أنشأناه ممتدا ومحوناه بمحض قدرتنا ومشيئتنا عند ايقاع شعاع الشمس موقعه من غير أن يكون له تأثير فى ذلك أصلا وانما عبر عنه بالقبض المنبئ عن جمع المنبسط وطيه لما أنه قد عبر عن احداثه بالمد الذى هو البسط طولا وقوله تعالى (الينا) للتنصيص على كون مرجعه اليه تعالى كما أن حدوثه منه عز وجل (قبضا يسيرا) أى على مهل قليلا قليلا حسب ارتفاع دليله على وتيرة معينة مطردة مستتبعة لمصالح المخلوقات ومرافقها وقيل ان الله تعالى حين بنى السماء كالقبة المضروبة ودحا الارض تحتها ألقت القبة ظلها على الارض لعدم النير وذلك مده تعالى اياه ولو شاء لجعله ساكنا مستقرا على تلك الحالة ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل أى سلطها عليه ونصبها دليلا متبوعا له كما يتبع الدليل فى الطريق فهو يزيدها وينقص ويمتد ويقلص ثم نسخه بها بقبضه قبضا سهلا يسيرا غير عسير أو قبضا سهلا عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهى الاجرام التى تلقى الظل فيكون قد ذكر اعدامه باعدام أسبابه

الارسال والخلط ومنه قوله تعالى فهم فى أمر مريج سمى الماءين الكبيرين الواسعين بحرين قال ابن عباس مرج البحرين اى أرسلهما فى مجاريهما كما ترسل الخيل فى المرج وهما يلتقيان وقوله هذا عذب فرات والمقصود من الفرات البليغ فى العذوبة حتى يصير الى الحلاوة والاجاج نقيضه وانه سبحانه بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج وجعل من عظيم اقتداره برزخا حائلا من قدرته وههنا سؤالات (السؤال الاول) مامعنى قوله وحجرا محجورا الجواب هى الكلمة التى يقولها المتعوذ وقد فسرناها وهى ههنا واقعة على سبيل المجاز كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له حجرا محجورا كما قال لا يبغيان أى لا يبغى أحدهما على صاحبه بالممازجة فانتفاء البغى كالتعوذ وههنا جعل كل واحد منهما فى صورة الباغى على صاحبه فهو يتعوذ منه وهى من أحسن الاستعارات (السؤال الثانى) لا وجود للبحر العذب فكيف ذكره الله تعالى ههنا (لا يقال) هذا مدفوع من وجهين الاول ان المراد منه الاودية العظام كالنيل وجيحون الثانى لعله جعل فى البحار موضعا يكون أحد جانبيه عذبا والآخر ملحا (لانا نقول) أما الاول فضعيف لان هذه الاودية ليس فيها ماء ملح والبحار ليس فيها ماء عذب فلم يحصل البتة موضع التعجب وأما الثانى فضعيف لان موضع الاستدلال لا بد وأن يكون معلوما فاما بمحض التجويز فلا يحسن الاستدلال لانا نقول المراد من البحر العذب هذه الاودية ومن الاجاج البحار الكبار وجعل بينهما برزخا أى حائلا من الارض ووجه الاستدلال ههنا بين لان العذوبة والملوحة ان كانت بسبب طبيعة الارض أو الماء فلا بد من الاستواء وان لم يكن كذلك فلا بد من قادر حكيم يخص كل واحد من الاجسام بصفة خاصة معينة * قوله تعالى (وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا) واعلم أن هذا هو النوع الخامس من دلائل التوحيد وفيه بحثان (الاول) ذكروا فى هذا الماء قولين أحدهما انه الماء الذى خلق منه أصول الحيوان وهو الذى عناه بقوله والله خلق كل دابة من ماء والثانى أن المراد النطفة لقوله خلق من ماء دافق من ماء مهين (البحث الثانى) المعنى انه تعالى قسم البشر قسمين ذوى نسب أى ذكورا ينسب اليهم فيقال فلان بن فلان وفلانة بنت فلان وذوات صهر أى اناثا يصاهرن ونحوه قوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى وكان ربك قديرا حيث خلق من النطفة الواحدة نوعين من البشر الذكر والانثى * قوله تعالى (ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا قل ما أسألكم عليه من اجر الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا) واعلم أنه تعالى لما شرح دلائل التوحيد عاد الى تهجين سيرتهم فى عبادة الاوثان وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قيل المراد بالكافر أبو جهل لان الآية نزلت فيه والاولى حمله على العموم لان خصوص السبب لا يقدح فى عموم

... على طريقة قوله تعالى ذلك حشر علينا يسير وصيغة الماضى للدلالة على تحقق
الوقوع (وهو الذى جعل لكم الليل لباسا) بيان لبعض بدائع آثار قدرته تعالى وحكمته وروائع أحكام رحمته ونعمته الفائضة
على الخلق وتلوين الخطاب لتوفية مقام الامتنان حقه واللام متعلقة بجعل وتقديمها على مفعوليه
للاعتناء ببيان كون
مايعقبه من منافعهم
وفى تعقيب بيان أحوال
الظل ببيان أحكام الليل
الذى هو ظل الارض
من لطف المسلك مالا
مزيد عليه أى هو الذى
جعل لكم الليل كاللباس
يستركم بظلامه كما يستركم
اللباس (والنوم سباتا)
أى وجعل النوم الذى
يقع فى الليل غالبا قطعا
عن الافاعيل المختصة
بحال اليقظة عبر عنه
بالسبات الذى هو الموت
لما بينهما من المشابهة
التامة فى انقطاع أحكام
الحياة وعليه قوله تعالى
وهو الذى يتوفاكم بالليل
وقوله تعالى الله يتوفى
الانفس حين موتها والتى
لم تمت فى منامها (وجعل
النهار نشورا) اى زمان
بعث من ذلك السبات
كبعث الموتى على حذف
المضاف واقامة المضاف
اليه مقامه أو نفس البعث
على طريق المبالغة وفيه
اشارة الى أن النوم
واليقظة انموذج للموت
والنشور وعن لقمان
عليه السلام يابنى كما تنام
فتوقظ كذلك تموت وتنشر (وهو الذى أرسل الرياح) وقرئ بالتوحيد على أن المراد هو الجنس (بشرا) ✲ عليه
تخفيف بشر جمع بشور أى مبشرين وقرئ بشرى وقرئ نشرا بالنون جمع نشور أى ناشرات للسحاب وقرئ بالتخفيف
وبفتح النون أيضا

اللفظ ولانه أوفق بظاهر قوله و يعبدون من دون الله (المسئلة الثانية) ذكروا فى الظهير
وجوها (أحدها) ان الظهير بمعنى المظاهر كالعوين بمعنى المعاون وفعيل بمعنى مفاعل غير
غريب والمعنى ان الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة فان قيل كيف يصح
فى الكافر أن يكون معاونا للشيطان على ربه بالعداوة قلنا انه تعالى ذكر نفسه وأراد
رسوله كقوله ان الذين يؤذون الله (وثانيها) يجوز أن يريد بالظهير الجماعة كقوله
والملائكة بعد ذلك ظهير كما جاء الصديق والخليط وعلى هذا التفسير يكون المراد بالكافر
الجنس وأن بعضهم مظاهر لبعض على اطفاء نور الله تعالى قال تعالى واخوانهم يمدونهم
فى الغى (وثالثها) قال أبو مسلم الاصفهانى الظهير من قولهم ظهر فلان بحاجتى
اذا نبذها وراء ظهره وهو من قوله تعالى واتخذتموه وراءكم ظهريا ويقال فيمن يستهين
بالشئ نبذه وراء ظهره وقياس العربية أن يقال مظهور أى مستخف به متروك وراء الظهر
فقيل فيه ظهير فى معنى مظهور ومعناه هين على الله أن يكفر الكافر وهو تعالى مستهين
بكفره أما قوله تعالى وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا فتعلق ذلك بما تقدم هوان الكفار
يطلبون العون على الله تعالى وعلى رسوله والله تعالى بعث رسوله لنفعهم لانه بعثه
ليبشرهم على الطاعة و ينذرهم على المعصية فيستحقوا الثواب و يحترزوا عن العقاب
فلا جهل أعظم من جهل من استفرغ جهده فى ايذاء شخص استفرغ جهده فى اصلاح
مهماته دنيا ودينا ولا يسألهم على ذلك البتة اجرا أما قوله الا من شاء فذكروا فيه
وجوها متقاربة أحدها لا يسألهم على الاداء والدعاء أجرا الا أن يشاؤا أن يتقربوا
بالانفاق فى الجهاد وغيره فيتخذوا به سبيلا الى رحمة ربهم ونيل ثوابه (وثانيها) قال القاضى
معناه لا أسألكم عليه أجرا لنفسى وأسألكم أن تطلبوا الاجر لأنفسكم باتخاذ السبيل
الى ربكم (وثالثها) قال صاحب الكشاف مثال قوله الا من شاء والمراد الا فعل من شاء
واستثناؤه عن الاجر قول ذى شفقة عليك قد سعى لك فى تحصيل مال ما أطلب منك ثوابا
على ما سعيت الا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه فليس حفظك المال لنفسك من جنس
الثواب ولكن صورة هو بصورة الثواب وسماه باسمه فافاد فائدتين احداهما قلع شبهة
الطمع فى الثواب من أصله كأنه يقول لك ان كان حفظك لمالك ثوابا فانى أطلب الثواب
والثانية اظهار الشفقة البالغة وان حفظك لمالك يجرى مجرى الثواب العظيم
الذى توصله الى ومعنى اتخاذهم الى الله سبيلا تقربهم اليه وطلبهم عنده الزلفى بالايمان
والطاعة وقيل المراد التقرب بالصدقة والنفقة فى سبيل الله أما قوله وتوكل على الحى
الذى لا يموت فالمعنى انه سبحانه لما بين ان الكفار متظاهرون على ايذائه فامره بان
لا يطلب منهم أجرا البتة أمره بان يتوكل عليه فى دفع جميع المضار وفى جلب جميع
المنافع وانما قال على الحى الذى لا يموت لان من توكل على الحى الذى يموت فاذا مات
المتوكل عليه صار المتوكل ضائعا أما هو سبحانه وتعالى فانه حى لا يموت فلا يضيع المتوكل

على أنه مصدر وصف به مبالغة وقوله تعالى (بين يدى ...
الى نون العظمة فى قوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) لابراز كمال العناية بالانزال لانه نتيجة ماذكر من
ارسال الرياح أى أنزلنا بعظمتنا بما رتبنا من ارسال الرياح من جهة الفوق ماء بليغا فى الطهارة وماقيل
انه مايكون طاهرا
فى نفسه ومطهرا لغيره
فهو شرح لبلاغته
فى الطهارة كما ينبئ عنه
قوله تعالى وينزل عليكم
من السماء ماء ليطهركم به
فان الطهور فى العربية
اما صفة كما تقول ماء
طهورا أو اسم كما فى قوله
عليه الصلاة والسلام
التراب طهور المؤمن
وقد جاء بمعنى الطهارة
كما فى قولك تطهرت
طهورا حسنا كقولك
وضوأ حسنا ومنه قوله
عليه الصلاة والسلام
لاصلاة الابطهور
ووصف الماء به اشعار
بتمام النعمة فيه وتتميم
للنعمة فيما بعده فان الماء
الطهور أهنأ وأنفع
مما خالطه مايزيل
طهوريته وتنبيه على
أن ظواهرهم لما كانت
مما ينبغى أن يطهروها
فبواطنهم أحق بذلك
وأولى (لنحيى به) اى
بما أنزلنا من الماء الطهور
(بلدة ميتا) بانبات النبات
والتذكير لان البلدة بمعنى
البلد ولانه غير جار على
الفعل كسائر أبنية المبالغة
فأجرى مجرى الجامد والمراد به القطعة من الارض عامرة كانت أو غامرة (ونسقيه) اى ذلك الماء الطهور عند
جريانه فى الاودية أو اجتماعه فى الحياض والمناقع أو الآبار (مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا) اى أهل البوادى
الذين يعيشون بالحيا ولذلك نكر الانعام والاناسى وتخصيصهم بالذكر لان أهل القرى والامصار يقيمون

عليه البتة أما قوله وسبح بحمده فمنهم من حمله على نفس التسبيح بالقول ومنهم من حمله على
الصلاة ومنهم من حمله على التنزيه لله تعالى عما لا يليق به فى توحيده وعدله وهذا هو
الظاهر ثم قال وكفى به بذنوب عباده خبيرا وهذه كلمة يراد بها المبالغة يقال كفى بالعلم جمالا
وكفى بالادب مالا وهو بمعنى حسبك أى لاتحتاج معه الى غيره لانه خبير باحوالهم قادر
على مكافاتهم وذلك وعيد شديد كانه قال ان أقدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه
فى مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة * قوله تعالى (الذى خلق السموات والارض
وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسئل به خبيرا واذا قيل لهم اسجدوا
للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا) اعلم أنه سبحانه لما أمر الرسول بأن
يتوكل عليه وصف نفسه بامور (أولها) بانه حى لايموت وهو قوله وتوكل على الحى الذى
لايموت (وثانيها) انه عالم بجميع المعلومات وهو قوله وكفى به بذنوب عباده خبيرا (وثالثها)
انه قادر على كل الممكنات وهو المراد من قوله الذى خلق السموات والارض فقوله الذى
خلق متصل بقوله الحى الذى لايموت لانه سبحانه لما كان هو الخالق للسموات والارضين
ولكل مابينهما ثبت انه هو القادر على جميع وجوه المنافع ودفع المضار وان النعم كلها من
جهته فحينئذ لايجوز التوكل الا عليه * وفى الآية سؤالات (السؤال الاول) الايام عبارة
عن حركات الشمس فى السموات فقبل السموات لا أيام فكيف قال الله خلقها فى ستة أيام
الجواب يعنى فى مدة مقدارها هذه المدة لايقال الشئ الذى يتقدر بمقدار محدود ويقبل
الزيادة والنقصان والتجزئة لايكون عدما محضا بل لابد وأن يكون موجودا فيلزم من
وجوده وجود مدة قبل وجود العالم وذلك يقتضى قدم الزمان لانا نقول هذا معارض
بنفس الزمان لان المدة المتوهمة المحتملة لعشرة أيام لاتحتمل خمسة أيام والمدة المتوهمة
التى تحتمل خمسة أيام لاتحتمل عشرة أيام فيلزم أن يكون للمدة مدة أخرى فلما لم يلزم هذا
لم يلزم ماقلتموه وعلى هذا نقول لعل الله سبحانه خلق المدة أولا ثم خلق السموات والارض
فيها بمقدار ستة أيام ومن الناس من قال فى ستة أيام من أيام الآخرة وكل يوم ألف سنة
وهو بعيد لان التعريف لابد وأن يكون بأمر معلوم لابامر مجهول (السؤال الثانى)
لم قدر الخلق والايجاد بهذا التقدير الجواب اما على قولنا فالمشيئة والقدرة كافية
فى التخصيص قالت المعتزلة بل لابد من داعى حكمة وهو ان تخصيص خلق العالم بهذا
المقدار أصلح للمكلفين وهذا بعيد لوجهين أحدهما ان حصول تلك الحكمة اما أن
يكون واجبا لذاته او جائزا فان كان واجبا وجب أن لايتغير فيكون حاصلا فى كل
الازمنة فلا يصلح أن يكون سببا لتخصيص زمان معين وان كان جائزا افتقر حصول تلك
الحكمة فى ذلك الوقت الى مخصص آخر ويلزم التسلسل والثانى أن التفاوت بين كل
واحد مما لايصل اليه خاطر المكلف وعقله فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورا به
كيف يقدح فى حصول المصالح واعلم أنه يجب على المكلف سواء كان على قولنا أو على

...رب الانهار والمنابع فيهم و بعالهم من الانعام غنيـة عن سقيا السماء وسائر الحيوانات تبعد فى طلب الماء
فلا يعوزها الشرب غالبا مع أن مساق الآيات الكريمة كما هو للدلالة على عظم القدرة فهو لتعداد أنواع النعمة
والانعام حيث كانت قنية للانسان وعامة منافعهم ومعايشهم منوطة بها قدم سقيها على
سقيهم كما قدم عليها احياء لارض فانه سبب حياتها وتعيشها وقرئ نسقيه وأسقى وسقى لغتان وقيل أسقاه جعل له سقيا واناسى جمع انسى أو انسان كظرابى فى ظربان على أن أصله أناسين فقلبت نونه ياء وقرئ أناسى بالتخفيف بحذف ياء أفاعيل كأناعم فى أناعيم (ولقد صرفناه) اى وبالله لقد كررنا هذا القول الذى هو ذكر انشاء السحاب وانزال القطر لما مر من الغايات الجميلة فى القرآن وغيره من الكتب السماوية (بينهم) أى بين الناس من المتقدمين والمتأخرين (ليذكروا) ليتفكروا و يعرفوا بذلك كمال قدرته تعالى وواسع رحمته فى ذلك و يقوموا بشكر نعمته حق قيام وقيل الضمير للمطر وتصريفه بينهم انزاله فى بعض البلاد دون غيرها أو فى بعض الاوقات دون بعض أو جعله تارة وابلا واخرى طلا وحينا ديمة ووقتا رحمة والاول هو الاظهر (فأبى أكثر الناس) ممن سلف وخلف (الا كفورا) اى لم يفعل الا كفران النعمة وقلة الاكتراث لها أو الا جحودها بان يقولوا مطرنا بنوء كذا ولا يذكروا ✻ ورابعها ✻

قول المعتزلة أن يقطع الطمع عن أمثال هذه الاسئلة فانه بحر لا ساحل له من ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش بالثمانية وشهور السنة باثنى عشر والسموات بالسبع وكذا الارض وكذا القول فى عدد الصلوات ومقادير النصب فى الزكوات وكذا مقادير الحدود والكفارات فالاقرار بان كل ما قاله الله تعالى حق هو الدين وترك البحث عن هذه الاشياء هو الواجب وقد نص عليه تعالى فى قوله وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب و يزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ثم قال وما يعلم جنود ربك الا هو وهذا هو الجواب أيضا فى أنه لم يخلقها فى لحظة وهو قادر على ذلك وعن سعيد بن جبير انه انما خلقها فى ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها فى لحظة تعليما لخلقه الرفق والتثبت قيل ثم خلقها يوم الجمعة فجعلها الله تعالى عيدا للمسلمين (السؤال الثالث) ما معنى قوله ثم استوى على العرش ولا يجوز حمله على الاستيلاء والقدرة لان الاستيلاء والقدرة فى أوصاف الله لم تزل ولا يصح دخول ثم فيه الجواب الاستقرار غير جائز لانه يقتضى التغير الذى هو دليل الحدوث و يقتضى التركيب والبعضية وكل ذلك على الله محال بل المراد ثم خلق العرش ورفعه وهو مستول كقوله تعالى ولنبلونكم حتى نعلم فان المراد حتى يجاهد المجاهدون ونحن بهم عالمون فان قيل فعلى هذا التفسير يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات وليس كذلك لقوله تعالى وكان عرشه على الماء قلنا كلمة ثم ما دخلت على خلق العرش بل على رفعه على السموات (السؤال الرابع) كيف اعراب قوله الرحمن فاسئل به خبيرا الجواب الذى خلق مبتدأ والرحمن خبره أو هو صفة للحى أو الرحمن خبر مبتدأ محذوف ولهذا أجاز الزجاج وغيره أن يكون الوقف على قوله على العرش ثم يبتدئ بالرحمن أى هو الرحمن الذى لا ينبغى السجود والتعظيم الا له ويجوز أن يكون الرحمن مبتدأ وخبره قوله فاسئل به خبيرا (السؤال الخامس) ما معنى قوله فاسئل به خبيرا الجواب ذكروا فيه وجوها أحدها قال الكلبى معناه فاسئل خبيرا به وقوله به يعود الى ما ذكرنا من خلق السماء والارض والاستواء على العرش والباء من صلة الخبير وذلك الخبير هو الله عز وجل لانه لا دليل فى العقل على كيفية خلق الله السموات والارض فلا يعلمها أحد الا الله تعالى وعن ابن عباس أن ذلك الخبير هو جبريل عليه السلام وانما قدم لرؤس الآى وحسن النظم وثانيها قال الزجاج قوله به معناه عنه والمعنى فاسئل عنه خبيرا وهو قول الاخفش ونظيره قوله سأل سائل بعذاب واقع وقال علقمة بن عبيدة

فان تسألونى بالنساء فاننى ✻ بصير بادواء النساء طبيب

(وثالثها) قال ابن جرير الباء فى قوله به صلة والمعنى فسئله خبيرا وخبيرا نصب على الحال

(ورابعها) أن قوله به يجرى مجرى القسم كقوله واتقوا الله الذى تساءلون به أما قوله وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن فهو خبر عن قوم قالوا هذا القول ويحتمل أنهم جهلوا الله تعالى ويحتمل أنهم وإن عرفوه لكنهم جحدوه ويحتمل أنهم وإن اعترفوا به لكنهم جهلوا ان هذا الاسم من أسماء الله تعالى وكثير من المفسرين على هذا القول الاخير قالوا الرحمن اسم من أسماء الله مذكور فى الكتب المتقدمة والعرب ما عرفوه قال مقاتل ان أبا جهل قال ان الذى يقول محمد شعر فقال عليه السلام الشعر غير هذا ان هذا الا كلام الرحمن قال أبو جهل بخ بخ لعمرى والله انه لكلام الرحمن الذى باليمامة هو يعلمك فقال عليه السلام الرحمن الذى هو اله السماء ومن عنده يأتينى الوحى فقال يا آل غالب من يعذرنى من محمد يزعم أن الله واحد وهو يقول الله يعلمنى والرحمن ألستم تعلمون أنهما الهان ثم قال ربكم الله الذى خلق هذه الاشياء أما الرحمن فهو مسيلمة قال القاضى والاقرب أن المراد انكارهم لله لا للاسم لان هذه اللفظة عربية وهم كانوا يعلمون انها تفيد المبالغة فى الانعام ثم ان قلنا بانهم كانوا منكرين لله كان قولهم وما الرحمن سؤال طالب عن الحقيقة وهو يجرى مجرى قول فرعون وما رب العالمين وان قلنا بانهم كانوا مقرين بالله لكنهم جهلوا كونه تعالى مسمى بهذا الاسم كان قولهم وما الرحمن سؤالا عن الاسم أما قوله أنسجد لما تأمرنا فالمعنى للذى تأمرنا بسجوده على قوله أمرتك بالخير أولامر لنا وقرئ يأمرنا بالياء كان بعضهم قال لبعض أنسجد لما يأمرنا محمد أو يأمرنا المسمى بالرحمن ولا نعرف ما هو وزادهم أمره نفورا ومن حقه أن يكون باعثا على الفعل والقبول قال الضحاك فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعثمان بن مظعون وعمرو بن عنبسة ولما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا فى ناحية المسجد مستهزئين فهذا هو المراد من قوله وزادهم نفورا أى فزادهم سجودهم نفورا

❊ قوله تعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) اعلم أنه سبحانه لما حكى عن الكفار مزيد النفرة عن السجود ذكر مالو تفكروا فيه وجوب السجود والعبادة للرحمن فقال تبارك الذى جعل فى السماء بروجا اما تبارك فقد تقدم القول فيه وأما البروج فهى منازل السيارات وهى مشهورة سميت بالبروج التى هى القصور العالية لانها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها واشتقاق البروج من التبرج لظهوره وفيه قول آخر عن ابن عباس رضى الله عنهما أن البروج هى الكواكب العظام والاول أولى لقوله تعالى وجعل فيها أى فى البروج فان قيل لم لا يجوز أن يكون قوله فيها راجعا الى السماء دون البروج قلنا لان البروج أقرب فعود الضمير اليها أولى والسراج الشمس لقوله تعالى وجعل الشمس سراجا وقرئ سرجا وهى الشمس والكواكب الكبار فيها وقرأ الحسن والاعمش وقمرا منيرا وهى جمع ليلة قمراء كأنه قيل وذا قمرا منيرا لان الليالى

صنع الله تعالى ورحمته ومن لايرى الامطار الامن الانواء فهو كافر بخلاف من يرى أن الكل بخلق الله تعالى والانواء أمارات لجعله تعالى (ولوشئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا) نبيا ينذر أهلها فيخف عليك أعباء النبوة لكن لم نشأ ذلك فلم نفعله بل قصرنا الامر عليك حسبما ينطق به قوله تعالى ليكون للعالمين نذيرا اجلالا لك وتعظيما وتفضيلا لك على سائر الرسل (فلا تطع الكافرين) اى فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد فى الدعوة واظهار الحق والتشدد معهم كأنه نهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن المداراة معهم والتلطف فى الدعوة لما أنه عليه الصلاة والسلام كان يود أن يدخلوا فى الاسلام ويجتهد فى ذلك بتأليف قلوبهم أشد الاجتهاد (وجاهدهم به) اى بالقرآن بتلاوة مافى تضاعيفه من القوارع والزواجر والمواعظ وتذكير أحوال الامم المكذبة (جهادا كبيرا) فان دعوة كل العالمين على الوجه المذكور جهاد كبير لا يقادر قدره كما وكيفا وقيل الضمير المجرور لترك الطاعة المفهوم من النهى عن الطاعة وأنت خبير بأن مجرد ترك الطاعة يتحقق بلا دعوة أصلا وليس فيه شائبة الجهاد فضلا الكبير اللهم الا أن تجعل الباء للملابسة ليكون المعنى وجاهدهم بما ذكر من أحكام القرآن الكريم ملابسا بترك طاعتهم كأنه قيل فجاهدهم بالشدة والعنف لا بالملاءمة والمداراة كما فى قوله تعالى يا ايها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ

عليهم وقد جعل الضمير لما دل عليه قوله تعالى ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا من كونه عليه الصلاة والسلام نذير كافة القرى لانه لو بعث فى كل قرية نذيرا لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المجاهدات كلها فكبر من أجل ذلك جهاده وعظم فقيل له عليه الصلاة والسلام وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة القرى جهادا كبيرا جامعا لكل مجاهدة وأنت خبير بأن بيان سبب كبر المجاهدة بحسب الكمية ليس فيه مزيد فائدة فانه بين بنفسه وانما اللائق بالمقام بيان سبب كبرها وعظمها فى الكيفية (وهو الذى مرج البحرين) اى خلاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان من مرج دابته اذا خلاها (هذا عذب فرات) قامع للعطش لغاية عذوبته (وهذا ملح أجاج) بليغ الملوحة وقرئ ملح فلعل تخفيف مالح كبرد بارد (وجعل بينهما برزخا) حاجزا غير مرئى من قدرته كما فى قوله تعالى بغير عمد ترونها (وحجرا محجورا) وتنافرا مفرطا كأن كلا منهما يتعوذ من الآخر بتلك المقالة وقيل حدا محدودا وذلك كدجلة تدخل البحر وتشقه وتجرى فى خلاله فراسخ لا يتغير طعمها وقيل المراد بالبحر العذاب النهر العظيم وبالمالح البحر الكبير وبالبرزخ ما بينهما من الارض فيكون أثر القدرة فى الفصل واختلاف الصفة

تكون قراءا بالقمر فاضافه اليها ولا يبعد أن يكون القمر بمعنى القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب ❊ وأما الخلفة ففيها قولان (الاول) انها عبارة عن كون الشيئين بحيث أحدهما يخلف الآخر ويأتى خلفه يقال فلان خلفة واختلاف اذا اختلف كثيرا الى متبرزه والمعنى جعلهما ذوى خلفة أى ذوى عقبة يعقب هذا ذاك وذاك هذا قال ابن عباس رضى الله عنهما جعل كل واحد منهما يخلف صاحبه فيما يحتاج أن يعمل فيه فمن فرط فى عمل فى أحدهما قضاه فى الآخر قال أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب وقد فاتته قراءة القران بالليل يا ابن الخطاب لقد أنزل الله فيك آية وتلا وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر ما فاتك من النوافل بالليل فاقضه فى نهارك وما فاتك من النهار فاقضه فى ليلك (القول الثانى) وهو قول مجاهد وقتادة والكسائى يقال لكل شيئين اختلفا هما خلفان فقوله خلفة أى مختلفين وهذا أسود وهذا أبيض وهذا طويل وهذا قصير والقول الاول أقرب أما قوله تعالى أن يذكر فقراءة العامة بالتشديد وقراءة حمزة بالتخفيف وعن أبى بن كعب يتذكر والمعنى لينظر الناظر فى اختلافهما فيعلم انه لا بد فى انتقالهما من حال الى حال من ناقل ومغير وفى قوله أن يذكر راجع الى كل ما تقدم من النعم بين تعالى ان الذين قالوا وما الرحمن لو تفكروا فى هذه النعم وتذكروها لاستدلوا بذلك على عظيم قدرته ولشكر الشاكر على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار كما قال تعالى ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله أو ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين من فاته فى أحدهما ورد من العبادة قام به فى الآخر والشكور مصدر شكر يشكر شكورا

❊ قوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما انها ساءت مستقرا ومقاما والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) اعلم أن قوله وعباد الرحمن مبتدأ خبره فى آخر السورة كأنه قيل وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم أولئك يجزون الغرفة ويجوز أن يكون خبره الذين يمشون واعلم انه سبحانه خص اسم العبودية بالمشتغلين بالعبودية فدل ذلك على أن هذا الصفة من أشرف صفات المخلوقات وقرئ وعباد الرحمن واعلم انه سبحانه وصفهم بتسعة أنواع من الصفات (الصفة الاولى) قوله الذين يمشون على الارض هونا وهذا وصف سيرتهم بالنهار وقرئ يمشون هونا حال أو صفة للمشى بمعنى هينين أو بمعنى مشيا هينا الا ان فى وضع المصدر موضع الصفة مبالغة والهون الرفق واللين ومنه الحديث أحبب حبيبك هونا ما وقوله المؤمنون هينون لينون والمعنى أن مشيهم يكون فى لين وسكينة ووقار وتواضع ولا يضربون بأقدامهم أشرا وبطرا ولا يتبخترون لاجل الخيلاء كما قال ولا تمش فى الارض مرحا وعن زيد بن أسلم التمست تفسير هونا فلم أجد فرأيت فى النوم

❊ فقيل ❊

مع أن مقتضى طبيعة كل عنصر التضام والتلاصق والتشابه فى الكيفية (وهو الذى خلق من الماء بشرا) هو الماء الذى خمر به طينة آدم عليه السلام أوجعله جزأ من مادة البشر ليجتمع ويسلس ويستعد لقبول الاشكال والهيئات بسهولة أوهو النطفة (فجعله نسبا وصهرا) أى قسمه قسمين ذوى نسب أى ذكورا ينتسب اليهم وذوات صهر أن اناثا يصاهر بهن كقوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى (وكان ربك قديرا) مبالغا فى القدرة حيث قدر على أن يخلق من مادة واحدة بشرا ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة وجعله قسمين متقابلين وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكر وانثى (ويعبدون من دون الله) الذى شأنه ما ذكر (مالا ينفعهم ولايضرهم) أى ماليس من شانه النفع والضر أصلا وهو الاصنام أو كل مايعبد من دونه تعالى اذما من مخلوق يستقل بالنفع والضر (وكان الكافر على ربه) الذى ذكرت آثار ربوبيته (ظهيرا) يظاهر الشيطان بالعداوة والشرك والمراد بالكافر الجنس أو أبو جهل

فقيل لى هم الذين لايريدون الفساد فى الارض وعن ابن زيد لايتكبرون ولايتجبرون ولايريدون علوا فى الارض (الصفة الثانية) قوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما معناه لانجاهلكم ولاخير بيننا ولاشر أى نسلم منكم تسليما فاقيم السلام مقام التسليم ثم يحتمل أن يكون مرادهم طلب السلامة والسكوت ويحتمل أن يكون المراد التنبيه على سوء طريقتهم لكى يمتنعوا ويحتمل أن يكون مرادهم العدول عن طريق المعاملة ويحتمل أن يكون المراد اظهار الحلم فى مقابلة الجهل قال الاصم قالوا سلاما أى سلام توديع لاتحية كقول ابراهيم لابيه سلام عليك ثم قال الكلبى وأبو العالية نسختها آية القتال ولاحاجة الى ذلك لان الاغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن فى العقل والشرع وسبب لسلامة العرض والورع (الصفة الثالثة) قوله والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما (واعلم) انه تعالى لما ذكر سيرتهم فى النهار من وجهين أحدهما ترك الايذاء وهو المراد من قوله يمشون على الارض هونا والآخر تحمل التأذى وهو المراد من قوله واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما فكأنه شرح سيرتهم مع الخلق فى النهار فبين فى هذه الآية سيرتهم فى الليالى عند الاشتغال بخدمة الخالق وهو قوله تتجافى جنوبهم عن المضاجع ثم قال الزجاج كل من أدركه الليل قيل بات وان لم ينم كما يقال بات فلان قلقا ومعنى يبيتون لربهم أن يكونوا فى لياليهم مصلين ثم اختلفوا فقال بعضهم من قرأ شيأ من القرآن فى صلاة وان قل فقد بات ساجدا وقائما وقيل ركعتين بعد المغرب وأربعا بعد العشاء الاخيرة والاولى انه وصف لهم باحياء الليل أو أكثره يقال فلان يظل صائما ويبيت قائما قال الحسن يبيتون لله على أقدامهم ويفرشون له وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم خوفا من ربهم (الصفة الرابعة) قوله والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما قال ابن عباس رضى الله عنهما يقولون فى سجودهم وقيامهم هذا القول وقال الحسن خشعوا بالنهار وتعبوا بالليل فرقا من عذاب جهنم وقوله غراما أى هلاكا وخسرانا ملحا لازما ومنه الغريم لالحاحه والزامه ويقال فلان مغرم بالنساء اذا كان مولعا بهن وسأل نافع بن الازرق عن ابن عباس عن الغرام فقال هو الموجع وعن محمد بن كعب فى غراما انه سأل الكفار ثمن نعمه فما أدوها اليه فاغرمهم فادخلهم النار واعلم أنه تعالى وصفهم باحياء الليل ساجدين وقائمين ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه ايذانا بانهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون الى الله فى صرف العذاب عنهم كقوله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة اما قوله تعالى انها ساءت مستقرا ومقاما فقوله ساءت فى حكم بئست وفيها ضمير مبهم تفسيره مستقرا والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هى ومستقرا حال أو تمييز فان قيل دلت الآية على انهم سألوا الله تعالى أن يصرف عنهم عذاب جهنم لعلتين احداهما ان عذابها كان غراما وثانيهما انها ساءت مستقرا ومقاما فما الفرق بين الوجهين وأيضا فما الفرق بين المستقر والمقام قلنا المتكلمون

وقيل هينا مهينا لااعتداد به عنده تعالى من قولهم ظهرت به اذا نبذته خلف ظهرك فيكون كقوله تعالى ولا يكلمهم الله ولاينظر اليهم (وما أرسلناك الا مبشرا) للمؤمنين (ونذيرا) للكافرين (قل) لهم (ما أسألكم عليه) أى على تبليغ الرسالة الذى ينبئ عنه الارسال (من أجر) من جهتكم (الامن

ذكروا أن عقاب الكافر يجب أن يكون مضرة خالصة عن شوائب النفع دائمة فقوله ان عذابها كان غراما اشارة الى كونه مضرة خالصة عن شوائب النفع وقوله انها ساءت مستقرا ومقاما اشارة الى كونها دائمة ولا شك فى المغايرة اما الفرق بين المستقر والمقام فيحتمل أن يكون المستقر للعصاة من اهل الايمان فانهم يستقرون فى النار ولا يقيمون فيها واما الاقامة فللكفار واعلم أن قوله انها ساءت مستقرا ومقاما يمكن ان يكون من كلام الله تعالى ويمكن ان يكون حكاية لقولهم (الصفة الخامسة) قوله والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما قرئ يقتروا بكسر التاء وضمها ويقتروا بضم الياء وتخفيف القاف وكسر التاء وأيضا بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء وتشديدها وكلها لغات والقتر والاقتار والتقتير التضييق الذى هو نقيض الاسراف والاسراف مجاوزة الحد فى النفقة وذكر المفسرون فى الاسراف والتقتير وجوها (أحدها) وهو الاقوى انه تعالى وصفهم بالقصد الذى هو بين الغلو والتقصير وبمثله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وعن وهيب بن الورد قال لعالم ما البناء الذى لا سرف فيه قال ماسترك عن الشمس وأكنك من المطر فقال له فما الطعام الذى لا سرف فيه قال ما سد الجوعة فقال له فما فى اللباس قال ماستر عورتك ووقاك من البرد وروى أن رجلا صنع طعاما فى املاك فأرسل الى الرسول عليه السلام فقال حق فاجيبوا ثم صنع الثانية فأرسل اليه فقال حق فمن شاء فليجب والا فليقعد ثم صنع الثالثة فأرسل اليه فقال رياء ولا خير فيه (وثانيها) وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك ان الاسراف الانفاق فى معصية الله تعالى والاقتار منع حق الله تعالى قال مجاهد لو انفق رجل مثل أبى قبيس ذهبا فى طاعة الله تعالى لم يكن سرفا ولو انفق صاعا فى معصية الله تعالى كان سرفا وقال الحسن لم ينفقوا فى معاصى الله ولم يمسكوا عما ينبغى وذلك قد يكون فى الامساك عن حق الله وهو أقبح التقتير وقد يكون عما لا يجب ولكن يكون مندوبا مثل الرجل الغنى الكثير المال اذا منع الفقراء من اقاربه (وثالثها) المراد بالسرف مجاوزة الحد فى التنعم والتوسع فى الدنيا وان كان من حلال فان ذلك مكروه لانه يؤدى الى الخيلاء والاقتار هو التضييق فالاكل فوق الشبع بحيث يمنع النفس عن العبادة سرف وان أكل بقدر الحاجة فذلك ليس باقتار وهذه الصفة صفة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبا للجمال والزينة ولكن كانوا يأكلون ما يسد جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم ويلبسون ما يستر عوراتهم ويصونهم من الحر والبرد وههنا مسئلتان (المسئلة الاولى) القوام قال ثعلب القوام بالفتح العدل والاستقامة وبالكسر ما يدوم عليه الامر ويستقر قال صاحب الكشاف القوام العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالهما ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء وقرئ قواما

واظهار الغاية الشفقة عليهم حيث جعل ذلك مع كون نفعه عائدا اليهم عائدا اليه عليه الصلاة والسلام وقيل الاستثناء منقطع أى لكن من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا فليفعل (وتوكل على الحى الذى لا يموت) فى الاستكفاء عن شرورهم والاغناء عن أجورهم فانه الحقيق بان يتوكل عليه دون الاحياء الذين من شأنهم الموت فانهم اذا ماتوا ضاع من توكل عليهم (وسبح بحمده) ونزهه عن صفات النقصان مثنيا عليه بنعوت الكمال طالبا لمزيد الانعام بالشكر على سوابغه (وكفى به بذنوب عباده) ما ظهر منها وما بطن (خبيرا) اى مطلعا عليها بحيث لا يخفى عليه شئ منها فيجزيهم جزاء وافيا (الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) قد سلف تفسيره ومحل الموصول الجر على أنه صفة أخرى
للحى وصف بالصفة الفعلية بعد وصفه بالابدية التى هى من الصفات الذاتية والاشارة الى اتصافه ﴿ بالكسر ﴾
بالعلم الشامل لتقرير وجوب التوكل عليه تعالى وتاكيده فان من أنشأ هذه الاجرام العظام على هذا النمط الفائق
والنسق الرائق بتدبير متين وترتيب رصين فى أوقات معينة مع كمال قدرته على ابداعها دفعة لحكم

بالكسر وهو ما يقام به الشيء يقال انت قوامنا يعني ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص (المسئلة الثانية) المنصوب بأعني بين ذلك قواما جائزان يكونا خبرين معا وان يجعل بين ذلك لغوا وقواما مستقرا وان يكون الظرف خبرا وقواما الا موئكدة قال الفراء وان شئت جعلت بين ذلك اسم كان كما تقول كان دون هذا كافيا يريد أقل من ذلك فيكون معنى بين ذلك أي كان الوسط من ذلك قواما أي عدلا وهذا التأويل ضعيف لان القوام هو الوسط فيصير التأويل وكان الوسط وسطا وهذا لغو * (الصفة السادسة) قوله تعالى (والذين لا يدعون مع الله الهاآخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا) اعلم انه سبحانه وتعالى ذكر ان من صفة عباد الرحمن الاحتراز عن الشرك والقتل والزنا ثم ذكر بعد ذلك حكم من يفعل هذه الاشياء من العقاب ثم استثنى من جملتهم التائب وههنا سؤالات (السؤال الاول) انه تعالى قبل ذكر هذه الصفة نزه عباد الرحمن عن الامور الخفيفة فكيف يليق بعد ذلك أن يطهرهم عن الامور العظيمة مثل الشرك والقتل والزنا أليس انه لو كان الترتيب بالعكس منه كان أولى (الجواب) ان الموصوف بتلك الصفات السالفة قد يكون متمسكا بالشرك تدينا ومقدما على قتل الموؤدة تدينا وعلى الزنا تدينا فبين تعالى أن المرء لا يصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن حتى يضاف الى ذلك كونه مجانبا لهذه الكبائر واجاب الحسن رحمه الله من وجه آخر فقال المقصود من ذلك التنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار كانه قال وعباد الرحمن هم الذين لا يدعون مع الله الها آخر وأنتم تدعون ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق وانتم تقتلون الموؤدة ولا يزنون وانتم تزنون (السؤال الثاني) ما معنى قوله ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ومعلوم ان من يحل قتله لا يدخل في النفس المحرمة فكيف يصح هذا الاستثناء (الجواب) المقتضى لحرمة القتل قائم أبدا وجواز القتل انما ثبت بالمعارض فقوله حرم الله اشارة الى المقتضى وقوله الا بالحق اشارة الى المعارض (السؤال الثالث) بأي سبب يحل القتل (الجواب) بالردة وبالزنا بعد الاحصان وبالقتل قودا على ما في الحديث وقيل وبالمحاربة وبالبينة وان لم يكن لما شهدت به حقيقة (السؤال الرابع) منهم من فسر قوله ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق بالردة فهل يصح ذلك (الجواب) لفظ القتل عام فيتناول الكل وعن ابن مسعود قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أي قال ان تقتل ولدك خشية ان يأكل معك قلت ثم أي قال ان تزني بحليلة جارك فأنزل الله تصديقه (السؤال الخامس) ما الاثام الجواب فيه وجوه أحدها أن الاثام جزاء الاثم بوزن الوبال والنكال وثانيها وهو قول ابي مسلم ان الاثام والاثم واحد والمراد ههنا جزاء الاثام

جليلة وغايات جميلة لا تقف على تفاصيلها العقول أحق من يتوكل عليه وأولى من يفوض الامر اليه (الرحمن) مرفوع على المدح هو الرحمن وهو في الحقيقة وصف آخر للحي كما قرئ بالجر مفيد زيادة تأكيد ما ذكر من وجوب التوكل عليه تعالى وان لم يتبعه في الاعراب لما تقرر من أن المنصوب والمرفوع مدحا وان خرجا عن التبعية لما قبلهما صورة حيث لم يتبعاه في الاعراب وبذلك سميا قطعا لكنهما تابعان له حقيقة ألا يرى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدأ في النصب والرفع روما لتصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات ما قبله وتنبيها على شدة الاتصال بينهما وقد مر تمام التحقيق في تفسير قوله عز وجل الذين يؤمنون بالغيب الآية وقيل الموصول مبتدأ والرحمن خبره وقيل الرحمن بدل من المستكن في استوى (فاسئل به) أي بتأصيل ما ذكر اجمالا من الخلق والاستواء لا بنفسهما فقط اذ بعد بيانهما لا يبقى الى السؤال حاجة ولا في تعديته بالباء فائدة فانها مبنية على تضمينه معنى الاعتناء المستدعي لكون المسئول أمرا خطيرا مهما بشانه غير حاصل للسائل وظاهر أن نفس الخلق والاستواء بعد الذكر ليس كذلك وما قيل من أن التقدير ان شككت فيه فاسئل به خبيرا على أن الخطاب له عليه الصلاة والسلام والمراد غيره بمعزل من السداد بل التقدير ان شئت تحقيق ما ذكر أو تفصيل ما ذكر فاسئل معتنيا به (خبيرا) عظيم الشان محيطا بظواهر الامور

دأطلق اسم الشيء على اجزائه وثالثها قال الحسن الاثام اسم من أسماء جهنم وقال مجاهد أثاما واد فى جهنم وقرأ ابن مسعود أثاما اى شديدا يقال يوم ذو أثام لليوم العصيب أما قوله يضاعف له العذاب يوم القيامة و تخلد فيه مهانا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) يضاعف بدل من يلق لانهما فى معنى واحد وقرئ يضعف ونضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب وقرئ بالرفع على الاستيناف أو على الحال وكذلك يخلد و يخلد على البناء للمفعول مخففا ومثقلا من الاخلاد والتخليد وقرئ وتخلد بالتاء على الالتفات (المسئلة الثانية) سبب تضعيف العذاب أن المشرك اذا ارتكب المعاصى مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصى جميعا فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه وهذا يدل على ان الكفار مخاطبون بفروع الشرائع (المسئلة الثالثة) قال القاضى بين الله تعالى ان المضاعفة والزيادة يكون حالهما فى الدوام كحال الاصل فقوله و يخلد فيه أى ويخلد فى ذلك التضعيف ثم ان ذلك التضعيف انما حصل بسبب العقاب على المعاصى فوجب ان يكون عقاب هذه المعاصى فى حق الكافر دائما واذا كان كذلك وجب أن يكون فى حق المؤمن كذلك لان حاله فيما يستحق به لا تتغير سواء فعل مع غيره او منفردا والجواب لم لا يجوز أن يكون للاتيان بالشيء مع غيره أثر فى مزيد القبح الاترى أن الشيئين قد يكون كل واحد منهما فى نفسه حسنا وان كان الجمع بينهما قبيحا وقد يكون كل واحد منهما قبيحا و يكون الجمع بينهما اقبح فكذا ههنا (المسئلة الرابعة) قوله و يخلد فيه مهانا اشارة الى ما ثبت أن العقاب هو المضرة الخالصة المقرونة بالاذلال والاهانة كما ان الثواب هو المنفعة الخالصة المقرونة بالتعظيم أما قوله تعالى الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ففيه مسائل (المسئلة الاولى) دلت الآية على أن التوبة مقبولة والاستثناء لا يدل على ذلك لانه اثبت انه يضاعف له العذاب ضعفين فيكفى لصحة هذا الاستثناء أن لا يضاعف للتائب العذاب ضعفين وانما الدال عليه قوله فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات (المسئلة الثانية) نقل عن ابن عباس انه قال توبة القاتل غير مقبولة وزعم ان هذه الآية منسوخة بقوله تعالى ومن يقتل مؤمنا متعمدا وقالوا نزلت الغليظة بعد اللينة بمدة يسيرة وعن الضحاك ومقاتل بثمان سنين وقد تقدم الكلام فى ذلك فى سورة النساء (المسئلة الثالثة) فان قيل العمل الصالح يدخل فيه التوبة والايمان فكان ذكرهما قبل ذكر العمل الصالح حشوا قلنا افردهما بالذكر لعلو شأنهما ولما كان لابد معهما من سائر الاعمال لاجرم ذكر عقيبهما العمل الصالح (المسئلة الرابعة) اختلفوا فى المراد بقوله فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات على وجوه (أحدها) قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة ان التبديل انما يكون فى الدنيا فيبدل الله تعالى قبائح أعمالهم فى الشرك بمحاسن الاعمال فى الاسلام فيبدلهم بالشرك ايمانا و بقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنا عفة واحصانا فكانه تعالى

و بواطنها وهو الله سبحانه يطلعك على جلية الامر وقيل فاسئل به من وجده فى الكتب المتقدمة ليصدقك فيه فلا حاجة حينئذ الى ما ذكرنا وقيل الضمير للرحمن والمعنى ان أنكروا ﴿ ٥٠٠ ﴾ اطلاقه على الله تعالى فاسئل عنه من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجيء ما يرادفه فى كتبهم وعلى هذا يجوز أن يكون الرحمن مبتدأ وما بعده خبرا وقرئ فسل (واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) قالوه لما أنهم ما كانوا يطلقونه على الله تعالى أو لانهم ظنوا أن المراد به غيره تعالى ولذلك قالوا (أنسجد لما تأمرنا) أى للذى تأمرنا بسجوده أو لامرك ايانا من غير أن نعرف أن المسجود ماذا وقيل لانه كان معربا لم يسمعوه وقرئ يأمرنا بياء الغيبة على أنه قول بعضهم لبعض (وزادهم) أى الامر بسجود الرحمن (نفورا) عن الايمان (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا) هى البروج الاثنا عشر سميت به وهى القصور العالية لانها للكواكب السيارة كالمنازل الرفيعة لسكانها واشتقاقه من البرج لظهوره (وجعل فيها سراجا) هى الشمس لقوله تعالى وجعل الشمس سراجا وقرئ سرجا وهى الشمس والكواكب الكبار (وقمرا منيرا) مضيئا بالليل وقرئ قمرا أى ذا قمر وهى جمع قمراء ولما أن الليالى بالقمر تكون قمراء ﴿ يبشرهم ﴾ أضيف اليها ثم حذف وأجرى حكمه على المضاف اليه القائم مقامه كما فى قول حسان رضى الله عنه * بردى يصفق بالرحيق السلسل *

يبشرهم بانه يوفقهم لهذه الاعمال الصالحة فيستوجبوا بها الثواب (وثانيها) قال الزجاج السيئة بعينها لاتصير حسنة ولكن التأويل أن السيئة تمحى بالتوبة وتكتب الحسنة مع التوبة والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيئات (وثالثها) قال قوم ان الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه الآية وهذا قول سعيد بن المسيب ومكحول ويحتجون بماروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ليتمنين اقوام أنهم أكثروا من السيئات قيل من هم يارسول الله قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات وعلى هذا القول التبديل فى الآخرة (ورابعها) قال القفال والقاضى انه تعالى يبدل العقاب بالثواب فذكرهما واراد مايستحق بهما واذا حمل على ذلك كانت الاضافة الى الله حقيقة لان الاثابة لاتكون الامن الله تعالى اماقوله تعالى ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا ففيه سؤالان (السؤال الاول) مافائدة هذا التكرير الجواب من وجهين (الاول) أن هذا ليس بتكرير لان الاول لماكان فى تلك الخصال بين تعالى أن جميع الذنوب بمنزلتها فى صحة التوبة منها (الثانى) ان التوبة الاولى رجوع عن الشرك والمعاصى والتوبة الثانية رجوع الى الله تعالى للجزاء والمكافأة كقوله تعالى عليه توكلت واليه متاب اى مرجعى (السؤال الثانى) هل تكون التوبة الاالى الله تعالى فمافائدة قوله فانه يتوب الى الله متابا (الجواب) من وجوه (الاول) ماتقدم من أن التوبة الاولى الرجوع عن المعصية والثانية الرجوع الى حكم الله تعالى وثوابه (الثانى) معناه ان من تاب الى الله فقد أتى بتوبة مرضية لله مكفرة للذنوب محصلة للثواب العظيم (الثالث) قوله ومن تاب يرجع الى الماضى فانه سبحانه ذكر ان من أتى بهذه التوبة فى الماضى على سبيل الاخلاص فقد وعده بانه سيوفقه للتوبة فى المستقبل وهذا من أعظم البشارات * (الصفة السابعه) قوله تعالى (والذين لايشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الزور يحتمل اقامة الشهادة الباطلة ويكون المعنى انهم لايشهدون شهادة الزور فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه ويحتمل حضور مواضع الكذب كقوله تعالى فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ويحتمل حضور كل موضع يجرى فيه مالاينبغى ويدخل فيه اعياد المشركين ومجامع الفساق لان من خالط أهل الشر ونظر الى افعالهم وحضر مجامعهم فقد شاركهم فى تلك المعصية لان الحضور والنظر دليل الرضا به بل هو سبب لوجوده والزيادة فيه لان الذى حملهم على فعله استحسان النظارة ورغبتهم فى النظر اليه وقال ابن عباس رضى الله عنهما المراد مجالس الزور التى يقولون فيها الزور على الله تعالى وعلى رسوله وقال محمد بن الحنفية الزور الغناء واعلم أن كل هذه الوجوه محتملة ولكن استعماله فى الكذب أكثر (المسئلة الثانية) الاصح أن اللغو كل مايجب أن يلغى ويترك ومنهم من فسر اللغو بكل ماليس بطاعة هوضعيف لان المباحات لاتعد لغوا فقوله واذا مروا باللغو

أى ماء بردى ويحتمل أن يكون بمعنى القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة) أى ذوى خلفة يخلف كل منهما الآخر بان يقوم مقامه فيماينبغى أن يعمل فيه أو بأن يعتقبا كقوله تعالى واختلاف الليل والنهار وهى اسم للحالة من خلف كالركبة والجلسة من ركب وجلس (لمن أراد أن يذكر) أى يتذكر آلاء الله عزوجل ويتفكر فى بدائع صنعه فيعلم أنه لابدلها من صانع حكيم واجب الذات رحيم للعباد (أو اراد شكورا) أى أن يشكر الله تعالى على مافيهما من النعم أوليكون وقتين للذاكرين من فاته ورده فى أحدهما تداركه فى الآخر وقرئ أن يذكر من ذكر بمعنى تذكر (وعباد الرحمن) كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف خلص عباد الرحمن وأحوالهم الدنيوية والاخروية بعد بيان حال النافرين عن عبادته والسجود له والاضافة للتشريف وهو مبتدأ خبره مابعده من الموصول وماعطف عليه وقيل هو مافى اخر السورة الكريمة من الجملة المصدرة باسم الاشارة وقرئ عباد الرحمن اى عباده المقبولون (الذين يمشون على الارض هونا) أى بسكينة وتواضع وهونا مصدر وصف به ونصبه اما على أنه حال من فاعل يمشون أو على أنه نعت لمصدره أى يمشون هينين لينى الجانب من غير فظاظة أو مشيا هينا وقوله تعالى (واذا خاطبهم الجاهلون) أى السفهاء كما فى قول من قال

ألا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا * (قالوا سلاما) بيان لحالهم فى المعاملة مع غيرهم اثر
بيان حالهم فى أنفسهم أى اذا خاطبوهم بالسوء قالوا تسليما منكم ومتاركة لا خير بيننا وبينكم

أى باهل اللغو (المسئلة الثالثة) لا شبهة فى أن قوله مروا كراما معناه انهم يكرمون
انفسهم عن مثل حال اللغو واكرامهم لها لا يكون الا بالاعراض وبالانكار وبترك المعاونة
والمساعدة ويدخل فيه الشرك واللغو فى القرآن وشتم الرسول والخوض فيما لا ينبغى
وأصل الكلمة من قولهم ناقة كريمة اذا كانت تعرض عند الحلب تكرما كانها لا تبالى بما
يحلب منها للغزارة فاستعير ذلك للصفح عن الذنب وقال الليث يقال تكرم فلان عما يشينه
اذا تنزه واكرم نفسه عنها ونظير هذه الآية قوله واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا
أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين وعن الحسن لم تسفههم المعاصى
وقيل اذا سمعوا من الكفار الشتم والاذى أعرضوا وقيل اذا ذكر النكاح كنوا عنه
* (الصفة الثامنة) قوله تعالى (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا)
قال صاحب الكشاف قوله لم يخروا عليها صما وعميانا ليس بنفى للخرور وانما هو اثبات له
ونفى للصمم والعمى كما يقال لا يلقانى زيد مسلما هو نفى للسلام لا للقاء والمعنى انهم اذا ذكروا
بها أكبوا عليها حرصا على استماعها وأقبلوا على المذكر بها وهم فى اكبابهم عليها سامعون
بآذان واعية مبصرون بعيون راعية لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها
مقبلين على من يذكر بها مظهرين الحرص الشديد على استماعها وهم كالصم والعميان
حيث لا يفهمونها ولا يبصرون ما فيها كالمنافقين * (الصفة التاسعة) قوله تعالى
(والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذريتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما) وفيه
مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم ذرياتنا بالالف
على الجمع وحذفها الباقون على التوحيد والذرية تكون واحدا وجمعا (المسئلة الثانية)
انه لا شبهة أن المراد أن يكون قرة أعين لهم فى الدين لا فى الامور الدنيوية من المال والجمال
ثم ذكروا فيه وجهين أحدهما انهم سألوا أزواجا وذرية فى الدنيا يشاركونهم فاحبوا أن
يكونوا معهم فى التمسك بطاعة الله تعالى فيقوى طمعهم فى أن يحصلوا معهم فى الجنة
فيتكامل سرورهم فى الدنيا بهذا الطمع وفى الآخرة عند حصول الثواب والثانى أنهم
سألوا أن يلحق الله أزواجهم وذريتهم بهم فى الجنة ليتم سرورهم بهم (المسئلة الثالثة)
فان قيل من فى قوله من أزواجنا ما هى قلنا يحتمل أن يكون بيانية كانه قيل هب لنا قرة
أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله من أزواجنا وهو من قولهم رأيت منك أسدا أى أنت
أسد وأن تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح
فان قيل لم قال قرة أعين فنكر وقلل قلنا أما التنكير فلاجل تنكير القرة لان المضاف
لا سبيل الى تنكيره الا بتنكير المضاف اليه كأنه قال هب لنا منهم سرورا وفرحا وانما قال
أعين دون عيون لانه أراد أعين المتقين وهى قليلة بالاضافة الى عيون غيرهم قال تعالى
وقليل من عبادى الشكور (المسئلة الرابعة) قال الزجاج اقر الله عينك أى صادف فؤادك
ما يحبه وقال المفضل فى قرة العين ثلاثة أقوال أحدها برد دمعتها وهى التى تكون مع

ولا شر وقيل سدادا من القول يسلمون به من الاذية والاثم وليس فيه تعرض لمعاملتهم مع الكفرة حتى يقال نسختها آية القتال كما نقل عن أبى العالية وقوله تعالى (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) بيان لحالهم فى معاملتهم مع ربهم أى يكونوا ساجدين لربهم وقائمين اى يحيون الليل كلا أو بعضا بالصلاة وقيل من قرأ شيا من القرآن فى صلاة وان قل فقد بات ساجدا وقائما وقيل هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء وتقديم السجود على القيام لرعاية الفواصل * (والذين يقولون) أى فى اعقاب صلواتهم اوفى عامة اوقاتهم (ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما) اى شرا دائما وهلاكا لازما وفيه مزيد مدح لهم ببيان انهم مع حسن معاملتهم مع الخلق واجتهادهم فى عبادة الحق يخافون العذاب ويبتهلون الى الله تعالى
فى صرفه عنهم غير محتفلين باعمالهم كقوله تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم
الى ربهم راجعون (انها ساءت مستقرا ومقاما) تعليل لاستدعائهم المذكور بسوء حالها فى نفسها اثر تعليله بسوء
حال عذابها وقد جوز أن يكون تعليلا للاولى وليس بذاك وساءت فى حكم بئست وفيها ضمير مبهم يفسره مستقرا

والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاماهى وهذا الضمير هو الذى ربط الجملة باسم ان وجعلها خبرا لها قيل و يجوز أن يكون ساءت بمعنى أحزنت وفيها ضمير اسم ان ومستقرا حال اوتمييز وهو بعيد خال عما فى الاول من المبالغة فى بيان سوء حالها * ٥٠٣ * وكذا جعل التعليلين من جهته تعالى (والذين اذا انفقوا

الضحك والسرور ودمعة الحزن حارة والثانى نومها لانه يكون مع ذهاب الحزن والوجع والثالث حصول الرضا (المسئلة الخامسة) قوله واجعلنا للمتقين اماما الاقرب انهم سألوا الله تعالى أن يبلغهم فى الطاعة المبلغ الذى يشار اليهم و يقتدى بهم قال بعضهم فى الآية مايدل على الرياسة فى الدين يجب أن تطلب و يرغب فيها قال الخليل عليه الصلاة والسلام واجعل لى لسان صدق فى الآخرين وقيل نزلت هذه الآيات فى العشرة المبشرين بالجنة (المسئلة السادسة) احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى قالوا لان الامامة فى الدين لاتكون الابالعلم والعمل فدل على أن العلم والعمل انما يكون بجعل الله تعالى وخلقه وقال القاضى المراد من السؤال الالطاف التى اذا كثرت صاروا مختارين لهذه الاشياء فيصيرون أئمة والجواب أن تلك الالطاف مفعولة لامحالة فيكون سؤالها عبثا (المسئلة السابعة) قال الفراء قال اماما ولم يقل أئمة كما قال للاثنين انا رسول رب العالمين و يجوز ان يكون المعنى اجعل كل واحد منا اماما كما قال يخرجكم طفلا وقال الاخفش الامام جمع واحده آم كصائم وصيام وقال القفال وعندى الامام اذا ذهب به مذهب الاسم وحد كانه قيل اجعلنا حجة للمتقين ومثله البينة يقال هؤلاء بينة فلان واعلم انه سبحانه وتعالى لما عدد صفات المتقين المخلصين بين بعد ذلك انواع احسانه اليهم وهى مجموعة فى أمرين المنافع والتعظيم * (اما المنافع) فهى قوله (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا) والمراد أولئك يجزون الغرفات والدليل عليه قوله وهم فى الغرفات آمنون وقال لهم غرف من فوقها غرف والغرفة فى اللغة العلية وكل بناء عال فهو غرفة والمراد به الدرجات العالية وقال المفسرون الغرفة اسم الجنة فالمعنى يجزون الجنة وهى جنات كثيرة وقرأ بعضهم أولئك يجزون فى الغرفة وقوله بما صبروا فيه بحثان (البحث الاول) احتج بالآية من ذهب الى ان الجنة بالاستحقاق فقال الباء فى قوله بما صبروا تدل على ذلك ولو كان حصولها بالوعد لما صدق ذلك (البحث الثانى) ذكر الصبر ولم يذكر المصبور عنه ليعم كل نوع فيدخل فيه صبرهم على مشاق الفكر والاستدلال فى معرفة الله تعالى وعلى مشاق الطاعات وعلى مشاق ترك الشهوات وعلى مشاق اذى المشركين وعلى مشاق الجهاد والفقر ورياضة النفس فلاوجه لقول من يقول المراد الصبر على الفقر خاصة لان هذه الصفات اذا حصلت مع الغنى استحق من يختص بها الجنة كما يستحقه بالفقر (وثانيهما التعظيم) وهو قوله تعالى (و يلقون فيها تحية وسلاما) قرئ يلقون كقوله ولقاهم نضرة وسرورا يلقون كقوله يلق اثاما والتحية الدعاء بالتعمير والسلام الدعاء بالسلامة فيرجع حاصل التحية الى كون نعيم الجنة باقيا غير منقطع و يرجع السلام الى كون ذلك النعيم خالصا عن شوائب الضرر ثم هذه التحية والسلام يمكن أن يكون من الله تعالى لقوله سلام قولا من رب رحيم ويمكن أن يكون من الملائكة لقوله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم و يمكن أن يكون من بعضهم على بعض * أما قوله (خالدين فيها حسنت

لم يسرفوا) لم يجاوزوا حد الكرم (ولم يقتروا) ولم يضيقوا تضييق الشحيح وقيل الاسراف هو الانفاق فى المعاصى والقتر منع الواجبات والقرب وقرئ بكسر التاء مع فتح الياء و بكسرها مخففة ومشددة مع ضم الياء (وكان بين ذلك) اى بين ما ذكر من الاسراف و القتر (قواما) وسطا وعدلا سمى به لاستقامة الطرفين كما سمى به سواء لاستوائهما وقرئ بالكسر وهو ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص وهو خبر ثان اوحال مؤكدة اوهو الخبر و بين ذلك لغو وقد جوز ان يكون اسم كان على انه مبنى لاضافته الى غير متمكن ولا يخفى ضعفه فانه بمعنى الوام فيكون كالاخبار بشئ عن نفسه (والذين لايدعون مع الله الها آخر) شروع فى بيان اجتنابهم عن المعاصى بعد بيان اتيانهم بالطاعات وذكر نفى الاسراف والقتر تحقيق

معنى الاقتصاد والتصريح بوصفهم بنفى الاشراك مع ظهور ايمانهم لاظهار كمال الاعتناء بالتوحيد والاخلاص وتهويل امر القتل والزنا بنظمهما فى سلكه وللتعرض بما كان عليه الكفرة من قريش وغيرهم أى لا يعبدون معه

تعالى الها آخر (ولا يقتلون النفس التي حرم الله) أي حرمها بمعنى حرم قتلها فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه مبالغة في التحريم (الا بالحق) أي لا يقتلونها بسبب من الاسباب الا بسبب الحق المزيل منها وعصمتها اولا يقتلون قتلاما الا قتلا ملتبسا بالحق أو لا يقتلونها في حال من الاحوال الا حال كونهم ملتبسين بالحق (ولا يزنون) أي الذين لا يفعلون شيئا من هذه العظائم القبيحة التي جمعهن الكفرة حيث كانوا مع اشراكهم به سبحانه مداومين على قتل النفوس المحرمة التي من جملتها الموؤدة مكبين على الزنا لا يرعوون عنه اصلا (ومن يفعل ذلك) أي ما ذكر كما هو دأب الكفرة المذكورين (يلق) في الآخرة وقرئ يلقى وقرئ يلق بالتشديد مجزوما (أثاما) وهو جزاء الاثم كالوبال والنكال وزنا ومعنى وقيل هو الاثم أي يلق جزاء الاثم والتنوين على التقديرين للتفخيم وقرئ أياما أي شدائد يقال يوم ذو أيام لليوم الصعب (يضاعف له العذاب يوم القيامة) بدل من يلق لاتحادهما في المعنى كقوله * متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا * تجد حطبا جزلا ونارا تأججا * وقرئ بالرفع على الاستئناف أو على الحالية وكذا ما عطف عليه وقرئ يضعف وتضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب (ويخلد فيه) أي في ذلك العذاب المضاعف (مهانا) ذليلا ﴿ السماء ﴾ مستحقرا جامعا للعذاب الجسماني والروحاني وقرئ يخلد و يخلد مبنيا للمفعول من الاخلاد والتخليد وقرئ تخلد بالتاء على الالتفات المنبئ عن شدة الغضب

مستقرا ومقاما) فالمراد انه سبحانه لما وعد بالمنافع أولا وبالتعظيم ثانيا بين أن من صفتهما الدوام وهو المراد من قوله خالدين فيها ومن صفتهما الخلوص أيضا وهو المراد من قوله حسنت مستقرا ومقاما وهذا في مقابلة قوله ساءت مستقرا ومقاما أي ما أسوأ ذاك وما أحسن هذا * اما قوله (قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما) فاعلم انه سبحانه لما شرح صفات المتقين وشرح حال ثوابهم أمر رسوله أن يقول قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم فدل بذلك على انه تعالى غني عن عباداتهم وأنه تعالى انما كلفهم لينتفعوا بطاعتهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الخليل ما أعبأ بفلان أي ما أصنع به كأنه يستقله ويستحقره وقال أبو عبيدة ما أعبأ به أي وجوده وعدمه عندي سواء وقال الزجاج معناه أي لا وزن لكم عند ربكم والعبء في اللغة الثقل وقال أبو عمرو بن العلاء ما يبالي بكم ربي (المسئلة الثانية) في ما قولان أحدهما أنها متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر كأنه قيل وأي عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم والثاني ان تكون ما نافية (المسئلة الثالثة) ذكروا في قوله لولا دعاؤكم وجهين أحدهما لولا دعاؤه اياكم الى الدين اراد الطاعة والدعاء على هذا مصدر مضاف الى المفعول وثانيهما أن الدعاء مضاف الى الفاعل وعلى هذا التقدير ذكروا فيه وجوها أحدها لولا دعاؤكم لولا ايمانكم وثانيها لولا عبادتكم وثالثها لولا دعاؤكم اياه في الشدائد كقوله فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله ورابعها دعاؤكم يعني لولا شكركم له على احسانه لقوله ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وخامسها ما خلقتكم وبي اليكم حاجة الا أن تسألوني فأعطيكم وتستغفروني فأغفر لكم أما قوله فقد كذبتم فالمعنى اني اذا أعلمتكم أن حكمي أني لا اعتد بعبادي الا لعبادتهم فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم وهو عقاب الآخرة ونظيره ان يقول الملك لمن استعصى عليه ان من عادتي أن أحسن الى من يطيعني وقد عصيت فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك فان قيل الى من يتوجه هذا الخطاب قلنا الى الناس على الاطلاق ومنهم عابدون ومكذبون عاصون فخوطبوا بما وجد في جنسهم من العبادة والتكذيب وقرئ فقد كذب الكافرون فسوف يكون العذاب لزاما وقرئ لزاما بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت والوجه ان ترك اسم كان غير منطوق به بعد ما علم أنه مما توعد به لأجل الابهام وتناول ما لا يحيط به الوصف ثم قيل هذا العذاب في الآخرة وقيل كان يوم بدر وهو قول مجاهد رحمه الله والله أعلم * تم تفسير هذه السورة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الامي وآله وصحبه أجمعين

* (سورة الشعراء مكية الا أربع آيات فانها مدنية وهي والشعراء يتبعهم الغاوون الى آخرها وهي مائتان اوست اوسبع وعشرون آية) *

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسم تلك آيات الكتاب المبين لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ان نشأ ننزل عليهم من

السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) الطاء اشارة الى طرب قلوب العارفين والسين سرور المحبين والميم مناجاة المريدين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ قتادة باخع نفسك على الاضافة وقرئ فظلت أعناقهم لها خاضعة (المسئلة الثانية) البخع ان يبلغ بالذبح البخاع وهو الخرم النافذ في ثقب الفقرات وذلك أقصى حد الذبح ولعل للاشفاق (المسئلة الثالثة) قوله طسم تلك آيات الكتاب المبين معناه آيات هذه السورة تلك آيات الكتاب المبين وتمام تقريره مامر في قوله تعالى ذلك الكتاب ولا شبهة في أن المراد بالكتاب هو القرآن والمبين وان كان في الحقيقة هو المتكلم فقد يضاف الى الكلام من حيث يتبين به عند النظر فيه فان قيل القوم لما كانوا كفارا فكيف تكون آيات القرآن مبينة لهم ما يلزمهم وانما يتبين بذلك الاحكام قلنا ألفاظ القرآن من حيث تعذر عليهم أن يأتوا بمثله يمكن أن يستدل به على فاعل مخالف لهم كما يستدل بسائر مالا يقدر العباد على مثله فهو دليل التوحيد من هذا الوجه ودليل النبوة من حيث الاعجاز ويعلم به بعد ذلك انه اذا كان من عند الله تعالى فهو دلالة الاحكام أجمع واذا ثبت هذا صارت آيات القرآن كافية في كل الاصول والفروع اجمع ولما ذكر الله تعالى انه بين الامور قال بعده لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين منبها بذلك على أن الكتاب وان بلغ في البيان كل غاية فغير مدخل لهم في الايمان لما انه سبق حكم الله بخلافه فلا تبالغ في الحزن والاسف على ذلك لانك ان بالغت فيه كنت بمنزلة من يقتل نفسه ثم لا ينتفع بذلك أصلا فصبره وعزاه وعرفه ان غمه وحزنه لا نفع فيه كما ان وجود الكتاب على بيانه ووضوحه لا نفع لهم فيه ثم بين تعالى انه قادر على أن ينزل آية يذلون عندها ويخضعون فان قيل كيف صح مجيء خاضعين خبرا عن الاعناق قلنا أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فذكرت الاعناق لبيان موضع الخضوع ثم ترك الكلام على أصله ولما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل خاضعين كقوله لي ساجدين وقيل أعناق الناس رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالاعناق كما يقال هم الرؤس والصدور وقيل هم جماعات الناس يقال جاءنا عنق من الناس لفوج منهم (المسئلة الرابعة) نظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الكهف فلعلك باخع نفسك وقوله فلا تذهب نفسك عليهم حسرات * قوله تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا فسيأتيهم انباء ما كانوا به يستهزؤن أولم يروا الى الارض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين من تمام قوله ان نشأ ننزل عليهم فنبه تعالى على انه مع قدرته على أن يجعلهم مؤمنين بالالجاء رحيم بهم من حيث يأتيهم حالا بعد حال بالقرآن وهو الذكر ويكرره عليه وهم مع ذلك على حد واحد في الاعراض والاستهزاء ثم عند ذلك زجر وتوعد لان المرء اذا استمر على كفره فليس ينفع فيه الا الزجر الشديد فلذلك قال فقد كذبوا أي

ومضاعفة العذاب لانضمام المعاصي الى الكفر كما يفصح عنه قوله تعالى (الامن تاب وآمن وعمل عملا صالحا) وذكر الموصوف مع جريان الصالح والصالحات مجرى الاسم

للاعتناء به والتنصيص على مغايرته للاعمال السابقة (فاولئك) اشارة الى الموصول والجمع باعتبار معناه كما أن الافراد في الافعال الثلاثة باعتبار لفظه أي أولئك الموصوفون بالتوبة والايمان والعمل الصالح (يبدل الله سيئاتهم حسنات) بان يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعاتهم أو يبدل ملكة المعصية ودواعيها في النفس ملكة الطاعة بان يزيل الاولى ويأتي بالثانية وقيل بان يوفقه لاضداد ما سلف منه أو بان يثبت له بدل كل عقاب ثوابا وقيل يبدلهم بالشرك ايمانا وبقتل المسلمين قتل المشركين وبالزنا عفة واحصانا (وكان الله غفورا رحيما) اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من المحو والاثبات (ومن تاب) أي عن المعاصي بتركها بالكلية والندم عليها (وعمل صالحا) يتلافى به ما فرط منه أو خرج عن المعاصي ودخل في الطاعات (فانه) بما فعل (يتوب الى الله) أي يرجع اليه

تعالى (متابا) أي عظيم الشأن مرضيا عنده تعالى ماحيا للعقاب محصلا للثواب أو يتوب متابا الى الله تعالى الذي يحب التوابين ويحسن اليهم أو فانه يرجع اليه تعالى ثوابه مرجعا حسنا وهذا تعميم بعد تخصيص (والذين لا يشهدون الزور) لا يقيمون

الشهادة الكاذبة أو لا يحضرون محاضر الكذب فان مشاهدة الباطل مشاركة فيه (واذا مروا) على طريق الاتفاق (باللغو) أي ما يجب أن يلغى ويطرح مما لا خير فيه

(مروا كراما) معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه ومن ذلك الاغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يستهجن التصريح به (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم) المنطوية على المواعظ والاحكام (لم يخروا عليها صما وعميانا) أي أكبوا عليها سامعين بآذان واعية مجتلين لها بعيون واعية وانما عبر عن ذلك بنفي الضد تعريضا بما يفعله الكفرة والمنافقون وقيل الضمير للمعاصي المدلول عليها باللغو (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل فان المؤمن اذا ساعده أهله في طاعة الله عز وجل وشاركوه فيها يسر بهم قلبه وتقر بهم عينه لما يشاهده من مشايعتهم له في مناهج الدين وتوقع لحوقهم به في الجنة حسبما وعد بقوله تعالى ألحقنا بهم ذريتهم ومن ابتدائية أو بيانية وقرئ وذريتنا وتنكير الاعين لارادة تنكير القرة تعظيما وتقليلها لان المراد أعين المتقين ولا ريب في قلتها نظرا الى غيرها (واجعلنا للمتقين اماما) أي اجعلنا بحيث يقتدون بنا في اقامة مراسم الدين بافاضة العلم والتوفيق للعمل وتوحيده للدلالة على الجنس وعدم الالتباس كقوله تعالى ثم يخرجكم طفلا أو لان المراد واجعل كل واحد منا ❊ والجواب ❊

بلغوا النهاية في رد آيات الله تعالى فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن وذلك اما عند نزول العذاب عليهم في الدنيا أو عند المعاينة أو في الآخرة فهو كقوله تعالى ولتعلمن نبأه بعد حين وقد جرت العادة فيمن يسيء أن يقال له ستري حالك من بعد على وجه الوعيد ثم انه تعالى بين انه مع انزاله القرآن حالا بعد حال قد أظهر أدلة تحدث حالا بعد حال فقال أولم يروا الى الارض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم والزوج هو الصنف والكريم صفة لكل ما يرضى ويحمد في بابه يقال وجه كريم اذا كان مرضيا في حسنه وجماله وكتاب كريم اذا كان مرضيا في فوائده ومعانيه والنبات الكريم هو المرضي فيما يتعلق به من المنافع وفي وصف الزوج بالكريم وجهان (أحدهما) ان النبات على نوعين نافع وضار فذكر سبحانه كثرة ما أنبت في الارض من جميع أصناف النبات النافع وترك ذكر الضار (والثاني) أنه يعم جميع النبات نافعه وضاره ووصفهما جميعا بالكرم ونبه على انه ما أنبت شيئا الا وفيه فائدة وان غفل عنها الغافلون أما قوله ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين فهو كقوله هدى للمتقين والمعنى ان في ذلك دلالة لمن يتفكر ويتدبر وما كان أكثرهم مؤمنين أي مع كل ذلك يستمر أكثرهم على كفرهم فأما قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم فانما قدم ذكر العزيز على ذكر الرحيم لانه لو لم يقدمه لكان ربما قيل انه رحمهم لعجزه عن عقوبتهم وأزال هذا الوهم بذكر العزيز وهو الغالب القاهر ومع ذلك فانه رحيم بعباده فان الرحمة اذا كانت عن القدرة الكاملة كانت أعظم وقعا والمراد انهم مع كفرهم وقدرة الله على أن يعجل عقابهم لا يترك رحمتهم بما تقدم ذكره من خلق كل زوج كريم من النبات ثم من اعطاء الصحة والعقل والهداية (المسئلة الثانية) انه تعالى وصف الكفار بالاعراض أولا وبالتكذيب ثانيا وبالاستهزاء ثالثا وهذه درجات من أخذ يترقى في الشقاوة فانه يعرض أولا ثم يصرح بالتكذيب ثانيا ثم يبلغ في التكذيب والانكار الى حيث يستهزئ به ثالثا (المسئلة الثالثة) فان قلت ما معنى الجمع بين كم وكل ولم لم يقل كم أنبتنا فيها من زوج كريم قلت قد دل كل على الاحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل وكم على ان هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة فهذا معنى الجمع ونبه على كمال قدرته فان قلت فحين ذكر الازواج ودل عليها بكلمتي الكثرة والاحاطة وكانت بحيث لا يحصيها الا عالم الغيب فكيف قال ان في ذلك لآية وهلا قال لآيات قلت فيه وجهان (أحدهما) أن يكون ذلك مشارا به الى مصدر أنبتنا فكأنه قال ان في ذلك الانبات لآية أي آية (والثاني) أن يراد ان في كل واحد من تلك الازواج لآية (المسئلة الرابعة) احتجت المعتزلة على خلق القرآن بقوله تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث فقالوا الذكر هو القرآن لقوله تعالى وهذا ذكر مبارك وبين في هذه الآية أن الذكر محدث فيلزم من هاتين الآيتين ان القرآن محدث وهكذا الاستدلال بقوله تعالى الله نزل أحسن الحديث كتابا وبقوله فبأي حديث بعده يؤمنون واذا ثبت انه محدث فله خالق فيكون مخلوقا لا محالة

(والجواب) ان كل ذلك يرجع الى هذه الالفاظ ونحن نسلم حدوثها انما ندعى قدم أمر آخر وراء هذه الحروف وليس فى الآية دلالة على ذلك * قوله تعالى (واذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون) اختلف أهل السنة فى النداء الذى سمعه موسى عليه السلام من الله تعالى هل هو كلامه القديم أو هو ضرب من الاصوات فقال أبو الحسن الاشعرى المسموع هو الكلام القديم وكما أن ذاته تعالى لا تشبه سائر الاشياء مع أن الدليل دل على انها معلومة ومرئية فكذا كلامه منزه عن مشابهة الحروف والاصوات مع انه مسموع قال أبو منصور الماتريدى الذى سمعه موسى عليه السلام كان نداء من جنس الحروف والاصوات وذلك لان الدليل لما دل على أنا رأينا الجوهر والعرض ولا بد من علة مشتركة بينهما لصحة الرؤية ولا علة الا الوجود حكمنا بان كل موجود يصح أن يرى ولم يثبت عندنا انا نسمع الاصوات والاجسام حتى يحكم بانه لا بد من مشترك بين الجسم والصوت فلم يلزم صحة كون كل موجود مسموعا فظهر الفرق اما المعتزلة فقد اتفقوا على أن ذلك المسموع ما كان الا حروفا وأصواتا فعند هذا قالوا ان ذلك النداء وقع على وجه علم به موسى عليه السلام أنه من قبل الله تعالى فصار معجزا علم به أن الله مخاطب له فلم يحتج مع ذلك الى واسطة وكفى فى الوقت أن يحمله الرسالة التى هى أن ائت القوم الظالمين لان فى بدأ البعثة يجب أن يأمره بالدعاء الى التوحيد ثم بعده يأمره بالاحكام ولا يجوز أن يأمره تعالى بذلك الا وقد عرفه أنه ستظهر عليه المعجزات اذا طولب بذلك أما قوله تعالى ان ائت القوم الظالمين فالمعنى أنه تعالى سجل عليهم بالظلم وقد استحقوا هذا الاسم من وجهين من وجه ظلمهم أنفسهم بكفرهم ومن وجه ظلمهم لبنى اسرائيل أما قوله قوم فرعون فقد عطف قوم فرعون على القوم الظالمين عطف بيان كان القوم الظالمين وقوم فرعون لفظان يدلان على معنى واحد وأما قوله ألا يتقون فقرئ ألا يتقون بكسر النون بمعنى ألا يتقوننى فحذفت النون لاجتماع النونين والياء للاكتفاء بالكسرة وقوله ألا يتقون كلام مستأنف اتبعه تعالى ارساله اليهم للانذار والتسجيل عليهم بالظلم تعجيبا لموسى عليه السلام من حالهم فى الظلم والعسف ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم ويحتمل أن يكون ألا يتقون حالا من الضمير فى الظالمين أى يظلمون غير متقين الله وعقابه فادخلت همزة الانكار على الحال ووجه ثالث هو أن يكون المعنى الا يا ناس اتقون كقوله ألا يا اسجدوا وأما من قرأ ألا تتقون على الخطاب فعلى طريقة الالتفات اليهم وصرف وجوههم بالانكار والغضب عليهم كما يرى من يشكو من ركب جناية والجانى حاضر فاذا اندفع فى الشكاية وحمى غضبه قطع مباثة صاحبه وأقبل على الجانى يوبخه ويعنفه به ويقول له الا تتقى الله الا تستحيى من الناس فان قلت فما الفائدة فى هذا الالتفات والخطاب مع موسى عليه السلام فى وقت المناجاة والملتفت اليهم غائبون لا يشعرون قلت اجراء ذلك فى تكليم المرسل اليهم فى معنى اجرائه بحضرتهم والقائه الى مسامعهم

اماما أو لانهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم كذا قالوا وأنت خبير بان مدار الكل صدور هذا الدعاء اما عن الكل بطريق المعية وانه محال لاستحالة اجتماعهم فى عصر واحد فما ظنك باجتماعهم فى مجلس واحد واتفاقهم على كلمة واحدة واما عن كل واحد منهم بطريق تشريك غيره فى استدعاء الامامة وانه ليس بثابت جزما بل الظاهر صدوره عنهم بطريق الانفراد وأن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء واجعلنى للمتقين اماما خلا انه حكيت عبارات الكل بصيغة المتكلم مع الغير القصد الى الايجاز على طريقة قوله تعالى يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا وأبقى اماما على حاله وقيل الامام جمع آم بمعنى قاصد كصيام جمع صائم ومعناه قاصدين لهم مقتدين بهم واعادة الموصول فى المواقع السبعة مع كفاية ذكر الصلات بطريق العطف على صلة الموصول الاول للايذان بأن كل واحد مما ذكر فى حيز صلة الموصولات المذكورة وصف جليل على حياله له شان خطير حقيق بان يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل شئ من ذلك تتمة لغيره وتوسيط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنوانى منزلة الاختلاف الذاتى كما فى قوله * الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتائب فى المزدحم (أولئك) اشارة الى المتصفين بما فصل فى حيز صلة الموصولات الثمانية من حيث اتصافهم به وفيه دلالة على انهم متميزون بذلك

موسى عليه السلام أن يضم اليه هرون مايدل على انه استعفى من الذهاب الى فرعون بل مقصوده فيما سأل أن يقع ذلك الذهاب على أقوى الوجوه فى الوصول الى المراد واختلفوا فقال بعضهم انه وان كان نبيا فهو غير عالم بانه يبقى حتى يؤدى الرسالة لانه انما أمر بذلك بشرط التمكين وهذا قول الكعبى وغيره من البغداديين لانهم يجوزون دخول الشرط فى تكليف الله تعالى العبد والذى ذهب اليه الاكثرون ان ذلك لايجوز لانه تعالى اذا أمر فهو عالم بما يتمكن منه المأمور وباوقات تمكنه فاذا علم انه غير متمكن منه فانه لايأمره به واذا صح ذلك فالاقرب فى الانبياء انهم يعلمون اذا حملهم الله تعالى الرسالة انه تعالى يمكنهم من أدائها وانهم سيبقون الى ذلك الوقت ومثل ذلك لايكون اغراء فى الانبياء وان جاز أن يكون اغراء فى غيرهم (المسئلة الثالثة) لقائل أن يقول قول موسى عليه السلام ولهم على ذنب هل يدل على صدور الذنب منه جوابه لا والمراد لهم على ذنب فى زعمهم * قوله تعالى (قال كلا فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بنى اسرائيل) اعلم أن موسى عليه السلام طلب أمرين الاول أن يدفع عنه شرهم والثانى أن يرسل معه اخاه هرون فأجابه الله تعالى الى الاول بقوله كلا ومعناه ارتدع ياموسى عما تظن وأجابه الى الثانى بقوله فاذهبا أى اذهب أنت والذى طلبته وهو هرون فان قيل علام عطف قوله فاذهبا قلنا على الفعل الذى يدل عليه كلا كأنه قال ارتدع ياموسى عما تظن فاذهب أنت وهرون وأما قوله انا معكم مستمعون فمن مجاز الكلام يريد انا لكما ولعدوكما كالناصر الظهير لكما عليه اذا حضر واستمع مايجرى بينكما فاظهركما عليه وأعليكما واكسر شوكته عنكما وانما جعلنا الاستماع مجازا لان الاستماع عبارة عن الاصغاء وذلك على الله تعالى محال واما قوله انا رسول رب العالمين ففيه سؤال وهو انه هلا ثنى الرسول كما ثنى فى قوله انا رسولا ربك جوابه من وجوه (أحدها) ان الرسول اسم للماهية من غير بيان ان تلك الماهية واحدة أو كثيرة والالف واللام لايفيد ان الا الواحدة لا الاستغراق بدليل انك تقول الانسان هو الضحاك ولا تقول كل انسان هو الضحاك ولا أيضا هذا الانسان هو الضحاك واذا ثبت أن لفظ الرسول لايفيد الا الماهية وثبت أن الماهية محمولة على الواحد وعلى الاثنين ثبت صحة قوله انا رسول رب العالمين (وثانيها) أن الرسول قد يكون بمعنى الرسالة قال الشاعر

لقد كذب الواشون مافهت عندهم * بسر ولا ارسلتهم برسول

فيكون المعنى انا ذو رسالة رب العالمين (وثالثها) انهما لاتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما بسبب الاخوة كأنهما رسول واحد (ورابعها) المراد كل واحد منا رسول (وخامسها) ماقاله بعضهم انه انما قال ذلك لابلفظ التثنية لكونه هو الرسول خاصة وقوله انا فكما فى قوله تعالى انا أنزلناه وهو ضعيف وأما قوله أن أرسل معنا بنى اسرائيل فالمراد من هذا الارسال التخلية والاطلاق كقولك أرسل البازى يريد خلهم يذهبوا معنا * قوله

معرفته تعالى وطاعته والافهو وسائر البهائم سواء وقال الزجاج معناه أى وزن يكون لكم عنده وقيل معناه مايصنع بكم ربى لولا دعاؤه اياكم الى الاسلام وقيل مايصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة ويجوز أن تكون مانافية وقوله تعالى (فقد كذبتم) بيان لحال الكفرة من المخاطبين كما أن ماقبله بيان لحال المؤمنين منهم أى فقد كذبتم بما أخبرتكم به وخالفتموه أيها الكفرة ولم تعملوا عمل أولئك المذكورين وقيل فقد قصرتم فى العبادة من قولهم كذب القتال اذا لم يبالغ فيه وقرئ فقد كذب الكافرون أى الكافرون منكم لعموم الخطاب للفريقين وفائدته الايذان بان مناط فوز أحدهما وخسران الآخر مع الاتحاد الجنسى المصحح للاشتراك فى فوز ليس الا اختلافهما فى الاعمال (فسوف يكون لزاما) أى يكون جزاء التكذيب أو أثره لازما يحيق بكم لامحالة حتى يكبكم فى النار كما تعرب عنه الفاء الدالة على لزوم مابعدها لما قبلها وانما أضمر من غير ذكر للايذان بغاية ظهوره وتهويل أمره وللتنبيه على أنه مما لايكتنهه البيان وقيل يكون العذاب لزاما وعن مجاهد رحمه الله هو القتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتلى وقرئ لزاما بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفرقان لقى الله تعالى وهو مؤمن بان الساعة آتية لاريب فيها وأدخل الجنة بغير نصب * (سورة الشعراء مكية الا قوله والشعراء الى آخرها وهى مائتان

أي كل تميز متنظمون بسببه في سلك الامور المشاهدة وفيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم في الفضل وهو مبتدأ خبره
قوله تعالى (يجزون الغرفة) والجملة مستأنفة لامحل لها من الاعراب مبينة لما لهم في الآخرة من السعادة

لانه مبلغهم ومنهيه اليهم وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى وكم من آية نزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبرا لها واعتبارا بمواردها ❁ قوله تعالى (قال رب اني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل الى هرون ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب الى قوم فرعون طلب موسى عليه السلام ان يبعث معه هرون اليهم ثم ذكر الامور الداعية له الى ذلك السؤال وحاصلها انه لو لم يكن هرون لاختلت المصلحة المطلوبة من بعثة موسى عليه السلام وذلك من وجهين الاول ان فرعون ربما كذبه والتكذيب سبب لضيق القلب وضيق القلب سبب لتعسر الكلام على من يكون في لسانه حبسة لان عند ضيق القلب تنقبض الروح والحرارة الغريزية الى باطن القلب واذا انقبضا الى الداخل وخلا منهما الخارج ازدادت الحبسة في اللسان فالتأذي من التكذيب سبب لضيق القلب وضيق القلب سبب للحبسة فلهذا السبب بدأ بخوف التكذيب ثم ثنى بضيق الصدر ثم ثلث بعدم انطلاق اللسان وأما هرون فهو أفصح لسانا مني وليس في حقه هذا المعنى فكان ارساله لائقا الثاني أن لهم عندي ذنبا فأخاف أن يبادروا الى قتلي وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثة وأما هرون فليس كذلك فيحصل المقصود من البعثة (المسئلة الثانية) قرئ يضيق وينطلق بالرفع لانهما معطوفان على خبر ان وبالنصب لعطفهما على صلة أن والمعنى أخاف أن يكذبون وأخاف أن يضيق صدري وأخاف أن لا ينطلق لساني والفرق أن الرفع يفيد ثلاث علل في طلب ارسال هرون والنصب يفيد علة واحدة وهي الخوف من هذه الامور الثلاثة فان قلت الخوف غم يحصل لتوقع مكروه سيقع وعدم انطلاق اللسان كان حاصلا فكيف جاز تعلق الخوف به قلت قد بينا ان التكذيب الذي سيقع يوجب ضيق القلب وضيق القلب يوجب زيادة الاحتباس فتلك الزيادة ماكانت حاصلة في الحال بل كانت متوقعة فجاز تعليق الخوف عليها أما قوله تعالى فأرسل الى هرون فليس في الظاهر ذكر من الذي يرسل اليه وفي الخبر أن الله تعالى أرسل موسى عليه السلام اليه قال السدي ان موسى عليه السلام سار بأهله الى مصر والتقى بهرون وهو لايعرفه فقال أنا موسى فتعارفا وأمره أن ينطلق معه الى فرعون لاداء الرسالة فصاحت أمهما لخوفها عليهما فذهبا اليه ويحتمل أن يكون المراد أرسل اليه جبريل لان رسول الله الى الانبياء جبريل عليه السلام فلما كان هو متعينا لهذا الامر حذف ذكره لكونه معلوما وأيضا ليس في الظاهر انه يرسل لماذا لكن فحوى الكلام يدل على انه طلبه للمعونة فيما سأل كما يقال اذا نابتك نائبة فأرسل الى فلان أي ليعينك فيها وليس في الظاهر انه التمس كون هرون نبيا معه لكن قوله فقولا انا رسول رب العالمين يدل عليه وأما قوله ولهم علي ذنب فأراد بالذنب قتله القبطي وقد ذكر الله تعالى هذه القصة مشروحة في سورة القصص واعلم انه ليس في التماس

الابدية اثر بيان مالهم في الدنيا من الاعمال السنية والغرفة الدرجة العالية من المنازل وكل بناء مرتفع عال أي يثابون أعلى منازل الجنة وهي اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى وهم في الغرفات آمنون وقيل هي اسم من أسماء الجنة (بما صبروا) أي بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات (ويلقون فيها) من جهة الملائكة (تحية وسلاما) أي يحييهم الملائكة ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة من الآفات أو يعطون التبقية والتخليد مع السلامة من كل آفة وقيل يحيي بعضهم بعضا ويسلم عليه وقرئ يلقون من لقي (خالدين فيها) لايموتون ولا يخرجون (حسنت مستقرا ومقاما) الكلام فيه كالذي مر في مقابله (قل) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبين للناس أن الفائزين بتلك النعماء الجليلة التي يتنافس فيها المتنافسون انما نالوها بما عدد من محاسنهم ولولاها لم يعتد بهم أصلا أي قل لهم كافة ﴿ موسى ﴾
مشافها لهم بما صدر عن جنسهم من خير وشر (مايعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم) أي عبء يعبأ بكم وأي اعتداد يعتد بكم لولا عبادتكم له تعالى حسبما مر تفصيله فان ماخلق له الانسان

النون وبادغامها فى الميم وهو اما مسرود على نمط التعديد بطريق التحدى على أحد الوجهين المذكورين فى فاتحة سورة البقرة فلا محل له من الاعراب واما اسم

للسورة كما عليه اطباق الاكثر فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وهو أظهر من الرفع على الابتداء وقدم وجهه فى مطلع سورة يونس عليه السلام أو النصب بتقدير فعل لائق بالمقام نحو اذكر أو اقرأ وتلك فى قوله تعالى (تلك آيات الكتاب المبين) اشارة الى السورة سواء كان طسم مسرودا على نمط التعديد أو اسما للسورة حسبما مر تحقيقه هناك وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلة المشار اليه فى الفخامة ومحله الرفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده وعلى تقدير كون طسم مبتدأ فهو مبتدأ ثان أو بدل من الاول والمراد بالكتاب القرآن وبالمبين الظاهر اعجازه على أنه من ابان بمعنى بان أو المبين للاحكام الشرعية وما يتعلق بها أو الفاصل بين الحق والباطل والمعنى هى آيات مخصوصة منه مترجمة باسم مستقل والمراد ببيان كونها بعضا منه وصفها بما اشتهر به الكل من النعوت الفاضلة (لعلك باخع نفسك) أى قاتل وأصل البخع أن يبلغ بالذبح البخاع ❊ الحكم ❊ وهو عرق مستبطن الفقار وذلك أقصى حد الذبح وقرئ باخع نفسك على الاضافة ولعل للاشفاق أى اشفق على نفسك

تعالى (قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين) اعلم أن فى الكلام حذفا وهو انهما اتياه وقالا ما أمر الله به فعند ذلك قال فرعون ما قال يروى انهما انطلقا الى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب ان ههنا انسانا يزعم انه رسول رب العالمين فقال ائذن له لعلنا نضحك منه فأديا اليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام فعدد عليه نعمه أولا ثم اساءة موسى اليه ثانيا أما النعم فهى قوله ألم نربك فينا وليدا والوليد الصبى لقرب عهده من الولادة ولبثت فينا من عمرك وعن أبى عمرو بسكون الميم سنين قيل لبث عندهم ثلاثين سنة وقيل وكز القبطى وهو ابن اثنتى عشرة سنة وفر منهم والله أعلم بصحيح ذلك وعن الشعبى فعلتك بالكسر وهى قتله القبطى لانه قتله بالوكز وهو ضرب من القتل وأما الفعلة فلانها وكزة واحدة عدد عليه نعمة من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال ووبخه بما جرى على يده من قتل خبازه وعظم ذلك بقوله وفعلت فعلتك التى فعلت وأما قوله وأنت من الكافرين ففيه وجوه (أحدها) يجوز أن يكون حالا أى قتلته وأنت بذاك من الكافرين بنعمتى (وثانيها) وأنت اذ ذاك ممن تكفرهم الساعة وقد افترى عليه أو جهل أمره لانه كان يعاشرهم بالتقية فان الكفر غير جائز على الانبياء قبل النبوة (وثالثها) وأنت من الكافرين معناه وأنت ممن عادته كفران النعم ومن كان هذا حاله لم يستبعد منه قتل خواص ولى نعمته (ورابعها) وأنت من الكافرين بفرعون والهيته أو من الذين يكفرون فى دينهم فقد كانت لهم آلهة يعبدونها يشهد بذلك قوله تعالى ويذرك وآلهتك ❊ قوله تعالى (قال فعلتها اذا وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل) اعلم ان فرعون لما ذكر التربية وذكر القتل وقد كانت تربيته له معلومة ظاهرة لاجرم أن موسى عليه السلام ما أنكرها ولم يشتغل بالجواب عنها لانه تقرر فى العقول ان الرسول الى الغير اذا كان معه معجز وحجة لم يتغير حاله بان يكون المرسل اليه أنعم عليه أو لم يفعل ذلك فصار قول فرعون لما قاله غير مؤثر البتة ومثل هذا الكلام الاعراض عنه أولى ولكن أجاب عن القتل بما لا شئ أبلغ منه فى الجواب وهو قوله فعلتها اذا وأنا من الضالين والمراد بذلك الذاهلين عن معرفة ما يؤل اليه من القتل لانه فعل الوكزة على وجه التأديب ومثل ذلك ربما حسن وان أدى الى القتل فبين له أنه فعله على وجه لا يجوز معه أن يؤاخذ به أو يعد منه كافرا أو كافر النعمة فأما قوله ففررت منكم لما خفتكم فالمراد انى فعلت ذلك الفعل وأنا ذاهل عن كونه مهلكا وكان منى فى حكم السهو فلم استحق التخويف الذى يوجب الفرار ومع ذلك ففررت منكم عند قولكم ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فبين بذلك انه لا نعمة له عليه فى باب تلك الفعلة بل بان يكون مسيئا فيه أقرب من حيث خوف تخويفا أوجب الفرار ثم بين نعمة الله تعالى عليه بعد الفرار فكأنه قال أسأتم وأحسن الله الى بان وهب لى حكما وجعلنى من المرسلين واختلفوا فى

أن تقتلها حسرة على مافاتك من اسلام قومك (أن لايكونوا مؤمنين) أى لعدم ايمانهم بذلك الكتاب المبين او خيفة

 استئناف مسوق لتعليل مايفهم من الكلام من النهى

عن التحسر المذكور بيان أن ايمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى حتما فلا وجه للطمع فيه والتألم من فواته ومفعول المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء أعنى قوله تعالى (ننزل عليهم من السماء آية) أى ملجئة لهم الى الايمان قاسرة عليه وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر (فظلت أعناقهم لها خاضعين) أى منقادين وأصله فظلوا لها خاضعين فاقحمت الاعناق لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع وترك الخبر على حاله وقيل لما وصفت الاعناق بصفات العقلاء اجريت مجراهم فى الصيغة أيضا كما فى قوله تعالى رأيتهم لى ساجدين وقيل أريد بها الرؤساء والجماعات من قولهم جاءنا عنق من الناس أى فوج منهم وقرئ خاضعة وقوله تعالى فظلت عطف على ننزل باعتبار محله

وقوله تعالى (ومايأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الاكانوا عنها معرضين) بيان لشدة شكيمتهم وعدم ارعوائهم عماكانوا عليه من الكفر والتكذيب بغير ماذكر من الآية الملجئة لصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرص على اسلامهم وقطع رجائه عنه ومن الاولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية لابتداء الغاية مجازا

الحكم والاقرب انه غير النبوة لان المعطوف غير المعطوف عليه والنبوة مفهومة من قوله وجعلنى من المرسلين فالمراد بالحكم العلم ويدخل فى العلم العقل والرأى والعلم بالدين الذى هو التوحيد وهذا أقرب لانه لايجوز أن يبعثه تعالى الامع كماله فى العقل والرأى والعلم بالتوحيد وقوله فوهب لى ربى حكما كالتنصيص على أن ذلك الحكم من خلق الله تعالى وقالت المعتزلة المراد منه الالطاف وهو ضعيف جدا لان الالطاف مفعولة فى حق الكل من غير بخس ولاتقصير فالتخصيص لابد فيه من فائدة فاما قوله وتلك نعمة تمنها على ان عبدت بنى اسرائيل فهو جواب قوله ألم نربك فينا وليدا يقال عبدت الرجل وأعبدته اذا اتخذته عبدا فان قيل كيف يكون ذلك جوابه ولاتعلق بين الامرين قلنا بيان التعلق من وجوه (أحدها) انه انما وقع فى يده وفى تربيته لانه قصد تعبيد بنى اسرائيل وذبح أبنائهم فكأنه عليه السلام قال له كنت مستغنيا عن تربيتك لولم يكن منك ذلك الظلم المتقدم علينا وعلى اسلافنا (وثانيها) ان هذا الانعام المتأخر صار معارضا بذلك الظلم العظيم على أسلافنا واذا تعارضا تساقطا (وثالثها) ماقاله الحسن انك استعبدتهم وأخذت أموالهم ومنها أنفقت على فلا نعمة لك على بالتربية (ورابعها) المراد أن الذى تولى تربيتى هم الذين قد استعبدتهم فلا نعمة لك على لان التربية كانت من قبل أمى وسائر من هو من قومى ليس لك الا انك ماقتلتنى ومثل هذا لايعد انعاما (وخامسها) انك كنت تدعى أن بنى اسرائيل عبيدك ولامنة للمولى على العبد فى أن يطعمه ويعطيه مايحتاج اليه واعلم أن فى الآية دلالة على أن كفر الكافر لايبطل نعمته على من يحسن اليه ولايبطل منته لان موسى عليه السلام انما أبطل ذلك بوجه آخر على مابينا واختلف العلماء فقال بعضهم اذا كان كافرا لايستحق الشكر على نعمه على الناس انما يستحق الاهانة بكفره فلو استحق الشكر بانعامه والشكر لايوجد الامع التعظيم فيلزم كونه مستحقا للاهانة وللتعظيم معا واستحقاق الجمع بين الضدين محال وقال آخرون لايبطل الشكر بالكفر وانما يبطل بالكفر الثواب والمدح الذى يستحقه على الايمان والآية تدل على هذا القول الثانى (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف انما جمع الضمير فى منكم وخفتكم مع افراده فى تمنها وعبدت لان الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملائه المؤتمرين بقتله بدليل قوله ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وأما الامتنان فمنه وحده وكذلك التعبيد فان قلت تلك اشارة الى ماذا وأن عبدت مامحلها من الاعراب قلت تلك اشارة الى خصلة شنعاء مبهمة لايدرى ماهى الابتفسيرها وهى أن عبدت فان أن عبدت عطف بيان ونظيره قوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين والمعنى تعبيدك بنى اسرائيل نعمة تمنها على وقال الزجاج ويجوز أن يكون أن فى موضع نصب والمعنى انما صارت نعمة على لان عبدت بنى اسرائيل أى لولم تفعل ذلك لكفلنى أهلى ❊ قوله تعالى

(قال فرعون ومارب العالمين قال رب السموات والارض ومابينهما ان كنتم موقنين قال

متعلقة بيأتيهم او بمحذوف هو صفة لذكر وأياما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه وشناعة مافعلوا به والتعرض لعنوان
الرحمة لتغليظ شناعتهم وتهويل جناياتهم فان الاعراض ❊ ٥١٢ ❊ عما يأتيهم من جنابه عز وجل على الاطلاق
شنيع قبيح وعما يأتيهم
بموجب رحمته تعالى
لمحض منفعتهم أشنع
وأقبح أى ماياتيهم من
موعظة من المواعظ
القرآنية أومن طائفة
نازلة من القران تذكرهم
أكمل تذكير وتنبههم
عن الغفلة اتم تنبيه كأنها
نفس الذكر من جهته
تعالى بمقتضى رحمته
الواسعة مجدد تنزيله
حسبما تقتضيه الحكمة
والمصلحة الاجددوا
اعراضا عنه على وجه
التكذيب والاستهزاء
والاصرار على ماكانوا
عليه من الكفر والضلال
والاستثناء مفرغ من أعم
الاحوال محله النصب
على الحالية من مفعول
يأتيهم باضمار قد أو بدونه
على الخلاف المشهور اى
ماياتيهم من ذكر فى حال
من الاحوال الاحال
كونهم معرضين عنه
(فقد كذبوا) أى كذبوا
بالذكر الذى يأتيهم
تكذيبا صريحا مقارنا
للاستهزاء به ولم يكتفوا
بالاعراض عنه حيث
جعلوه تارة سحرا وأخرى
أساطيرا وأخرى شعرا والفاء فى قوله تعالى (فسيأتيهم) لترتيب مابعدها على ماقبلها والسين تاكيد ❊ وآثاره ❊
مضمون الجملة وتقريره أى فسيأتيهم البتة من غير خلف أصلا (أنباء ما كانوا به يستهزؤن) عدل عما يقتضيه سائر ماسلف
من الاعراض والتكذيب للايذان بانهما كانا مقارنين للاستهزاء كما اشير اليه حسبما وقع فى قوله تعالى وما تأتيهم

لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الاولين قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم
لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون قال لئن اتخذت الها غيرى
لأجعلنك من المسجونين قال أولو جئتك بشئ مبين قال فأت به ان كنت من الصادقين)
اعلم ان فرعون لم يقل لموسى ومارب العالمين الا وقد دعاه موسى الى طاعة رب العالمين يبين
ذلك ماتقدم من قوله فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين فلا بد عند دخولهما عليه
انهما قالا ذلك فعند ذلك قال فرعون ومارب العالمين ثم ههنا بحثان (الاول) ان فرعون
يحتمل أن يقال انه كان عارفا بالله ولكنه قال ماقال طلبا للملك والرياسة وقد ذكر الله
تعالى فى كتابه مايدل على انه كان عارفا بالله وهو قوله قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الارب
السموات والارض فاذا قرئ بفتح التاء من علمت فالمراد أن فرعون علم ذلك وذلك يدل
على انه كان عارفا بالله لكنه كان يستأكل قومه بمايظهره من الهيئة والقراءة الاخرى
برفع التاء من علمت فهى تقتضى أن موسى عليه السلام هو الذى عرف ذلك وأيضا فان
فرعون ان لم يكن عاقلا لم يجز من الله تعالى بعثة الرسول اليه وان كان عاقلا فهو يعلم
بالضرورة انه ماكان موجودا ولا حيا ولا عاقلا ثم صار كذلك وبالضرورة يعلم أن كل
ماكان كذلك فلا بد له من مؤثر فلا بد وان يتولد له من هذين العلمين علم ثالث باقتقاره فى
تركيبه وفى حياته وعقله الى مؤثر موجود ويحتمل أن يقال انه كان على مذهب الدهرية
من ان الافلاك واجبة الوجود فى ذواتها ومتحركة لذواتها وان حركاتها أسباب لحصول
الحوادث فى هذا العالم أو يقال انه كان من الفلاسفة القائلين بالعلة الموجبة لا بالفاعل
المختار ثم اعتقد انه بمنزلة الاله لاهل اقليمه من حيث استعبدهم وملك زمامهم وزمام أمرهم
ويحتمل أن يقال انه كان على مذهب الحلولية القائلين بان ذات الاله يتدرع بجسد
انسان معين حتى يكون الاله سبحانه لذلك الجسد بمنزلة روح كل انسان بالنسبة الى جسده
وبهذه التقديرات كان يسمى نفسه الها (البحث الثانى) وهو انه قال لموسى عليه السلام
ومارب العالمين واعلم أن السؤال بما طلب لتعريف حقيقة الشئ وتعريف حقيقة الشئ
اما أن يكون بنفس تلك الحقيقة أو بشئ من أجزائها أو بامر خارج عنها أو بما يتركب من
الداخل والخارج أما تعريفها بنفسها فمحال لان المعرف معلوم قبل المعرف فلو عرف الشئ
بنفسه لزم أن يكون معلوما قبل ان يكون معلوما وهو محال وأما تعريفها بالامور
الداخلة فيها فههنا فى حق واجب الوجود محال لان التعريف بالامور الداخلة لا يمكن
الا اذا كان المعرف مركبا وواجب الوجود يستحيل ان يكون مركبا لان كل مركب
فهو محتاج الى كل واحد من أجزائه وكل واحد من اجزائه فهو غيره فكل مركب محتاج
الى غيره وكل ما احتاج الى غيره فهو ممكن لذاته وكل مركب فهو ممكن فما ليس بممكن
يستحيل أن يكون مركبا فواجب الوجود ليس بمركب واذا لم يكن مركبا استحال تعريفه
باجزائه ولما بطل هذان القسمان ثبت انه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود الا بلوازمه

من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) وأنباؤه ماسيحيق بهم من العقوبات العاجلة والآجلة عبر عنها بذلك اما لكونها مما أنبأ بها القرآن الكريم

وآثاره ثم ان اللوازم قد تكون خفية وقد تكون جلية ولا يجوز تعريف الماهية باللوازم الخفية بل لابد من تعريفها باللوازم الجلية وأظهر آثار ذات واجب الوجود هو هذا العالم المحسوس وهو السموات والارض ومابينهما فقد ثبت انه لاجواب البتة لقول فرعون ومارب العالمين الا ماقاله موسى عليه السلام وهو أنه رب السموات والارض ومابينهما فاما قوله ان كنتم موقنين فمعناه ان كنتم موقنين باستناد هذه المحسوسات الى موجود هو واجب الوجود فاعرفوا أنه لايمكن تعريفه الا بما ذكرته لانكم لما سلمتم انتهاء هذه المحسوسات الى الواجب لذاته وثبت أن الواجب لذاته فرد مطلق وثبت أن الفرد المطلق لايمكن تعريفه الا بآثاره وثبت أن تلك الآثار لابد وأن تكون أظهر آثاره وأبعدها عن الخفاء وماذاك الا السموات والارض ومابينهما فان أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا بأنه لاجواب عن ذلك السؤال الا هذا الجواب ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق قال فرعون لمن حوله ألا تستمعون وانما ذكر ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى يعني انا أطلب منه الماهية وخصوصية الحقيقة وهو يجيبني بالفاعلية والمؤثرية وتمام الاشكال أن تعريف الماهية بلوازمها لايفيد الوقوف على نفس تلك الماهية وذلك لانا اذا قلنا في الشيء انه الذي يلزمه اللازم الفلاني فهذا المذكور اما أن يكون معرفا لمجرد كونه أمرا مايلزمه ذلك اللازم أو لخصوصية تلك الماهية التي عرضت لها هذه الملزومية والاول محال لان كونه أمرا يلزمه ذلك اللازم جعلناه كاشفا فلو كان المكشوف هو هذا القدر لزم كون الشيء معرفا لنفسه وهو محال والثاني محال لان العلم بأنه أمر ما يلزمه اللازم الفلاني لايفيد العلم بخصوصية تلك الماهية الملزومة لانه لايمتنع في العقل اشتراك الماهيات المختلفة في لوازم متساوية فثبت أن التعريف بالوصف الخارجي لايفيد معرفة نفس الحقيقة فلم يكن كونه ربا للسموات والارض ومابينهما جوابا عن قوله ومارب العالمين فأجاب موسى عليه السلام بأن قال ربكم ورب آبائكم الاولين وكأنه عدل عن التعريف بخالقية السماء والارض الى التعريف بكونه تعالى خالقا لنا ولآبائنا وذلك لانه لايمتنع أن يعتقد أحد أن السموات والارضين واجبة لذواتها فهي غنية عن الخالق والمؤثر ولكن لايمكن أن يعتقد العاقل في نفسه وأبيه وأجداده كونهم واجبين لذواتهم لما أن المشاهدة دلت على انهم وجدوا بعد العدم ثم عدموا بعد الوجود وماكان كذلك استحال أن يكون واجبا لذاته ومالم يكن واجبا لذاته استحال وجوده الا لمؤثر فكان التعريف بهذا الاثر اظهر فلهذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الاول اليه فقال فرعون ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون يعني المقصود من سؤال ماطلب الماهية وخصوصية الحقيقة والتعريف بهذه الآثار الخارجية لايفيد البتة تلك الخصوصية فهذا الذي يدعي الرسالة مجنون لايفهم السؤال فضلا عن أن يجيب عنه فقال موسى عليه السلام رب المشرق والمغرب ومابينهما ان كنتم تعقلون فعدل الى طريق ثالث

واما لانهم بمشاهدتها يقفون على حقيقة حال القرآن كما يقفون على الاحوال الخافية عنهم باستماع الانباء وفيه تهويل له لان النبأ لايطلق الاعلى خبر خطير له وقع عظيم اي فسيأتيهم لامحالة مصداق ماكانوا يستهزئون به قبل من غير أن يتدبروا في أحواله ويقفوا عليها (أولم يروا) الهمزة للانكار التوبيخي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام اي أفعلوا مافعلوا من الاعراض عن الآيات والتكذيب والاستهزاء بها ولم ينظروا (الى الارض) اي الى عجائبها الزاجرة عما فعلوا الداعية الى الاقبال على ما أعرضوا عنه والى الايمان به وقوله تعالى (كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم) استئناف مبين لما في الارض من الآيات الزاجرة عن الكفر الداعية الى الايمان وكم خبرية منصوبة بما بعدها على المفعولية والجمع بينها وبين كل لافادة

الاحاطة والكثرة معا ومن زوج اي صنف كل شيء مرضيه ومحموده اي كثيرا من كل صنف مرضي كثير المنافع أنبتنا فيها وتخصيص انباته بالذكر دون ماعداه من الاصناف لاختصاصه بالدلالة على القدرة والنعمة معا ويحتمل أن يراد به جميع أصناف النبات نافعها وضارها ويكون وصف الكل

بالكرم للتنبيه على انه تعالى ما أنبت شيئا الا وفيه فائدة كما نطق به قوله تعالى هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا فان الحكيم لا يكاد يفعل فعلا الا وفيه حكمة بالغة وان غفل عنها الغافلون ولم يتوصل الى معرفة كنهها العاقلون (ان في ذلك) اشارة الى مصدر أنبتنا أو الى كل واحد من تلك الازواج وأيا ما كان ففيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته في الفضل (لآية) اى آية عظيمة دالة على كمال قدرة منبتها وغاية وفور علمه وحكمته ونهاية سعة رحمته موجبة للايمان وازعة عن الكفر (وما كان أكثرهم) اى أكثر قومه عليه الصلاة والسلام (مؤمنين) قيل اى في علم الله تعالى وقضائه حيث علم أزلا أنهم سيصرفون فيما لا يزال اختيارهم الذي عليه يدور أمر التكليف الى جانب الشر ولا يتدبرون في هذه الآيات العظام وقال سيبويه كان صلة والمعنى وما أكثرهم مؤمنين وهو الانسب بمقام بيان عتوهم وغلوهم في المكابرة والعناد مع تعاضد موجبات الايمان من جهته تعالى وأما نسبة كفرهم الى علمه تعالى وقضائه فربما يتوهم منها كونهم معذورين فيه بحسب الظاهر لان ما أشير اليه من التحقيق مما خفي على مهرة العلماء ﴿ قلنا ﴾ المتقنين كأنه قيل ان في ذلك لآية باهرة موجبة للايمان وما أكثرهم مؤمنين مع ذلك لغاية تماديهم في الكفر والضلالة وانهماكهم في الغي والجهالة ونسبة عدم الايمان الى أكثرهم لان منهم من سيؤمن (وان ربك لهو العزيز)

أوضح من الثاني وذلك لانه أراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار والامر ظاهر في ان هذا التدبير المستمر على الوجه العجيب لا يتم الا بتدبير مدبر وهذا بعينه طريقة ابراهيم عليه السلام مع نمرود فانه استدل أولا بالاحياء والاماتة وهو الذي ذكره موسى عليه السلام ههنا بقوله ربكم ورب آبائكم الاولين فأجابه نمرود بقوله أنا أحيي واميت فقال ان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر وهو الذي ذكره موسى عليه السلام ههنا بقوله رب المشرق والمغرب وأما قوله ان كنتم تعقلون فكأنه عليه السلام قال ان كنت من العقلاء عرفت انه لا جواب عن سؤالك الا ما ذكرت لانك طلبت مني تعريف حقيقته بنفس حقيقته وقد ثبت انه لا يمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا بأجزاء حقيقته فلم يبق الا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته وأنا قد عرفت حقيقته بآثار حقيقته فقد ثبت أن كل من كان عاقلا يقطع بأنه لا جواب عن هذا السؤال الا ما ذكرته واعلم انا قد بينا في سورة الانعام في تفسير قوله تعالى وهو القاهر فوق عباده ان حقيقة الاله سبحانه من حيث هي غير معقولة للبشر واذا كان كذلك استحال من موسى عليه السلام أن يذكر ما تعرف به تلك الحقيقة الا أن عدم العلم بتلك الخصوصية لا يقدح في صحة الرسالة فكان حاصل كلام موسى عليه السلام أن ادعاء رسالة رب العالمين تتوقف صحته على اثبات أن للعالمين ربا والها ولا تتوقف على العلم بخصوصية الرب تعالى وماهيته المعينة فكان موسى عليه السلام يقيم الدلالة على اثبات القدر المحتاج اليه في صحة دعوى الرسالة وفرعون يطالبه ببيان الماهية وموسى عليه السلام كان يعرض عن سؤاله لعلمه بانه لا تعلق لذلك السؤال نفيا ولا اثباتا في هذا المطلوب فهذا تمام القول في هذا البحث والله أعلم ثم ان موسى عليه السلام لما خشن في آخر الكلام بقوله ان كنتم تعقلون فعند ذلك قال فرعون لئن اتخذت الها غيري لأجعلنك من المسجونين فانه لما عجز عن الحجاج عدل الى التخويف فعند ذلك ذكر موسى عليه السلام كلاما مجملا ليعلق قلبه به فيعدل عن وعيده فقال أولو جئتك بشيء مبين اى هل تستجيز أن تسجنني مع اقتداري على أن آتيك بأمر بين في باب الدلالة على وجود الله تعالى وعلى أني رسوله فعند ذلك قال فأت به ان كنت من الصادقين وههنا فروع (الفرع الاول) الآية تدل على انه تعالى ليس بجسم لانه لو كان جسما وله صورة لكان جواب موسى عليه السلام بذكر حقيقته ولكان كلام فرعون لازما له لعدوله عن الجواب الحق (الثاني) الواجب على من يدعو غيره الى الله تعالى أن لا يجيب عن السفاهة لان موسى عليه السلام لما قال له فرعون انه مجنون لم يعدل عن ذكر الدلالة وكذلك لما توعده أن يسجنه (الثالث) انه يجوز للمسؤل أن يعدل في حجته من مثال الى مثال لايضاح الكلام ولا يدل ذلك على الانقطاع (الرابع) ان قيل كيف قطع الكلام بما لا تعلق له بالاول وهو قوله أولو جئتك بشيء مبين والمعجز لا يدل على الله تعالى كدلالة سائر ما تقدم

قلنا بل يدل ما اراد أن يظهره من انقلاب العصا حية على الله تعالى وعلى توحيده وعلى انه صادق فى الرسالة فالذى ختم به كلامه أقوى من كل ما تقدم وأجمع (الخامس) فان قيل كيف قال رب السموات والارض وما بينهما على التثنية والمرجوع اليه مجموع جوابه أريد ما بين الجهتين فان قيل ذكر السموات والارض وما بينهما قد استوعب الخلائق كلهم فما معنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب جوابه قد عمم أولا ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم لان أقرب الاشياء من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد من انتقاله من وقت ميلاده الى وقت وفاته من حالة الى حالة أخرى ثم خصص المشرق والمغرب لان طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها على تقدير مستقيم فى فصول السنة من أظهر الدلائل (السادس) فان قيل لم قال لاجعلنك من المسجونين ولم يقل لاسجننك مع انه أخصر (جوابه) لانه لو قال لاسجننك لا يفيد الاصيرورته مسجونا اما قوله لاجعلنك من المسجونين فمعناه أنى أجعلك واحد ممن عرفت حالهم فى سجونى وكان من عادته أن ياخذ من يريد أن يسجنه فيطرحه فى بئر عميقة فردا لا يبصر فيها ولا يسمع فكان ذلك أشد من القتل (السابع) الواو فى قوله أو لو جئتك واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام معناه أتفعل بى ذلك ولو جئتك بشئ مبين اى جائيا بالمعجزة * قوله تعالى (فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين قال للملاء حوله ان هذا الساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تامرون قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الاعمش بكل ساحر عليم (المسئلة الثانية) اعلم أن قوله أو لو جئتك بشئ مبين يدل على أن الله تعالى قبل أن ألقى العصا عرفه بأنه يصيرها ثعبانا ولولا ذلك لما قال ما قال فلما ألقى عصاه ظهر ما وعده الله به فصار ثعبانا مبينا والمراد انه تبين للناظرين أنه ثعبان بحركاته وبسائر العلامات روى انه لما انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة الى فرعون وجعلت تقول ياموسى مرنى بما شئت ويقول فرعون ياموسى أسئلك بالذى أرسلك الا أخذتها فعادت عصا فان قيل كيف قال ههنا ثعبان مبين وفى آية أخرى فاذا هى حية تسعى وفى آية ثالثة كأنها جان والجان مائل الى الصغر والثعبان مائل الى الكبر جوابه أما الحية فهى اسم الجنس ثم انها لكبرها صارت ثعبانا وشبهها بالجان لخفتها وسرعتها فصح الكلامان ويحتمل انه شبهها بالشيطان لقوله تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم ويحتمل انها كانت أولا صغيرة كالجان ثم عظمت فصارت ثعبانا ثم ان موسى عليه السلام لما أتى بهذه الآية قال له فرعون هل غيرها قال نعم فاراه يده ثم أدخلها جيبه ثم أخرجها فاذا هى بيضاء يضئ الوادى من شدة بياضها من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس فعند هذا أراد فرعون تعمية هذه الحجة على قومه فذكر فيها أمورا ثلاثة (أحدها) قوله ان هذا الساحر عليم وذلك لان الزمان كان

الغالب على كل ما يريد من الامور التى من جملتها الانتقام من هؤلاء (الرحيم) المبالغ فى الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يؤاخذهم بغتة بما اجترؤا عليه من العظائم الموجبة لفنون العقوبات وفى التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه والعدة الخفية بالانتقام من الكفرة ما لا يخفى (واذ نادى ربك موسى) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من اعراضهم عن كل ما يأتيهم من الآيات التنزيلية وتكذيبهم بها اثر بيان اعراضهم عما يشاهدونه من الآيات التكوينية واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام اى واذكر لاولئك المعرضين المكذبين وقت ندائه تعالى اياه عليه الصلاة والسلام وذكرهم بما جرى على قوم فرعون بسبب تكذيبهم اياه زجرا لهم عما هم عليه من التكذيب وتحذيرا من أن يحيق بهم مثل ما حاق باضرابهم المكذبين الظالمين حتى يتضح لك أنهم لا يؤمنون بما يأتيهم من الآيات لكن لا بقياس حال هؤلاء بحال أولئك فقط بل بمشاهدة اصرارهم على ما هم عليه بعد سماع الوحى الناطق بقصتهم وعدم اتعاظهم بذلك كما يلوح به تكرير قوله تعالى ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين عقيب كل قصة وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت مع ان المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر سره مرارا (أن ائت) بمعنى اى ائت على أن أن مفسرة او بأن ائت على أنها مصدرية

حذف منها الجار (القوم الظالمين) اى بالكفر والمعاصى واستعباد بنى اسرائيل وذبح أبنائهم وليس هذا مطلع ماورد فى خبر النداء وانما هو ما فصل فى سورة طه من قوله تعالى انى أنا ربك الى قوله لنريك من آياتنا الكبرى وايراد ما جرى فى قصة واحدة من المقالات بعبارات شتى وأساليب مختلفة قدم ❊ ٥١٦ ❊ تحقيقه فى أوائل سورة الاعراف عند قوله تعالى قال أنظرنى (قوم فرعون) بدل من الاول أو عطف بيان له جىء به للايذان بانهم علم فى الظلم كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون والاقتصار على ذكر قومه للايذان بشهرة أن نفسه اول داخل فى الحكم (ألا يتقون) استئناف جىء به اثر ارساله عليه الصلاة والسلام اليهم للانذار تعجيبا من غلوهم فى الظلم وافراطهم فى العدوان وقرئ بتاء الخطاب على طريقة الالتفات المنبئ عن زيادة الغضب عليهم كأن ذكر ظلمهم أدى الى مشافهتهم بذلك وهم وان كانوا حينئذ غيبا لكنهم قد أجروا مجرى الحاضرين فى كلام المرسل اليهم من حيث انه مبلغه اليهم واسماعه مبتدأ اسماعهم مع ما فيه من مزيد الحث على التقوى لمن تدبر وتأمل وقرئ بكسر النون اكتفاء به عن ياء المتكلم وقد جوز أن يكون بمعنى ألا يا ناس اتقون نحو أن لا يسجدوا (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية ما مضى كأنه قيل فاذا قال موسى عليه السلام فقيل قال متضرعا الى الله عز وجل (رب انى أخاف أن يكذبون) من اول الامر ❊ البدل

زمان السحرة وكان عند كثير منهم ان الساحر قد يجوز أن ينتهى بسحره الى هذا الحد فلهذا روج عليهم هذا القول وثانيها قوله يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره وهذا يجرى مجرى التنفير عنه لئلا يقبلوا قوله والمعنى يريدان يخرجكم من أرضكم بما يلقيه بينكم من العداوات فيفرق جمعكم ومعلوم ان مفارقة الوطن أصعب الامور فنفرهم عنه بذلك وهذا نهاية ما يفعله المبطل فى التنفير عن المحق (وثالثها) قوله لهم فماذا تأمرون اى فما رأيكم فيه وما الذى أعمله يظهر من نفسه أنى متبع لرأيكم ومنقاد لقولكم ومثل هذا الكلام يوجب جذب القلوب وانصرافها عن العدو فعند هذه الكلمات اتفقوا على جواب واحد وهو قوله أرجه قرئ أرجئه بالهمز والتخفيف وهما لغتان يقال أرجأته وأرجيته اذا أخرته والمعنى أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة وقيل احبسه وذلك محتمل لانك اذا حبست الرجل عن حاجته فقد أخرته روى أن فرعون أراد قتله ولم يكن يصل اليه فقالوا له لا تفعل فانك ان قتلته أدخلت على الناس فى أمره شبهة ولكن أرجئه وأخاه الى أن تحشر السحرة ليقاوموه فلا يثبت له عليك حجة ثم اشاروا عليه بانفاذ حاشرين يجمعون السحرة ظنا منهم بانهم اذا كثروا غلبوه وكشفوا حاله وعارضوا قوله ان هذا الساحر عليم بقولهم بكل سحار عليم فجاؤا بكلمة الاحاطة وبصيغة المبالغة ليطيبوا قلبه وليسكنوا بعض قلقه قال صاحب الكشاف فان قلت قوله تعالى قال للملاء حوله ما العامل فى حوله قلت هو منصوب نصبين نصب فى اللفظ ونصب فى المحل والعامل فى النصب اللفظى ما يقدر فى الظرف والعامل فى النصب المحلى هو النصب على الحال ❊ قوله تعالى (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين قال نعم وانكم اذا لمن المقربين) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اليوم المعلوم يوم الزينة وميقاته وقت الضحى لانه الوقت الذى وقته لهم موسى عليه السلام من يوم الزينة فى قوله موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى والميقات ما وقت به اى حدد من مكان و زمان ومنه مواقيت الاحرام (المسئلة الثانية) اعلم ان القوم لما أشاروا بتأخير أمره وبان يجمع له السحرة ليظهر عند حضورهم فساد قول موسى عليه السلام رضى فرعون بما قالوه وحب الشىء يعمى ويصم فجمع السحرة ثم أراد أن تقع تلك المناظرة يوم عيد لهم ليكون ذلك بمحضر الخلق العظيم وكان موسى عليه السلام يطلب ذلك لتظهر حجته عليهم عند الخلق العظيم وكان هذا أيضا من لطف الله تعالى فى ظهور أمر موسى عليه السلام أما قوله وقيل للناس هل أنتم مجتمعون فالمراد أنهم بعثوا على الحضور ليشاهدوا ما يكون من الجانبين وأما قوله لعلنا نتبع السحرة فالمراد انا نرجوا أن يكون الغلبة لهم فنتبعهم فلما جاء السحرة ابتدأوا بطلب الجزاء وهو اما المال واما الجاه فبذل لهم ذلك وأكده بقوله وانكم اذا لمن المقربين لان نهاية مطلوبهم منه

(السلام (الى هرون) ... جبريل عليه [illegible]) معطوفان على أخاف (فارسل) اى (ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى
ليكون معى وأتعاضد به فى تبليغ الرسالة رتب عليه الصلاة والسلام استدعاء، ذلك على الامور الثلاثة خوف

التكذيب وضيق الصدر وازدياد ماكان فيه عليه الصلاة والسلام من حبسة اللسان بانقباض

البذل ورفع المنزلة فبذل كلا الامرين ﴿قوله تعالى (قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون)

اعلم أنهم لما اجتمعوا كان لابد من أن يبدأ موسى أو يبدأوا ثم انهم تواضعوا له فقدموه على أنفسهم وقالوا اما أن تلقى واما أن نكون أول من ألقى فلما تواضعوا له تواضع هو أيضا لهم فقدمهم على نفسه وقال ألقوا ما أنتم ملقون فان قيل كيف جاز لموسى عليه السلام أن يأمر السحرة بالقاء الحبال والعصى وذلك سحر وتلبيس وكفر والامر بمثله لا يجوز الجواب لاشبهة فى أن ذلك ليس بامر لان مراد موسى عليه السلام منهم كان أن يؤمنوا به ولا يقدموا على ما يجرى مجرى المغالبة واذا ثبت هذا وجب تاويل صيغة الامر وفيه وجوه أحدها ذلك الامر كان مشروطا والتقدير ألقوا ما أنتم ملقون ان كنتم محقين كما فى قوله فأتوا بسورة من مثله ان كنتم صادقين (وثانيها) لما تعين ذلك طريقا الى كشف الشبهة صار جائزا (وثالثها) أن هذا ليس بامر بل هو تهديد اى ان فعلتم ذلك أتينا بما نبطله كقول القائل لئن رميتنى لافعلن ولاصنعن ثم يفوق له السهم فيقول له ارم فيكون ذلك منه تهديدا (ورابعها) ما ذكرنا أنهم لما تواضعوا له وقدموه على أنفسهم فهو قدمهم على نفسه على رجاء أن يصير ذلك التواضع سببا لقبول الحق ولقد حصل ببركة ذلك التواضع ذلك المطلوب وهذا تنبيه على أن اللائق بالمسلم فى كل الاحوال التواضع لان مثل موسى عليه السلام لما لم يترك التواضع مع أولئك السحرة فبأن يفعل الواحد منا أولى أما قوله تعالى فألقوا حبالهم وعصيهم فروى عن ابن عباس أنهم لما ألقوا حبالهم وعصيهم وقد كانت الحبال مطلية بالزئبق والعصى مجوفة مملوءة من الزئبق فلما حميت اشتدت حركتها فصارت كأنها حيات تدب من كل جانب من الارض فهاب موسى عليه السلام ذلك فقيل له ألق ما فى يمينك فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ثم فتحت فاها فابتلعت كل ما رموه من حبالهم وعصيهم حتى أكلت الكل ثم أخذ موسى عصاه فاذا هى كما كانت فلما رأت السحرة ذلك قالت لفرعون كنا نساحر الناس فاذا غلبناهم بقيت الحبال والعصى وكذلك ان غلبونا ولكن هذا حق فسجدوا وآمنوا برب العالمين واعلم أن فى الآثار اختلافا فمنهم من كثر الحبال والعصى ومنهم من توسط والله أعلم بعدد ذلك والذى يدل القرآن عليه أنها كثيرة من حيث حشروا من كل بلد ولان الامر بلغ عند فرعون وقومه فى العظم مبلغا يبعد أن يدخر عنه ما يمكن من جمع السحرة وأما قوله وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون فالمراد أنهم أظهروا ما يجرى مجرى القطع على أنهم يغلبون وكل ذلك لما ظهر كان أقوى لامر موسى عليه السلام أما قوله فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون فالمراد من قوله ما يأفكون ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم فيخيلون فى حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى وسمى تلك الاشياء افكا مبالغة أما قوله فألقى السحرة

الروح الى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق لانها اذا اجتمعت تمس الحاجة الى معين يقوى قلبه و ينوب منابه اذا اعتراه حبسة حتى لا تختل دعوته ولا تنقطع حجته وليس هذا من التعلل والتوقف فى تلقى الامر فى شئ وانما هو استدعاء لما يعينه على الامتثال به وتمهيد عذر فيه وقرئ و يضيق ولا ينطلق بالنصب عطفا على يكذبون فيكونان من جملة ما يخاف منه (ولهم على ذنب) اى تبعة ذنب فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه أو سمى باسمه والمراد به قتل القبطى وتسميته ذنبا بحسب زعمهم كما ينبئ عنه قوله لهم وهذا اشارة الى قصة مبسوطة فى غير موضع (فاخاف) اى ان أتيتهم وحدى (أن يقتلون) بمقابلته قبل أداء الرسالة كما ينبغى وليس هذا أيضا تعللا وانما هو استدفاع للبلية المتوقعة قبل وقوعها

وقوله تعالى (قال كلا فاذهبا بآياتنا) حكاية لاجابته تعالى الى الطلبتين الدفع المفهوم من الردع عن الخوف وضم أخيه المفهوم من توجيه الخطاب اليهما بطريق التغليب فانه معطوف على مضمر ينبئ عنه الردع كأنه قيل ارتدع يا موسى عما تظن

فاذهب أنت ومن استدعيته وفى قوله بآياتنا رمز الى انها تدفع مايخافه وقوله تعالى (انامعكم مستمعون) تعليل للردع عن الخوف ومزيد تسلية لهما بضمان كمال الحفظ والنصرة كقوله تعالى انني معكما أسمع وأرى وحيث كان الموعود بمحضر من فرعون اعتبر ههنا فى المعية وقيل أجريا مجرى الجماعة ويأباه ماقبله ومابعده من ضمير التثنية اى سامعون مايجرى بينكما وبينه فنظهر كما عليه مثل حاله تعالى بحال ذى شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع مايجرى بينهم ليمد أولياءه ويظهرهم على أعدائهم مبالغة فى الوعد بالاعانة أواستعير الاستماع الذى هو بمعنى الاصغاء للسمع الذى هو العلم بالحروف والاصوات وهو خبر ثان اوخبر وحده ومعكم ظرف لغو والفاء فى قوله تعالى (فأتيا فرعون فقولا انارسول رب العالمين) لترتيب مابعدها على ماقبلها من الوعد الكريم وليس هذا مجرد تأكيد الامر بالذهاب لان معناه الوصول الى المأتى لامجرد التوجه اليه كالذهاب وافراد الرسول اما باعتبار رسالة كل منهما أولاتحاد مطلبهما اولانه مصدر وصف به وأن فى قوله تعالى (أن أرسل معنا بنى اسرائيل) مفسرة لتضمن الارسال المفهوم من الرسول معنى القول ومعنى ارسالهم تخليتهم وشأنهم ليذهبوا معهما الى الشام (قال) اى فرعون لموسى عليه السلام * أول * بعد ماأتياه وقالا له ماأمرا به يروى أنهما انطلقا الى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب لفرعون ان ههنا انسانا يزعم أنه رسول

ساجدين فالمراد خروا سجدا لانهم كانوا فى الطبقة العالية من علم السحر فلاجرم كانوا عالمين بمنتهى السحر فلما رأوا ذلك وشاهدوه خارجا عن حد السحر علموا أنه ليس بسحر وماكان ذلك الابركة تحققهم فى علم السحر ثم انهم عند ذلك لم يتمالكوا ان رموا بانفسهم الى الارض ساجدين كأنهم أخذوا فطرحوا طرحا فان قيل فاعل الالقاء ماهو لوصرح به هو الله تعالى بما حصل فى قلوبهم من الدواعى الجازمة الخالية عن المعارضات ولكن الاولى أن لانقدر فاعلا لان ألقى بمعنى خر وسقط أما قوله رب موسى وهرون فهو عطف بيان لرب العالمين لان فرعون كان يدعى الربوبية فأرادوا عزله ومعنى اضافته اليهما فى ذلك المقام أنه الذى دعا موسى وهرون عليهما السلام اليه * قوله تعالى (قال آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم أجمعين قالوا لاضير انا الى ربنا منقلبون انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين) اعلم أنهم لما آمنوا باجمعهم لم يأمن فرعون أن يقول الناس ان هؤلاء السحرة على كثرتهم وتظاهرهم لم يؤمنوا الاعن معرفة بصحة أمر موسى عليه السلام فيسلكون مثل طريقهم فلبس على القوم وبالغ فى التنفير عن موسى عليه السلام من وجوه (أولها) قوله آمنتم له قبل أن آذن لكم وهذا فيه ايهام ان مسارعتكم الى الايمان به دالة على انكم كنتم مائلين اليه وذلك يطرق التهمة اليهم فلعلهم قصروا فى السحر حياء له (وثانيها) قوله انه لكبيركم الذى علمكم السحر وهذا تصريح بما رمز به أولا وغرضه منه أنهم فعلوا ذلك عن مواطأة بينهم وبين موسى عليه السلام وقصروا فى السحر ليظهر أمر موسى عليه السلام والا ففى قوة السحرة أن يفعلوا مثل مافعل موسى عليه السلام وهذه شبهة قوية فى تنفير من يقبل قوله (وثالثها) قوله فلسوف تعلمون وهو وعيد مطلق وتهديد شديد (ورابعها) قوله لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم أجمعين وهذا هو الوعيد المفصل وقطع اليد والرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى والصلب معلوم وليس فى الاهلاك أقوى من ذلك وليس فى الآية أنه فعل ذلك أولم يفعل ثم انهم أجابوا عن هذه الكلمات من وجهين (الاول) قولهم لاضير انا الى ربنا منقلبون الضر والضير واحد وليس المراد ان ذلك ان وقع لم يضر وانما عنوا بالاضافة الى ماعرفوه من دار الجزاء (واعلم) ان قولهم انا الى ربنا منقلبون فيه نكتة شريفة وهى انهم قد بلغوا فى حب الله تعالى أنهم ماأرادوا شيأ سوى الوصول الى حضرته وأنهم ما آمنوا رغبة فى ثواب أو رهبة من عقاب وانما مقصودهم محض الوصول الى مرضاته والاستغراق فى أنوار معرفته وهذا أعلى درجات الصديقين (الجواب الثانى) قولهم انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا فهو اشارة منهم الى الكفر والسحر وغيرهما والطمع فى هذا الموضع يحتمل اليقين كقول ابراهيم والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ويحتمل الظن لان المرء لايعلم ماسيجىء من بعد أما قوله أن كنا

رب العالمين فقال ائذن له لعلنا نضحك فأدنا اليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام فقال عند ذلك (الم نربك
فينا) فى حجرنا ومنازلنا (وليدا) اى طفلا عبر عنه بذلك لقرب عهده بالولادة (ولبثت فينا من عمرك سنين)
قيل لبثت فيهم ثلاثين سنة ثم خرج الى مدين وأقام بها عشر سنين ثم عاد اليهم يدعوهم الى الله
عز وجل ثلاثين سنة
ثم بقى بعد الغرق خمسين
سنة وقيل وكز القبطى
وهو ابن اثنتى عشرة سنة
وفر منهم على اثر ذلك
والله أعلم (وفعلت فعلتك
التى فعلت) يعنى قتل
القبطى بعدما عدد عليه
نعمته من تربيته وتبليغه
مبلغ الرجال و بخه بما جرى
عليه من قتل خبازه
وعظم ذلك وفظعه
وقرئ فعلتك بكسر
الفاء لانها كانت نوعا
من القتل (وأنت من
الكافرين) اى بنعمتى
حيث عمدت الى قتل
رجل من خواصى أو أنت
حينئذ ممن تكفرهم الآن
وقد افترى عليه عليه
الصلاة والسلام أو جهل
أمره عليه الصلاة
والسلام حيث كان
يعايشهم بالتقية والا
فأين هو عليه الصلاة
والسلام من مشاركتهم
فى الدين فالجملة حينئذ
حال من احدى التاءين
و يجوز أن يكون حكما
مبتدأ عليه بانه من
الكافرين بالهية
أو ممن يكفرون فى دينهم
حيث كانت لهم آلهة يعبدونها أو من الكافرين بالنعم المعتادين لعظمها ومن اعتاد ذلك لا يكون مثل هذه
الجناية بدعا منه (قال) مجيبا له مصدقا له فى القتل ومكذبا فيما نسبه اليه من الكفر (فعلتها اذا وانا من الضالين)
اى من الجاهلين وقد

أول المؤمنين فالمراد لأن كنا أول المؤمنين من الجماعة الذين حضروا ذلك الموقف
أو يكون المراد من السحرة خاصة أو من رعية فرعون أو من أهل زمانهم وقرئ ان كنا
بالكسر وهو من الشرط الذى يجئ به المدل ونظيره قول القائل لمن يؤخر جعله ان كنت
عملت لك فوفنى حقى * قوله تعالى (وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى انكم متبعون
فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ان هؤلاء لشرذمة قليلون وانهم لنا لغائظون
وانا لجميع حاذرون فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها
بنى اسرائيل فاتبعوهم مشرقين فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون قال
كلا ان معى ربى سيهدين) قرئ أسر بقطع الهمزة ووصلها وسر لما ظهر أمر موسى عليه
السلام بما شاهدوه من الآية أمره الله تعالى بأن يخرج ببنى اسرائيل لما كان فى المعلوم من
تدبير الله تعالى فى موسى وتخليصه من القوم وتمليكه بلادهم وأموالهم ولم يأمن
وقد جرت تلك الغلبة الظاهرة أن يقع من فرعون ببنى اسرائيل ما يؤدى الى الاستئصال
فلذلك أمره الله تعالى أن يسرى ببنى اسرائيل وهم الذين آمنوا وكانوا من قوم موسى
ولا شبهة ان فى الكلام حذفا وهو انه أسرى بهم كما أمره الله تعالى ثم ان قوم موسى عليه
السلام قالوا للقوم فرعون ان لنا فى هذه الليلة عيدا ثم استعاروا منهم حليهم وحللهم بهذا
السبب ثم خرجوا بتلك الاموال فى الليل الى جانب البحر فلما سمع ذلك فرعون أرسل
فى المدائن حاشرين ثم انه قوى نفسه ونفس أصحابه بان وصف قوم موسى بوصفين من
أوصاف الذم ووصف قوم نفسه بصفة المدح أما وصف قوم موسى عليه السلام بالذم
(فالصفة الاولى) قوله ان هؤلاء لشرذمة قليلون والشرذمة الطائفة القليلة ومنه
قولهم ثوب شراذم للذى بلى وتقطع قطعا ذكرهم بالاسم الدال على القلة ثم جعلهم قليلا
بالوصف ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلا واختار جمع السلامة الذى هو للقلة
و يجوز أن يريد بالقلة الذلة لا قلة العدد والمعنى انهم لقلتهم لا يبالى بهم ولا يتوقع غلبتهم
وعلوهم ثم اختلف المفسرون فى عدد تلك الشرذمة فقال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا
ستمائة ألف مقاتل لا شاب فيهم دون عشرين سنة ولا شيخ يوفى على الستين سوى الحشم
وفرعون يقللهم لكثرة من معه وهذا الوصف قد يستعمل فى الكثير عند الاضافة الى
ما هو أكثر منه فروى ان فرعون خرج على فرس أدهم حصان وفى عسكره على لون فرسه
ثلثمائة الف (الصفة الثانية) قوله وانهم لنا لغائظون يعنى يفعلون افعالا تغيظنا وتضيق
صدورنا واختلفوا فى تلك الافعال على وجوه (أحدها) ما تقدم من أمر الحلى وغيره
(وثانيها) خروج بنى اسرائيل عن عبودية فرعون واستقلالهم بانفسهم (وثالثها)
مخالفتهم لهم فى الدين وخروجهم عليهم (ورابعها) ليس الا انهم لم يتخذوا فرعون الها
أما الذى وصف فرعون به قومه فهو قوله وانا لجميع حذرون وفيه ثلاث قراآت حذرون

وحاذرون وحادرون بالدال غير المعجمة * واعلم أن الصفة اذا كانت جارية على الفعل وهى اسم الفاعل واسم المفعول كالضارب والمضروب أفادت الحدوث واذا لم تكن كذلك وهى المشبهة أفادت الثبوت فمن قرأ حذرون ذهب الى انا قوم من عادتنا الحذر واستعمال الحزم ومن قرأ حاذرون فكانه ذهب الى معنى انا قوم ما عهدنا أن نحذر الا عصرنا هذا وأما من قرأ حادرون بالدال غير المعجمة فكانه ذهب الى نفى الحذر أصلا لان الحادر هو المشمر فاراد انا قوم أقوياء أشداء أو أراد انا مدججون فى السلاح والغرض من هذه المعاذير أن لا يتوهم أهل المدائن انه منكسر من قوم موسى أو خائف منهم أما قوله تعالى فاخرجناهم فالمراد انا جعلنا فى قلوبهم داعية الخروج فاستوجبت الداعية الفعل فكان الفعل مضافا الى الله تعالى لا محالة وأما قوله من جنات وعيون وكنوز فقال مجاهد سماها كنوزا لانهم لم ينفقوا منها فى طاعة الله تعالى والمقام الكريم يريد المنازل الحسنة والمجالس البهية والمعنى انا أخرجناهم من بساتينهم التى فيها عيون الماء وكنوز الذهب والفضة والمواضع التى كانوا يتنعمون فيها النسلمها الى بنى اسرائيل أما قوله كذلك فيحتمل ثلاثة أوجه النصب على اخرجناهم مثل ذلك الاخراج الذى وصفناه والجر على أنه وصف لمقام كريم اى مقام كريم مثل ذلك المقام الذى كان لهم والرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف اى الامر كذلك أما قوله فأتبعوهم اى فلحقوهم وقرئ فاتبعوهم مشرقين داخلين فى وقت الشروق من شرقت الشمس شروقا اذا طلعت أما قوله فلما تراءى الجمعان اى رأى بعضهم بعضا قال أصحاب موسى انا لمدركون اى لملحقون وقالوا يا موسى اوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا كانوا يذبحون ابناءنا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا يدركوننا اى فى هذه الساعة فيقتلوننا وقرئ فلما تراءت الفئتان انا لمدركون بتشديد الدال وكسر الراء من ادرك الشئ اذا تتابع ففنى ومنه قوله تعالى بل اداراك علمهم فى الآخرة قال الحسن جهلوا علم الاخرة والمعنى انا لمتتابعون فى الهلاك على ايديهم حتى لا يبقى منا احد فعند ذلك قال لهم كلا وذلك كالمنع مما توهموه ثم قوى نفوسهم بامرين احدهما ان معى ربى وهذا دلالة النصرة والتكفل بالمعونة (والثانى) قوله سيهدين والهدى هو طريق النجاة والخلاص واذا دله على طريق نجاته وهلاك أعدائه فقد بلغ النهاية فى النصرة * قوله تعالى (وأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه اجمعين ثم أغرقنا الآخرين ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام قوله ان معى ربى سيهدين بين تعالى بعده كيف هداه ونجاه وأهلك أعداءه بذلك التدبير الجامع لنعم الدين والدنيا فقال وأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ولا شبهة فى ان المراد فضرب فانفلق لانه

قرئ كذلك لا من الكافرين كما زعمت افتراء اى من الفاعلين فعل الجهلة والسفهاء أو من المخطئين لانه لم يتعمد قتله بل أراد تأديبه أو الذاهبين عما يؤدى اليه الوكز أو الناسين كقوله تعالى أن تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى (ففررت منكم الى ربى (لما خفتكم) أن تصيبونى بمضرة وتؤاخذونى بما لا أستحقه * بجنايتى من العاب (فوهب لى ربى حكما) اى حكمة أو نبوة (وجعلنى من المرسلين) ردأولا بذلك ما وبخه به قدحا فى نبوته ثم كر على ما عده عليه من النعمة ولم يصرح برده حيث كان صدقا غير قادح فى دعواه بل نبه على أن ذلك كان فى الحقيقة نقمة فقال (وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل) اى تلك التربية نعمة تمن بها على ظاهرا وهى فى الحقيقة تعبيدك بنى اسرائيل وقصدك اياهم بذبح أبنائهم فانه السبب فى وقوعى عندك وحصولى فى تربيتك وقيل انه مقدر بهمزة الانكار اى أو تلك نعمة تمنها على وهى أن عبدت بنى اسرائيل ومحل ان عبدت الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف او بدل من نعمة والجر باضمار الباء او النصب بحذفها وقيل تلك اشارة الى خصلة شنعاء مبهمة وأن عبدت عطف بيان لها والمعنى تعبيدك بنى اسرائيل نعمة تمنها على وتوحيد الخطاب فى تمنها وجمعه فيما قبله لان المنة منه خاصة والخوف والفرار منه ومن ملائه (قال فرعون) لما سمع منه * كالمعلوم * عليه الصلاة والسلام تلك المقالة المتينة وشاهد تصلبه فى أمره وعدم تأثره بما قدمه من

كالمعلوم من الكلام اذ لايجوز أن ينفلق من غير ضرب ومع ذلك يأمره بالضرب لانه كالعبث ولانه تعالى جعله من معجزاته التى ظهرت بالعصا ولان انفلاقه بضربه أعظم فى النعمة عليه وأقوى لعلمهم ان ذلك انما حصل لمكان موسى عليه السلام واختلفوا فى البحر روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان موسى عليه السلام لما انتهى الى البحر مع بنى اسرائيل أمرهم أن يخوضوا البحر فامتنعوا الا يوشع بن نون فانه ضرب دابته وخاض فى البحر حتى عبر ثم رجع اليهم فأبوا أن يخوضوا فقال موسى للبحر انفرق لى فقال ماأمرت بذلك ولا يعبر على العصاة فقال موسى يارب قد أبى البحر أن ينفرق فقيل له اضرب بعصاك البحر فضربه فانفرق فكان كل فرق كالطود العظيم أى كالجبل العظيم وصار فيه اثناعشر طريقا لكل سبط منهم طريق فقال كل سبط قتل أصحابنا فعند ذلك دعا موسى عليه السلام ربه فجعلها مناظر كهيئة الطبقات حتى نظر بعضهم الى بعض على أرض يابسة وعن عطاء بن السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بنى اسرائيل و بين آل فرعون وكان يقول لبنى اسرائيل ليلحق آخركم بأولكم ويستقبل القبط فيقول رويدكم ليلحق آخركم وروى أن موسى عليه السلام قال عند ذلك يامن كان قبل كل شئ والمكون لكل شئ والكائن بعد كل شئ فأما قوله فكان كل فرق كالطود العظيم فالفرق الجزء المنفرق منه وقرئ كل فلق والمعنى واحد والطود الجبل المتطاول أى المرتفع فى السماء وهو معجز من وجوه (أحدها) ان تفرق ذلك الماء معجز (وثانيها) ان اجتماع ذلك الماء فوق كل طرف منه حتى صار كالجبل من المعجزات أيضا لانه كان لايمتنع فى الماء الذى ازيل بذلك التفريق أن يبدده الله تعالى حتى يصير كأنه لم يكن فلما جمع على الطرفين صار مؤكدا لهذا الاعجاز (وثالثها) انه ان ثبت ماروى فى الخبر انه تعالى أرسل على فرعون وقومه من الرياح والظلمة ماحيرهم فاحتبسوا القدر الذى يتكامل معه عبور بنى اسرائيل فهو معجز ثالث (ورابعها) أن جعل الله فى تلك الجدران المائية كوى ينظر منها بعضهم الى بعض فهو معجز رابع (وخامسها) أن ابقى الله تعالى تلك المسالك حتى قرب منها آل فرعون وطمعوا ان يتخلصوا من البحر كما تخلص قوم موسى عليه السلام فهو معجز خامس ✻ اما قوله تعالى وازلفنا ثم الآخرين ففيه بحثان (البحث الاول) قال ابن عباس وابن جريج وقتادة والسدى وازلفنا أى وقربنا ثم أى حيث انفلق البحر للآخرين قوم فرعون ثم فيه ثلاثة أوجه (أحدها) قربناهم من بنى اسرائيل (وثانيها) قربنا بعضهم من بعض وجمعناهم حتى لاينجو منهم أحد (وثالثها) قدمناهم الى البحر ومن الناس من قال وأزلفنا أى حبسنا فرعون وقومه عند طلبهم موسى عليه السلام بأن أظلمنا عليهم الدنيا بسحابة وقفت عليهم فوقفوا حيارى وقرئ وأزلقنا بالقاف أى أزللنا أقدامهم والمعنى اذهبنا عزهم ويحتمل أن يجعل الله طريقهم فى البحر على خلاف ماجعله لبنى اسرائيل يبسا

الابراق والارعاد شرع فى الاعتراض على دعواه عليه الصلاة والسلام فبدأ بالاستفسار عن المرسل فقال (وما رب العالمين) حكاية لماوقع فى عبارته عليه الصلاة والسلام أى أى شئ رب العالمين الذى ادعيت أنك رسوله منكرا لأن يكون للعالمين رب سواه حسبما يعرب عنه قوله أنا ربكم الاعلى وقوله ماعلمت لكم من اله غيرى وينطق به وعيده عند تمام اجوبته عليه الصلاة والسلام (قال) موسى عليه السلام مجيبا له (رب السموات والارض وما بينهما) بتعيين ماأراد بالعالمين وتفصيله لزيادة التحقيق والتقرير وحسم مادة تزوير اللعين وتشكيكه بحمل العالمين على ماتحت مملكته (ان كنتم موقنين) أى ان كنتم موقنين بالاشياء محققين لها علمتم ذلك أوان كنتم موقنين بشئ من الاشياء فهذا أولى بالايقان لظهوره وانارة دليله (قال) أى فرعون عند سماع جوابه عليه الصلاة والسلام خوفا من تأثيره فى قلوب قومه واذعانهم له (لمن حوله) من أشراف قومه قال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا خمسمائة عليهم الاساور وكانت للملوك خاصة (ألا تستمعون) مرائيا لهم أن ماسمعوه من جوابه عليه الصلاة والسلام مع كونه ممالايليق بأن يعتد به أمر حقيق بأن يتعجب منه كأنه قال ألا تستمعون مايقوله فاستمعوه وتعجبوا منه حيث يدعى خلاف أمر محقق لااشتباه فيه يريد به ربوبية نفسه (قال) عليه الصلاة

والسلام تصريحا بما كان مندرجا تحت جوابيه السابقين (ربكم ورب ابائكم الاولين) وحطاله من ادعاء الربوبية الى
مرتبة المربوبية (قال) أى فرعون لما واجهه موسى عليه السلام بما ذكر غاظه ذلك وخاف من تأثر قومه
منه فأراهم أن ماقاله
عليه الصلاة والسلام
مما لا يصدر عن العقلاء
صدالهم عن قبوله فقال
مؤكدا لمقالته الشنعاء
بحرفى التأكيد (ان
رسولكم الذى أرسل
اليكم لمجنون) ليفتنهم
بذلك ويصرفهم عن
قبول الحق وسماه رسولا
بطريق الاستهزاء
وأضافه الى مخاطبيه
ترفعا من أن يكون مرسلا
الى نفسه (قال) عليه
الصلاة والسلام (رب
المشرق والمغرب
وما بينهما) قاله عليه
الصلاة والسلام تكميلا
لجوابه الاول وتفسيراله
وتنبيها على جهلهم
وعدم فهمهم لمعنى مقالته
فان بيان ربوبيته تعالى
للسموات والارض
وما بينهما وان كان
متضمنا لبيان ربوبيته
تعالى للخافقين وما بينهما
لكن لما لم يكن فيه تصريح
باستناد حركات السموات
وما فيها وتغيرات أحوالها
وأوضاعها وكون
الارض تارة مظلمة
وأخرى منورة الى الله
تعالى ارشدهم الى طريق معرفة ربوبيته تعالى لما ذكر فان ذكر المشرق والمغرب منبئ عن شروق الشمس ﴿ وامر ﴾
وغروبها المنوطين بحركات السموات وما فيها على نمط بديع يترتب عليه هذه الاوضاع الرصينة وكل ذلك أمور حادثة
مفتقرة الى محدث

وأزلفهم (البحث الثانى) انه تعالى أضاف ذلك الازلاف الى نفسه مع أن اجتماعهم
هنالك فى طلب موسى كفر (أجاب) الجبائى عنه من وجهين الاول ان قوم فرعون
تبعوا بنى اسرائيل وبنو اسرائيل انما فعلوا ذلك بامر الله تعالى فلما كان مسيرهم
بتدبيره وهؤلاء تبعوا ذلك أضافه الى نفسه توسعا وهذا كما يتعب أحدنا فى طلب غلام له
فيجوز أن يقول اتعبنى الغلام لما حدث ذلك عند فعله (الثانى) قيل وأزلفنا ثم الآخرين
أى أزلفناهم الى الموت لاجل انهم فى ذلك الوقت قربوا من أجلهم وأنشد

وكل يوم مضى أوليلة سلفت ✲ فيها النفوس الى الآجال تزدلف

وأجاب الكعبى عنه من وجهين الاول انه تعالى لما حلم عنهم وترك البحر لهم يبسا وطمعوا
فى عبوره جازت الاضافة كالرجل يسفه عليه صاحبه مرارا فيحلم عنه فاذا تمادى فى
غيه وأراه قدرته عليه قال له انا أحوجتك الى هذا وصيرتك اليه بحلمى لا يريد بذلك انه
أراد ما فعل (الثانى) يحتمل انه أزلفهم أى جمعهم ليغرقهم عند ذلك ولكى لا يصلوا الى
موسى وقومه (والجواب) عن الاول ان الذى فعله بنو اسرائيل هل له أثر فى استجلاب
داعية قوم فرعون الى الذهاب خلفهم أو ليس له اثر فيه فان كان الاول فقد حصل
المقصود لان لفعل الله تعالى أثرا فى حصول الداعية المستلزمة لذلك الازلاف وان لم
يكن له فيه أثر البتة فقد زال التعلق فوجب أن لا تحسن الاضافة واما اذا تعب أحدنا فى
طلب غلام له فانما يجوز أن يقول اتعبنى ذلك الغلام لما أن فعل ذلك الغلام صار كالمؤثر فى
حصول ذلك التعب لانه متى فعل ذلك الفعل فالظاهر انه يصير معلوما للسيد ومتى علمه صار
علمه داعياله الى ذلك التعب ومؤثرا فيه فصحت الاضافة وبالجملة فعندنا القادر لا يمكنه
الفعل الا بالداعى فالداعى مؤثر فى صيرورة القادر مؤثرا فى ذلك الفعل فلا جرم حسنت
الاضافة (والجواب) عن الثانى وهو انه أزلفهم ليغرقهم فهو انه تعالى ما ازلفهم بل هم
بأنفسهم ازدلفوا ثم حصل الغرق بعده فكيف يجوز اضافة هذا الازلاف الى الله تعالى
اما على قولنا فانه جائز لانه تعالى هو الذى خلق الداعية المستعقبة لذلك الازدلاف
(والجواب) عن الثالث وهو ان حلمه تعالى عنهم حملهم على ذلك فنقول ذلك الحلم هل له
أثر فى استجلاب هذه الداعية أم لا وباقى التقرير كما تقدم (والجواب) عن الرابع هو
بعينه الجواب عن الثانى والله أعلم ✲ اما قوله تعالى وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم
أغرقنا الآخرين فالمعنى انه تعالى جعل البحر يبسا فى حق موسى وقومه حتى خرجوا
منه وأغرق فرعون وقومه لانه لما تكامل دخولهم البحر انطبق الماء عليهم فغرقوا فى
ذلك الماء ✲ اما قوله تعالى ان فى ذلك لآية فالمعنى ان الذى حدث فى البحر آية عجيبة من
الآيات العظام الدالة على قدرته لان أحدا من البشر لا يقدر عليه وعلى حكمته من حيث
وقع ما كان مصلحة فى الدين والدنيا وعلى صدق موسى عليه السلام من حيث كان
معجزة له وعلى اعتبار المعتبرين به أبدا فيصير تحذيرا من الاقدام على مخالفة أمر الله تعالى

وأمر رسوله ويكون فيه اعتبار لمحمد صلى الله عليه وسلم فانه قال عقيب ذلك وما كان
أكثرهم مؤمنين وفى ذلك تسلية له فقد كان يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات عليه
فنبهه الله تعالى بهذا الذكر على ان له اسوة بموسى وغيره فان الذى ظهر على موسى من
هذه المعجزات العظام التى تبهر العقول لم يمنع من أن أكثرهم كذبوه وكفروا به مع
مشاهدتهم لما شاهدوه فى البحر وغيره فكذلك انت يامحمد لا تعجب من تكذيب أكثرهم
لك واصبر على ايذائهم فلعلهم أن يصلحوا ويكون فى هذا الصبر تأكيد الحجة عليهم واما
قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم فتعلقه بما قبله ان القوم مع مشاهدة هذه الآية
الباهرة كفروا ثم انه تعالى كان عزيزا قادرا على ان يهلكهم ثم انه تعالى ما أهلكهم
بل أفاض عليهم أنواع رحمته فدل ذلك على كمال رحمته وسعة جوده وفضله * (القصة
الثانية) قصة ابراهيم عليه السلام قوله تعالى (واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لابيه
وقومه ماتعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم اذ تدعون
أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم
تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون فانهم عدو لى الا رب العالمين) اعلم انه تعالى ذكر فى
أول السورة شدة حزن محمد صلى الله عليه وسلم بسبب كفر قومه ثم انه ذكر قصة موسى
عليه السلام ليعرف محمد أن مثل تلك المحنة كانت حاصلة لموسى ثم ذكر عقبها قصة
ابراهيم عليه السلام ليعرف محمد أيضا أن حزن ابراهيم عليه السلام بهذا السبب كان
أشد من حزنه لان من عظيم المحنة على ابراهيم عليه السلام ان يرى اباه وقومه فى النار
وهو لا يتمكن من انقاذهم الا بقدر الدعاء والتنبيه فقال لهم ماتعبدون وكان ابراهيم
عليه السلام يعلم انهم عبدة أصنام ولكنه سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس ممن استحق
العبادة فى شئ كما تقول لتاجر الرقيق ما مالك وانت تعلم أن ماله الرقيق ثم تقول الرقيق
جمال وليس بمال فاجابوا ابراهيم عليه السلام بقولهم نعبد أصناما فنظل لها عاكفين
والعكوف الاقامة على الشئ وانما قالوا فنظل لانهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل
وعلم انه كان يكفيهم فى الجواب أن يقولوا نعبد أصناما ولكنهم ضموا اليه زيادة على
الجواب وهى قولهم فنظل لها عاكفين وانما ذكروا هذه الزيادة اظهارا لما فى نفوسهم
من الابتهاج والافتخار بعبادة الاصنام فقال ابراهيم عليه السلام منبها على فساد
مذهبهم هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قال صاحب الكشاف
لابد فى يسمعونكم من تقدير حذف المضاف معناه هل يسمعون دعاءكم وقرأ قتادة هل
يسمعونكم أى هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم وهل يقدرون على ذلك وتقرير هذه
الحجة التى ذكرها ابراهيم عليه السلام ان الغالب من حال من يعبد غيره ان يلتجئ اليه فى
المسئلة ليعرف مراده اذا سمع دعاءه ثم يستجيب له فى بذل منفعة أو دفع مضرة فقال لهم
فاذا كان من تعبدونه لا يسمع دعاءكم حتى يعرف مقصودكم ولو عرف ذلك لما صح أن

قادر عليم حكيم لا كنوات السموات والارض التى ربما توهم جهلة المتوهمين باستمرارها استغناءها عن الموجد المتصرف
(ان كنتم تعقلون) أى ان كنتم تعقلون شيئا من الاشياء أو ان كنتم من أهل العقل علمتم أن الامر
كما قلته وفيه ايذان بغاية
وضوح الامر بحيث
لا يشتبه على من له عقل
فى الجملة وتلويح بانهم
بمعزل من دائرة العقل
وانهم المتصفون بما
رموه عليه السلام
به من الجنون (قال) لما
سمع اللعين منه عليه
الصلاة والسلام تلك
المقالات المبنية على أساس
الحكم البالغة وشاهد
شدة حزمه وقوة عزمه
على تمشية أمره وانه
ممن لا يجارى فى حلبة
المحاورة ضرب صفحا
عن المقاولة بالانصاف
ونآى بجانبه الى عدوة
الجور والاعتساف فقال
مظهرا لما كان يضمره
عند السؤال والجواب
(لئن اتخذت الها غيرى
لاجعلنك من المسجونين)
لم يقتنع منه عليه الصلاة
والسلام بترك دعوى
الرسالة وعدم التعرض له
حتى كلفه عليه الصلاة
والسلام أن يتخذه الها
لغاية عتوه وغلوه فيما
فيه من دعوى الالوهية
وهذا صريح فى أن تعجبه
وتعجيبه من الجواب
الاول ونسبته عليه الصلاة والسلام الى الجنون فى الجواب الثانى كان لنسبته عليه الصلاة والسلام الربوبية الى غيره
وأما ما قيل من أن سؤاله كان عن حقيقة المرسل وتعجبه من جوابه كان لعدم مطابقته له لكونه بذكر أحواله
فلا يساعده النظم

يبذل النفع أو يدفع الضرر فكيف تستجيزون أن تعبدوا ماهذا وصفه فعند هذه الحجة القاهرة لم يجد أبوه وقومه مايدفعون به هذه الحجة فعدلوا الى أن قالوا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون وهذا من أقوى الدلائل على فساد التقليد ووجوب التمسك بالاستدلال اذ لو قلبنا الامر فمدحنا التقليد وذممنا الاستدلال لكان ذلك مدحا لطريقة الكفار التى ذمها الله تعالى وذما لطريقة ابراهيم عليه السلام التى مدحها الله تعالى فأجابهم ابراهيم عليه السلام بقوله أفرأيتم ماكنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون أراد به أن الباطل لايتغير بأن يكون قديما أو حديثا ولا بان يكون فى فاعليه كثرة أو قلة * أما قوله فانهم عدو لى الارب العالمين ففيه أسئلة (السؤال الاول) كيف يكون الصنم عدوا مع انه جماد جوابه من وجوه (أحدها) انه تعالى قال فى سورة مريم فى صفة الاوثان كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا فقيل فى تفسيره ان الله يحيى ماعبدوه من الاصنام حتى يقع منهم التوبيخ لهم والبراءة منهم فعلى هذا الوجه ان الاوثان ستصير أعداء لهؤلاء الكفار فى الآخرة فاطلق ابراهيم عليه السلام لفظ العداوة عليهم على هذا التأويل (وثانيها) ان الكفار لما عبدوها وعظموها ورجوها فى طلب المنافع ودفع المضار نزلت منزلة الاحياء العقلاء فى اعتقاد الكفار ثم انها صارت أسبابا لانقطاع الانسان عن السعادة ووصوله الى الشقاوة فلما نزلت هذه الاصنام منزلة الاحياء وجرت مجرى الدافع للمنفعة والجالب للمضرة لاجرم جرت مجرى الاعداء فلاجرم أطلق ابراهيم عليه السلام عليها لفظ العدو (وثالثها) المراد من قوله فانهم عدو لى عداوة من يعبدها فان قيل فلم لم يقل ان من يعبد الاصنام عدو لى ليكون الكلام حقيقة جوابه لان الذى تقدم ذكره ماعبدوه دون العابدين (السؤال الثانى) لم قال فانهم عدو لى ولم يقل فانها عدو لكم جوابه انه عليه السلام صور المسئلة فى نفسه على معنى انى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو فاجتنبتها واراهم انها نصيحة نصح بها نفسه فاذا تفكروا قالوا مانصحنا ابراهيم الا بما نصح به نفسه فيكون ذلك ادعى للقبول (السؤال الثالث) لم لم يقل فانهم اعدائى جوابه العدو والصديق يجيئان فى معنى الواحد والجماعة قال

وقوم على ذوى مرة ❁ أراهم عدوا وكانوا صديقا

ومنه قوله تعالى وهم لكم عدو وتحقيق القول فيه ماتقدم فى قوله انا رسول رب العالمين (السؤال الرابع) ماهذا الاستثناء جوابه انه استثناء منقطع كأنه قال لكن رب العالمين ❁ قوله تعالى (الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين واذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) اعلم انه تعالى لما حكى عنه انه استثنى رب العالمين حكى عنه أيضا ماوصفه به مما يستحق العبادة لاجله ثم حكى عنه ماسأله عنه اما الاوصاف فاربعة (أولها) قوله الذى خلقنى فهو يهدين واعلم انه سبحانه أثنى على نفسه بهذين الامرين فى قوله الذى خلق فسوى

الكريم ولاحال فرعون ولامقاله واللام فى المسجونين للعهد أى لاجعلنك ممن عرفت أحوالهم فى سجونى حيث كان يطرحهم فى هوة عميقة حتى يموتوا ولذلك لم يقل لاسجننك ❁ (قال أولو جئتك بشئ مبين) أى أتفعل بى ذلك ولو جئتك بشئ مبين أى موضح لصدق دعواى يريد به المعجزة فانها جامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده والتعبير عنها بالشئ للتهويل قالوا الواو فى أولو جئتك للحال دخلت عليها همزة الاستفهام أى جائيا بشئ مبين وقد سلف منا مرارا أنها للعطف وأن كلمة لو ليست لانتفاء الشئ فى الزمان الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف تعويلا على دلالة ماقبلها عليه ملاحظة قصدية الا عند القصد الى بيان الاعراب على القواعد الصناعية بل هى لبيان تحقق مايفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفى على كل حال مفروض من الاحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ماعداه من الاحوال بطريق الاولوية لما أن الشئ متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره اولى ولذلك لايذكر معه شئ من سائر الاحوال ويكتفى عنه بذكر العاطف للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الاحوال المغايرة ❁ والذى ❁

لها عند تعددها ليظهر ماذكر من تحقق الحكم على جميع الاحوال فانك اذاقلت فلان جواد يعطى ولوكان
فقيرا تريد بيان تحقق الاعطاء منه على كل حال من أحواله المفروضة فتعلق الحكم بابعدها منه ليظهر بتحققه
معه تحققه مع ماعداه من الاحوال التى لامنافاة بينها و بين الحكم بطريق الاولوية المصححة

والذى قدر فهدى واعلم أن الخلق والهداية بهما يحصل جميع المنافع لكل من يصح
الانتفاع عليه فلنتكلم فى الانسان فنقول انه مخلوق من قالب هو من عالم الخلق
والجسمانيات ومن قلب هو من عالم الامر والروحانيات وتركيب البدن الذى هو من
عالم الخلق مقدم على اعطاء القلب الذى هو من عالم الامر على ماأخبر عنه سبحانه فى قوله
فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فالتسوية اشارة الى تعديل المزاج وتركيب الامشاج
ونفخ الروح اشارة الى اللطيفة الربانية النورانية التى هى من عالم الامر وأيضا قال ولقد
خلقنا الانسان من سلالة من طين ولما تمم مراتب تغيرات الاجسام قال ثم أنشأناه خلقا
آخر وذلك اشارة الى الروح الذى هو من عالم الملائكة ولاشك أن الهداية انما تحصل من
الروح فقد ظهر بهذه الآيات ان الخلق مقدم على الهداية اما تحقيقه بحسب المباحث
الحقيقية فهو ان بدن الانسان انما يتولد عند امتزاج المنى بدم الطمث وهما انما يتولدان
من الاغذية المتولدة من تركب العناصر الاربعة وتفاعلها فاذا امتزج المنى بالدم
فلا يزال مافيها من الحار والبارد والرطب واليابس متفاعلا ومافى كل واحد منها من
القوى كاسرا سورة كيفية الآخر فحينئذ يحصل من تفاعلهما كيفية متوسطة
تستحر بالقياس الى البارد وتستبرد بالقياس الى الحار وكذا القول فى الرطب واليابس
وحينئذ يحصل الاستعداد لقبول قوى مدبرة لذلك المركب فبعضها قوى نباتية وهى
التى تجذب الغذاء ثم تمسكه ثم تهضمه ثم تدفع الفضلة المؤذية ثم تقيم تلك الاجزاء بدل
ماتحلل منها ثم تزيد فى جوهر الاعضاء طولا وعرضا ثم يفضل عن تلك المواد فضلة يمكن
أن يتولد عنها مثل ذلك ومنها قوى حيوانية بعضها مدركة كالحواس الخمس والخيال
والحفظ والذكر وبعضها فاعلة اما آمرة كالشهوة والغضب وأما مأمورة كالقوى
المركوزة فى العضلات ومنها قوى انسانية وهى امامدركة أو عاملة والقوى المدركة هى
القوى القوية على ادراك حقائق الاشياء الروحانية والجسمانية والعلوية والسفلية
ثم انك اذا فتشت عن كل واحدة من مركبات هذا العالم الجسمانى ومفرداتها وجدت
لها أشياء تلائمها وتكمل حالها واشياء تنافرها وتفسد حالها ووجدت فيها قوى جذابة
للملائم دفاعة للمنافى فقد ظهر أن صلاح الحال فى هذه الاشياء لايتم الابالخلق والهداية
اما الخلق فبتصييره موجودا بعد ان كان معدوما وأما الهداية فبتلك القوى الجذابة
للمنافع والدفاعة للمضار * فثبت أن قوله خلقنى فهو يهدين كلمة جامعة حاوية لجميع
المنافع فى الدنيا والدين ثم ههنا دقيقة وهو انه قال خلقنى فذكره بلفظ الماضى وقال
يهدين ذكره بلفظ المستقبل والسبب فى ذلك ان خلق الذات لايتجدد فى الدنيا بل لماوقع
بقى الى الامد المعلوم أماهدايته تعالى فهى ممايتكرر كل حين وأوان سواء كان ذلك
هداية فى المنافع الدنيوية وذلك بان تحكم الحواس بتميز المنافع عن المضار أوفى المنافع
الدينية وذلك بان يحكم العقل تميز الحق عن الباطل والخير عن الشر فبين بذلك انه

للاكتفاء بذكر العاطف عن تفصيلها كانك قلت فلان جواد يعطى لولم يكن فقيرا ولوكان فقيرا أى يعطى حال كونه غنيا وحال كونه فقيرا فالحال فى الحقيقة كلتا الجملتين المتعاطفتين لاالمذكورة على أن الواو للحال وتصدير المجئ بماذكر من كلمة لودون ان لبيان استبعاده فى نفسه بل بالنسبة الى فرعون والمعنى اتفعل بى ذلك حال عدم مجئ بشئ مبين وحال مجيئ به (قال فأت به ان كنت من الصادقين) أى فيمايدل عليه كلامك من أنك تأتى بشئ مبين موضح لصدق دعواك أوفى دعوى الرسالة وجواب الشرط محذوف لدلالة ماقبله عليه (فألقى عصاه فاذاهى ثعبان مبين) أى ظاهر ثعبانيته لاأنه شئ يشبهه واشتقاق الثعبان من ثعبت الماء فانثعب أى فجرته فانفجر وقدم بيان كيفية الحال فى سورة الاعراف
وسورة طه (ونزع يده) من جيبه (فاذاهى بيضاء للناظرين) قيل لمارأى فرعون الآية الاولى وقال هل لك
غيرها فاخرج يده فقال ماهذه قال فرعون يدك فمافيها فادخلها فى ابطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشى الابصار

ويصد الأفق (قال للملا حوله) اي مستقرين حوله فهو ظرف وقع موقع الحال (ان هذا لساحر عليم) فائق
في فن السحر (يريد أن يخرجكم) قسرا (من أرضكم بسحره فماذا تأمرون) بهره سلطان المعجزة وحيره حتى
حطه عن ذروة ادعاء الربوبية الى حضيض الخضوع ﴿٥٢٦﴾ لعبيده في زعمه والامتثال بأمرهم أوالى
مقام مؤامرتهم ومشا
ورتهم بعد ماكان مستقلا
في الرأي والتدبير وأظهر
استشعار الخوف من
استيلائه على ملكه
ونسبة الاخراج والارض
اليهم لتنفيرهم عن موسى
عليه السلام (قالوا
أرجه وأخاه) أخر
أمرهما وقيل احبسهما
(وابعث في المدائن
حاشرين) أي شرطا
يحشرون السحرة
(يأتوك) أي الحاشرون
(بكل سحار عليم) فائق
في فن السحر وقرئ
بكل ساحر (فجمع السحرة
لميقات يوم معلوم) هو
ماعينه موسى عليه
السلام بقوله موعدكم
يوم الزينة وأن يحشر
الناس ضحى (وقيل
للناس هل أنتم مجتمعون)
قيل لهم ذلك استبطاء لهم
في الاجتماع وحثالهم
على المبادرة اليه (لعلنا
نتبع السحرة ان كانوا
هم الغالبين) أي نتبعهم
في دينهم ان كانواهم
الغالبين لاموسى عليه
السلام وليس مرادهم
بذلك أن يتبعوا دينهم
حقيقة وانما هو أن لايتبعوا موسى عليه السلام لكنهم ساقوا كلامهم مساق الكناية حملا لهم ﴿ أما
على الاهتمام والجد في المغالبة (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لاجرا) أي أجرا عظيما (ان كنا نحن

سبحانه هو الذي خلقه بسائر ما تكامل به خلقه في الماضي دفعة واحدة وانه يهديه الى
مصالح الدين والدنيا بضروب الهدايات في كل لحظة ولمحة (وثانيها) قوله والذي هو
يطعمني ويسقين وقد دخل فيه كل ما يتصل بمنافع الرزق وذلك لانه سبحانه اذا خلق له
الطعام وملكه فلو لم يكن معه ما يتمكن به من أكله والاغتذاء به نحو الشهوة والقوة
والتميز لم تكمل هذه النعمة وذكر الطعام والشراب ونبه بذكرهما على ماعداهما
(وثالثها) قوله واذا مرضت فهو يشفين وفيه سؤال وهو انه لم قال مرضت دون
أمرضني وجوابه من وجوه (الاول) ان كثيرا من أسباب المرض يحدث بتفريط من
الانسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك ومن ثم قالت الحكماء لو قيل لاكثر الموتى ماسبب
آجالكم لقالوا التخم (الثاني) أن المرض انما يحدث باستيلاء بعض الاخلاط على بعض
وذلك الاستيلاء انما يحصل بسبب ما بينها من التنافر الطبيعي اما الصحة فهي انما تحصل
عند بقاء الاخلاط على اعتدالها وبقاؤها على اعتدالها انما يكون بسبب قاهر يقهرها
على الاجتماع وعودها الى الصحة انما يكون أيضا بسبب قاهر يقهرها على العود الى
الاجتماع والاعتدال بعد ان كانت بطباعها مشتاقة الى التفرق والنزاع فلهذا السبب
أضاف الشفاء اليه سبحانه وتعالى وما أضاف المرض اليه (وثالثها) وهو ان الشفاء
محبوب وهو من أصول النعم والمرض مكروه وليس من النعم وكان مقصود ابراهيم عليه
السلام تعديد النعم ولما لم يكن المرض من النعم لاجرم لم يضفه اليه تعالى فان نقضته
بالاماتة فجوابه ان الموت ليس بضرر لان شرط كونه ضررا وقوع الاحساس به وحال
حصول الموت لا يقع الاحساس به انما الضرر في مقدماته وذلك هو عين المرض وأيضا
فلانك قد عرفت أن الارواح اذا كملت في العلوم والاخلاق كان بقاؤها في هذه
الاجساد عين الضرر وخلاصها عنها عين السعادة بخلاف المرض (ورابعها) قوله والذي
يميتني ثم يحيين والمراد منه الاماتة في الدنيا والتخلص عن آفاتها وعقوباتها والمراد من
الاحياء المجازاة (وخامسها) قوله والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين فهو اشارة
الى ما هو مطلوب كل عاقل من الخلاص عن العذاب والفوز بالثواب واعلم ان ابراهيم
عليه السلام جمع في هذه الالفاظ جميع نعم الله تعالى من أول الخلق الى آخر الابد في
الدار الآخرة ثم ههنا أسئلة (السؤال الاول) لم قال والذي أطمع والطمع عبارة عن
الظن والرجاء وانه عليه السلام كان قاطعا بذلك جوابه أن هذا الكلام لا يستقيم
الا على مذهبنا حيث قلنا انه لا يجب على الله لاحد شئ وانه يحسن منه كل شئ
ولا اعتراض لاحد عليه في فعله وأجاب الجبائي عنه من وجهين (الاول) أن قوله والذي
أطمع ان يغفر لي خطيئتي أراد به سائر المؤمنين لانهم الذين يطمعون ولا يقطعون به
(الثاني) المراد من الطمع اليقين وهو مروي عن الحسن واجاب صاحب الكشاف بأنه
انما ذكره على هذا الوجه تعليما منه لامته كيفية الدعاء (واعلم) أن هذه الوجوه ضعيفة

أما الاول فلأن الله تعالى حكى عنه الثناء أولا والدعاء ثانيا ومن أول المدح الى آخر الدعاء كلام ابراهيم عليه السلام فجعل الشئ الواحد وهو قوله والذى أطمع أن يغفرلى خطيئتى يوم الدين كلام غيره مما يبطل نظم الكلام و يفسده وأما الثانى وهو ان الطمع هو اليقين فهذا على خلاف اللغة وأما الثالث وهو ان الغرض منه تعليم الامة فباطل أيضا لان حاصله يرجع الى انه كذب على نفسه لغرض تعليم الامة وهو باطل قطعا (السؤال الثانى) لم أسند الى نفسه الخطيئة مع ان الانبياء منزهون عن الخطايا قطعا وفى جوابه ثلاثة وجوه (أحدها) انه محمول على كذب ابراهيم عليه السلام فى قوله فعله كبيرهم وقوله انى سقيم وقوله لسارة انها أختى وهو ضعيف لان نسبة الكذب اليه غير جائز (وثانيها) انه ذكره على سبيل التواضع وهضم النفس وهذا ضعيف لانه ان كان صادقا فى هذا التواضع فقد لزم الاشكال و ان كان كاذبا فحينئذ يرجع حاصل الجواب الى الحاق المعصية به لاجل تنزيهه عن المعصية (وثالثها) وهو الجواب الصحيح أن يحمل ذلك على ترك الاولى وقد يسمى ذلك خطأ فان من ملك جوهرة وأمكنه أن يبيعها بالف ألف دينار فان باعها بدينار قيل انه أخطأ وترك الاولى على الانبياء جائز (السؤال الثالث) لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين وانما تغفر فى الدنيا جوابه لان اثرها يظهر يوم الدين وهو الآن خفى لا يعلم (السؤال الرابع) ما فائدة لى فى قوله يغفرلى خطيئتى جوابه من وجوه (أحدها) ان الاب اذا عفا عن ولده والسيد عن عبده والزوج عن زوجته فذلك فى أكثر الامر انما يكون طلبا للثواب وهربا عن العقاب أو طلبا لحسن الثناء والمحمدة أو دفعا للالم الحاصل من الرقة الجنسية واذا كان كذلك لم يكن المقصود من ذلك العفو رعاية جانب المعفو عنه بل رعاية جانب نفسه اما لتحصيل ما ينبغى أو لدفع ما لا ينبغى أما الاله سبحانه فانه كامل لذاته فيستحيل أن تحدث له صفات كمال لم تكن أو يزول عنه نقصان كان واذا كان كذلك لم يكن عفوه الا رعاية لجانب المعفو عنه فقوله والذى أطمع أن يغفرلى يعنى هو الذى اذا غفر كان غفرانه لى ولاجلى لا لاجل أمر عائد اليه البتة (وثانيها) كأنه قال خلقتنى لالى فانك حين خلقتنى ما كنت موجودا واذا لم أكن موجودا استحال تحصيل شئ لاجلى ثم مع هذا أنت خلقتنى اما لو عفوت كان ذلك العفو لاجلى فلما خلقتنى أولا مع انى ما كنت محتاجا الى ذلك الخلق فلان تغفرلى وتعفو عنى حال ما أكون فى أشد الحاجة الى العفو والمغفرة كان أولى (وثالثها) ان ابراهيم عليه السلام كان لشدة استغراقه فى بحر المعرفة شديد الفرار عن الالتفات الى الوسائط ولذلك لما قال له جبريل عليه السلام ألك حاجة قال أما اليك فلا فههنا قال أطمع أن يغفرلى خطيئتى يوم الدين أى لمجرد عبوديتى لك واحتياجى اليك تغفرلى خطيئتى لا ان تغفرها لى بواسطة شفاعة شافع * قوله تعالى (رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين واجعلنى من ورثة جنة النعيم واغفر لابى انه كان من الضالين ولا تخزنى يوم

الغالبين) لاموسى عليه السلام (قال نعم) لكم ذلك (وانكم) مع ذلك (اذا لمن المقربين) عندى قيل قال لهم تكونون أول من يدخل على وآخر من يخرج عنى وقرئ نعم بكسر العين وهما لغتان (قال لهم موسى) أى بعد ما قال له السحرة اما أن تلقى واما أن نكون أول من ألقى (ألقوا ما أنتم ملقون) ولم يرد به الامر بالسحر والتمويه بل الاذن فى تقديم ما هم فاعلوه البتة توسلا به الى اظهار الحق وابطال الباطل (فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا) أى وقد قالوا عند الالقاء (بعزة فرعون انا لنحن الغالبون) قالوا ذلك لفرط اعتقادهم فى أنفسهم واتيانهم باقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر (فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف) اى تبتلع بسرعة وقرئ تلقف بحذف احدى التاءين من تتلقف (ما يأفكون) أى ما يقلبونه من وجهه وصورته بتمويههم وتزويرهم فيخيلون حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى أو افكهم تسمية للمأفوك به مبالغة (فألقى السحرة ساجدين) أى اثر ما شاهدوا ذلك من غير تلعثم وتردد غير متمالكين كأن ملقيا ألقاهم لعلمهم بان مثل ذلك خارج عن حدود السحر وانه أمر الهى قد ظهر على يده عليه الصلاة والسلام لتصديقه وفيه دليل على ان قصارى ما ينتهى اليه همم السحرة هو التمويه والتزوير وتخييل شئ لا حقيقة له (قالوا آمنا برب العالمين) بدل اشتمال من القى او حال باضمار قد وقوله تعالى (رب موسى

وهرون) بدل من رب العالمين للتوضيح ودفع توهم ارادة فرعون حيث كان قومه الجهلة يسمونه بذلك وللاشعار بان الموجب لايمانهم به تعالى ما أجراه على أيديهما من المعجزة القاهرة (قال) أى فرعون للسحرة (آمنتم له قبل أن آذن لكم) أى بغير أن آذن لكم كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى لا أن الاذن منه ممكن أو متوقع (انه لكبيركم الذى علمكم السحر) فتواطأتم على ما فعلتم او علمكم شيئا دون شئ فلذلك غلبكم اراد بذلك التلبيس على قومه كى لا يعتقدوا انهم آمنوا عن بصيرة و ظهور حق وقرئ أآمنتم بهمزتين (فلسوف تعلمون) اى وبال ما فعلتم وقوله (لاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولاصلبنكم اجمعين) بيان لما اوعدهم به (قالوا) اى السحرة (لا ضير) لا ضرر فيه علينا وقوله تعالى (انا الى ربنا منقلبون) تعليل لعدم الضير اى لا ضير فى ذلك بل لنا فيه نفع عظيم لما يحصل لنا فى الصبر عليه لوجه الله تعالى من تكفير الخطايا والثواب العظيم او لا ضير علينا فيما تتوعدنا به من القتل انه لا بد لنا من الانقلاب الى ربنا بسبب من اسباب الموت والقتل أهونها وارجاها وقوله تعالى (انا نطمع ان يغفر لها ربنا خطايانا ان كنا) اى لأن كنا (اول المؤمنين) اى من اتباع فرعون او من اهل المشهد تعليل ثان لنفى الضير اى لا ضير علينا فى قتلك انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا لكوننا اول المؤمنين

يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم) اعلم أن الله تعالى لما حكى عن ابراهيم عليه السلام ثناءه على الله تعالى ذكر بعد ذلك دعاءه ومسئلته وذلك تنبيه على أن تقديم الثناء على الدعاء من المهمات وتحقيق الكلام فيه أن هذه الارواح البشرية من جنس الملائكة فكلما كان اشتغالها بمعرفة الله تعالى ومحبته والانجذاب الى عالم الروحانيات أشد كانت مشاكلتها للملائكة اتم فكانت أقوى على التصرف فى أجسام هذا العالم وكلما كان اشتغالها بلذات هذا العالم واستغراقها فى ظلمات هذه الجسمانيات أشد كانت مشاكلتها للبهائم أشد فكانت أكثر عجزا وضعفا وأقل تأثيرا فى هذا العالم فمن أراد أن يشتغل بالدعاء يجب أن يقدم عليه ثناء الله تعالى وذكر عظمته وكبريائه حتى انه بسبب ذلك الذكر يصير مستغرقا فى معرفة الله ومحبته ويصير قريب المشاكلة من الملائكة فيحصل له بسبب تلك المشاكلة قوة الهية سماوية فيصير مبدأ لحدوث ذلك الشئ الذى هو المطلوب بالدعاء فهذا هو الكشف عن ماهية الدعاء وظهر أن تقديم الثناء على الدعاء من الواجبات وظهر به تحقيق قوله عليه السلام حكاية عن الله تعالى من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين فان قال قائل لم لم يقتصر ابراهيم عليه السلام على الثناء لا سيما وروى عنه أيضا انه قال حسبى من سؤالى علمه بحالى (فالجواب) انه عليه السلام انما ذكر ذلك حين كان مشتغلا بدعوة الخلق الى الحق ألا ترى انه قال فانهم عدو لى الا رب العالمين ثم ذكر الثناء ثم ذكر الدعاء لان الشارع لا بد له من تعليم الشرع فاما حين ما خلا بنفسه ولم يكن غرضه تعليم الشرع كان يقتصر على قوله حسبى من سؤالى علمه بحالى (البحث الثانى) فى الامور التى طلبها فى الدعاء وهى مطالب (المطلوب الاول) قوله رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين ولقد أجابه الله تعالى حيث قال وانه فى الآخرة لمن الصالحين وفيه مطالب أحدها انه لا يجوز تفسير الحكم بالنبوة لان النبوة كانت حاصلة فلو طلب النبوة لكانت النبوة المطلوبة اما عين النبوة الحاصلة أو غيرها والاول محال لان تحصيل الحاصل محال والثانى محال لانه يمتنع أن يكون الشخص الواحد نبيا مرتين بل المراد من الحكم ما هو كمال القوة النظرية وذلك بادراك الحق ومن قوله وألحقنى بالصالحين كمال القوة العملية وذلك بان يكون عاملا بالخير فان كمال الانسان أن يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به وانما قدم قوله رب هب لى حكما على قوله وألحقنى بالصالحين لما ان القوة النظرية مقدمة على القوة العملية بالشرف وبالذات وأيضا فانه يمكنه أن يعلم الحق وان لم يعمل بالخير وعكسه غير ممكن ولان العلم صفة الروح والعمل صفة البدن ولما كان الروح أشرف من البدن كان العلم أفضل من العمل وانما فسرنا معرفة الاشياء بالحكم وذلك لان الانسان لا يعرف حقائق الاشياء الا اذا استحضر فى ذهنه صور الماهيات ثم نسب بعضها الى بعض بالنفى أو بالاثبات وتلك النسبة هى الحكم ثم ان كانت النسب الذهنية مطابقة للنسب

﴿ الخارجية ﴾

وقرئ أن كنا على الشرط لهضم النفس وعدم الثقة بالخاتمة او على طريقة قول المدل بأمره كقول العامل لمستاجر
أخر أجرته ان كنت عملت لك فوفني حقي (وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادي) وذلك بعد بضع سنين أقام بين أظهرهم
يدعوهم الى الحق ويظهر لهم الآيات فلم ﴿٥٢٩﴾ يزيدوا الا عتوا وعنادا حسبما فصل في سورة الاعراف بقوله
تعالى ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين الآيات وقرئ بكسر النون ووصل الالف من سرى وقرئ أن سر من السير (انكم متبعون) تعليل للامر بالاسراء أي يتبعكم فرعون وجنوده مصبحين وأسر بمن معك حتى لايدركوكم قبل الوصول الى البحر فيدخلوا مداخلكم فأطبقه عليهم فأغرقهم (فأرسل فرعون) حين أخبر بمسيرهم (في المدائن حاشرين) جامعين للعساكر ليتبعوهم (ان هؤلاء) يريد بني اسرائيل (لشرذمة قليلون) استقلهم وهم ستمائة ألف وسبعون ألفا بالنسبة الى جنوده اذ روي انه أرسل في اثرهم ألف ألف وخمسمائة ملك مسور مع كل ملك ألف وخرج فرعون في جمع عظيم وكانت مقدمته سبعمائة ألف رجل على حصان وعلى رأسه بيضة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما خرج فرعون في ألف
ألف حصان سوى ﴿٦٧ س﴾ الاناث (وانهم لنا لغائظون) أي فاعلون مايغيظنا (وانا لجميع حاذرون) يريد
أنهم لقلتهم لايبالى بهم ولايتوقع غلبتهم وعلوهم ولكنهم يفعلون أفعالا تغيظنا وتضيق صدورنا ونحن قوم من عادتنا
التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الامور فاذا خرج علينا خارج سارعنا الى اطفاء نائرة فساده وهذه معاذير اعتذر بها

الخارجية كانت النسب الذهنية ممتنعة التغير فكانت مستحكمة قوية فمثل هذا الادراك
يسمى حكمة وحكما وهو المراد من قوله عليه السلام ارنا الاشياء كما هي وأما الصلاح
فهو كون القوة العاقلة متوسطة بين رذيلتي الافراط والتفريط وذلك لان
الافراط في أحد الجانبين تفريط في الجانب الآخر وبالعكس فالصلاح لايحصل الا
بالاعتدال ولما كان الاعتدال الحقيقي شيئا واحدا لايقبل القسمة البتة والافكار
البشرية في هذا العالم قاصرة عن ادراك أمثال هذه الاشياء لاجرم لاينفك البشر
عن الخروج عن ذلك الحد وان قل الا أن خروج المقربين عنه يكون في القلة
بحيث لايحس به وخروج العصاة عنه يكون متفاحشا جدا فقد ظهر من هذا تحقيق
ماقيل حسنات الابرار سيئات المقربين وظهر احتياج ابراهيم عليه السلام الى
أن يقول وألحقني بالصالحين (المطلب الثاني) لما ثبت أن المراد من الحكم العلم
ثبت أنه عليه السلام طلب من الله أن يعطيه العلم بالله تعالى وبصفاته وهذا يدل على
أن معرفة الله تعالى لاتحصل في قلب العبد الا بخلق الله تعالى وقوله وألحقني بالصالحين
يدل على ان كون العبد صالحا ليس الا بخلق الله تعالى وحمل هذه الاشياء على
الالطاف بعيد لان عند الخصم كل ما في قدرة الله تعالى من الالطاف فقد فعله فلو صرفنا
الدعاء اليه لكان ذلك طلبا لتحصيل الحاصل وهو فاسد (المطلب الثالث) أن الحكم
المطلوب في الدعاء اما أن يكون هو العلم بالله أو بغيره والثاني باطل لان الانسان حال
كونه مستحضرا للعلم بالشيء لايمكنه أن يكون مستحضر العلم بشيء آخر فلو كان المطلوب
بهذا الدعاء العلم بغير الله تعالى والعلم بغير الله تعالى شاغل عن الاستغراق في العلم
بالله كان هذا السؤال طلبا لما يشغله عن الاستغراق في العلم بالله تعالى وذلك غير جائز
لانه لاكمال فوق ذلك الاستغراق فاذن المطلوب بهذا الدعاء هو العلم بالله ثم ان ذلك العلم
اما ان يكون هو العلم بالله تعالى الذي هو شرط صحة الايمان أو غيره والاول باطل لانه لما
وجب أن يكون حاصلا لكل من المؤمنين فكيف لايكون حاصلا عند ابراهيم عليه السلام
واذا كان حاصلا عنده امتنع طلب تحصيله فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء درجات في
معرفة الله تعالى أزيد من العلم بوجوده وبانه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز وبانه عالم قادر حي
وماذاك الا الوقوف على صفات الجلال أو الوقوف على حقيقة الذات أو ظهور نور
تلك المعرفة في القلب ثم هناك أحوال لايعبر عنها المقال ولايشرحها الخيال ومن أراد
أن يصل اليها فليكن من الواصلين دون السامعين للاثر (المطلوب الثاني) قوله
واجعل لي لسان صدق في الآخرين وفيه ثلاث تأويلات (التأويل الاول) انه عليه
السلام ابتدأ بطلب ماهو الكمال الذاتي للانسان في الدنيا والآخرة وهو طلب الحكم
الذي هو العلم ثم طلب بعده كمالات الدنيا وبعد ذلك طلب كمالات الآخرة فاما كمالات
الدنيا فبعضها داخلية وبعضها خارجية اما الداخلية فهي الخلق الظاهر والخلق الباطن

الى أهل المدائن لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه وقرئ حذرون فالاول دال على التجدد والثانى على الثبات وقيل الحاذر المؤدى فى السلاح وقرئ حادرون بالدال المهملة أى أقوياء واشداء وقيل مدججون فى السلاح قد كسبهم ذلك حدارة فى أجسامهم (فأخرجناهم) بأن خلقنا فيهم

داعية الخروج بهذا السبب فحملتهم عليه (من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم) كانت لهم جملة ذلك (كذلك) اما مصدر تشبيهى لاخرجنا أى مثل ذلك الاخراج العجيب أخرجناهم أو صفة لمقام كريم أى من مقام كريم كائن كذلك (وأورثناها بنى اسرائيل) أى ملكناها اياها على طريقة تمليك مال المورث للوارث كأنهم ملكوها من حين خروج أربابها منها قبل أن يقبضوها ويتسلموها (فأتبعوهم) أى فلحقوهم وقرئ فاتبعوهم (مشرقين) داخلين فى وقت شروق الشمس أى طلوعها (فلما ترأى الجمعان) تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر وقرئ تراءت الفئتان (قال أصحاب موسى انا لمدركون) جاؤا بالجملة الاسمية مؤكدة بحرفى التأكيد للدلالة على تحقق الادراك واللحاق وتنجزهما وقرئ المدركون بتشديد الدال من ادرك الشئ اذا تتابع ففنى أى المتتابعون فى الهلاك على أيديهم (قال كلا) ارتدعوا عن ذلك فانهم لا يدركونكم (ان معى ربى) بالنصرة والهداية (سيهدين) البتة الى طريق النجاة منهم بالكلية روى أن يوشع عليه السلام قال ياكليم الله أين أمرت فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا

والخلق الظاهر أشد جسمانية والخلق الباطن أشد روحانية فترك ابراهيم عليه السلام الامر الجسمانى وهو الخلق الظاهر وطلب الامر الروحانى وهو الخلق الباطن وهو المراد بقوله وألحقنى بالصالحين واما الخارجية فهى المال والجاه والمال أشد جسمانية والجاه أشد روحانية فترك ابراهيم عليه السلام الامر الجسمانى وهو المال وطلب الامر الروحانى وهو الجاه والذكر الجميل الباقى على وجه الدهر وهو المراد بقوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين قال ابن عباس رضى الله عنهما وقد اعطاه الله ذلك بقوله وتركنا عليه فى الآخرين فان قيل وأى غرض له فى أن يثنى عليه ويمدح جوابه من جهتين (الاول) وهو على لسان الحكمة أن الارواح البشرية قد بينا أنها مؤثرة فى الجملة الا أن بعضها قد يكون ضعيفا فيعجز عن التأثير فاذا اجتمعت طائفة منها فربما قوى مجموعها على ما عجزت الآحاد عنه وهذا المعنى مشاهد فى المؤثرات الجسمانية اذا ثبت هذا فالانسان الواحد اذا كان بحيث يثنى عليه الجمع العظيم ويمدحونه ويعظمونه فربما صار انصراف هممهم عند الاجتماع اليه سببا لحصول زيادة كمال له (الثانى) وهو على لسان الكمال أمن صار ممدوحا فيما بين الناس بسبب ما عنده من الفضائل فانه يصير ذلك المدح وتلك الشهرة داعيا لغيره الى اكتساب مثل تلك الفضائل (التأويل الثانى) انه سأل ربه أن يجعل من ذريته فى آخر الزمان من يكون داعيا الى الله تعالى وذلك هو محمد صلى الله عليه وسلم فالمراد من قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم (التأويل الثالث) قال بعضهم المراد اتفاق أهل الاديان على حبه ثم ان الله تعالى أعطاه ذلك لانك لاترى أهل دين الا ويتوالون ابراهيم عليه السلام وقدح بعضهم فيه بانه لاتقوى الرغبة فى مدح الكافر وجوابه أنه ليس المقصود مدح الكافر من حيث هو كافر بل المقصود أن يكون ممدوح كل انسان ومحبوب كل قلب (المطلوب الثالث) قوله واجعلنى من ورثة جنة النعيم اعلم انه لما طلب سعادة الدنيا طلب بعدها سعادة الآخرة وهى جنة النعيم وشبهها بما يورث لانه الذى يغتنم فى الدنيا فشبه غنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا (المطلوب الرابع) قوله واغفر لابى انه كان من الضالين واعلم انه لما فرغ عن طلب السعادات الدنيوية والاخروية لنفسه طلبها لاشد الناس التصاقا به وهو أبوه فقال واغفر لابى ثم فيه وجوه (الاول) أن المغفرة مشروطة بالاسلام وطلب المشروط متضمن لطلب الشرط فقوله واغفر لابى يرجع حاصله الى انه دعا لابيه بالاسلام (الثانى) ان اباه وعده الاسلام كما قال تعالى وما كان استغفار ابراهيم لابيه الاعن موعدة وعدها اياه فدعا له لهذا الشرط ولا يمتنع الدعاء للكافر على هذا الشرط فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه وهذا ضعيف لان الدعاء بهذا الشرط جائز للكافر فلو كان دعاؤه مشروطا لما منعه الله عنه (الثالث) أن اباه قال له انه على دينه باطنا وعلى دين نمرود ظاهرا تقية وخوفا فدعا له لاعتقاده ان الامر كذلك فلما تبين له خلاف ذلك تبرأ منه ولذلك قال فى دعائه انه كان من الضالين فلولا اعتقاده فيه

قال عليه السلام ههنا فخاض يوشع عليه السلام الماء وضرب موسى عليه السلام بعصاه البحر فكان ما كان وروى أن رجلا مؤمنا من آل فرعون كان بين يدى موسى عليه السلام فقال أين أمرت فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون قال عليه السلام أمرت بالبحر ولعلى أومر بما اصنع فأمر بما أمر به وذلك قوله تعالى (فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر) القلزم او النيل (فانفلق) الفاء فصيحة أى فضرب فانفلق فصار اثنى عشر فرقا بعدد الاسباط بينهن مسالك (فكان كل فرق) حاصل بالانفلاق (كالطود العظيم) كالجبل المنيف الثابت فى مقره فدخلوا فى شعابها كل سبط فى شعب منها (وأزلفنا) أى قربنا (ثم الآخرين) أى فرعون وقومه حتى دخلوا على اثرهم مداخلهم (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين) بحفظ البحر على تلك الهيئة الى أن عبروا الى البر (ثم أغرقنا الآخرين) باطباقه عليهم (ان فى ذلك) أى فى جميع ما فصل مما صدر عن موسى عليه السلام وظهر على يديه من المعجزات القاهرة ومما فعل فرعون وقومه من الاقوال والافعال وما فعل بهم من العذاب والنكال وما فى اسم الاشارة من معنى البعد لتهويل أمر المشار اليه وتفظيعه كتنكير الآية فى قوله تعالى (لآية) أى آية آية أو آية عظيمة لا تكاد توصف موجبة لأن يعتبر بها المعتبرون ويقيسوا شأن النبى عليه الصلاة والسلام بشأن موسى عليه السلام وحال أنفسهم بحال أولئك المهلكين ويجتنبوا من تعاطى ما كانوا يتعاطونه من الكفر والمعاصى ومخالفة الرسول ويؤمنوا بالله تعالى ويطيعوا

انه فى الحال ليس بضال لما قال ذلك (المطلوب الخامس) قوله ولا تخزنى يوم يبعثون قال صاحب الكشاف الاخزاء من الخزى وهو الهوان أو من الخزاية وهى الحياء وهنا أبحاث (أحدها) ان قوله ولا تخزنى يدل على انه لا يجب على الله تعالى شئ على ما بيناه فى قوله والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين (وثانيها) ان لقائل أن يقول لما قال أولا واجعلنى من ورثة جنة النعيم ومتى حصلت الجنة امتنع حصول الخزى فكيف قال بعده ولا تخزنى يوم يبعثون وأيضا فقد قال تعالى ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين فما كان نصيب الكفار فقط فكيف يخافه المعصوم جوابه كما ان حسنات الابرار سيئات المقربين فكذا درجات الابرار دركات المقربين وخزى كل واحد بما يليق به (وثالثها) قال صاحب الكشاف فى يبعثون ضميرا لعباد لانه معلوم أو ضمير الضالين اما قوله الا من اتى الله بقلب سليم فاعلم انه تعالى اكرمه بهذا الوصف حيث قال وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم * ثم فى هذا الاستثناء وجوه (أحدها) انه اذا قيل لك هل لزيد مال وبنون فتقول ماله وبنوه سلامة قلبه تريد نفى المال والبنين عنه واثبات سلامة القلب له بدلا عن ذلك فكذا فى هذه الآية (وثانيها) أن نحمل الكلام على المعنى ونجعل المال والبنين فى معنى الغنى كأنه قيل يوم لا ينفع غنى الاغنى من أتى الله بقلب سليم لان غنى الرجل فى دينه بسلامة قلبه كما ان غناه فى دنياه بماله وبنيه (وثالثها) ان نجعل من مفعولا لينفع أى لا ينفع مال ولا بنون الا رجلا سلم قلبه مع ماله حيث انفقه فى طاعة الله تعالى ومع بنيه حيث أرشدهم الى الدين ويجوز على هذا الا من اتى الله بقلب سليم من فتنة المال والبنين أما السليم ففيه ثلاثة أوجه (الاول) وهو الاصح أن المراد منه سلامة القلب عن الجهل والاخلاق الرذيلة وذلك لانه كما أن صحة البدن وسلامته عبارة عن حصول ما ينبغى من المزاج والتركيب والاتصال ومرضه عبارة عن زوال احد تلك الامور فكذلك سلامة القلب عبارة عن حصول ما ينبغى له وهو العلم والخلق الفاضل ومرضه عبارة عن زوال أحدهما فقوله الا من اتى الله بقلب سليم أى يكون خاليا عن العقائد الفاسدة والميل الى شهوات الدنيا ولذاتها فان قيل فظاهر هذه الآية يقتضى أن من سلم قلبه كان ناجيا وانه لا حاجة فيه الى سلامة اللسان واليد جوابه أن القلب مؤثر واللسان والجوارح تبع فلو كان القلب سليما لكانا سليمين لا محالة وحيث لم يسلما ثبت عدم سلامة القلب (التأويل الثانى) ان السليم هو اللديغ من خشية الله تعالى (التأويل الثالث) ان السليم هو الذى سلم واسلم وسالم واستسلم والله أعلم * قوله تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس أجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفى ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا الا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم

من الامور التي من جملتها الانتقام من المكذبين (الرحيم) المبالغ في الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يعجل عقوبتهم بعدم ايمانهم بعد مشاهدة هذه الآية العظيمة بطريق الوحي مع كمال استحقاقهم لذلك هذا هو الذي يقتضيه جزالة النظم الكريم من مطالع السورة الكريمة الى آخر القصص السبع بل الى آخر السورة الكريمة اقتضاء بينا لا ريب فيه واما ما قيل من أن ضمير أكثرهم لاهل عصر فرعون من القبط وغيرهم وأن المعنى وما كان أكثر أهل مصر مؤمنين حيث لم يؤمن منهم الا آسية وحزقيل ومريم ابنة ياموشا التي دلت على تابوت يوسف عليه السلام وبنوا اسرائيل بعد ما نجوا سألوا بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فبمعزل من التحقيق كيف لا ومساق كل قصة من القصص الواردة في السورة الكريمة سوى قصة ابراهيم عليه السلام انما هو لبيان حال طائفة معينة قد عتوا عن أمر ربهم وعصوا رسله عليهم الصلاة والسلام كما يفصح عنه تصدير القصص بتكذيبهم المرسلين بعد ما شاهدوا بايديهم من الآيات العظام ما يوجب عليهم الايمان ويزجرهم عن الكفر والعصيان وأصروا على ماهم عليه من التكذيب فعاقبهم الله تعالى لذلك بالعقوبة الدنيوية وقطع دابرهم بالكلية فكيف يمكن أن يخبر عنهم بعدم ايمان أكثرهم لا سيما بعد الاخبار باهلاكهم وعد المؤمنين من جملتهم أولا واخراجهم منها آخرا مع عدم مشاركتهم لهم في شيء مما حكى عنهم من الجنايات أصلا مما يوجب تنزيه التنزيل عن أمثاله فتدبر (واتل عليهم) عطف على المضمر المقدر

من المؤمنين وانهم تمنوا الرجعة الى الدنيا ولو في مثل هذا الموضع في معنى التمني كانه قيل فليت لنا كرة وذلك لما بين معنى لو وليت من التلاقي في التقدير ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف الجواب وهو لفعلنا كيت وكيت (قال) الجبائي ان قولهم فنكون من المؤمنين ليس بخبر عن ايمانهم لكنه خبر عن عزمهم لانه لو كان خبرا عن ايمانهم لوجب أن يكون صدقا لان الكذب لا يقع من أهل الآخرة وقد أخبر الله تعالى بخلاف ذلك في قوله ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وقد تقدم في سورة الانعام بيان فساد هذا الكلام ثم بين سبحانه أن فيما ذكره من قصة ابراهيم عليه السلام لآية لمن يريد أن يستدل بذلك ثم قال وما كان أكثرهم مؤمنين والاكثرون من المفسرين حملوه على قوم ابراهيم ثم بين تعالى أن مع كل هذه الدلائل فاكثر قومه لم يؤمنوا به فيكون هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم فيما يجده من تكذيب قومه فاما قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم فمعناه أنه قادر على تعجيل الانتقام لكنه رحيم بالامهال لكي يؤمنوا * (القصة الثالثة) قصة نوح عليه السلام قوله تعالى (كذبت قوم نوح المرسلين اذ قال لهم اخوهم نوح الا تتقون انى لكم رسول امين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون قال وما علمى بما كانوا يعملون ان حسابهم الا على ربى لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين ان أنا الا نذير مبين قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين قال رب ان قومى كذبون فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين فانجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مومنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) اعلم انه تعالى لما قص على محمد صلى الله عليه وسلم خبر موسى وابراهيم تسلية له فيما يلقاه من قومه قص عليه أيضا نبأ نوح عليه السلام فقد كان نبؤه أعظم من نبأ غيره لانه كان يدعوهم ألف سنة الا خمسين عاما ومع ذلك كذبه قومه فقال كذبت قوم نوح وانما قال كذبت لان القوم مؤنث وتصغيرها قويمة وانما حكى عنهم أنهم كذبوا المرسلين لوجهين (أحدهما) انهم وان كذبوا نوحا لكن تكذيبه في المعنى يتضمن تكذيب غيره لان طريقة معرفة الرسل لا تختلف فمن حيث المعنى حكى عنهم انهم كذبوا المرسلين (وثانيهما) أن قوم نوح كذبوا بجميع رسل الله تعالى اما لانهم كانوا من الزنادقة أو من البراهمة وأما قوله أخوهم فلانه كان منهم من قول العرب يا أخا بنى تميم يريدون يا واحدا منهم ثم انه سبحانه حكى عن نوح عليه السلام انه أولا خوفهم وثانيا أنه وصف نفسه اما التخويف فهو قوله ألا تتقون واعلم أن القوم انما قبلوا تلك الاديان للتقليد والمقلد اذا خوف خاف وما لم يحصل الخوف في قلبه لا يشتغل بالاستدلال فلهذا السبب قدم على جميع كلماته قوله ألا تتقون * وأما وصف نفسه فذلك بأمرين (أحدهما) قوله انى لكم رسول امين وذلك لانه كان فيهم مشهورا بالامانة كمحمد صلى الله عليه وسلم في قريش فكانه قال كنت امينا من قبل فكيف تتهموني اليوم

رسوله كيلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك أوان فيما فصل من القصة من حيث حكايته عليه الصلاة والسلام اياها على ما هي عليه من غير أن يسمعها من أحد لآية عظيمة دالة على أن ذلك بطريق الوحي الصادق موجبة للايمان بالله تعالى وحده وطاعة رسوله عليه السلام (وما كان أكثرهم) أي أكثر هؤلاء

الذين سمعوا قصتهم منه عليه الصلاة والسلام (مؤمنين) لا بأن يقيسوا شأنه بشأن موسى عليهما السلام وحال أنفسهم بحال أولئك المكذبين المهلكين ولا بأن يتدبروا في حكايته عليه الصلاة والسلام لقصتهم من غير أن يسمعها من أحد مع كون كل من الطريقين مما يؤدي الى الايمان قطعا ومعنى ما كان أكثرهم مؤمنين وما أكثرهم مؤمنين على أن كان زائدة كما هو رأي سيبويه فيكون كقوله تعالى وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وهو اخبار منه تعالى بما سيكون من المشركين بعد ما سمعوا الآيات الناطقة بالقصة تقرير لما مر من قوله تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا الخ وايثار الجملة الاسمية للدلالة على استقرارهم على عدم الايمان واستمرارهم عليه ويجوز أن يجعل كان بمعنى صار كما فعل ذلك في قوله تعالى وكان من الكافرين فالمعنى وما صار أكثرهم مؤمنين مع ما سمعوا من الآية العظيمة الموجبة له بما ذكر من الطريقين فيكون الاخبار بعدم الصيرورة قبل الحدوث للدلالة على كمال تحققه وتقرره كقوله تعالى أتى أمر الله الآية (وان ربك لهو العزيز) الغالب على كل ما يريده

اعلم أن ابراهيم عليه السلام ذكر في وصف هذا اليوم أمورا (أحدها) قوله وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين والمعنى أن الجنة قد تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون اليها ويفرحون بأنهم المحشورون اليها والنار تكون بارزة مكشوفة للاشقياء بمرأى منهم يتحسرون على انهم المسوقون اليها قال الله تعالى في صفة أهل الثواب وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد وقال في صفة أهل العقاب فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وانما يفعل الله تعالى ذلك ليكون سرورا معجلا للمؤمنين وغما عظيما للكافرين (وثانيها) قوله وقيل لهم أينما كنتم الى قوله وجنود ابليس أجمعون والمعنى اين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لانهم وآلهتهم وقود النار وهو قوله فكبكبوا فيها هم والغاوون أي الآلهة وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى كأنه اذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها وجنود ابليس متبعوه من عصاة الانس والجن (وثالثها) قوله قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين * واعلم ان ظاهر ذلك ان من عبد خاصم المعبود وخاطبه بهذا الكلام فليس يخلو حال الاصنام من وجهين اما ان يخلقها الله تعالى في الآخرة جمادا يعذب بها اهل النار فحينئذ لا يصح ان تخاطب ويجب حمل قولهم اذ نسويكم برب العالمين على انه ليس بخطاب لهم او يقال انه تعالى يحييها في النار وذلك ايضا غير جائز لانه لا ذنب لها بأن عبدها غيرها فالاقرب انهم ذكروا ذلك لما رأوا صورها على وجه الاعتراف بالخطأ العظيم وعلى وجه الندامة لا على سبيل المخاطبة والذي يحمل على أنه خطاب في الحقيقة قولهم وما أضلنا الا المجرمون وأرادوا بذلك من دعاهم الى عبادة الاصنام من الجن والانس وهو كقولهم ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا فاما قولهم فما لنا من شافعين كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين ولا صديق كما نرى لهم أصدقاء لانه لا يتصادق في الآخرة الا المؤمنون واما اهل النار فبينهم التعادي والتباغض قال تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين أو فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء واصدقاء لانهم كانوا يعتقدون في اصنامهم انهم شفعاؤهم عند الله تعالى وكان لهم اصدقاء من شياطين الانس اوارادوا انهم ان وقعوا في مهلكة علموا أن الشفعاء والاصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم فقصدوا بنفيهم نفي ما تعلق بهم من النفع لان ما لا ينفع فحكمه حكم المعدوم والحميم من الاحتمام وهو الاهتمام وهو الذي يهمه ما يهمك اومن الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخالص وانما جمع الشفعاء ووحد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق فان الرجل الممتحن بارهاق ظالم قد ينهض جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته رحمة له وأما الصديق وهو الصادق في ودادك فاعز من بيض الانوق ويجوز أن يريد بالصديق الجمع ثم حكى تعالى عنهم قولهم فلو أن لنا كرة فنكون

عاملا لاذ نادى الخ أى واتل على المشركين (نبأ ابراهيم) أى خبره العظيم الشان حسبما اوحى اليك لتقف على ماذكر من عدم ايمانهم بماياتيهم من الآيات باحد الطريقين (اذقال) منصوب اماعلى الظرفية لنبأ اى نبأه وقت قوله (لأبيه وقومه) أوعلى المفعولية لاتل على أنه بدل من نبأ أى واتل عليهم وقت قوله لهم (ماتعبدون) على أن المتلو ماقاله لهم فى ذلك الوقت سألهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك ليبنى على جوابهم أن مايعبدونه بمعزل من استحقاق العبادة بالكلية (قالوا نعبد اصناما فنظل لها عاكفين) لم يقتصروا على الجواب الكافى بان يقولوا أصناما كافى قوله تعالى و يسألونك ماذا ينفقون قل العفو وقوله تعالى ماذا أنزل ربكم قالوا الحق ونظائره بل اطنبوا فيه باظهار الفعل وعطف دوام عكوفهم على أصنامهم قصدا الى ابراز مافى نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك والمراد بالظلول الدوام وقيل كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل وصلة العكوف كلمة على وايراد اللام لافادة معنى زائد كانهم قالوا فنظل لاجلها مقبلين على عبادتها اومستديرين حولها وهذا ايضا من جملة اطنابهم (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من تفصيل جوابهم (هل يسمعونكم) أى هل يسمعون دعاءكم على حذف المضاف ﴿يقال﴾ أو يسمعونكم حين تدعون كقولك سمعت زيدا يقول كيت وكيت فحذف لدلالة قوله تعالى (اذ تدعون) عليه وقرئ هل يسمعونكم من الاسماع اى هل يسمعونكم شيأ من الاشياء أو الجواب عن دعاءكم وهل يقدرون على ذلك

(وثانيهما) قوله وما أسألكم عليه من أجر أى على ما انا فيه من ادعاء الرسالة لئلا يظن به أنه دعاهم للرغبة (فان قيل) ولماذا كرر الامر بالتقوى جوابه لانه فى الاول اراد ألا تتقون مخالفتى وانا رسول الله وفى الثانى ألا تتقون مخالفتى ولست آخذا منكم أجرا فهو فى المعنى مختلف ولا تكرار فيه وقد يقول الرجل لغيره ألا تتقى الله فى عقوقى وقد ربيتك صغيرا ألا تتقى الله فى عقوقى وقد علمتك كبيرا وانما قدم الامر بتقوى الله تعالى على الامر بطاعته لان تقوى الله علة لطاعته فقدم العلة على المعلول ثم ان نوحا عليه السلام لما قال لهم ذلك أجابوه بقولهم انؤمن لك واتبعك الارذلون (قال صاحب الكشاف) وقرئ وأتباعك الارذلون جمع تابع كشاهد واشهاد اوجمع تبع كبطل وابطال والواو للحال وحقها ان يضمر بعدها قد فى واتبعك وقد جمع ارذال على الصحة وعلى التكسير فى قولهم الذين هم اراذلنا والرذالة الخسة وانما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا وقيل كانوا من أهل الصناعات الخسيسة كالحياكة والحجامة واعلم ان هذه الشبهة فى نهاية الركاكة لان نوحا عليه السلام بعث الى الخلق كافة فلا يختلف الحال فى ذلك بسبب الفقر والغنى وشرف المكاسب ودناءتها فاجابهم نوح عليه السلام بالجواب الحق وهو قوله وما علمى بما كانوا يعملون وهذا الكلام يدل على انهم نسبوهم مع ذلك الى انهم لم يؤمنوا عن نظر و بصيرة وانما آمنوا بالهوى والطمع كما حكى الله تعالى عنهم فى قوله الذين هم اراذلنا بادى الرأى ثم قال ان حسابهم الاعلى ربى معناه لانعتبر الا الظاهر من امرهم دون ما يخفى ولما قال ان حسابهم الاعلى ربى وكانوا لا يصدقون بذلك اردفه بقوله لوتشعرون ثم قال وما انا بطارد المؤمنين وذلك كالدلالة على ان القوم سألوا ابعادهم لكى يتبعوه أوليكونوا أقرب الى ذلك فبين أن الذى يمنعه عن طردهم أنهم آمنوا به ثم بين أن غرضه بما حصل من الرسالة يمنع من ذلك بقوله ان أنا الانذير مبين والمراد انى أخوف من كذبنى ولم يقبل منى فمن قبل فهو القريب ومن رد فهو البعيد ثم ان نوحا عليه السلام لما تمم هذا الجواب لم يكن منهم الا التهديد فقالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين والمعنى انهم خوفوه بان يقتل بالحجارة فعند ذلك حصل اليأس لنوح عليه السلام من فلاحهم وقال رب ان قومى كذبونى فافتح بينى و بينهم فتحا وليس الغرض منه اخبار الله تعالى بالتكذيب لعلمه أن عالم الغيب والشهادة اعلم ولكنه أراد انى لاأدعوك عليهم لما آذونى وانما أدعوك لاجلك ولاجل دينك ولانهم كذبونى فى وحيك ورسالتك فافتح بينى و بينهم أى فاحكم بينى و بينهم والفتاحة الحكومة والفتاح الحاكم لانه يفتح المستغلق والمراد من هذا الحكم انزال العقوبة عليهم لانه قال عقبه ونجنى ولولا أن المراد انزال العقوبة لما كان لذكر النجاة بعده معنى وقد تقدم القول فى قصته مشروحا فى سورة الاعراف وسورة هود * ثم قال تعالى فانجيناه ومن معه فى الفلك المشحون (قال صاحب الكشاف) الفلك السفينة وجمعه فلك قال تعالى وترى الفلك فيه مواخر فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن أسد والمشحون المملوء

وصيغة المضارع معا على حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها كأنه قيل لهم استحضروا الاحوال الماضية التى كنتم تدعونها فيها واجيبوا هل سمعوا او اسمعوا قط (او ينفعونكم) بسبب عبادتكم لها (أو يضرون) أى يضرونكم بترككم لعبادتها اذلا بد للعبادة

لاسيما عند كونها على ماوصفتم من المبالغة فيها من جلب نفع اودفع ضر (قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) اعترفوا بانها بمعزل مماذكر من السمع والمنفعة والمضرة بالمرة واضطروا الى اظهار أن لاسند لهم سوى التقليد اى ماعلمنا اوما رأينا منهم ماذكر من الامو ر بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون اى مثل عبادتنا يعبدون فاقتدينا بهم (قال افرأيتم ما كنتم تعبدون) اى أنظرتم فابصرتم أو أتأملتم فعلمتم ما كنتم تعبدونه (انتم وآباؤكم الاقدمون) حق الابصار اوحق العلم وقوله (فانهم عدولى) بيان لحال مايعبدونه بعد التنبيه على عدم علمهم بذلك اى فاعلموا انهم اعداء لعابديهم الذين يحبونهم كحب الله تعالى لما انهم يتضررون من جهتهم فوق مايتضرر الرجل من جهة عدوه اولان من يغريهم على عبادته ويحملهم عليها هو الشيطان الذى هو اعدى عدو الانسان لكنه عليه الصلاة والسلام صور الامر فى نفسه تعريضا بهم فانه انفع فى النصيحة من التصريح واشعارا بانها نصيحة بدأبها نفسه ليكون ادعى الى القبول والعدو والصديق يجيئان فى معنى الواحد والجمع ومنه قوله تعالى وهم لكم عدو شبها بالمصادر للموازنة كالقبول والولوع والحنين والصهيل

يقال شحنها عليهم خيلا ورجلا فدل ذلك على أن الذين نجوا معه كان فيهم كثرة وأن الفلك امتلأ بهم وبما صحبهم و بين تعالى انه بعد أن انجاهم اغرق الباقين وأن اغراقه لهم كان كالمتأخر عن نجاتهم * (القصة الرابعة) قصة هود عليه السلام قوله تعالى (كذبت عاد المرسلين اذ قال لهم اخوهم هود ألا تتقون انى لكم رسول امين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذى امدكم بما تعلمون أمدكم بانعام و بنين وجنات وعيون انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ان هذا الا خلق الاولين ومانحن بمعذبين فكذبوه فاهلكناهم ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) اعلم أن فاتحة هذه القصة وفاتحة قصة نوح عليه السلام واحدة فلا فائدة فى اعادة التفسير ثم انه تعالى ذكر الامور التى تكلم فيها هود عليه السلام معهم وهى ثلاثة (فاولها) قوله أتبنون بكل ريع آية تعبثون قرئ بكل ريع بالكسر والفتح وهو المكان المرتفع ومنه قوله كم ريع أرضك وهو ارتفاعها والآية العلم فيه وجوه أحدها عن ابن عباس أنهم كانوا يبنون بكل ريع علما يعبثون فيه بمن يمر فى الطريق الى هود عليه السلام والثانى أنهم كانوا يبنون فى الاماكن المرتفعة ليعرف بذلك غناهم تفاخرا فنهوا عنه ونسبوا الى العبث والثالث انهم كانوا ممن يهتدون بالنجوم فى أسفارهم فاتخذوا فى طريقهم اعلاما طوالا فكان ذلك عبثا لانهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم الرابع بنوا بكل ريع بروج الحمام (وثانيها) قوله وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون المصانع مآخذ الماء وقيل القصور المشيدة والحصون لعلكم تخلدون ترجون الخلد فى الدنيا أو يشبه حالكم حال من يخلد وفى مصحف أبى كأنكم وقرئ تخلدون بضم التاء مخففا ومشددا واعلم أن الاول انما صار مذموما لدلالته اما على السرف أو على الخيلاء والثانى انما صار مذموما لدلالته على الامل الطويل والغفلة عن أن الدنيا دار ممر لا دار مقر (وثالثها) قوله واذا بطشتم بطشتم جبارين انهم مع ذلك السرف والحرص فان معاملتهم مع غيرهم معاملة الجبارين وقد بينا فى غير هذا الموضع ان هذا الوصف فى العباد ذم وان كان فى وصف الله تعالى مدحا فكان ممن يقدم على الغير لا على طريق الحق ولكن على طريق الاستعلاء يوصف بان بطشه بطش جبار وحاصل الامر فى هذه الامور الثلاثة ان اتخاذ الابنية العالية يدل على حب العلو واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو فيرجع الحاصل الى انهم أحبوا العلو وبقاء العلو والتفرد بالعلو وهذه صفات الالهية وهى ممتنعة الحصول للعبد فدل ذلك على أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه وخرجوا عن حد العبودية وحاموا حول ادعاء الربوبية وكل ذلك ينبه على أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وعنوان

(الارب العالمين) استثناء منقطع اى لكن رب العالمين ليس كذلك بل هو ولى فى الدنيا والآخرة لايزال يتفضل على
بمنافعهما حسبما يعرب عنه ماوصفه تعالى به من احكام الولاية وقيل متصل وهو قول الزجاج على ان الضمير لكل معبود
وكان من آبائهم من عبدالله تعالى وقوله تعالى (الذى خلقنى) صفة لرب العالمين وجعله مبتدأ ومابعده
خبرا غير حقيق بجزالة
التنزيل وانما وصفه
تعالى بذلك وبما عطفه
عليه مع اندراج الكل
تحت ربوبيته تعالى
للعالمين تصريحا بالنعم
الخاصة به عليه الصلاة
والسلام وتفصيلا لها
لكونها ادخل فى اقتضاء
تخصيص العبادة به
تعالى وقصر الالتجاء فى
جلب المنافع الدينية
والدنيوية ودفع المضار
العاجلة والآجلة عليه
تعالى (فهو يهدين)
أى هو يهدينى وحده
الى كل مايهمنى ويصلحنى
من امور الدين والدنيا
هداية متصلة بحين
الخلق ونفخ الروح متجددة
على الاستمرار كما ينبئ
عنه الفاء وصيغة المضارع
فانه تعالى يهدى كل ما
خلقه لما خلق له من امور
المعاش والمعاد هداية
متدرجة من مبدأ ايجاده
الى منتهى اجله يتمكن
بها من جلب منافعه
ودفع مضاره اما طبعا
واما اختيارا مبدؤها
بالنسبة الى الانسان
هداية الجنين لامتصاص
دم الطمث ومنتهاها الهداية الى طريق الجنة والتنعم بنعيمها المقيم (والذى هو يطعمنى ويسقين) ❊ على ❊
عطف على الصفة الاولى وتكرير الموصول فى المواقع الثلاثة مع كفاية عطف

كل كفر ومعصية ثم لما ذكر هود عليه السلام هذه الاشياء قال فاتقوا الله وأطيعون
زيادة فى دعائهم الى الآخرة وزجرا لهم عن حب الدنيا والاشتغال بالسرف والحرص
والتجبر ثم وصل بهذا الوعظ ما يؤكد القبول وهو التنبيه على نعم الله تعالى عليهم بالاجمال
أولا ثم التفصيل ثانيا فايقظهم عن سنة غفلتهم عنها حيث قال امدكم بما تعلمون ثم فصلها
من بعد بقوله أمدكم بانعام وبنين وجنات وعيون انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم فبلغ
فى دعائهم بالوعظ والترغيب والتخويف والبيان النهاية فكان جوابهم سواء علينا
أوعظت أم لم تكن من الواعظين اظهروا قلة اكتراثهم بكلامه واستخفافهم بما أورده فان
قيل لو قال أوعظت أم لم تعظ كان أخصر والمعنى واحد جوابه ليس المعنى بواحد لان
المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذى هو الوعظ أم لم تكن أصلا من أهله ومباشرته
فهو أبلغ فى قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ ثم احتجوا على قلة اكتراثهم بكلامه
بقولهم ان هذا الاخلق الاولين فمن قرأ خلق الاولين بالفتح فمعناه ان ما جئت به اختلاق
الاولين وتخرصهم كما قالوا أساطير الاولين اما خلقنا هذا الاخلق القرون الخالية نحيى
كحياتهم ونموت كمماتهم ولا بعث ولا حساب ومن قرأ خلق بضمتين وبواحدة فمعناه ما هذا
الذى نحن عليه من الدين الاخلق الاولين وعادتهم كانوا به يدينون ونحن بهم مقتدون او
ما هذا الذى نحن عليه من الحياة والموت الاعادة لم يزل عليها الناس فى قديم الدهر أو ما هذا
الذى جئت به من الكذب الاعادة الاولين كانوا يلفقون مثله ويسطرونه ثم قالوا وما نحن
بمعذبين أظهروا بذلك تقوية نفوسهم فيما تمسكوا به من انكار المعاد فعند هذا بين الله تعالى
انه اهلكهم وقد سبق شرح كيفية الهلاك فى سائر السور والله أعلم ❊ (القصة الخامسة)
قصة صالح عليه السلام قوله تعالى (كذبت ثمود المرسلين اذ قال لهم أخوهم صالح
الا تتقون انى لكم رسول امين فاتقوا الله واطيعون وما أسألكم عليه من أجران
أجرى الا على رب العالمين اتتركون فيما ههنا آمنين فى جنات وعيوون وزروع ونخل طلعها
هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله واطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين
الذين يفسدون فى الارض ولا يصلحون قالوا انما انت من المسحرين ما أنت الا بشر مثلنا
فأت بآية ان كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها
بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فاصبحوا نادمين فاخذهم العذاب ان
فى ذلك لآية وماكان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) اعلم أن صالحا
عليه السلام خاطب قومه بامور (أحدها) قوله أتتركون فيما ههنا آمنين اى اتظنون
انكم تتركون فى دياركم آمنين وتطمعون فى ذلك وان لادار للمجازاة وقوله فيما ههنا
آمنين فى الذى استقر فى هذا المكان من النعيم ثم فسره بقوله فى جنات وعيون وهذا
أيضا اجمال ثم تفصيل فان قيل لم قال ونخل بعد قوله فى جنات والجنة تتناول النخل جوابه
من وجهين (الاول) انه خص النخل بافراده بعد دخوله فى جملة سائر الشجر تنبيها على فضله

ماوقع في حيز الصلة من الجمل الست على صلة الموصول الاول للايذان بان كل واحدة من تلك الصلات نعت جليل له تعالى
مستقل في استيجاب الحكم حقيق بان تجرى عليه تعالى بحيالها وتجعل من روادف غيرها (واذا مرضت

على سائر الاشجار (الثاني) أن يراد بالجنات غيرها من الشجر لان اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف
عليها النخل والطلع هو الذي يطلع من النخلة كنصل السيف في جوفه شماريخ والهضيم
اللطيف أيضا من قولهم كشح هضيم وقيل الهضيم اللين النضيج كأنه قال ونخل قد أرطب
ثمره (وثانيها) قوله تعالى وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين قرأ الحسن وتنحتون بفتح الحاء
وقرئ فرهين وفارهين والفراهة الكيس والنشاط فقوله فارهين حال عن الناحتين
(واعلم) أن ظاهر هذه الآيات يدل أن الغالب على قوم هود هو اللذات الحالية وهى
طلب الاستعلاء والبقاء والتفرد والتجبر والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية وهى
طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة (وثالثها) قوله تعالى ولا تطيعوا
أمر المسرفين وهذا اشارة الى أنه يجب الاكتفاء من الدنيا بقدر الكفاف ولا يجوز
التوسع في طلبها والاستكثار من لذاتها وشهواتها فان قيل ما فائدة قوله ولا يصلحون
جوابه فائدته بيان أن فسادهم فساد خالص ليس معه شئ من الصلاح كما يكون حال بعض
المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح ثم ان القوم أجابوه من وجهين (أحدهما) قولهم انما
أنت من المسحرين وفيه وجوه احدها المسحر هو الذي سحر كثيرا حتى غلب على عقله
وثانيها من المسحرين أى من له سحر وكل دابة تأكل فهى مسحرة والسحر أعلى البطن
وعن الفراء المسحر من له جوف أراد أنك تأكل الطعام وتشرب الشراب وثالثها عن
المؤرج المسحر هو المخلوق بلغة بجيلة (وثانيهما) قولهم ما أنت الا بشر مثلنا فأت بآية
ان كنت من الصادقين وهذا يحتمل امرين الاول انك بشر مثلنا فكيف تكون نبيا وهذا
بمنزلة ما كانوا يذكرون في الانبياء انهم لو كانوا صادقين لكانوا من جنس الملائكة الثاني
أن يكون مرادهم انك بشر مثلنا فلا بد لنا في اثبات نبوتك من الدليل فقال صالح عليه
السلام هذه ناقة لها شرب وقرئ بالضم روى أنهم قالوا نريد ناقة عشراء تخرج من هذه
الصخرة فتلد سقبا فقعد صالح يتفكر فقال له جبريل عليه السلام صل ركعتين وسل ربك
الناقة ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم وحصل لها سقب مثلها في العظم ووصاهم
صالح عليه السلام بامرين الاول قوله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم قال قتادة اذا
كان يوم شربها شربت ماءهم كله وشربهم في اليوم الذي لا تشرب هي والثاني قوله
ولا تمسوها بسوء أى بضرب أو عقر أو غيرهما فيأخذكم عذاب يوم عظيم عظم اليوم لحلول
العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب لان الوقت اذا عظم بسببه كان
موقعه من العظم أشد ثم ان الله تعالى حكى عنهم انهم عقروها وروى أن مصدعا ألجأها
الى مضيق فرماها بسهم فسقطت ثم ضربها قدار فان قيل لم أخذهم العذاب وقد ندموا
جوابه من وجهين الاول انه لم يكن ندمهم ندم التائبين لكن ندم الخائفين من العذاب
العاجل الثاني أن الندم وان كان ندم التائبين ولكن كان ذلك في غير وقت التوبة بل
عند معاينة العذاب وقال تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيآت الآية واللام في

فهو يشفين) عطف على يطعمني ويسقين نظم معهما في سلك الصلة للموصول واحد لما أن الصحة والمرض من متفرعات الاكل والشرب غالبا ونسبة المرض الى نفسه والشفاء الى الله تعالى مع أنهما منه تعالى لمراعاة حسن الادب كما قال الخضر عليه السلام فاردت أن أعيبها وقال فاراد ربك أن يبلغا أشدهما وأما الاماتة فحيث كانت من معظم خصائصه تعالى كالاحياء بدأ واعادة وقد نيطت أمور الآخرة جميعا بها وبما بعدها من البعث نظمهما في سمط واحد في قوله تعالى (والذي يميتني ثم يحيين) على أن الموت لكونه ذريعة الى نيله عليه الصلاة والسلام للحياة الابدية بمعزل من أن يكون غير مطموع عنده عليه الصلاة والسلام (والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) ذكره عليه الصلاة والسلام هضما لنفسه
وتعليما للامة أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم وتلافيا لما عسى
يندر منه عليه الصلاة والسلام من الصغائر وتنبيها لابيه وقومه على أن يتأملوا في أمرهم فيقفوا على أنهم من سوء
الحال في درجة لا يقادر قدرها فان حاله عليه الصلاة والسلام مع في كونه طاعة

الله تعالى وعبادته فى الغاية القاصية حيث كانت بتلك المثابة فاظنك بحال أولئك المغمورين فى الكفر وفنون المعاصى والخطايا وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث انى سقيم ﴿ ٥٣٨ ﴾ بل فعله كبيرهم وقوله لسارة هى أختى مما لا سبيل اليه لانها مع كونها معاريض لا من قبيل الخطايا المفتقرة الى الاستغفار انما صدرت عنه عليه الصلاة والسلام بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه أما الثالثة فظاهرة لوقوعها بعد مهاجرته عليه الصلاة والسلام الى الشام وأما الاوليان فلانهما وقعتا مكتنفتين بكسر الاصنام ومن البين جريان هذه المقالات فيما بينهم كان فى مبادى الامر وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين مع أنها انما تغفر فى الدنيا لان اثرها يومئذ يتبين ولان فى ذلك تهويلا له واشارة الى وقوع الجزاء فيه ان لم تغفر (رب هب لى حكما) بعد ما ذكر عليه الصلاة والسلام لهم فنون الالطاف الفائضة عليه من الله عزوجل من مبدأ خلقه الى يوم بعثه حمله ذلك على مناجاته تعالى ودعائه لربط العتيد وجلب المزيد والحكم الحكمة التى هى الكمال فى

العذاب اشارة الى عذاب يوم عظيم ﴿ (القصة السادسة) قصة لوط عليه السلام ﴿ قوله تعالى (كذبت قوم لوط المرسلين اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسئلكم عليه من اجر ان أجرى الا على رب العالمين أتاتون الذكران من العالمين وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين قال انى لعملكم من القالين رب نجنى وأهلى مما يعملون فنجيناه وأهله أجمعين الا عجوزا فى الغابرين ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) أما قوله تعالى أتاتون الذكران من العالمين فيحتمل عوده الى الآتى أى أنتم من جملة العالمين صرتم مخصوصين بهذه الصفة وهى اتيان الذكران ويحتمل عوده الى المأتى أى أنتم اخترتم الذكران من العالمين لا الاناث منهم وأما قوله تعالى من أزواجكم فيصلح أن يكون تبيينا لماخلق وان يكون للتبعيض ويراد بماخلق العضو المباح منهن وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم والعادى هو المعتدى فى ظلمه ومعناه أترتكبون هذه المعصية على عظمها بل أنتم قوم عادون فى جميع المعاصى فهذا من جملة ذاك أو بل أنتم قوم أحقاء بان توصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه الفاحشة فقالوا له عليه السلام لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين أى لتكونن من جملة من أخرجناه من بلدنا ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على اسوأ الاحوال فقال لهم لوط عليه السلام انى لعملكم من القالين القلى البغض الشديد كأنه بغض يقلى الفؤاد والكبد وقوله من القالين أبلغ من أن يقول انى لعملكم قال كما يقال فلان من العلماء فهو أبلغ من قولك فلان عالم ويجوز أن يراد من الكاملين فى قلاكم ثم قال تعالى فنجيناه وأهله والمراد فنجيناه واهله من عقوبة عملهم الا عجوزا فى الغابرين فان قيل فى الغابرين صفة لها كأنه قيل الا عجوزا غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم جوابه معناه الا عجوزا مقدرا غبورها قيل انها هلكت مع من خرج من القرية بما أمطر عليهم من الحجارة قال القاضى عبد الجبار فى تفسيره فى قوله تعالى وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم دلالة على بطلان الجبر من جهات (أحدها) انه لايقال تذرون الا مع القدرة على خلافه ولذلك لايقال للمرء لم تذر الصعود الى السماء كما يقال له لم تذر الدخول والخروج (وثانيها) انه قال ماخلق لكم ولو كان خلق الفعل لله تعالى لكان الذى خلق لهم ماخلقه فيهم واوجبه لا مالم يفعلوه (وثالثها) قوله تعالى بل أنتم قوم عادون فان كان تعالى خلق فيهم ماكانوا يعملون فكيف ينسبون الى أنهم تعدوا وهل يقال للاسود انك متعد فى لونك فنقول حاصل هذه الوجوه يرجع الى أن العبد لولم يكن موجد الافعال نفسه لما توجه المدح والذم والامر والنهى عليه ولهذه الآية فى هذا المعنى خاصية أزيد مما ورد من الامر والنهى والمدح والذم فى قصة موسى عليه السلام وابراهيم ونوح وسائر القصص فكيف خص هذه القصة بهذه الوجوه دون سائر القصص واذا ثبت

العمل بحيث يتمكن به من خلافة الحق ورياسة الخلق (وألحقنى بالصالحين) ووفقنى من العلوم والاعمال والملكات لما يرشحنى للانتظام فى زمرة الكاملين الراسخين فى الصلاح المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها ﴿ بطلان ﴾ أو واجمع بينى وبينهم فى الجنة ولقد أجابه تعالى حيث قال وانه فى

الآخر لمن الصالحين (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) أى جاها وحسن صيت فى الدنيا بحيث يبقى أثره الى يوم الدين
ولذلك لاترى أمة من الامم الاوهى محبة له ومثنية عليه أوصادقا من ذريتى يجدأصل دينى و يدعو
الناس الى ما كنت
أدعوهم اليه من التوحيد
وهوالنبى صلى الله عليه
وسلم ولذلك قال عليه
الصلاة والسلام أنا
دعوة ابراهيم (واجعلنى
فى الآخرة (من ورثة
جنة النعيم) وقدمر معنى
الوراثة فى سورة مريم
(واغفر لابى) بالهداية
والتوفيق للايمان كما
يلوح به تعليله بقوله
(انه كان من الضالين)
أى من طريق الحق وقد
مر تحقيق المقام فى تفسير
سورة التوبة وسورة
مريم بما لامزيد عليه
(ولاتخزنى) بمعاتبتى
على مافرطت أو بنقص
رتبتى عن بعض الوراث
أو بتعذيبى لخفاء العاقبة
وبجواز التعذيب عقلا
كل ذلك مبنى على هضم
النفس منه عليه الصلاة
والسلام أو بتعذيب
والدى أوببعثه فى عداد
الضالين بعدم توفيقه
للايمان وهو من الخزى
بمعنى الهوان أو من
الخزاية بمعنى الحياء (يوم
يبعثون) أى الناس كافة
والاضمار قبل الذكر لما
فى عموم البعث من الشهرة الفاشية المغنية عنه وتخصيصه بالضالين مما يخل بتهويل اليوم (يوم لاينفع مال ولابنون) بدل
من يوم يبعثون جىء به تأكيدا للتهويل وتمهيدا لما يعقبه من الاستثناء وهو من أعم المفاعيل أى لاينفع مال وان كان مصروفا
فى الدنيا الى وجوه البر والخيرات ولابنون

بطلان هذه الوجوه بقى ذلك الوجه المشهور فنحن نجيب عنها بالجوابين المشهورين (الاول)
ان الله تعالى لما علم وقوع هذه الاشياء فعدمها محال لان عدمها يستلزم انقلاب العلم جهلا
وهو محال والمفضى الى المحال محال واذا كان عدمها محالا كان التكليف بالترك تكليفا
بالمحال (الثانى) أن القادر لما كان قادرا على الضدين امتنع أن يترجح أحد المقدورين
على الآخر الا لمرجح وهو الداعى أو الارادة وذلك المرجح محدث فله مؤثر وذلك المؤثر
ان كان هو العبد لزم التسلسل وهو محال وان كان هو الله تعالى فذلك هو الجبر على قولك
فثبت بهذين البرهانين القاطعين سقوط ما قاله والله أعلم * (القصة السابعة) قصة شعيب
عليه السلام * قوله تعالى (كذب أصحاب الايكة المرسلين اذ قال لهم شعيب ألا تتقون
انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على
رب العالمين أوفوا الكيل ولاتكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولاتبخسوا
الناس أشياءهم ولاتعثوا فى الارض مفسدين واتقوا الذى خلقكم والجبلة الاولين قالوا
انما أنت من المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا
كسفا من السماء ان كنت من الصادقين قال ربى أعلم بما تعملون فكذبوه فأخذهم عذاب
يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو
العزيز الرحيم) قرئ أصحاب الايكة بالهمزة وبتخفيفها وبالجر على الاضافة وهو الوجه
ومن قرأ بالنصب و زعم ان أيكة بوزن ليلة اسم بلد يعرف فتوهم قاد اليه خط المصحف
حيث وجدت مكتوبة فى هذه السورة وسورة ص بغير ألف لكن قد كتبت فى سائر
القرآن على الاصل والقصة واحدة على أن ايكة اسم لايعرف روى ان أصحاب الايكة
كانوا أصحاب شجر ملتف وتلك الشجر هى التى حملها المقل فان قيل هلا قال أخوهم
شعيب كما فى سائر المواضع جوابه أن شعيبا لم يكن من أصحاب الايكة وفى الحديث
ان شعيبا أخا مدين أرسل اليهم والى أصحاب الايكة ثم ان شعيبا عليه السلام أمرهم باشياء
(أحدها) قوله أوفوا الكيل ولاتكونوا من المخسرين وذلك لان الكيل على ثلاثة
اضرب واف وطفيف و زائد فأمر بالواجب الذى هو الايفاء بقوله أوفوا الكيل ونهى
عن المحرم الذى هو التطفيف بقوله ولاتكونوا من المخسرين ولم يذكر الزائد لانه بحيث ان
فعله فقد أحسن وان لم يفعله فلا اثم عليه ثم انه لما أمر بالايفاء بين انه كيف يفعل فقال
و زنوا بالقسطاس المستقيم قرئ بالقسطاس مضموما ومكسورا وهو الميزان وقيل
القرسطون (وثانيها) قوله تعالى ولاتبخسوا الناس أشياءهم يقال بخسه حقه اذا نقصه اياه
وهذا عام فى كل حق يثبت لاحد أن لايهضم وفى كل ملك أن لايغصب عليه مالكه
ولايتصرف فيه الا باذنه تصرفا شرعيا (وثالثها) قوله تعالى ولاتعثوا فى الارض مفسدين
يقال عثا فى الارض وعثى وعاث وذلك نحو قطع الطريق والغارة واهلاك الزرع وكانوا
يفعلون ذلك مع توليتهم أنواع الفساد فنهوا عن ذلك (ورابعها) قوله تعالى واتقوا الذى

وان كانوا اصلحاء مستأهلين للشفاعة أحدا (الا من أتى الله بقلب سليم) أى عن مرض الكفر والنفاق ضرورة اشتراط نفع كل منهما بالايمان وفيه تأييد لكون استغفاره عليه الصلاة

والسلام لابيه طلبا لهدايته الى الايمان لاستحالة طلب مغفرته بعد موته كافرا مع علمه عليه الصلاة والسلام بعدم نفعه لانه من باب الشفاعة وقيل هو استثناء من فاعل ينفع بتقدير المضاف أى الا مال من أو بنو من أتى الله الآية وقيل المضاف المحذوف ليس من جنس المستثنى منه حقيقة بل بضرب من الاعتبار كما فى قوله تحية بينهم ضرب وجيع أى الا حال من أتى الله بقلب سليم عبارة عن سلامة القلب كأنه قيل الا سلامة قلب من أتى الله الآية وقيل المضاف المحذوف مادل عليه المال والبنون من الغنى وهو المستثنى منه كأنه قيل يوم لا ينفع غنى الاغنى من أتى الله الاية لان غنى المرء فى دينه بسلامة قلبه و قيل الاستثناء منقطع والمعنى لكن سلامة قلبه تنفعه (وأزلفت الجنة للمتقين) عطف على لا ينفع وصيغة الماضى وفيه وفيما بعده من الجمل المنتظمة معه فى سلك العطف للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره كما أن صيغة المضارع فى المعطوف عليه للدلالة على استمرار انتفاء النفع ودوامه حسبما يقتضيه مقام التهويل والتفظيع أى قربت الجنة للمتقين عن الكفر والمعاصى بحيث يشاهدونها من الموقف و يقفون على ما فيها من فنون

خلقكم والجبلة الاولين وقرئ الجبلة بوزن الابلة والجبلة بوزن الخلقة ومعناهن واحد أى ذوى الجبلة والمراد انه المتفضل بخلقهم وخلق من تقدمهم ممن لولا خلقهم لما كانوا مخلوقين فلم يكن للقوم جواب الا ما لو تركوه لكان أولى بهم وهو من وجهين (الاول) قولهم انما أنت من المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا فان قيل هل اختلف المعنى بادخال الواو ههنا وتركها فى قصة ثمود جوابه اذا دخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم السحر والبشرية واذا تركت الواو فلم يقصدوا الا معنى واحدا وهو كونه مسحرا ثم قرره بكونه بشرا مثلهم (الثانى) قولهم وان نظنك لمن الكاذبين ومعناه ظاهر ثم ان شعيبا عليه السلام كان يتوعدهم بالعذاب ان استمروا على التكذيب فقالوا فأسقط علينا كسفا من السماء قرئ كسفا بالسكون والحركة وكلاهما جمع كسفة وهى القطعة والسماء السحاب أو الظلة وهم انما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه فظنوا أنه اذا لم يقع ظهر كذبه فعنده قال شعيب عليه السلام ربى أعلم بما تعملون فلم يدع عليهم بل فوض الامر فيه الى الله تعالى فلما استمروا على التكذيب انزل الله عليهم العذاب على نحو ما اقترحوا من عذاب الظلة ان ارادوا بالسماء السحاب وان ارادوا الظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم يروى انه حبس عنهم الريح سبعا وسلط عليهم الرمل فأخذ بانفاسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء فاضطروا الى أن خرجوا الى البرية فاظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما فاجتمعوا تحتها فامطرت عليهم نار فاحترقوا وروى ان شعيبا بعث الى أمتين أصحاب مدين وأصحاب الايكة فأهلكت مدين بصيحة جبريل عليه السلام وأصحاب الايكة بعذاب يوم الظلة وههنا آخر الكلام فى هذه القصص السبع التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم فيما ناله من الغم الشديد بقى ههنا سؤالان (السؤال الاول) لم لا يجوز ان يقال ان العذاب النازل بعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ما كان ذلك بسبب كفرهم وعنادهم بل كان ذلك بسبب قرانات الكواكب واتصالاتها على ما اتفق عليه أهل النجوم واذا قام هذا الاحتمال لم يحصل الاعتبار بهذه القصص لان الاعتبار انما يحصل ان لو علمنا أن نزول هذا العذاب كان بسبب كفرهم وعنادهم (الثانى) ان الله تعالى قد ينزل العذاب محنة للمكلفين وابتلاء لهم على ما قال ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ولانه تعالى قد ابتلى المؤمنين بالبلاء العظيم فى مواضع كثيرة واذا كان كذلك لم يدل نزول البلاء بهم على كونهم مبطلين والجواب ان الله تعالى أنزل هذه القصص على محمد صلى الله عليه وسلم تسلية له وازالة للحزن عن قلبه فلما أخبر الله تعالى محمدا انه هو الذى أنزل العذاب عليهم وانه انما انزله عليهم جزاء على كفرهم علم محمد صلى الله عليه وسلم ان الامر كذلك فحينئذ يحصل به التسلى والفرح له عليه السلام واحتج بعض الناس على القدح فى علم الاحكام بان قال المؤثر فى هذه الاشياء اما الكواكب أو البروج او كون الكوكب فى البرج المعين والاول باطل والا لحصلت هذه الآثار أين حصل الكوكب والثانى أيضا باطل

المحاسن فيتبهجون بأنهم المحشورون اليها (و برزت الجحيم للغاوين) الضالين عن طريق الحق الذى هو الايمان والتقوى اى جعلت بارزة لهم بحيث يرونها مع مافيها من أنواع الاحوال الهائلة و يوقنون بانهم مواقعوها ولا يجدون عنها مصرفا (وقيل لهم أينما كنتم) ﴿ ٥٤١ ﴾ فى الدنيا (تعبدون من دون الله) أى أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم شفعاؤكم فى هذا الموقف (هل ينصرونكم) بدفع العذاب عنكم (أو ينتصرون) بدفعه عن أنفسهم وهذا سؤال تقريع وتبكيت لا يتوقع له جواب ولذلك قيل (فكبكبوا فيها) أى ألقوا فى الجحيم على وجوههم مرة بعد أخرى الى أن يستقروا فى قعرها (هم) أى آلهتهم (والغاوون) الذين كانوا يعبدونهم وفى تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتهم رمز الى أنهم يؤخرون عنها فى الكبكبة ليشاهدوا سوء حالها فيزدادوا غما الى غمهم (وجنود ابليس) أى شياطينه الذين كانوا يغوونهم و يوسوسون اليهم و يسولون لهم ماهم عليه من عبادة الاصنام وسائر فنون الكفر والمعاصى ليجتمعوا فى العذاب حسبما كانوا مجتمعين فيما يوجبه وقيل متبعوه من عصاة الثقلين والاول هو الوجه (أجمعون) تأكيد للضمير وماعطف عليه وقوله تعالى (قالوا) الخ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية حالهم كأنه قيل ماذا قالوا حين فعل بهم مافعل فقيل قال العبدة (وهم فيها يختصمون) أى قالوا معترفين بخطائهم فى انهماكهم فى الضلالة

باطل والالزم دوام الاثر بدوام البرج والثالث أيضا باطل لان الفلك على قولهم بسيط لامركب فيكون طبع كل برج مساويا لطبع البرج الآخر فى تمام الماهية فيكون حال الكوكب وهو فى برجه كحاله وهو فى برج آخر فيلزم أن يدوم ذلك الاثر بدوام الكوكب وللقوم أن يقولوا لم لايجوز أن يكون صدور الاثر عن الكوكب المعين موقوفا على كونه مسامتا مسامتة مخصوصة لكوكب آخر فاذا فقدت تلك المسامتة فقد شرط التاثير فلا يحصل التاثير ولهم أن يقولوا هذه الدلالة انما تدل على انها ليست مؤثرة بحسب ذواتها وطبائعها ولكنها لاتدل على انها ليست مؤثرة بحسب جرى العادة فاذا أجرى الله تعالى عادته بحصول تاثيرات مخصوصة عقيب اتصالات الكواكب وقراناتها وادوارها لم يلزم من حصول هذه الاثمار القطع بان الله تعالى انما خلقها لاجل زجر الكفار بل لعله تعالى خلقها لتكرير تلك العادات والله أعلم * القول فيما ذكره الله تعالى من أحوال محمد عليه الصلاة والسلام * قوله تعالى (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين وانه لفى زبر الاولين) اعلم انه تعالى لما ختم ما اقتصه من خبر الانبياء ذكر بعد ذلك ما يدل على نبوته وهو من وجهين (الاول) قوله وانه لتنزيل رب العالمين وذلك لانه لفصاحته معجز فيكون ذلك من رب العالمين أولانه اخبار عن القصص الماضية من غير تعليم البتة فلا يكون ذلك الا بوحى من الله تعالى وقوله بعده وانه لفى زبر الاولين كأنه مؤكد لهذا الاحتمال وذلك لانه عليه السلام لما ذكر هذه القصص السبع على ماهى موجودة فى زبر الاولين من غير تفاوت أصلا مع انه لم يشتغل بالتعلم والاستعداد دل ذلك على انه ليس الامن عند الله تعالى فهذا هو المقصود من الآية فاما قوله تعالى وانه لتنزيل رب العالمين فالمراد بالتنزيل المنزل ثم قد كان يجوز فى القرآن وهذه القصص أن يكون تنزيلا من الله تعالى الى محمد صلى الله عليه وسلم بلا واسطة فقال نزل به الروح الامين والباء فى قوله نزل به الروح ونزل به الروح على القراءتين للتعدية ومعنى نزل به الروح جعل الله الروح نازلا به على قلبك أى فهمك اياه واثبته فى قلبك اثبات مالاينسى كقوله تعالى سنقرئك فلا تنسى والروح الامين جبريل عليه السلام وسماه روحا من حيث خلق من الروح وقيل لانه نجاة الخلق فى باب الدين فهو كالروح الذى تثبت معه الحياة وقيل لانه روح كله لا كالناس الذين فى أبدانهم روح وسماه امينا لانه مؤتمن على مايؤديه الى الانبياء عليهم السلام والى غيرهم واما قوله على قلبك ففيه قولان (الاول) انه انما قال على قلبك وان كان انما انزله عليه ليؤكد به أن ذلك المنزل محفوظ للرسول متمكن فى قلبه لايجوز عليه التغير فيوثق بالانذار الواقع منه الذى بين الله تعالى أنه هو المقصود ولذلك قال لتكون من المنذرين (الثانى) أن القلب هو المخاطب فى الحقيقة لانه موضع التمييز والاختيار وأما سائر الاعضاء فمسخرة له والدليل عليه القرآن والحديث والمعقول (أما القرآن) فآيات احداها قوله تعالى فى سورة البقرة فانه نزله على قلبك

وقال ههنا نزل به الروح الامين على قلبك وقال ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب (وثانيها) انه ذكر ان استحقاق الجزاء ليس الا على مافى القلب من المساعى فقال لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم وقال لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم والتقوى فى القلب لانه تعالى قال أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى وقال تعالى وحصل مافى الصدور (وثالثها) قوله حكاية عن أهل النار لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ومعلوم أن العقل فى القلب والسمع منفذ اليه وقال ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا ومعلوم ان السمع والبصر لا يستفاد منهما الا ما يؤديانه الى القلب فكان السؤال عنهما فى الحقيقة سؤالا عن القلب وقال تعالى يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ولم تخف الاعين الا بما تضمر القلوب عند التحديق بها (ورابعها) قوله وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون فخص هذه الثلاثة بالزام الحجة منها واستدعاء الشكر عليها وقدقلنا لا طائل فى السمع والابصار الا بما يؤديان الى القلب ليكون القلب هو القاضى فيه والمتحكم عليه وقال تعالى ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ فجعل هذه الثلاثة تمام ما ألزمهم من حجته والمقصود من ذلك هو الفؤاد القاضى فيما يؤدى اليه السمع والبصر (وخامسها) قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فجعل العذاب لازما على هذه الثلاثة وقال لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها وجه الدلالة انه قصد الى نفى العلم عنهم رأسا فلو ثبت العلم فى غير القلب كثباته فى القلب لم يتم الغرض فهذه الآيات وما شاكلها ناطقة بأجمعها ان القلب هو المقصود بالزام الحجة وقد بينا ان ما قرن بذكره من ذكر السمع والبصر فذلك لانهما آلتان للقلب فى تادية صور المحسوسات والمسموعات (وأما الحديث) فاروى النعمان بن بشير قال سمعته عليه السلام يقول ألا ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب (وأما المعقول) فوجوه (احدها) ان القلب اذا غشى عليه فلو قطع سائر الاعضاء لم يحصل الشعور به واذا أفاق القلب فانه يشعر بجميع ما ينزل بالاعضاء من الآفات فدل ذلك على أن سائر الاعضاء تبع للقلب ولذلك فان القلب اذا فرح أو حزن فانه يتغير حال الاعضاء عند ذلك وكذا القول فى سائر الاغراض النفسانية (وثانيها) ان القلب منبع المشاق الباعثة على الافعال الصادرة من سائر الاعضاء واذا كانت المشاق مبادى للافعال ومنبعها هو القلب كان الآمر المطلق هو القلب (وثالثها) ان معدن العقل هو القلب واذا كان كذلك كان الآمر المطلق هو القلب (أما المقدمة الاولى) ففيها النزاع فان طائفة من القدماء ذهبوا الى أن معدن العقل هو الدماغ والذى يدل على قولنا وجوه (الاول) قوله تعالى أولم يسيروا فى الارض فتكون

مقصرين معيرين لانفسهم والحال انهم فى الجحيم بصدد الاختصام مع من معهم من المذكورين مخاطبين لمعبوديهم على ان الله تعالى يجعل الاصنام صالحة للاختصام بان يعطيها القدرة على الفهم والنطق (تالله ان كنا لفى ضلال مبين) ان مخففة من الثقيلة قد حذف اسمها الذى ﴿ ٥٤٢ ﴾ هو ضمير الشان واللام فارقة بينها وبين النافية أى ان الشأن كنا فى ضلال واضح لاخفاء فيه ووصفهم له بالوضوح للاشباع فى اظهار ندمهم وتحسرهم وبيان عظم خطائهم فى رأيهم مع وضوح الحق كما ينبئ عنه تصدير قسمهم بحرف التاء المشعرة بالتعجب وقوله تعالى (اذ نسويكم برب العالمين) ظرف لكونهم فى ضلال مبين وقيل لما دل عليه الكلام أى ضللنا وقيل للضلال المذكور وان كان فيه ضعف صناعى من حيث ان المصدر الموصوف لا يعمل بعد الوصف وقيل ظرف لمبين وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية أى تالله لقد كنا فى غاية الضلال الفاحش وقت تسويتنا اياكم أيها الاصنام فى استحقاق العبادة برب العالمين الذى أنتم أدنى مخلوقاته واذلهم وأعجزهم وقولهم (وما أضلنا الا المجرمون) بيان لسبب ضلالهم بعد اعترافهم بصدوره عنهم لكن لا على معنى قصر الاضلال على المجرمين دون من عداهم بل على معنى قصر ضلالهم على كونه بسبب ضلالهم ﴿ لهم ﴾ من غير أن يستقلوا فى تحققه أو يكون بسبب اضلال الغير كأنه قيل وما صدر عنا ذلك الضلال الفاحش الا بسبب اضلالهم والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم رؤساؤهم وكبراؤهم كما فى قوله تعالى ربنا انا أطعنا

سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا وعن السدى رحمه الله الاولون الذين اقتدوا بهم وأبا ما كان ففيه اوفر نصيب من التعريض للذين قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون وعن ابن جريج ابليس وابن آدم القاتل لانه أول من سن القتل وأنواع المعاصى (فما لنا من شافعين) كما للمؤمنين من الملائكة والانبياء عليهم الصلاة والسلام

لهم قلوب يعقلون بها وقوله لهم قلوب لا يفقهون بها وقوله ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أى عقل أطلق عليه اسم القلب لما انه معدنه (الثانى) انه تعالى أضاف اضداد العلم الى القلب وقال فى قلوبهم مرض ختم الله على قلوبهم وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم يقولون بالسنتهم ما ليس فى قلوبهم كلا بل ران على قلوبهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور فدلت هذه الآيات على أن موضع الجهل والغفلة هو القلب فوجب أن يكون موضع العقل والفهم أيضا هو القلب (الثالث) وهو أنا اذا جربنا انفسنا وجدنا علومنا حاصلة فى ناحية القلب ولذلك فان الواحد منا اذا أمعن فى الفكر وأكثر منه أحس من قلبه ضيقا وضجرا حتى كأنه يتألم بذلك وكل ذلك يدل على أن موضع العقل هو القلب واذا ثبت ذلك وجب أن يكون المكلف هو القلب لان التكليف مشروط بالعقل والفهم (الرابع) وهو ان القلب اول الاعضاء تكونا وآخرها موتا وقد ثبت ذلك بالتشريح ولانه متمكن فى الصدر الذى هو أوسط الجسد ومن شأن الملوك المحتاجين الى الخدم أن يكونوا فى وسط المملكة لتكتنفهم الحواشى من الجوانب فيكونوا ابعد من الآفات واحتج من قال العقل فى الدماغ بامور (أحدها) ان الحواس التى هى الآلات للادراك نافذة الى الدماغ دون القلب (وثانيها) ان الاعصاب التى هى الآلات فى الحركات الاختيارية نافذة من الدماغ دون القلب (وثالثها) ان الآفة اذا حلت فى الدماغ اختل العقل (ورابعها) ان فى العرف كل من أريد وصفه بقلة العقل قيل انه خفيف الدماغ خفيف الرأس (وخامسها) ان العقل أشرف فيكون مكانه أشرف والاعلى هو الاشرف وذلك هو الدماغ لا القلب فوجب أن يكون محل العقل هو الدماغ (والجواب عن الاول) لم لا يجوز أن يقال الحواس تؤدى آثارها الى الدماغ ثم ان الدماغ يؤدى تلك الآثار الى القلب فالدماغ آلة قريبة للقلب والحواس آلات بعيدة فالحس يخدم الدماغ ثم الدماغ يخدم القلب وتحقيقه انا ندرك من أنفسنا انا اذا عقلنا ان الامر الفلانى يجب فعله أو يجب تركه فان الاعضاء تتحرك عند ذلك ونحن نجد التعقلات من جانب القلب لا من جانب الدماغ (وعن الثانى) انه لا يبعد ان يتأدى الاثر من القلب الى الدماغ ثم الدماغ يحرك الاعضاء بواسطة الاعصاب النابتة منه (وعن الثالث) لا يبعد أن يكون سلامة الدماغ شرطا لوصول تاثير القلب الى سائر الاعضاء (وعن الرابع) ان ذلك العرف انما كان لان القلب انما يعتدل مزاجه بما يستمده من الدماغ من برودته فاذا لحق الدماغ خروج عن الاعتدال خرج القلب عن الاعتدال أيضا اما لازدياد حرارته عن القدر الواجب أو لنقصان حرارته عن ذلك القدر فحينئذ يختل العقل (وعن الخامس) انه لو صح ما قالوه لوجب أن يكون موضع العقل هو القحف ولما بطل ذلك ثبت فساد قولهم والله أعلم (فرع) اعلم ان المعانى التى بينا كونها مختصة بالقلوب قد تضاف

(ولا صديق حميم) كما نرى لهم أصدقاء أو فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء على أن عدمهما كناية عن عدواتهما كما أن عدم المحبة فى مثل قوله تعالى والله لا يحب الفساد كناية عن البغض حسبما ينبئ عنه قوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين أو وقعنا فى مهلكة لا يخلصنا منها شافع ولا صديق على أن المراد بعدمهما عدم اثرهما وجمع الشافع لكثرة الشفعاء عادة كما أن افراد الصديق لقلته أو لصحة اطلاقه على الجمع كالعدو تشبيهما بالمصادر كالحنين والقبول وكلمة لو فى قوله تعالى (فلو أن لنا كرة) للتمنى كأيت لما أن بين معنييهما تلاقيا فى معنى الفرض والتقدير كأنه قيل فليت لنا كرة أى رجعة الى الدنيا وقيل هى على أصلها من الشرط وجوابه محذوف كأنه قيل فلو أن لنا كرة لفعلنا من الخيرات كيت وكيت ويأباه قوله تعالى (فنكون من المؤمنين) لتحتم كونه جوابا للتمنى مفيد الترتب ايمانهم على وقوع الكرة البتة بلا تخلف كما هو مقتضى حالهم وعطفه على كرة على طريقة * للبس عباءة وتقر عينى * كما يستدعيه كون لو على أصلها انما يفيد تحقق مضمون الجواب على تقدير تحقق كرتهم

وايمانهم معا من غير دلالة على استلزام النكرة للايمان أصلا مع أنه مقصود حتما (ان فى ذلك) أى فيما ذكر من نبأ ابرهيم
عليه السلام المشتمل على بيان بطلان ما كان عليه اهل مكة من عبادة الاصنام وتفصيل ما يؤل اليه أمر عبدتها يوم
القيامة من اعترافهم بخطئهم الفاحش وندمهم وتحسرهم على ما فاتهم من الايمان وتمنيهم الرجعة الى
الدنيا ليكونوا من
المؤمنين عند مشاهد
تهم لما أزلفت لهم
جنات النعيم وبرزت
لانفسهم الجحيم وغشيهم
ماغشيهم من ألوان
العذاب وأنواع العقاب
(لآية) أى آية عظيمة
لايقادر قدرها موجبة
على عبدة الاصنام كافة
لاسيما على أهل مكة الذين
يدعون أنهم على ملة
ابراهيم عليه السلام
أن يجتنبوا كل الاجتناب
ماكانوا عليه من عبادتها
خوفا أن يحيق بهم مثل
ماحاق بأولئك من العذاب
بحكم الاشتراك فيما يوجبه
أوان فى ذكر نبئه وتلاوته
عليهم على ماهو عليه
من غير أن تسمعه من
أحد لآية عظيمة دالة
على أن ماتتلوه عليهم
وحى صادق نازل من
جهة الله تعالى موجبة
للايمان به قطعا و(ما
كان أكثرهم مؤمنين)
اى اكثر هؤلاء الذين
تتلو عليهم النبأ مؤمنين
بل هم مصرون على
ماكانوا عليه من الكفر
والضلال واما ان ضمير
اكثرهم لقوم ابراهيم عليه السلام كما توهموا فمما لا سبيل اليه اصلا لظهور انهم ما ازدادوا بما
سمعوا منه عليه الصلاة والسلام الاطغيانا وكفرا حتى

الى الصدر تارة والى الفؤاد أخرى اما الصدر فقوله تعالى وحصل مافى الصدور وقوله
وليبتلى الله مافى صدوركم وقوله تعالى انه عليم بذات الصدور وان تخفوا مافى صدوركم
أو تبدوه وأما الفؤاد فقوله ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ومن الناس من فرق بين القلب
والفؤاد فقال القلب هو العلقة السوداء فى جوف الفؤاد دون مايكتنفها من اللحم
والشحم ومجموع ذلك هو الفؤاد ومنهم من قال القلب والفؤاد لفظان مترادفان وكيف
كان فيجب أن يعلم أن من جملة العضو المسمى قلبا وفؤادا موضعا هو الموضع فى الحقيقة
للعقل والاختيار وان معظم جرم هذا العضو مسخر لذلك الموضع كما ان سائر الاعضاء
مسخرة للقلب فان العضو قد تزيد اجزاؤه من غير ازدياد المعانى المنسوبة اليه اعنى العقل
والفرح والحزن وقد ينقص من غير نقصان فى تلك المعانى فيشبه أن يكون اسم القلب اسما
للاجزاء التى تحل فيها هذه المعانى بالحقيقة واسم الفؤاد يكون اسما لمجموع العضو فهذا هو
الكلام فى هذا الباب والله الموفق للصواب واما قوله تعالى لتكون من المنذرين فيدخل
تحت الانذار الدعاء الى كل واجب من علم وعمل والمنع من كل قبيح لان فى الوجهين جميعا
يدخل الخوف من العقاب واما قوله تعالى بلسان عربى مبين فالباء اما أن تتعلق بالمنذرين
فيكون المعنى لتكون من الذين انذروا بهذا اللسان وهم خمسة هود وصالح وشعيب
واسمعيل ومحمد عليهم السلام واما ان تتعلق بنزل فيكون المعنى نزله باللسان العربى
لينذر به لانه لونزله باللسان الاعجمى لقالوا له ما نصنع بما لانفهمه فيتعذر الانذار به وفى
هذا الوجه ان تنزيله بالعربية التى هى لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك لانك
تفهمه ويفهمه قومك ولو كان أعجميا لكان نازلا على سمعك دون قلبك لانك تسمع
اجراس حروف لاتفهم معانيها وأما قوله تعالى وانه لفى زبر الاولين فيحتمل هذه الاخبار
خاصة ويحتمل أن يكون المراد صفة القرآن ويحتمل صفة محمد صلى الله عليه وسلم ويحتمل
أن يكون المراد وجوه التخويف لان ذكر هذه الاشياء باسرها قد تقدم * قوله تعالى
(أولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بنى اسرائيل ولو نزلناه على بعض الاعجمين فقرأه عليهم
ماكانوا به مؤمنين كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين لايؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم
فيأتيهم بغتة وهم لايشعرون فيقولوا هل نحن منظرون) اعلم ان قوله تعالى أولم يكن لهم آية
ان يعلمه علماء بنى اسرئيل المراد منه ذكر الحجة الثانية على نبوته عليه السلام وصدقه وتقريره
ان جماعة من علماء بنى اسرائيل أسلموا ونصوا على مواضع فى التوراة والانجيل ذكر فيها
الرسول عليه الصلاة والسلام بصفته ونعته وقد كان مشركوا قريش يذهبون الى اليهود
و يتعرفون منهم هذا الخبر وهذا يدل دلالة ظاهرة على نبوته لان تطابق الكتب الالهية على
نعته ووصفه يدل قطعا على نبوته واعلم انه قرئ يكن بالتذكير وآية بالنصب على انها خبره
وأن يعلمه هو الاسم وقرئ تكن بالتأنيث وجعلت آية اسما وأن يعلمه خبرا وليست كالاولى
لوقوع النكرة اسما والمعرفة خبرا ويجوز مع نصب الآية تأنيث يكن كقوله ثم لم تكن

اجترؤا على تلك العظيمة التى فعلوها به عليه الصلاة والسلام فكيف يعبر عنهم بعدم ايمان اكثرهم وانما آمن له لوط
فنجاهما الله عز وجل الى الشام وقدمر بقية الكلام * ٥٤٥ * فى آخر قصة موسى عليه السلام (وان ربك لهو العزيز
الرحيم) أى هو القادر
على تعجيل العقوبة لقومك
ولكنه يمهلهم بحكم
رحمته الواسعة ليؤمن
بعض منهم أو من ذرياتهم
(كذبت قوم نوح
المرسلين) القوم مؤنث
ولذلك يصغر على قويمة
وقيل القوم بمعنى الامة
وتكذيبهم للمرسلين
امابا عتبار اجماع الكل
على التوحيد وأصول
الشرائع التى لاتختلف
باختلاف الازمنة
والاعصار واما لان المراد
بالجمع الواحد كما يقال
فلان يركب الدواب
ويلبس البرود وماله
الادابة وبردة واذ فى قوله
تعالى (اذ قال لهم) ظرف
للتكذيب على أنه عبارة
عن زمان مديد وقع فيه
ماوقع من الجانبين الى
تمام الامر كما أن تكذيبهم
عبارة عما صدر عنهم
من حين ابتداء دعوته
عليه الصلاة والسلام الى
انتهائها (أخوهم) أى
نسيبهم (نوح الا تتقون)
الله حيث تعبدون غيره
(انى لكم رسول) من
جهته تعالى (أمين)
مشهور بالامانة فيما بينكم * ٦٩ * س (فاتقوا الله وأطيعون) فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله تعالى (وما
اسئلكم عليه) أى على ما أنا متصد له من الدعاء والنصح (من أجر) أصلا (ان أجرى) فيما أتولاه (الا على رب العالمين)
والفاء فى قوله تعالى

فتنتهم الآن قالوا وأما قوله ولو نزلناه على بعض الاعجمين فاعلم انه تعالى لما بين بالدليلين
المذكورين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق لهجته بين بعد ذلك ان هؤلاء الكفار
لاتنفعهم الدلائل ولا البراهين فقال ولو نزلناه على بعض الاعجمين يعنى انا أنزلنا هذا
القرآن على رجل عربى بلسان عربى مبين فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته وانه معجز
لايعارض بكلام مثله وانضم الى ذلك بشارة كتب الله السالفة به فلم يؤمنوا به وجحدوه
وسموه شعرا تارة وسحرا أخرى فلو نزلناه على بعض الاعجمين الذى لايحسن العربية
لكفروا به أيضا ولتمحلوا لجحودهم عذرا ثم قال كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين أى مثل
هذا السلك سلكناه فى قلوبهم وهكذا مكناه وقررناه فيها وكيفما فعل بهم فلا سبيل الى ان
يتغيروا عماهم عليه من الجحود والانكار وهذا أيضا مما يفيد تسلية الرسول صلى الله
عليه وسلم لانه اذا عرف رسول الله اصرارهم على الكفر وانه قد جرى القضاء الازلى
بذلك حصل اليأس وفى المثل اليأس احدى الراحتين (المسئلة الرابعة) قوله كذلك
سلكناه فى قلوب المجرمين يدل على ان الكل بقضاء الله وخلقه قال صاحب الكشاف أراد
به انه صار ذلك التكذيب متمكنا فى قلوبهم اشد التمكن فصار ذلك كالشئ الجبلى والجواب
انه اما أن يكون قد فعل الله فيهم مايقتضى رجحان التكذيب على التصديق اوما فعل
ذلك فيهم فان كان الاول فقد دللنا فى سورة الانعام على ان الترجيح لايتحقق مالم ينته الى
حد الوجوب وحينئذ يحصل المقصود فان لم يفعل فيهم مايقتضى الترجيح البتة امتنع
قوله كذلك سلكناه كما ان طيران الطائر لما لم يكن له تعلق بكفرهم امتنع اسناد الكفر الى
ذلك الطيران (المسئلة الخامسة) قال صاحب الكشاف فان قلت ماموقع لايؤمنون
به من قوله سلكناه فى قلوب المجرمين قلت موقعه منه موقع الموضح والمبين لانه مسوق
لبيانه مؤكد للجحود فى قلوبهم فاتبع مايقرر هذا المعنى من انهم لايزالون على التكذيب
به حتى يعاينوا الوعيد * قوله تعالى (فيقولوا هل نحن منظرون افبعذابنا يستعجلون
افرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ماكانوا يوعدون مااغنى عنهم ماكانوا يمتعون
وما اهلكنا من قرية الا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين) اعلم انه تعالى لما بين انهم
لايؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم وانه يأتيهم العذاب بغتة اتبعه بما يكون منهم عند
ذلك على وجه الحسرة فقال فيقولوا هل نحن منظرون كما يستغيث المرء عند تعذر
الخلاص لانهم يعلمون فى الآخرة ان لاملجأ لكنهم يذكرون ذلك استرواحا فاما قوله تعالى
افبعذابنا يستعجلون فالمراد انه تعالى بين انهم كانوا فى الدنيا يستعجلون العذاب مع ان
حالهم عند نزول العذاب طلب النظرة ليعرف تفاوت الطريقين فيعتبر به ثم بين تعالى
ان استعجال العذاب على وجه التكذيب انما يقع منهم ليتمتعوا فى الدنيا الا ان ذلك جهل
وذلك لان مدة التمتع فى الدنيا متناهية قليلة ومدة العذاب الذى يحصل بعد ذلك غير
متناهية وليس فى العقل ترجيح لذات متناهية قليلة على آلام غير متناهية وعن ميمون بن

(فاتقوا الله وأطيعون) لترتيب ما بعدها على ما قبلها من تنزهه عليه الصلاة السلام عن الطمع كما أن نظيرتها السابقة
لترتيب ما بعدها على أمانته والتكرير للتاكيد والتنبيه على أن كلا منهما مستقل في ايجاب التقوى والطاعة
فكيف اذا اجتمعا وقرئ
ان أجري بسكون الياء
(قالوا أنؤمن لك واتبعك
الارذلون) أي الاقلون
جاها ومالا جمع الارذل
على الصحة فانه بالغلبة
صار جاريا مجرى الاسم
كالاكبر والاكابر وقيل
جمع رذل كالكالب وأكلب
وكلب وقرئ وأتباعك
وهو جمع تابع كشاهد
وأشهاد أو جمع تبع
كبطل وأبطال يعنون
أنه لا عبرة باتباعهم لك
اذ ليس لهم رزانة عقل
ولا اصابة رأي وقد
كان ذلك منهم في بادئ
الرأي كما ذكر في موضع
آخر وهذا من كمال سخافة
عقولهم وقصرهم
أنظارهم على حطام
الدنيا وكون الاشرف
عندهم من هو أكثر منها
حظا والارذل من حرمها
وجهلهم بأنها لا تزن
عند الله تعالى جناح
بعوضة وان النعيم هو نعيم
الآخرة والاشرف من
فاز به والارذل من حرمه
(قال وما علمي بما كانوا
يعملون) جواب عما
أشير اليه من قولهم انهم
لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة أي ما وظيفتي الا اعتبار الظواهر وبناء الاحكام عليها دون التفتيش عن بواطنهم ﴿ افرده
والشق عن قلوبهم (ان حسابهم) أي ما محاسبة أعمالهم والتنقير عن كيفياتها البارزة والكامنة (الا على ربي) فانه

مهران انه لقي الحسن في الطواف فقال له عظني فلم يزد على تلاوة هذه الآية فقال ميمون
لقد وعظت فابلغت وقرئ يمتعون بالتخفيف ثم بين انه لم يهلك قرية الا وهناك نذير يقيم
عليهم الحجة أما قوله تعالى ذكرى فقال صاحب الكشاف ذكرى منصوبة بمعنى تذكرة
اما لان أنذر وذكر متقاربان فكانه قيل مذكرون تذكرة واما لانها حال من الضمير
في منذرون أي ينذرونهم ذوي تذكرة واما لانها مفعول له على معنى انهم ينذرون لاجل
الموعظة والتذكرة أو مرفوعة على انها خبر مبتدأ محذوف بمعنى هذه ذكرى والجملة
اعتراضية أو صفة بمعنى منذرون ذكرى وجعلوا ذكرى لامعانهم في التذكرة واطنابهم
فيها ووجه آخر وهو أن يكون ذكرى متعلقة باهلكنا مفعولا له والمعنى وما أهلكنا من أهل
قرية ظالمين الا بعد ما ألزمناهم الحجة بارسال المنذرين اليهم ليكون اهلاكهم تذكرة وعبرة
لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم وما كنا ظالمين فنهلك قوما غير ظالمين وهذا الوجه
عليه المعول فان قلت كيف عزلت الواو عن الجملة بعد الا ولم تعزل عنها في قوله وما أهلكنا
من قرية الا ولها كتاب معلوم قلت الاصل عزل الواو لان الجملة صفة لقرية واذا زيدت
فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف * قوله تعالى (وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم
وما يستطيعون انهم عن السمع لمعزولون فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين)
اعلم انه تعالى لما احتج على صدق محمد صلى الله عليه وسلم بكون القرآن تنزيل رب
العالمين وانما يعرف ذلك لوقوعه من الفصاحة في النهاية القصوى ولانه مشتمل على قصص
المتقدمين من غير تفاوت مع انه عليه السلام لم يشتغل بالتعلم والاستفادة فكان الكفار
يقولون لم لا يجوز أن يكون هذا من القاء الجن والشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة
فاجاب الله تعالى عنه بان ذلك لا يتسهل للشياطين لانهم مرجومون بالشهب معزولون
عن استماع كلام أهل السماء ولقائل أن يقول العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك
لا يحصل الا بواسطة خبر النبي الصادق فاذا اثبتنا كون محمد صلى الله عليه وسلم صادقا
بفصاحة القرآن واخباره عن الغيب ولا يمكن اثبات كون الفصاحة والاخبار عن
الغيب معجزا الا اذا ثبت كون الشياطين ممنوعين عن ذلك لزم الدور وهو باطل وجوابه
لا نسلم ان العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك لا يستفاد الا من قول النبي وذلك لانا نعلم
بالضرورة ان الاهتمام بشأن الصديق أقوى من الاهتمام بشأن العدو ونعلم بالضرورة
ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان يلعن الشياطين ويأمر الناس بلعنهم فلو كان هذا الغيب
انما حصل من القاء الشياطين لكان الكفار أولى بان يحصل لهم مثل هذا العلم فكان
يجب أن يكون اقتدار الكفار على مثله أولى فلما لم يكن كذلك علمنا ان الشياطين ممنوعون
عن ذلك وانهم معزولون عن تعرف الغيوب ثم انه تعالى لما ذكر هذا الجواب ابتدأ بخطاب
الرسول صلى الله عليه وسلم فقال فلا تدع مع الله الها آخر وذلك في الحقيقة خطاب لغيره
لان من شأن الحكيم اذا أراد أن يؤكد خطاب الغير أن يوجهه الى الرؤساء في الظاهر
وان كان المقصود بذلك هم الاتباع ولانه تعالى أراد أن يتبعه ما يليق بذلك فلهذه العلة

المطلع على السرائر والضمائر (لو تشعرون) أى بشئ من الاشياء أو لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك ولكنكم لستم كذلك
فتقولون ما تقولون (وما أنا بطارد المؤمنين) جواب عما أوهمه كلامهم من استدعاء طردهم وتعليق ايمانهم بذلك حيث
جعلوا اتباعهم مانعا عنه وقوله (ان أنا الا نذير مبين) كالعلة له أى ما أنا الا رسول مبعوث لانذار المكلفين
وزجرهم عن الكفر والمعاصى سواء كانوا من الاعزاء أو الاذلاء فكيف يتسنى لى طرد الفقراء لاستتباع الاغنياء أو ما على الا انذاركم بالبرهان الواضح وقد فعلته وما على استرضاء بعضكم بطرد الآخرين (قالوا لئن لم تنته يا نوح) عما تقول (لتكونن من المرجومين) من المشتومين أو المرميين بالحجارة قالوه قاتلهم الله تعالى فى أواخر الامر ومعنى قوله تعالى (قال رب ان قومى كذبون) تمردوا على تكذيبى وأصروا على ذلك بعد ما دعوتهم هذه الازمنة المتطاولة ولم يزدهم دعائى الا فرارا كما يعرب عنه دعاؤه بقوله (فافتح بينى وبينهم فتحا) أى احكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا وهذه حكاية اجمالية لدعائه المفصل فى سورة نوح عليه السلام (ونجنى ومن معى من المؤمنين) أى من قصدهم أو من شؤم أعمالهم (فأنجيناه ومن معه)
حسب دعائه (فى الفلك المشحون) أى المملوء بهم وبما لابد لهم منه (ثم أغرقنا) بعد انجائهم (الباقين) أى من قومه
(ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو

أفرده بالمخاطبة ❊ قوله تعالى (وانذر عشيرتك الاقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل انى برئ مما تعملون وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين انه هو السميع العليم) اعلم انه سبحانه لما بالغ فى تسلية رسوله أولا ثم أقام الحجة على نبوته ثانيا ثم أورد سؤال المنكرين وأجاب عنه ثالثا أمره بعد ذلك بما يتعلق بباب التبليغ والرسالة وهو ههنا أمور ثلاثة (الاول) قوله وأنذر عشيرتك الاقربين وذلك لانه تعالى بدأ بالرسول فتوعده ان دعا مع الله الها آخر ثم أمره بدعوة الاقرب فالاقرب وذلك لانه اذا تشدد على نفسه أولا ثم بالاقرب فالاقرب ثانيا لم يكن لاحد فيه طعن البتة وكان قوله انفع وكلامه انجع وروى انه لما نزلت هذه الآية صعد الصفا فنادى الاقرب فالاقرب وقال يا بنى عبد المطلب يا بنى هاشم يا بنى عبد مناف يا عباس عم محمد يا صفية عمة محمد انى لا املك لكم من الله شيئا سلونى من المال ما شئتم وروى انه جمع بنى عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلا على رجل شاة وقعب من لبن وكان الرجل منهم يأكل الجذعة ويشرب العس فاكلوا وشربوا ثم قال يا بنى عبد المطلب لو أخبرتكم ان بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدقى قالوا نعم فقال انى نذير لكم بين يدى عذاب شديد (الثانى) قوله واخفض جناحك واعلم ان الطائر اذا أراد ان ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه واذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلا فى التواضع ولين الجانب فان قيل المتبعون للرسول هم المؤمنون وبالعكس فلم قال لمن اتبعك من المؤمنين جوابه لا نسلم ان المتبعين للرسول هم المؤمنون فان كثيرا منهم كانوا يتبعونه للقرابة والنسب لا للدين فاما قوله فان عصوك فقل انى برئ مما تعملون فمعناه ظاهر قال الجبائى هذا يدل على انه عليه السلام كان بريئا من معاصيهم وذلك يوجب أن الله تعالى أيضا برئ من عملهم كالرسول والا كان مخالفا لله كما لو رضى عمن سخط الله عليه لكان كذلك واذا كان تعالى بريئا من عملهم فكيف يكون فاعلا له ومريدا له الجواب انه تعالى برئ من المعاصى بمعنى انه ما أمر بها بل نهى عنها فاما بمعنى انه لا يريدها فلا نسلم والدليل عليه انه علم وقوعها وعلم ان ما هو معلوم الوقوع فهو واجب الوقوع والا لانقلب علمه جهلا وهو محال والمفضى الى المحال محال وعلم أن ما هو واجب الوقوع فانه لا يراد عدم وقوعه فثبت ما قلناه (والثالث) قوله وتوكل والتوكل عبارة عن تفويض الرجل أمره الى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره وقوله على العزيز الرحيم أى على الذى يقهر اعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته ثم اتبع كونه رحيما على رسوله ما هو كالسبب لتلك الرحمة وهو قيامه وتقلبه فى الساجدين وفيه وجوه (أحدها) المراد ما كان يفعله فى جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه فى تصفح أحوال المتهجدين ليطلع على اسرارهم كما يحكى انه حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه على ما يوجد منهم من الطاعات فوجدها كبيوت الزنابير لما يسمع منها من دندنتهم

العزيز الرحيم) الكلام فيه كالذى مر خلا ان حمل اكثرهم على اكثر قوم نوح أبعد من السداد وأبعد (كذبت عاد المرسلين)
انث عادا باعتبار القبيلة وهو اسم أبيهم الاقصى (اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون) الكلام فى أن المراد بتكذيبهم وبما وقع

فيه من الزمان ماذا كما مر فى صدر قصة نوح عليه السلام أى ألا تتقون الله فتفعلون ما تفعلون (انى لكم
رسول أمين فاتقوا الله
وأطيعون وما أسألكم
عليه من أجر ان أجرى
الا على رب العالمين)
الكلام فيه كالذى مر
وتصدير القصص به
للتنبيه على أن مبنى البعثة
هو الدعاء الى معرفة
الحق والطاعة فيما يقرب
المدعو الى الثواب ويبعده
من العقاب وأن الانبياء
عليهم الصلاة والسلام
مجمعون على ذلك وان
اختلفوا فى بعض فروع
الشرائع المختلفة باختلاف
الازمنة والاعصار
وأنهم متنزهون عن
المطامع الدنية
والاغراض الدنيوية
بالكلية (اتبنون بكل ريع)
أى مكان مرتفع ومنه
ريع الارض لارتفاعها
(آية) علما للمارة (تعبثون)
أى ببنائها اذ كانوا
يهتدون بالنجوم فى
أسفارهم فلا يحتاجون
اليها أو بروج الحمام
أو بنيانا يجتمعون اليه
ليعبثوا بمن مر عليهم
أو قصورا عالية يفتخرون
بها (وتتخذون مصانع)
أى مآخذ الماء وقيل
قصورا مشيدة وحصونا (لعلكم تخلدون) أى راجين أن تخلدوا فى الدنيا أى عاملين ✿ الى
عمل من يرجو ذلك فلذلك تحكمون

بذكر الله تعالى والمراد بالساجدين المصلين (وثانيها) المعنى يراك حين تقوم للصلاة بالناس
جماعة وتقلبه فى الساجدين تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده اذ كان
اماما لهم (وثالثها) انه لا يخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين فى كفاية أمور
الدين (ورابعها) المراد تقلب بصره فيمن يصلى خلفه من قوله صلى الله عليه وسلم أتموا
الركوع والسجود فوالله انى لاراكم من خلفى ثم قال انه هو السميع أى لما تقوله العليم
أى بما تنويه وتعمله وهذا يدل على ان كونه سميعا أمر مغاير لعلمه بالمسموعات والا لكان
لفظ العليم مفيدا فائدته واعلم انه قرئ وتقلبك واعلم ان الرافضة ذهبوا الى ان آباء النبى
صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين وتمسكوا فى ذلك بهذه الآية وبالخبر أما هذه الآية
فقالوا قوله تعالى وتقلبك فى الساجدين يحتمل الوجوه التى ذكرتم ويحتمل أن يكون المراد
أن الله تعالى نقل روحه من ساجد الى ساجد كما نقوله نحن واذا احتمل كل هذه الوجوه
وجب حمل الآية على الكل ضرورة انه لا منافاة ولا رجحان وأما الخبر فقوله عليه السلام
لم أزل أنقل من اصلاب الطاهرين الى ارحام الطاهرات وكل من كان كافرا فهو نجس
لقوله تعالى انما المشركون نجس قالوا فان تمسكتم على فساد هذا المذهب بقوله تعالى
واذ قال ابراهيم لابيه آزر قلنا الجواب عنه ان لفظ الاب قد يطلق على العم كما قال أبناء
يعقوب له نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق فسموا اسمعيل ابا له مع انه كان
عما له وقال عليه السلام ردوا على أبى يعنى العباس ويحتمل أيضا أن يكون متخذ الاصنام
أب أمه فان هذا قد يقال له الاب قال تعالى ومن ذريته داود وسليمان الى قوله وعيسى
فجعل عيسى من ذرية ابراهيم مع ان ابراهيم كان جده من قبل الام واعلم انا نتمسك بقوله
تعالى لأبيه آزر وما ذكروه صرف اللفظ عن ظاهره وأما حمل قوله وتقلبك فى الساجدين
على جميع الوجوه فغير جائز لما بينا أن حمل المشترك على كل معانيه غير جائز وأما الحديث
فهو خبر واحد فلا يعارض القرآن ✿ قوله تعالى (هل انبئكم على من تنزل الشياطين
تنزل على كل افاك اثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) اعلم ان الله تعالى اعاد الشبهة
المتقدمة وأجاب عنها من وجهين (الاول) قوله تنزل على كل افاك اثيم وذلك هو الذى
قررناه فيما تقدم ان الكفار يدعون الى طاعة الشيطان ومحمدا عليه السلام كان يدعو
الى لعن الشيطان والبراءة عنه (والثانى) قوله يلقون السمع وأكثرهم كاذبون والمراد
انهم كانوا يقيسون حال النبى صلى الله عليه وسلم على حال سائر الكهنة فكأنه قيل لهم
ان كان الامر على ما ذكرتم فكما ان الغالب على سائر الكهنة الكذب فيجب أن يكون
حال الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك أيضا فلما لم يظهر فى اخبار الرسول صلى الله عليه
وسلم عن المغيبات الا الصدق علمنا ان حاله بخلاف حال الكهنة ثم ان المفسرين ذكروا
فى الآية وجوها أحدها انهم الشياطين روى انهم كانوا قبل ان حجبوا بالرجم يسمعون
الى الملأ الاعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب ثم يوحون به

بنياتها) واذابطشتم) بسوط أوسيف (بطشتم جبارين) متسلطين عاشمين بلا رأفة ولا قصد تأديب ولا نظر في العاقبة (فاتقوا الله) واتركوا هذه الافعال (واطيعون) فيما أدعوكم اليه فانه أنفع لكم (واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون) من أنواع النعماء وأصناف الآلاء اجملها أولا ثم فصلها بقوله (أمدكم بانعام و بنين) باعادة الفعل لزيادة التقرير فان التفصيل بعد الاجمال والتفسير اثر الابهام أدخل فى ذلك (وجنات وعيون انى أخاف عليكم) ان لم تقوموا بشكر هذه النعم (عذاب يوم عظيم) فى الدنيا والآخرة فان كفران النعمة مستتبع للعذاب كما أن شكرها مستلزم لزيادتها قال تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد (قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) فانا لن نرعوى عما نحن عليه وتغيير الشق الثانى عن مقابله للمبالغة فى بيان قلة اعتدادهم بوعظه كأنهم قالوا أم لم تكن من أهل الوعظ ومباشريه أصلا (ان هذا) ما هذا الذى جئتنا به (الاخلق الاولين) أى عادتهم كانوا يلفقون مثله و يسطرونه أوما هذا الذى نحن عليه من الدين الاخلق الاولين وعادتهم ونحن بهم مقتدون أوما هذا الذى نحن عليه من الموت والحياة الاعادة قديمة لم يزل الناس عليها وقرئ خلق الاولين بفتح الخاء أى اختلاق الاولين كما قالوا أساطير الاولين أوما خلقنا هذا الاخلقهم نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ولابعث ولاحساب

الى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحى به اليهم لانهم يسمعونهم مالم يسمعوا وثانيها يلقون الى أوليائهم السمع أى المسموع من الملائكة وثالثها الافاكون يلقون السمع الى الشياطين فيلقون وحيهم اليهم ورابعها يلقون المسموع من الشياطين الى الناس واكثر الافاكين كاذبون يفترون على الشياطين مالم يوحوا اليهم فان قلت يلقون ما محله قلت يجوز أن يكون فى محل النصب على الحال أى تنزل ملقين السمع وفى محل الجر صفة لكل افاك لانه فى معنى الجمع وأن لايكون له محل بان يستأنف كأن قائلا قال لم تنزل على الافاكين فقيل يفعلون كيت وكيت فان قلت كيف قال واكثرهم كاذبون بعدما قضى عليهم ان كل واحد منهم افاك قلت الافاكون هم الذين يكثرون الكذب لأنهم الذين لاينطقون الابالكذب فاراد ان هؤلاء الافاكين قل من يصدق منهم فيما يحكى عن الجن واكثرهم يفترى عليهم ✿ قوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وانهم يقولون مالايفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ماظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) اعلم ان الكفار لما قالوا لم لايجوز أن يقال ان الشياطين تنزل بالقرآن على محمد كما انهم ينزلون بالكهانة على الكهنة و بالشعر على الشعراء ثم انه سبحانه فرق بين محمد صلى الله عليه وسلم و بين الكهنة فذكر ههنا مايدل على الفرق بينه عليه السلام و بين الشعراء وذلك هو أن الشعراء يتبعهم الغاوون أى الضالون ثم بين تلك الغواية بامرين (الاول) انهم فى كل واد يهيمون والمراد منه الطرق المختلفة كقولك انا فى واد وأنت فى واد وذلك لانهم قد يمدحون الشئ بعد أن ذموه و بالعكس وقد يعظمونه بعد ان استحقروه و بالعكس وذلك يدل على انهم لايطلبون بشعرهم الحق ولا الصدق بخلاف أمر محمد صلى الله عليه وسلم فانه من أول أمره الى آخره بقى على طريق واحد وهو الدعوة الى الله تعالى والترغيب فى الآخرة والاعراض عن الدنيا (الثانى) انهم يقولون مالايفعلون وذلك أيضا من علامات الغواة فانهم يرغبون فى الجود و يرغبون عنه و ينفرون عن البخل و يصرون عليه و يقدحون فى الناس بادنى شئ صدر عن واحد من أسلافهم ثم انهم لايرتكبون الا الفواحش وذلك يدل على الغواية والضلالة وأما محمد صلى الله عليه وسلم فانه بدأ بنفسه حيث قال الله تعالى له فلاتدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين ثم بالاقرب فالاقرب حيث قال الله تعالى له وأنذر عشيرتك الاقربين وكل ذلك على خلاف طريقة الشعراء فقد ظهر بهذا الذى بيناه ان حال محمد صلى الله عليه وسلم ما كان يشبه حال الشعراء ثم ان الله تعالى لما وصف الشعراء بهذه الاوصاف الذميمة بيانا لهذا الفرق استثنى عنهم الموصوفين بامور اربعة (أحدها) الايمان وهو قوله الا الذين آمنوا (وثانيها) العمل الصالح وهو قوله وعملوا الصالحات (وثالثها) أن يكون شعرهم فى التوحيد والنبوة ودعوة الخلق الى الحق وهو قوله وذكروا الله كثيرا (ورابعها) أن لايذكروا هجو أحد

(وماتحن بمعذبين) على مانحن عليه من الاعمال (فكذبوه) اى اصروا على ذلك (فاهلكناهم) بسببه بريح صرصر
(ان فى ذلك لآية وماكان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم كذبت ثمود المرسلين اذقال لهم أخوهم صالح
ألاتتقون) الله تعالى (انى لكم رسول أمين فاتقوا الله ﴿ ٥٥٠ ﴾ وأطيعون ومأسألكم عليه من أجران أجرى الاعلى
رب العالمين أتتركون
فيماههنا آمنين) انكار
ونفى لأن يتركوا فيماهم
فيه من النعمة أوتذكير
للنعمة فى تخليته تعالى
اياهم وأسباب تنعمهم
آمنين وقوله تعالى (فى
جنات وعيون وزروع
ونخل طلعها هضيم)
تفسير لماقبله من المبهم
والهضيم اللطيف اللين
للطف الثمر أولان النخل
أنثى وطلع الاناث ألطف
وهومايطلع منها كنصل
السيف فى جوفه شماريخ
القنو أومتدل متكسر
من كثرة الحمل وافراد
النخل لفضله على سائر
أشجار الجنات أولان
المراد بهما غيرها من
الاشجار (وتنحتون
من الجبال بيوتافارهين)
بطرين أوحاذقين من
الفراهة وهى النشاط
فان الحاذق يعمل بنشاط
وطيب قلب وقرئ فرهين
وهو أبلغ (فاتقوا الله
وأطيعون ولا تطيعوا
أمر المسرفين) استعير
الطاعة التى هى انقياد
الآمر لامتثال الامر
وارتسامه أونسب حكم
الآمر الى امره مجازا (الذين يفسدون فى الارض) وصف موضح لاسرافهم ولذلك
عطف (ولايصلحون) على يفسدون لبيان خلوص افسادهم عن مخالطة الاصلاح (قالوا انما أنت من المسحرين)
أى الذين سحروا حتى غلب على عقولهم أومن ذوى السحر أى الرئة

﴿ بالهدى

الاعلى سبيل الانتصار ممن يهجوهم وهوقوله وانتصروا من بعد ماظلموا قال الله تعالى
لايحب الله الجهر بالسوء من القول الامن ظلم ثم ان الشرط فيه ترك الاعتداء لقوله
تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم وقيل المراد بهذا الاستثناء
عبدالله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير لانهم كانوا يهجون
قريشا وعن كعب بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اهجهم فوالذى نفسى
بيده لهواشد عليهم من رشق النبل وكان يقول لحسان بن ثابت قل وروح القدس معك
فأما قوله تعالى وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون فالذى عندى فيه والله اعلم انه
تعالى لماذكر فى هذه السورة مايزيل الحزن عن قلب رسوله صلى الله عليه وسلم من الدلائل
العقلية ومن أخبار الانبياء المتقدمين ثم ذكر الدلائل على نبوته عليه السلام ثم ذكر سؤالا
المشركين فى تسميتهم محمدا صلى الله عليه وسلم تارة بالكاهن وتارة بالشاعر ثم انه تعالى بين
الفرق بينه وبين الكاهن أولا ثم بين الفرق بينه وبين الشاعر ثانيا ختم السورة بهذا
التهديد العظيم يعنى ان الذين ظلموا أنفسهم وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات والتأمل
فى هذه البينات فانهم سيعلمون بعد ذلك أى منقلب ينقلبون وقال الجمهور المراد منه
الزجر عن الطريقة التى وصف الله بها هؤلاء الشعراء والاول أقرب الى نظم السورة من
أولها الى آخرها والله أعلم والحمدلله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد النبى الامى
وآله وصحبه أجمعين وعلى أزواجه امهات المؤمنين وعلى التابعين لهم باحسان الى يوم الدين

* (سورة النمل تسعون وثلاث اواربع اوخمس آيات مكية) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون
الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) اعلم ان قوله تلك اشارة الى آيات السورة والكتاب
المبين هواللوح المحفوظ وابانته انه قدخط فيه كل ماهوكائن فالملائكة الناظرون فيه
يبينون الكائنات وانمانكر الكتاب المبين ليصير مبهما بالتنكير فيكون افخم له كقوله
فى مقعد صدق عند مليك مقتدر وقرأ ابن أبى عبلة وكتاب مبين بالرفع على تقدير وآيات
كتاب مبين فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه فان قلت ماالفرق بين هذا وبين
قوله الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين قلت لافرق لان واو العطف لاتقتضى الترتيب
أماقوله هدى وبشرى للمؤمنين فهو فى محل النصب أوالرفع فالنصب على الحال أى
هادية ومبشرة والعامل فيهما مافى تلك من معنى الاشارة والرفع على ثلاثة أوجه على معنى
هى هدى وبشرى وعلى البدل من الآيات وعلى أن يكون خبرابعد خبرأى جمعت آياتها
آيات الكتاب وانها هدى وبشرى واختلفوا فى وجه تخصيص الهدى بالمؤمنين على
وجهين (الاول) المرادأن يهديهم الى الجنة وبشرى لهم كقوله تعالى فسيدخلهم فى رحمة
منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما فلهذا اختص به المؤمنون (الثانى) المراد

أى من الانس فيكون قوله تعالى (ماأنت الابشر مثلنا) تاكيداله (فأت بآية ان كنت من الصادقين) أى
فى دعواك (قال هذه ناقة) أى بعدما أخرجها الله تعالى من الصخرة بدعائه عليه الصلاة والسلام حسبما مر تفصيله
فى سورة الاعراف وسورة هود (لهاشرب) أى نصيب من الماء كالسقى والقيت للحظ من السقى والقوت
وقرئ بالضم (ولكم شرب يوم معلوم) فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموا على شربها (ولاتمسوها بسوء) كضرب وعقر (فيأخذكم عذاب يوم عظيم) وصف اليوم بالعظم لعظم مايحل فيه وهو أبلغ من تعظيم العذاب (فعقروها) أسند العقر الى كلهم لما أن عاقرها عقرها برأيهم ولذلك عمهم العذاب (فأصبحوا نادمين) خوفا من حلول العذاب لاتوبة أو عند معاينتهم لمباديه ولذلك لم ينفعهم الندم وان كان بطريق التوبة (فأخذهم العذاب) أى العذاب الموعود (ان فى ذلك لآية وماكان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) قيل فى نفى الايمان عن اكثرهم فى هذا المعرض ايماء الى أنه لوآمن أكثرهم أوشطرهم لماأخذوا بالعذاب وان قريشا انما عصموا من مثله ببركة من آمن منهم وأنت خبير بأن قريشاهم المشهورون
بعدم ايمان أكثرهم (كذبت قوم لوط المرسلين اذقال لهم أخوهم لوط ألاتتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله
وأطيعون وماأسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين) أى أتأتون
من بين من عداكم من العالمين الذكران لايشارككم فيه غيركم أوأتأتون الذكران من أولاد آدم مع كثرتهم

بالهدى الدلالة ثم ذكروا فى تخصيصه بالمؤمنين وجوها (أحدها) انه انما خصه بالمؤمنين
لانه ذكر مع الهدى البشرى والبشرى انما تكون للمؤمنين (وثانيها) ان وجه
الاختصاص انهم تمسكوا به فخصهم بالذكر كقوله انما أنت منذر من يخشاها (وثالثها)
المراد من كونها هدى للمؤمنين انها زائدة فى هداهم قال تعالى ويزيد الله الذين اهتدوا وزادهم
هدى أما قوله الذين يقيمون الصلاة فالاقرب انها الصلوات الخمس لان التعريف بالالف
واللام يقتضى ذلك واقامة الصلاة أن يؤتى بها بشرائطها وكذا القول فى الزكاة فانها
هى الواجبة واقامتها وضعها فى حقها اما قوله وهم بالآخرة هم يوقنون ففيه سؤال وهو
ان المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة لابد وأن يكونوا متيقنين بالآخرة فما
الوجه فى ذكره مرة أخرى جوابه من وجهين (الاول) أن يكون من جملة صلة الموصول
ثم فيه وجهان الاول أن كمال الانسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به
وأما عرفان الحق فاقسام كثيرة لكن الذى يستفاد منه طريق النجاة معرفة المبدأ
ومعرفة المعاد واما الخير الذى يعمل به فاقسام كثيرة واشرفها قسمان الطاعة بالنفس
والطاعة بالمال فقوله للمؤمنين اشارة الى معرفة المبدأ وقوله يقيمون الصلاة ويؤتون
الزكاة اشارة الى الطاعة بالنفس والمال وقوله وهم بالآخرة هم يوقنون اشارة الى علم
المعاد فكأنه سبحانه وتعالى جعل معرفة المبدأ طرفا اولا ومعرفة المعاد طرفا أخيرا
وجعل الطاعة بالنفس والمال متوسطا بينهما الثانى ان المؤمنين الذين يقيمون الصلاة
ويؤتون الزكاة منهم من هو جازم بالحشر والنشر ومنهم من يكون شاكا فيه الا أنه يأتى
بهذه الطاعات للاحتياط فيقول ان كنت مصيبا فيها فقد فزت بالسعادة وان كنت مخطئا
فيها لم يفتنى الاخيرات قليلة فى هذه المدة اليسيرة فمن يأتى بالصلاة والزكاة على هذا الوجه
لم يكن فى الحقيقة مهتديا بالقرآن أما من كان جازما بالآخرة كان مهتديا به فلهذا السبب
ذكر هذا القيد (الثانى) ان يجعل قوله وهم بالآخرة هم يوقنون جملة اعتراضية كأنه
قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من اقامة الصلاة وايتاء الزكاة هم
الموقنون بالآخرة وهذا هو الاقرب ويدل عليه انه عقد جملة ابتدائية وكرر فيها المبتدأ
الذى هو هم حتى صار معناها ومايوقن بالآخرة حق الايقان الاهؤلاء الجامعون بين
الايمان والعمل الصالح لان خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق * قوله تعالى

(ان الذين لايؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون أولئك الذين لهم سوء
العذاب وهم فى الآخرة هم الاخسرون) اعلم انه تعالى لما بين ماللمؤمنين من البشرى
أتبعه بما على الكفار من سوء العذاب فقال ان الذين لايؤمنون بالآخرة زينا لهم
أعمالهم واختلف الناس فى انه كيف اسند تزيين أعمالهم الى ذاته مع أنه اسنده الى
الشيطان فى قوله فزين لهم الشيطان اعمالهم فاما اصحابنا فقد أجروا الآية على ظاهرها
وذلك لان الانسان لايفعل البتة الااذا دعاه الداعى الى الفعل والمعقول من الداعى هو

وغلبة النساء فيهم مع كونهن اليق بالاستمتاع فالمراد بالعالمين على الاول كل ماينكح من الحيوان وعلى الثاني الناس (وتذرون ماخلق لكم ربكم) لاجل استمتاعكم وكلمة من فى قوله تعالى (من أزواجكم) للبيان ان اريد بما جنس الاناث وهو الظاهر وللتبعيض ان أريد بها العضو المباح منهن تعريضا بأنهم

كانوا يفعلون ذلك بنسائهم أيضا (بل أنتم قوم عادون) متعدون متجاوزون الحد فى جميع المعاصى وهذا من جملتها وقيل متجاوزون عن حد الشهوة حيث زادوا على سائر الناس بل الحيوانات (قالوا لئن لم تنته يالوط) أى عن تقبيح أمرنا أو نهينا عنه او عن دعوى النبوة التى من جملة أحكامها التعرض لنا (لتكونن من المخرجين) أى من المنفيين من قريتنا وكانهم كانوا يخرجون من أخرجوه من بينهم على عنف وسوء حال (قال انى لعملكم من القالين) أى من المبغضين غاية البغض كأنه يقلى الفؤاد والكبد لشدته وهو أبلغ من ان يقال انى لعملكم قال لدلالته على انه عليه الصلاة والسلام من زمرة الراسخين فى بغضه المشهورين فى قلاه ولعله عليه الصلاة والسلام أراد اظهار الكراهة فى مساكنتهم والرغبة فى الخلاص من سوء جوارهم ولذلك اعرض عن محاورتهم وتوجه الى الله تعالى قائلا (رب نجنى واهلى مما يعملون) أى من شؤم عملهم وغائلته (فنجيناه وأهله أجمعين) اى اهل بيته ومن اتبعه فى الدين باخراجهم من بينهم عند مشارفة حلول العذاب بهم (الا عجوزا) هى امرأة لوط استثنيت

❊ فان ❊

العلم والاعتقاد والظن بكون الفعل مشتملا على منفعة وهذا الداعى لابد وان يكون من فعل الله تعالى لوجهين (الاول) انه لوكان من فعل العبد لافتقر فيه الى داع آخر ويلزم التسلسل وهو محال (الثانى) وهو ان العلم اما أن يكون ضروريا أو كسبيا فان كان ضروريا فلابد فيه من تصورين والتصور يمتنع أن يكون مكتسبا لان المكتسب ان كان شاعرا به فهو متصور له وتحصيل الحاصل محال وان لم يكن شاعرا به كان غافلا عنه والغافل عن الشئ يمتنع أن يكون طالبا له فان قلت هو مشعور به من وجه دون وجه قلت فالمشعور به غير ماهو مشعور به فيعود التقسيم المتقدم فى كل واحد من هذين الوجهين واذا ثبت ان التصور غير مكتسب البتة والعلم الضرورى هو الذى يكون حضور كل واحد من تصوريه كافيا فى حصول التصديق فالتصورات غير كسبية وهى مستلزمة للتصديقات فاذن متى حصلت التصورات حصل التصديق لامحالة ومتى لم تحصل لم يحصل التصديق البتة فحصول هذه التصديقات البديهية ليس بالكسب ثم ان تلك التصديقات البديهية ان كانت مستلزمة للتصديقات النظرية لم تكن التصديقات النظرية كسبية لان لازم الضرورى ضرورى وان لم تكن مستلزمة لها لم تكن تلك الاشياء التى فرضناها علوما نظرية كذلك بل هى اعتقادات تقليدية لانه لامعنى لاعتقاد المقلد الا اعتقاد يحصل بفعله استبداء من غير أن يكون له موجب فثبت بهذا أن العلوم بأسرها ضرورية وثبت ان مبادى الافعال هى العلوم فافعال العباد باسرها ضرورية والانسان مضطر فى صورة مختار فثبت أن الله تعالى هو الذى زين لكل عامل عمله والمراد من التزيين هو انه يخلق فى قلبه العلم بمافيه من المنافع واللذات ولايخلق فى قلبه العلم بمافيه من المضار والآفات فقد ثبت بهذه الدلائل القاطعة العقلية وجوب اجراء هذه الآية على ظاهرها أما المعتزلة فانهم ذكروا فى تأويلها وجوها (أحدها) ان المراد بينا لهم أمر الدين ومايلزمهم أن يتمسكوا به وزيناه بان بينا حسنه ومالهم فيه من الثواب لان التزيين من الله تعالى للعمل ليس الا وصفه بانه حسن وواجب وحميد العاقبة وهو المراد من قوله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم ومعنى فهم يعمهون يدل على ذلك لان المراد فهم يعدلون وينصرفون عما زينا من أعمالهم (وثانيها) انه تعالى لمامتعهم بطول العمر وسعة الرزق جعلوا انعام الله تعالى بذلك عليهم ذريعة الى اتباع شهواتهم وعدم الانقياد لمايلزمهم من التكاليف فكانه تعالى زين بذلك أعمالهم واليه اشارة الملائكة عليهم السلام فى قولهم ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر (وثالثها) ان امهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين فاسند اليه والجواب عن الاول أن قوله تعالى أعمالهم صيغة عموم توجب أن يكون الله تعالى قد زين لهم كل أعمالهم حسنا كان العمل أو قبيحا ومعنى التزيين قد قدمناه وعن الثانى ان الله تعالى لمامتعهم بطول العمر وسعة الرزق فهل لهذه الامور اثر فى ترجيح فاعلية المعصية على تركها اوليس لها فيه أثر

من أهله فلا يضره كونها كافرة لان لها شركة فى الاهلية بحق الزواج (فى الغابرين) اى مقدرا كونها من الباقين فى العذاب
لانها كانت مائلة الى القوم راضية بفعلهم وقد أصابها الحجر فى الطريق فأهلكها كما مر فى سورة الحجر وسورة هود وقيل
كانت فيمن بقى فى القرية ولم تخرج مع لوط عليه ✵ ٥٥٣ ✵ السلام (ثم دمرنا الآخرين) أهلكناهم أشد اهلاك
وأفظعه (وأمطرنا عليهم
مطرا) اى مطرا غير
معهود قيل أمطر الله
تعالى على شذاذ القوم
حجارة فأهلكتهم (فساء
مطر المنذرين) اللام فيه
للجنس وبه يتسنى وقوع
المضاف اليه فاعل
ساء والمخصوص بالذم
محذوف وهو مطرهم
(ان فى ذلك لآية وما كان
أكثرهم مؤمنين وان
ربك لهو العزيز الرحيم
كذب أصحاب ليكة
المرسلين) الأيكة الغيضة
التى تنبت ناعم الشجر وهى
غيضة بقرب مدين
يسكنها طائفة وكانوا
ممن بعث اليهم شعيب
عليه السلام وكان
أجنبيا منهم ولذلك قيل
(اذ قال لهم شعيب
الا تتقون) ولم يقل
أخوهم وقيل الأيكة
الشجر الملتف وكان
شجرهم الدوم وهو
المقل وقرئ بحذف
الهمزة والقاء حركتها
على اللام وقرئت كذلك
مفتوحة على أنها ليكة
وهى اسم بلدهم وانما
كتبت ههنا وفى ص
بغير ألف اتباعا للفظ ✵ ٧٠ ✵ س الافظ (انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان
أجرى الا على رب العالمين أوفوا الكيل) اى أتموه (ولا تكونوا من المخسرين) اى حقوق الناس بالتطفيف (وزنوا)
اى الموزونات (بالقسطاس المستقيم) بالميزان السوى وهو ان كان عربيا فان كان من القسط

فان كان الاول فقد دللنا على ان الترجيح متى حصل فلا بد وان ينتهى الى حد الاستلزام
وحينئذ يحصل الغرض وان لم يكن فيه أثر صارت هذه الاشياء بالنسبة الى أعمالهم كصرير
الباب ونعيق الغراب وذلك يمنع من اسناد فعلهم اليها وهذا بعينه هو الجواب عن
التأويل الثالث الذى ذكروه والله أعلم أما قوله تعالى فهم يعمهون فالعمه التحير
والتردد كما يكون حال الضال عن الطريق أما قوله أولئك الذين لهم سوء العذاب ففيه
وجهان (الاول) انه القتل والاسر يوم بدر (والثانى) مطلق العذاب سواء كان فى الدنيا
أو فى الآخرة والمراد بالسوء شدته وعظمه وأما قوله هم الاخسرون ففيه وجهان
(الاول) انه لا خسران أعظم من أن يخسر المرء نفسه بان يسلب عنه الصحة والسلامة
فى الدنيا ويسلم فى الآخرة الى العذاب العظيم (الثانى) المراد انهم خسروا منازلهم
فى الجنة لو أطاعوا فانه لا مكلف الا وعين له منزل فى الجنة لو أطاع فاذا عصى عدل به الى
غيره فيكون قد خسر ذلك المنزل * قوله تعالى (وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم
اذ قال موسى لاهله انى آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم
تصطلون فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين
يا موسى انه أنا الله العزيز الحكيم) أما قوله وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم
فمعناه لتؤتاه وتلقاه من عند أى حكيم وأى عليم وهذا معنى مجيئهما نكرتين وهذه
الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الاقاصيص واذ منصوب بمضمر وهو
اذكر كأنه قال على اثر ذلك خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى ويجوز أن ينتصب
بعليم فان قيل الحكمة اما أن تكون نفس العلم واما أن يكون العلم داخلا فيها فلما ذكر
الحكمة فلم ذكر العلم جوابه الحكمة هى العلم بالامور العملية فقط والعلم أعم منه لان
العلم قد يكون عمليا وقد يكون نظريا والعلوم النظرية أشرف من العلوم العملية فذكر
الحكمة المشتملة على العلوم العملية ثم ذكر العليم وهو البالغ فى كمال العلم وكمال العلم
يحصل من جهات ثلاثة وحدته وعموم تعلقه بكل المعلومات وبقاؤه مصونا عن كل
التغيرات وما حصلت هذه الكمالات الثلاثة الا فى علمه سبحانه وتعالى واعلم أن الله تعالى
ذكر فى هذه السورة أنواعا من القصص (القصة الاولى) قصة موسى عليه الصلاة
والسلام أما قوله اذ قال موسى لاهله فيدل على انه لم يكن مع موسى عليه السلام غير
امرأته ابنة شعيب عليه السلام وقد كنى الله تعالى عنها بالاهل فتبع ذلك ورود الخطاب
على لفظ الجمع وهو قوله امكثوا أما قوله انى آنست نارا فالمعنى انهما كانا يسيران ليلا
وقد اشتبه الطريق عليهما والوقت وقت برد وفى مثل هذا الحال تقوى النفس بمشاهدة
نار من بعد لما يرجى فيها من زوال الحيرة فى أمر الطريق ومن الانتفاع بالنار للاصطلاء
فلذلك بشرها فقال انى آنست نارا وقد اختلفوا فقال بعضهم المراد أبصرت ورأيت
وقال آخرون بل المراد صادفت ووجدت فآنست به والاول أقرب لانهم لا يفرقون بين

فعلاس بتكرير العين والافعلال وقرئ بضم القاف (ولا تبخسوا الناس اشياءهم) اى لا تنقصوا شيأ من حقوقهم اى حق كان وهذا تعميم بعد تخصيص بعض المواد بالذكر لغاية انهماكهم فيها (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) بالقتل والغارة وقطع الطريق (واتقوا الذى خلقكم والجبلة ﴿ ٥٥٤ ﴾ الاولين) اى وذوى الجبلة الاولين وهم من تقدمهم من الخلائق وقرئ بضم الجيم والباء وبكسر الجيم وسكون الباء كالخلقة (قالوا انما أنت من المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا) ادخال الواو بين الجملتين للدلالة على أن كلا من التسخير والبشرية مناف للرسالة مبالغة فى التكذيب (وان نظنك لمن الكاذبين) اى فيما تدعيه من النبوة (فاسقط علينا كسفا من السماء) اى قطعا وقرئ بسكون السين وهو أيضا جمع كسفة وقيل الكسف والكسفة كالريع والريعة وهى القطعة والمراد بالسماء اما السحاب أو المظلة ولعله جواب لما أشعر به الامر بالتقوى من التهديد (ان كنت من الصادقين) فى دعواك ولم يكن طلبهم ذلك الا لتصميمهم على الجحود والتكذيب والا لما أخطروه ببالهم فضلا أن يطلبوه (قال ربى اعلم بما تعملون) من الكفر والمعاصى وبما تستحقون بسببه من العذاب فسينزله عليكم فى وقته المقدر له لامحالة (فكذبوه) اى فتموا على تكذيبه وأصروا عليه (فاخذهم عذاب يوم الظلة) حسبما اقترحوا ﴿ الوحى ﴾ أما ان أرادوا بالسماء السحاب فظاهر وأما ان ارادوا المظلة فلان نزول العذاب من جهتها وفى اضافة العذاب الى يوم الظلة دون نفسها ايذان بان لهم يومئذ عذابا آخر غير عذاب الظلة

قول القائل انست ببصرى ورأيت ببصرى أما قوله سآتيكم منها بخبر فالخبر ما يخبر به عن حال الطريق لانه كان قد ضل ثم فى الكلام حذف وهو انه لما أبصر النار توجه اليها وقال سآتيكم منها بخبر يعرف به الطريق أما قوله أو آتيكم بشهاب قبس فالشهاب الشعلة والقبس النار المقبوسة وأضاف الشهاب الى القبس لانه يكون قبسا وغير قبس ومن قرأ بالتنوين جعل القبس بدلا أو صفة لما فيه من معنى القبس ثم ههنا أسئلة (السؤال الاول) سآتيكم منها بخبر ولعلى آتيكم منها بخبر كالتدافعين لان احدهما ترج والآخر تيقن نقول جوابه قد يقول الراجى اذا قوى رجاؤه سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة (السؤال الثانى) كيف جاء ببين التسويف جوابه عدة منه لاهله انه يأتيهم به وان أبطأ أو كانت المسافة بعيدة (السؤال الثالث) لماذا أدخل أو بين الامرين وهلا جمع بينهما الحاجته اليهما معا جوابه بنى الرجاء على انه ان لم يظفر بهذين المقصودين ظفر باحدهما اما هداية الطريق واما اقتباس النار ثقة بعادة الله تعالى لانه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده وأما قوله تعالى لعلكم تصطلون فالمعنى لكى تصطلوا وذلك يدل على حاجة بهم الى الاصطلاء وحينئذ لا يكون كذلك الا فى حال برد * أما قوله تعالى نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ففيه ابحاث (البحث الاول) أن أن هى المفسرة لان النداء فيه معنى القول والمعنى قيل له بورك (البحث الثانى) اختلفوا فيمن فى النار على وجوه (أحدها) أن بورك بمعنى تبارك والنار بمعنى النور والمعنى تبارك من فى النور وذلك هو الله سبحانه ومن حولها يعنى الملائكة وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما وان كنا نقطع بان هذه الرواية موضوعة مختلقة (وثانيها) من فى النار هو نور الله ومن حولها الملائكة وهو مروى عن قتادة والزجاج (وثالثها) ان الله تعالى ناداه بكلام سمعه من الشجرة فى البقعة المباركة فكانت الشجرة محلا للكلام والله هو المتكلم له بان فعله فيه دون الشجرة ثم ان الشجرة كانت فى النار ومن حولها ملائكة فلذلك قال بورك من فى النار ومن حولها وهو قول الجبائى (ورابعها) من فى النار هو موسى عليه السلام لقربه منها ومن حولها يعنى الملائكة وهذا أقرب لان القريب من الشئ قد يقال انه فيه (وخامسها) قول صاحب الكشاف بورك من فى النار اى فى من مكان النار ومن حول مكانها ومكانها هى البقعة التى حصلت فيها وهى البقعة المباركة المذكورة فى قوله تعالى من شاطئ الوادى الايمن فى البقعة المباركة ويدل عليه قراءة أبى تباركت الارض ومن حولها وعنه أيضا بوركت النار (البحث الثالث) السبب الذى لاجله بوركت البقعة وبورك من فيها وحواليها حدوث هذا الامر العظيم فيها وهو تكليم الله موسى عليه السلام وجعله رسولا واظهار المعجزات عليه ولهذا جعل الله أرض الشام موسومة بالبركات فى قوله ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين وحقت أن تكون كذلك فهى مبعث الانبياء صلوات الله عليهم ومهبط

وذلك بان سلط الله عليهم الحر سبعة أيام ولياليها فاخذ بانفاسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا سرب فاضطروا الى ان خرجوا الى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما فاجتمعوا تحتها فامطرت عليهم نارا فاحترقوا جميعا روى أن شعيبا عليه السلام بعث الى أمتين أصحاب مدين وأصحاب ﴿ ٥٥٥ ﴾ الأيكة فأهلكت مدين بالصيحة والرجفة وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة (انه كان عذاب يوم عظيم) اى فى الشدة والهول وفظاعة ما وقع فيه من الطامة والداهية التامة (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) هذا آخر القصص السبع التى أوحيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لصرفه عليه الصلاة والسلام عن الحرص على اسلام قومه وقطع رجائه عنه ودفع تحسره على فواته تحقيقا لمضمون مامر فى مطلع السورة الكريمة من قوله تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا بالحق الآية فان كل واحدة من هذه القصص ذكر مستقل متجدد النزول قد أتاهم من جهته تعالى بموجب رحمته الواسعة وما كان أكثرهم مؤمنين بعد ما سمعوها على التفصيل قصة بعد قصة لا بان يتدبروا فيها ويعتبروا بما فى كل واحدة منها من الدواعى الى الايمان والزواجر عن الكفر والطغيان ولا بان يتاملوا فى شان الآيات الكريمة الناطقة بتلك القصص على ما هى عليه مع علمهم بانه عليه الصلاة والسلام لم يسمع شيئا منها من أحد أصلا واستمروا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال كأن لم يسمعوا شيئا يزجرهم عن ذلك قطعا كما حقق

الوحى وكفاتهم أحياء وأمواتا (البحث الرابع) انه سبحانه جعل هذا القول مقدمة لمناجاة موسى عليه السلام فقوله بورك من فى النار ومن حولها يدل على أنه قد قضى أمر عظيم تنتشر البركة منه فى أرض الشام كلها وقوله وسبحان الله رب العالمين فيه فائدتان (احداهما) انه سبحانه نزه نفسه عما لا يليق به فى ذاته وحكمته ليكون ذلك مقدمة فى صحة رسالة موسى عليه السلام (الثانية) أن يكون ذلك ايذانا بان ذلك الامر مريده ومكونه رب العالمين تنبيها على أن الكائن من جلائل الامور وعظائم الوقائع أما قوله انه أنا الله العزيز الحكيم فقال صاحب الكشاف الهاء فى انه يجوز أن يكون ضمير الشان وأنا الله مبتدأ وخبر والعزيز الحكيم صفتان للخبر وأن يكون راجعا الى ما دل عليه ما قبله يعنى ان مكلمك أنا والله بيان لانا والعزيز الحكيم صفتان للتعيين وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة يريد أنا القوى القادر على ما يبعد من الاوهام كقلب العصا حية الفاعل ما أفعله بحكمة وتدبير فان قيل هذا النداء يجوز أن يكون من عند غير الله تعالى فكيف علم موسى عليه السلام انه من الله جوابه لاهل السنة فيه طريقان (الاول) انه سمع الكلام المنزه عن مشابهة الحروف والاصوات فعلم بالضرورة انه صفة الله تعالى (الثانى) قول أئمة ما وراء النهر وهو انه عليه السلام سمع الصوت من الشجرة فنقول انما عرف ان ذلك من الله تعالى لامور (أحدها) ان النداء اذا حصل فى النار أو الشجرة علم انه من قبل الله تعالى لان أحدا منا لا يقدر عليه وهو ضعيف لاحتمال أن يقال الشيطان دخل فى النار والشجرة ثم نادى (وثانيها) يجوز فى نفس النداء أن يكون قد بلغ فى العظم مبلغا لا يكون الا معجزا وهو أيضا ضعيف لانا لا نعرف مقادير قوى الملائكة والشياطين فلا قدر الا ويجوز صدوره منهم (وثالثها) انه قد اقترن به معجز دل على ذلك فقيل ان النار كانت مشتعلة فى شجرة خضراء لم تحترق فصار ذلك كالمعجز وهذا هو الاصح والله أعلم * قوله تعالى (وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات الى فرعون وقومه انهم كانوا قوما فاسقين فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) اعلم أن أكثر ما فى هذا الآيات قدمر شرحه ولنذكر ما هو من خواص هذا الموضع يقال علام عطف قوله وألق عصاك جوابه على بورك لان المعنى نودى ان بورك من فى النار وان ألق عصاك كلاهما تفسير لنودى أما قوله كأنها جان فالجان الحية الصغيرة سميت جانا لانها تستتر عن الناس وقرأ الحسن جان على لغة من يهرب من التقاء الساكنين فيقول شابة ودابة أما قوله ولم يعقب معناه لم يرجع يقال عقب المقاتل اذا مر بعد الفرار وانما خاف لظنه ان ذلك لامر أريد به ويدل عليه انى لا يخاف لدى المرسلون وقال بعضهم المراد انى اذا

فى خاتمة قصة موسى عليه السلام (وانه) اى ماذكر من الآيات الكريمة الناطقة بالقصص المحكية أو القرآن الذى هى
من جملته (لتنزيل رب العالمين) اى منزل من جهته تعالى سمى به مبالغة و وصفه تعالى بربوبية العالمين للايذان بان تنزيله
من أحكام تربيته تعالى ورأفته للكل كقوله تعالى وما أرسلناك الارحمة للعالمين (نزل به) اى أنزله (الروح
الامين) اى جبريل
عليه السلام فانه أمين
وحيه تعالى وموصله
الى أنبيائه عليهم الصلاة
والسلام وقرئ بتشديد
الزاى ونصب الروح
والامين اى جعل الله
تعالى الروح الامين
نازلا به (على قلبك) اى
روحك وان أريد به
العضو فتخصيصه به
لان المعانى الروحانية
تنزل أولا على الروح
ثم تنتقل منه الى القلب
لما بينهما من التعلق ثم
تتصعد الى الدماغ
فينتقش بها لوح المتخيلة
(لتكون من المنذرين)
متعلق بنزل به اى أنزله
لتنذرهم بما فى تضاعيفه
من العقوبات الهائلة
وايثار ما عليه النظم
الكريم للدلالة على
انتظامه عليه الصلاة
والسلام فى سلك اولئك
المنذرين المشهورين
فى حقية الرسالة وتقرر
وقوع العذاب المنذر
(بلسان عربى مبين)
واضح المعنى ظاهر المدلول
لئلا يبقى لهم عذر ما وهو
أيضا متعلق بنزل به
وتاخيره للاعتناء بامر الانذار وللايماء الى أن مدار كونه من جملة المنذرين المذكورين عليهم السلام ﴿ المؤمنين ﴾
مجرد انزاله عليه عليه الصلاة والسلام لا انزاله باللسان العربى وجعله متعلقا بالمنذرين كما جوزه الجمهور يؤدى أن غاية الانزال
كونه عليه الصلاة والسلام من جملة المنذرين باللغة العربية فقط

أمرتهم باظهار معجز فينبغى أن لا يخافوا فيما يتعلق باظهار ذلك والا فالمرسل قد يخاف
لا محالة أما قوله تعالى الا من ظلم معناه لكن من ظلم وهو محمول على ما يصدر من الانبياء
من ترك الافضل أو الصغيرة ويحتمل أن يكون المقصود منه التعريض بما وجد من موسى
وهو من التعريضات اللطيفة قال الحسن رحمه الله كان والله موسى ممن ظلم بقتل القبطى
ثم بدل فانه عليه السلام قال رب انى ظلمت نفسى فاغفرلى وقرئ الا من ظلم بحرف التنبيه
أما قوله تعالى ثم بدل حسنا بعد سوء فالمراد حسن التوبة وسوء الذنب وعن أبى بكر
فى رواية عاصم حسنا أما قوله فى تسع آيات فهو كلام مستأنف وحرف الجر فيه يتعلق
بمحذوف والمعنى اذهب فى تسع آيات الى فرعون ولقائل أن يقول كانت الآيات احدى
عشرة ثنتان منها اليد والعصا والتسع الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع
والدم والطمسة والجدب فى بواديهم والنقصان فى مزارعهم أما قوله فلما جاءتهم آياتنا
مبصرة فقد جعل الابصار لها وهو فى الحقيقة لمتأمليها وذلك بسبب نظرهم وتفكرهم فيها
او جعلت كانها لظهورها تبصر فتهتدى وقرأ على بن الحسين وقتادة مبصرة وهو نحو
مجبنة ومبخلة اى مكانا يكثر فيه التبصر أما قوله واستيقنتها أنفسهم قالوا فيها واو الحال
وقد بعدها مضمرة وفائدة ذكر الانفس انهم جحدوها بألسنتهم واستيقنوها فى قلوبهم
وضمائرهم والاستيقان أبلغ من الايقان أما قوله ظلما وعلوا فأى ظلم أفحش من ظلم من
استيقن انها آيات بينة من عند الله تعالى ثم كابر بتسميتها سحرا بينا وأما العلو فهو التكبر
والترفع عن الايمان بما جاء به موسى كقوله فاستكبروا وكانوا قوما عالين وقرئ عليا وعليا
بالضم والكسر كما قرئ عتيا والله أعلم (القصة الثانية) قصة داود وسليمان عليهما الصلاة
والسلام ✽ قوله تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير
من عباده المؤمنين وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من
كل شئ ان هذا لهو الفضل المبين وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير
فهم يوزعون حتى اذا اتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم
لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى
أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى
برحمتك فى عبادك الصالحين) أما قوله تعالى علما فالمراد طائفة من العلم أو علما سنيا عزيزا
فان قيل أليس هذا موضع الفاء دون الواو كقولك أعطيته فشكر جوابه ان الشكر
باللسان انما يحسن موقعه اذا كان مسبوقا بعمل القلب وهو العزم على فعل الطاعة وترك
المعصية وبعمل الجوارح وهو الاشتغال بالطاعات ولما كان الشكر باللسان يجب كونه
مسبوقا بهما فلا جرم صار كأنه قال ولقد آتيناهما علما فعملا به قلبا وقالبا وقالا باللسان
الحمد لله الذى فعل كذا وكذا وأما قوله تعالى الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده

من هود وصالح وشعيب عليهم السلام ولا يخفى فساده كيف لا والطامة الكبرى في باب الانذار ما أنذره نوح وموسى
عليهما السلام وأشد الزواجر تأثيرا في قلوب المشركين ما أنذره ابراهيم عليه السلام لانتمائهم اليه وادعائهم أنهم
على ملته عليه الصلاة والسلام (وانه لفي زبر الاولين) اى وان ذكره أو معناه في الكتب المتقدمة فان
أحكامه التي لاتحتمل النسخ والتبديل بحسب تبدل الاعصار من التوحيد وسائر ما يتعلق بالذات والصفات مسطورة فيها وكذا ما في تضاعيفه من المواعظ والقصص وقيل الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بواضح (أولم يكن لهم آية) الهمزة للانكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل أغفلوا عن ذلك ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل من رب العالمين وأنه في زبر الاولين على أن لهم متعلق بالكون قدم على اسمه وخبره للاهتمام به أو بمحذوف هو حال من آية قدمت عليها لكونها نكرة وآية خبر للكون قدم على اسمه الذي هو قوله تعالى (أن يعلمه علماء بني اسرائيل) لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر اى أن يعرفوه بنعوته المذكورة في كتبهم
ويعرفوا من انزل عليه وقرئ تكن بالتانيث وجعلت آية اسما وأن يعلمه خبرا وفيه ضعف حيث وقع النكرة اسما
والمعرفة خبرا وقد قيل في تكن ضمير القصة وآية أن يعلمه جملة واقعة موقع الخبر ويجوز أن يكون لهم آية هي
جملة الشان وأن يعلمه بدلا من آية ويجوز مع نصب آية تأنيث تكن كما في قوله تعالى ثم لم تكن فتنتهم الا أن

المؤمنين ففيه ابحاث (احدها) ان الكثير المفضل عليه هو من لم يؤت علما أو من لم يؤت مثل علمهما وفيه انهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير (وثانيها) في الآية دليل على علو مرتبة العلم لانهما أوتيا من الملك ما لم يؤت غيرهما فلم يكن شكرهما على الملك كشكرهما على العلم (وثالثها) أنهم لم يفضلوا أنفسهم على الكل وذلك يدل على حسن التواضع (ورابعها) ان الظاهر يقتضي أن تلك الفضيلة ليست الا ذلك العلم ثم العلم بالله وبصفاته أشرف من غيره فوجب أن يكون هذا الشكر ليس الا على هذا العلم ثم ان هذا العلم حاصل لجميع المؤمنين فيستحيل أن يكون ذلك سببا لفضيلتهم على المؤمنين فاذن الفضيلة هو أن يصير العلم بالله وبصفاته جليا بحيث يصير المرء مستغرقا فيه بحيث لا يخطر بباله شئ من الشبهات ولا يغفل القلب عنه في حين من الاحيان ولا ساعة من الساعات أما قوله تعالى وورث سليمان داود فقد اختلفوا فيه فقال الحسن المال لان النبوة عطية مبتدأة ولا تورث وقال غيره بل النبوة وقال آخرون بل الملك والسياسة ولو تأمل الحسن لعلم أن المال اذا ورثه الولد فهو أيضا عطية مبتدأة من الله تعالى ولذلك يرث الولد اذا كان مؤمنا ولا يرث اذا كان كافرا أو قاتلا لكن الله تعالى جعل سبب الارث فيمن يرث الموت على شرائط وليس كذلك النبوة لان الموت لا يكون سببا لنبوة الولد فمن هذا الوجه يفترقان وذلك لا يمنع من أن يوصف بأنه ورث النبوة لما قام به عند موته كما يرث الولد المال اذا قام به عند موته ومما يبين ما قلناه انه تعالى لو فصل فقال وورث سليمان داود ماله لم يكن لقوله وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير معنى واذا قلنا وورث مقامه من النبوة والملك حسن ذلك لان تعليم منطق الطير يكون داخلا في الجملة ما ورثه وكذلك قوله تعالى وأوتينا من كل شئ لان وارث الملك يجمع ذلك ووارث المال لا يجمعه وقوله ان هذا لهو الفضل المبين لا يليق أيضا الا بما ذكرنا دون المال الذي قد يحصل للكامل والناقص وما ذكره الله تعالى من جنود سليمان بعده لا يليق الا بما ذكرناه فبطل بما ذكرنا قول من زعم انه لم يرث الا المال فأما اذا قيل ورث المال والملك معا فهذا لا يبطل بالوجوه التي ذكرناها بل بظاهر قوله عليه السلام نحن معاشر الانبياء لا نورث وأما قوله يا أيها الناس فالمقصود منه تشهير نعمة الله تعالى والتنويه بها ودعاء الناس الى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير قال صاحب الكشاف المنطق كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد وقد ترجم يعقوب كتابه باصلاح المنطق وما أصلح فيه الا مفردات الكلم وقالت العرب نطقت الحمامة فالذي علم سليمان عليه السلام من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض من مقاصده وأغراضه وأما قوله تعالى وأوتينا من كل شئ فالمراد كثرة ما أوتي وذلك لان الكل والبعض الكثير يشتركان في صفة الكثرة والمشاركة سبب لجواز الاستعارة فلا جرم يطلق لفظ الكل على الكثير ومثله قوله وأوتيت من كل شئ أما قوله ان هذا لهو الفضل المبين فهو تقرير لقوله الحمد لله الذي فضلنا والمقصود منه الشكر

والمحمدة كما قال عليه السلام أنا سيد ولد آدم ولا فخر فان قيل كيف قال علمنا وأوتينا وهو من كلام المتكبرين جوابه من وجهين الاول أن يريد نفسه وأباه والثانى أن هذه النون يقال لها نون الواحد المطاع وكان ملكا مطاعا وقد يتعلق بتعظيم الملك مصالح فيصير ذلك التعظيم واجبا وأما قوله وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فالحشر هو الاحضار والجمع من الاماكن المختلفة والمعنى انه جعل الله تعالى كل هذه الاصناف جنوده ولا يكون كذلك الا أن يتصرف على مراده ولا يكون كذلك الا مع العقل الذى يصح معه التكليف أو يكون بمنزلة المراهق الذى قد قارب حد التكليف فلذلك قلنا ان الله تعالى جعل الطير فى أيامه مما له عقل وليس كذلك حال الطيور فى أيامنا وان كان فيها ما قد ألهمه الله تعالى الدقائق التى خصت بالحاجة اليها أو خصها الله بها لمنافع العباد كالنحل وغيره وأما قوله تعالى فهم يوزعون معناه يحبسون وهذا لا يكون الا اذا كان فى كل قبيل منها وازع ويكون له تسلط على من يرده ويكفه ويصرفه فالظاهر يشهد بهذا القدر والذى جاء فى الخبر من انهم كانوا يمنعون من يتقدم ليكون مسيره مع جنوده على ترتيب فغير ممتنع * أما قوله تعالى حتى اذا أتوا على وادى النمل فقيل هو واد بالشام كثير النمل ويقال لم عدى أتوا بعلى فجوابه من وجهين (الاول) ان اتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء (والثانى) أن يراد قطع الوادى وبلوغ آخره من قولهم أتى على الشئ اذا بلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادى وقرئ نملة يا أيها النمل بضم الميم وبضم النون والميم وكان الاصل النمل بوزن الرجل والنمل الذى عليه الاستعمال تخفيف عنه أما قوله تعالى قالت نملة فالمعنى انها تكلمت بذلك وهذا غير مستبعد فان الله تعالى قادر على أن يخلق فيها العقل والنطق وعن قتادة انه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال سلوا عما شئتم وكان أبو حنيفة رحمه الله حاضرا وهو غلام حدث فقال سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكرا أم أنثى فسألوه فأفحم فقال أبو حنيفة رضى الله عنه كانت أنثى فقيل له من أين عرفت فقال من كتاب الله تعالى وهو قوله قالت نملة ولو كان ذكرا لقال قال نملة وذلك لان النملة مثل الحمامة والشاة فى وقوعها على الذكر والانثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهى * أما قوله تعالى ادخلوا مساكنكم فاعلم أن النملة لما قاربت حد العقل لا جرم ذكرت بما يذكر به العقلاء فلذلك قال تعالى ادخلوا مساكنكم فان قلت لا يحطمنكم ما هو قلت يحتمل أن يكون جوابا للامر وأن يكون نهيا بدلا من الامر والمعنى لا تكونوا حيث أنتم فيحطمنكم على طريقة لا أرينك ههنا * وفى هذه الآية تنبيه على أمور (أحدها) ان من يسير فى الطريق لا يلزمه التحرز وانما يلزم من فى الطريق التحرز (وثانيها) ان النملة قالت وهم لا يشعرون كأنها عرفت ان النبى معصوم فلا يقع منه قتل هذه الحيوانات الا على سبيل السهو وهذا تنبيه عظيم على وجوب الجزم بعصمة الانبياء عليهم السلام (وثالثها) ما رأيت

قالوا وقرئ تعلمه بالتاء (ولو نزلناه) كما هو بنظمه الرائق المعجز (على بعض الاعجمين) الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية وهو جمع أعجمى على التخفيف ولذلك جمع جمع السلامة وقرئ الاعجميين وفى لفظ البعض اشارة الى كون ذلك واحدا من عرض تلك الطائفة كائنا من كان (فقرأه عليهم) قراءة صحيحة خارقة للعادات (ما كانوا به مؤمنين) مع انضمام اعجاز القراءة الى اعجاز المقروء لفرط عنادهم وشدة شكيمتهم فى المكابرة وقيل المعنى ولو نزلناه على بعض الاعجمين بلغة العجم فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين لعدم فهمهم واستنكافهم من اتباع العجم وليس بذاك فانه بمعزل من المناسبة لمقام بيان تماديهم فى المكابرة والعناد (كذلك سلكناه) اى مثل ذلك السلك البديع المذكور سلكناه اى أدخلنا القرآن (فى قلوب المجرمين) ففهموا معانيه وعرفوا فصاحته وأنه خارج عن القوى البشرية من حيث النظم المعجز ومن حيث الاخبار عن الغيب وقد انضم اليه اتفاق علماء أهل الكتب المنزلة قبله على تضمنها للبشارة بانزاله وبعثة من أنزل عليه بأوصافه فقوله تعالى (لا يؤمنون) جملة مستأنفة مسوقة لبيان انهم لا يتأثرون بأمثال تلك الامور الداعية الى الايمان به بل يستمرون على ما هم عليه (حتى يروا العذاب الاليم) الملجئ الى الايمان به حين لا ينفعهم الايمان (فيأتيهم بغتة) اى فجأة فى الدنيا والآخرة (وهم لا يشعرون) * فى بعض *

باثباته (فيقولوا هل نحن منظرون) تحسرا على مافات من الايمان وتمنيا للامهال لتلافى مافرطوه وقيل معنى كذلك
سلكناه مثل تلك الحالة وتلك الصفة من الكفر به ❊ ٥٥٩ ❊ والتكذيب له وضعناه فى قلوبهم وقوله تعالى لايؤمنون به
فى موقع الايضاح والتلخيص له أو فى موقع الحال اى سلكناه فيها غير مؤمن به و الاول هو الانسب بمقام بيان غاية عنادهم ومكابرتهم مع تعاضد أدلة الايمان وتآخذ مبادى الهداية والارشاد وانقطاع أعذارهم بالكلية وقيل ضمير سلكناه للكفر المدلول عليه بما قبله من قوله تعالى ما كانوا به مؤمنين ونقل عن ابن عباس رضى الله عنهما والحسن ومجاهد رحمهما الله تعالى أدخلنا الشرك والتكذيب فى قلوب المجرمين (أفبعذابنا يستعجلون) بقولهم أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم وقولهم فأتنا بما تعدنا و نحوهما وحالهم عند نزول العذاب كما وصف من طلب الانذار فالفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى أيكون حالهم كما ذكر من الاستنظار عند نزول العذاب الاليم فيستعجلون بعذابنا وبينهما من التنافى مالا يخفى على أحد
أو أيغفلون عن ذلك مع تحققه وتقرره فيستعجلون الخ وانما قدم الجار والمجرور للايذان بان مصب الانكار والتوبيخ
كون المستعجل به عذابه تعالى مع مافيه من رعاية الفواصل (أفرأيت) لما كانت الرؤيا من أقوى أسباب

فى بعض الكتب ان تلك النملة انما أمرت غيرها بالدخول لانها خافت على قومها انها
اذا رأت سليمان فى جلالته فربما وقعت فى كفران نعمة الله تعالى وهذا هو المراد بقوله
لايحطمنكم سليمان فأمرتها بالدخول فى مساكنها لئلا ترى تلك النعم فلا تقع فى كفران
نعمة الله تعالى وهذا تنبيه على أن مجالسة أرباب الدنيا محذورة (ورابعها) قرئ
مسكنكم ولا يحطمنكم بتخفيف النون وقرئ لايحطمنكم بفتح الطاء وكسرها وأصلها
يحتطمنكم ❊ أما قوله تعالى فتبسم ضاحكا من قولها يعنى تبسم شارعا فى الضحك بمعنى انه
قد تجاوز حد التبسم الى الضحك وانما ضحك لامرين أحدهما اعجابه بما دل من قولها
على ظهور رحمته ورحمة جنوده وعلى شهرة حاله وحالهم فى باب التقوى وذلك قولها وهم
لايشعرون والثانى سروره بما آتاه الله ممالم يؤت أحدا من سماعه لكلام النملة واحاطته
بمعناه أما قوله تعالى أوزعنى فقال صاحب الكشاف حقيقة أوزعنى اجعلنى أزع شكر
نعمتك عندى واكفه عن أن ينقلب عنى حتى أكون شاكرا لك أبدا وهذا يدل على
مذهبنا فان عند المعتزلة كل ماأمكن فعله من الالطاف فقد صارت مفعولة وطلب تحصيل
الحاصل عبث وأما قوله تعالى وعلى والدى فذلك لانه عد نعم الله تعالى على والديه نعمة
عليه ومعنى قوله وأن أعمل صالحا ترضاه طلب الاعانة فى الشكر وفى العمل الصالح ثم قال
وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين فلما طلب فى الدنيا الاعانة على الخيرات طلب أن
يجعل فى الآخرة من الصالحين وقوله برحمتك يدل على أن دخول الجنة برحمته وفضله
لا باستحقاق من جانب العبد (واعلم) أن سليمان عليه السلام طلب ما يكون وسيلة الى
ثواب الآخرة أولا ثم طلب ثواب الآخرة ثانيا أما وسيلة الثواب فهى أمران أحدهما
شكر النعمة السالفة والثانى الاشتغال بسائر أنواع الخدمة أما الاشتغال بشكر النعمة
السالفة فهى قوله تعالى رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على ولما كان الانعام
على الآباء انعاما على الابناء لان انتساب الابن الى أب شريف نعمة من الله تعالى على الابن
لاجرم اشتغل بشكر نعم الله على الآباء بقوله وعلى والدى وأما الاشتغال بسائر أنواع
الخدمة فقوله وأن أعمل صالحا ترضاه وأما طلب ثواب الآخرة فقوله وأدخلنى برحمتك
فى عبادك الصالحين فان قيل درجات الانبياء أعظم من درجات الاولياء والصالحين
فما السبب فى ان الانبياء يطلبون جعلهم من الصالحين فقال يوسف توفنى مسلما وألحقنى
بالصالحين وقال سليمان أدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين جوابه الصالح الكامل هو
الذى لايعصى الله تعالى ولا يهم بمعصية وهذه درجة عالية والله اعلم ❊ قوله تعالى (وتفقد

الطير فقال مالى لاأرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه
أو ليأتينى بسلطان مبين فمكث غير بعيد فقال أحطت بمالم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ
يقين انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم وجدتها وقومها
يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم

لايهتدون) اعلم أن سليمان عليه السلام لما تفقد الطير أوهم ذلك انه انما تفقده لامر يختص به ذلك الطير واختلفوا فيما لاجله تفقده على وجوه (احدها) قول وهب انه أخل بالنوبة التى كان ينوبها فلذلك تفقده (وثانيها) انه تفقده لان مقاييس الماء كانت اليه وكان يعرف الفصل بين قريبه وبعيده فلحاجة سليمان الى ذلك طلبه وتفقده (وثالثها) انه كان يظله من الشمس فلما فقد ذلك تفقده أما قوله فقال مالى لاأرى الهدهد أم كان من الغائبين فأم هى المنقطعة نظر الى مكان الهدهد فلم يبصره فقال مالى لاأراه على معنى انه لايراه وهو حاضر لساتر ستره أوغير ذلك ثم لاح له انه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول أهو غائب كأنه يسأل عن صحة مالاح له ومثله قولهم انها لابل أم شاء أما قوله لاعذبنه عذابا شديدا أولاذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين فهذا لايجوز أن يقوله الافيمن هو مكلف أوفيمن قارب العقل فيصلح لان يؤدب ثم اختلفوا فى قوله لاعذبنه فقال ابن عباس انه نتف الريش والالقاء فى الشمس وقيل أن يطلى بالقطران ويشمس وقيل أن يلقى للنمل فتأكله وقيل ايداعه القفص وقيل التفريق بينه و بين الفه وقيل لالزمنه صحبة الاضداد وعن بعضهم أضيق السجون معاشرة الاضداد وقيل لالزمنه خدمة أقرانه أما قوله فمكث فقد قرئ بفتح الكاف وضمها غير بعيد غير زمان بعيد كقولك عن قريب ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على اسراعه خوفا من سليمان وليعلم كيف كان الطير مسخرا له أما قوله أحطت بمالم تحط به ففيه تنبيه لسليمان على ان فى ادنى خلق الله تعالى من أحاط علما بمالم يحط به فيكون ذلك لطفا له فى ترك الاعجاب والاحاطة بالشئ علما أن يعلم من جميع جهاته أما قوله وجئتك من سبا بنبا يقين فاعلم ان سبا قرئ بالصرف ومنعه وقد روى بسكون الباء وعن ابن كثير فى رواية سبا بالالف كقولهم ذهبوا أيدى سبا وهو سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان فمن جعله اسما للقبيلة لم يصرف ومن جعله اسما للحى أو للاب الاكبر صرف ثم سميت مدينة مأرب بسبا و بينها و بين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام والنبأ الخبر الذى له شأن وقوله من سبا بنبا من محاسن الكلام الذى يتعلق باللفظ وشرط حسنه صحة المعنى ولقد جاء ههنا زائدا على الصحة فحسن لفظا ومعنى ألا ترى انه لووضع مكان بنبا بخبر لكان المعنى صحيحا ولكن لفظ النبأ أولى لما فيه من الزيادة التى يطابقها وصف الحال أما قوله انى وجدت امرأة تملكهم فالمرأة بلقيس بنت شراحيل وكان ابوها ملك ارض اليمن وكانت هى وقومها مجوسا يعبدون الشمس والضمير فى تملكهم راجع الى سبا فان أريد به القوم فالامر ظاهر وان أريدت المدينة فمعناه تملك أهلها وأما قوله وأوتيت من كل شئ ففيه سؤال وهو انه كيف قال وأوتيت من كل شئ مع قول سليمان وأوتينا من كل شئ فكأن الهدهد سوى بينهما جوابه أن قول سليمان عليه السلام يرجع الى ماأوتى من النبوة والحكمة ثم الى الملك وأسباب الدنيا واما قول الهدهد فلم يكن الاالى مايتعلق بالدنيا واما قوله ولها عرش عظيم ففيه سؤال وهو انه كيف استعظم الهدهد عرشها مع ماكان يرى ملك سليمان

الاخبار بالشئ وأشهرها شاع استعمال أرأيت فى معنى أخبرنى والخطاب لكل من يصلح له كائنا من كان والفاء لترتيب الاستخبار على قولهم هل نحن منظرون ومابينهما اعتراض للتوبيخ والتبكيت وهى متقدمة فى المعنى على الهمزة وتاخيرها عنها صورة لاقتضاء الهمزة الصدارة كما هو رأى الجمهور أى فاخبرنى (ان متعناهم سنين) متطاولة بطول الاعمار وطيب المعايش (ثم جاءهم ماكانوا يوعدون) من العذاب (ماأغنى عنهم) اى شئ أواى اغناء أغنى عنهم (ماكانوا يمتعون) اى كونهم ممتعين ذلك التمتيع المديد على أن مامصدرية أوما كانوا يمتعون به من متاع الحياة الدنيا على أنها موصولة حذف عائدها وأياما كان فالاستفهام للانكار والنفى وقيل مانافية اى لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول فى دفع العذاب وتخفيفه والاول هو الاولى لكونه أوفق لصورة الاستخبار وأدل على انتفاء الاغناء على ابلغ وجه وآكده كأن كل من من شأنه الخطاب قد كلف أن يخبر بان تمتيعهم ماذا أفادهم واى شئ أغنى عنهم فلم يقدر أحد على أن يخبر بشئ من ذلك أصلا وقرئ يمتعون من الامتاع

وايضا فكيف سوى بين عرش بلقيس وعرش الله تعالى فى الوصف بالعظيم (والجواب) عن الاول يجوز أن يستصغر حالها الى حال سليمان فاستعظم لها ذلك العرش ويجوز أن لايكون لسليمان مع جلالته مثله كما قد يتفق لبعض الامراء شئ لايكون مثله عند السلطان وعن الثانى ان وصف عرشها بالعظم تعظيم له بالاضافة الى عروش ابناء جنسها من الملوك ووصف عرش الله بالعظم تعظيم له بالنسبة الى سائر ما خلق من السموات والارض * واعلم ان ههنا بحثين (البحث الاول) أن الملحدة طعنت فى هذه القصة من وجوه (أحدها) ان هذه الآيات اشتملت على أن النملة والهدهد تكلما بكلام لايصدر ذلك الكلام الامن العقلاء وذلك يجر الى السفسطة فانا لو جوزنا ذلك لما امنا فى النملة التى نشاهدها فى زماننا هذا ان تكون اعلم بالهندسة من اوقليدس وبالنحو من سيبويه وكذا القول فى النملة والصئبان ويجوز أن يكون فيهم الانبياء والتكاليف والمعجزات ومعلوم ان من جوز ذلك كان الى الجنون اقرب (وثانيها) ان سليمان عليه السلام كان بالشام فكيف طار الهدهد فى تلك اللحظة اللطيفة من الشام الى اليمن ثم رجع اليه (وثالثها) كيف خفى على سليمان عليه السلام حال مثل تلك الملكة العظيمة مع ما يقال ان الجن والانس كانوا فى طاعة سليمان وانه عليه السلام كان ملك الدنيا بالكلية وكان تحت راية بلقيس على ما يقال اثناعشر ألف ملك تحت راية كل واحد منهم مائة ألف ومع انه يقال انه لم يكن بين سليمان وبين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد الامسيرة ثلاثة ايام (ورابعها) من اين حصل للهدهد معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وانكار سجودهم للشمس واضافته الى الشيطان وتزيينه والجواب عن الاول ان ذلك الاحتمال قائم فى أول العقل وانما يدفع ذلك بالاجماع وعن البواقى ان الايمان بافتقار العالم الى القادر المختار يزيل هذه الشكوك (البحث الثانى) قالت المعتزلة قوله يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم يدل على ان فعل العبد من جهته لانه تعالى اضاف ذلك الى الشيطان بعد اضافته اليهم ولانه اورده مورد الذم ولانه بين انهم لايهتدون والجواب من وجوه (أحدها) ان هذا قول الهدهد فلا يكون حجة (وثانيها) انه متروك الظاهر فانه قال فصدهم عن السبيل وعندهم الشيطان ما صد الكافر عن السبيل اذلو كان مصدودا ممنوعا سقط عنه التكليف فلم يبق ههنا الا التمسك بفصل المدح والذم والجواب قد تقدم عنه مرارا فلا فائدة فى الاعادة والله أعلم * قوله تعالى (ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والارض ويعلم ما يخفون وما يعلنون الله لا اله الا هو رب العرش العظيم قال سننظر اصدقت ام كنت من الكاذبين اذهب بكتابى هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن فى قوله تعالى ألا يسجدوا قراآت احداها قراءة من قرأ بالتخفيف ألا للتنبيه ويا حرف النداء ومناداه محذوف كما حذفه من قال * ألا يا اسلمى يا دارمى على البلى * وثانيها بالتشديد أراد

(وما أهلكنا من قرية) من القرى المهلكة (الا لها منذرون) قد أنذروا أهلها الزاما للحجة (ذكرى) أى تذكرة ومحلها النصب على العلة أو المصدر لأنها فى معنى الانذار كأنه قيل مذكرون ذكرى أو على أنه مصدر مؤكد لفعل هو صفة لمنذرون أى الا لها منذرون يذكرونهم ذكرى أو الرفع على أنها صفة منذرون باضمار ذووا أو بجعلهم ذكرى لامعانهم فى التذكرة أو خبر مبتدا محذوف والجملة اعتراضية وضميرلها للقرى المدلول عليها بمفردها الواقع فى حيز النفى على معنى أن للكل منذرين أعم من أن يكون لكل قرية منها منذر واحد أو اكثر (وما كنا ظالمين) فنهلك غير الظالمين وقبل الانذار والتعبير عن ذلك بنفى الظالمية مع ان اهلاكهم قبل الانذار ليس بظلم اصلا على ما تقرر من قاعدة اهل السنة لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من الظلم وقد مر فى سورة آل عمران عند قوله تعالى وان الله ليس بظلام للعبيد (وما تنزلت به الشياطين) رد لما زعمه الكفرة فى حق القرآن الكريم من أنه من قبيل ما يلقيه الشيطان على الكهنة بعد تحقيق الحق

ببيان أنه نزل به الروح الامين (وما ينبغى لهم) أى وما يصح وما يستقيم لهم ذلك (وما يستطيعون) ذلك أصلا (انهم عن السمع) لكلام الملائكة (لمعزولون) لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة فى صفاء الذوات

فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا فحذف الجار مع أن ويجوز أن تكون لا مزيدة ويكون المعنى فهم لا يهتدون الى أن يسجدوا (وثالثها) وهي حرف عبد الله وقراءة الاعمش هلا بقلب الهمزة هاء وعن عبد الله هلا تسجدون بمعنى الا تسجدون على الخطاب (ورابعها) قراءة أبي ألا يسجدون لله الذي يخرج الخبء في السموات والارض ويعلم سركم وما تعلنون (المسئلة الثانية) قال أهل التحقيق قوله ألا يسجدوا يجب أن يكون بمعنى الامر لانه لو كان بمعنى المنع من السجدة لم يكن لوصفه تعالى بما يوجب أن يكون المسجود له وهو كونه قادرا على اخراج الخبء عالما بالاسرار معنى (المسئلة الثالثة) الآية دلت على وصف الله تعالى بالقدرة والعلم اما القدرة فقوله يخرج الخبء في السموات والارض وسمى المخبوء بالمصدر وهو يتناول جميع أنواع الارزاق والاموال واخراجه من السماء بالغيث ومن الارض بالنبات واما العلم فقوله ويعلم ما يخفون وما تعلنون واعلم أن المقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس وتحرير الدلالة هكذا الاله يجب أن يكون قادرا على اخراج الخبء وعالما بالخفيات والشمس ليست كذلك فهي لا تكون الها واذا لم تكن الها لم يجز السجود لها اما انه سبحانه وتعالى يجب أن يكون قادرا عالما على الوجه المذكور فلما انه واجب لذاته فلا تختص قادريته وعالميته ببعض المقدورات والمعلومات دون البعض وأما ان الشمس ليست كذلك فلانها جسم متناه وكل ما كان متناهيا في الذات كان متناهيا في الصفات واذا كان كذلك فحينئذ لا يعلم كونها قادرة على اخراج الخبء عالمة بالخفيات فاذا لم يعلم من حالها ذلك لم يعلم من حالها كونها قادرة على جلب المنافع ودفع المضار فرجع حاصل الدلالة الى ما ذكره ابراهيم عليه السلام في قوله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا وفي قوله الله الذي يخرج الخبء في السموات والارض وجه آخر وهو ان هذا اشارة الى ما استدل به ابراهيم عليه السلام في قوله ربي الذي يحيي ويميت وفي قوله ان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب وذلك لانه سبحانه وتعالى هو الذي يخرج الشمس من المشرق بعد افولها في المغرب فهذا هو اخراج الخبء في السموات وهو المراد من قول ابراهيم عليه السلام لا أحب الآفلين ومن قوله فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ومن قول موسى عليه السلام رب المشرق والمغرب وحاصله يرجع الى أن أفول الشمس وطلوعها يدلان على كونها تحت تدبير مدبر قاهر فكانت العبادة لقاهرها والمتصرف فيها أولى وأما اخراج الخبء من الارض فهو يتناول اخراج النطفة من الصلب والترائب وتكوين الجنين منه فان قيل ان ابراهيم وموسى عليهما السلام قدما دلالة الانفس على دلالة الآفاق فان ابراهيم قال ربي الذي يحيي ويميت ثم قال فان الله يأتي بالشمس من المشرق وموسى عليه السلام قال ربكم ورب آبائكم الاولين ثم قال رب المشرق والمغرب فلم كان الامر ههنا بالعكس فقدم خبء السموات على خبء الارض

والاستعداد لقبول فيضان أنوار الحق والانتقاش بصور العلوم الربانية والمعارف النورانية كيف لا ونفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة بالذات غير مستعدة الا لقبول ما لا خير فيه أصلا من فنون الشرور فمن أين لهم أن يحوموا حول القرآن الكريم المنطوي على الحقائق الرائقة الغيبية التي لا يمكن تلقيها الا من الملائكة عليهم الصلاة والسلام (فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين) خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام مع ظهور استحالة صدور المنهي عنه عنه عليه الصلاة والسلام تهييجا وحثا على ازدياد الاخلاص ولطفا لسائر المكلفين ببيان أن الاشراك من القبح والسوء بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه فكيف بمن عداه (وانذر) العذاب الذي يستتبعه الشرك والمعاصي (عشيرتك الاقربين) الاقرب منهم فالاقرب فان الاهتمام بشأنهم أهم روى أنه لما نزلت صعد الصفا وناداهم فخذا فخذا حتى اجتمعوا اليه فقال لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدقي قالوا نعم قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد وروى أنه قال يابني عبد المطلب يابني هاشم يابني عبد مناف افتدوا أنفسكم من النار فاني لا أغني عنكم شيئا ثم قال ياعائشة بنت أبي بكر وياحفصة بنت عمر ويافاطمة بنت محمد وياصفية عمة محمد اشترين أنفسكن من النار فاني لا أغني عنكن شيئا (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين)

الارض جوابه ان ابراهيم وموسى عليهما السلام ناظرا مع من ادعى الهية البشر فلا جرم ابتدآ بابطال الهية البشر ثم انتقلا الى ابطال الهية السموات وههنا المناظرة مع من ادعى الهية الشمس لقوله وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله فلا جرم ابتدأ بذكر السماويات ثم بالارضيات اما قوله الله لا اله الا هو رب العرش العظيم فالمراد منه انه سبحانه لما بين افتقار السموات والارض وما بينهما الى المدبر ذكر بعد ذلك ان ما هو أعظم الاجسام فهى مخلوقة ومربوبة وذلك يدل على انه سبحانه هو المنتهى فى القدرة والربوبية الى ما لا مزيد عليه والله أعلم (المسئلة الرابعة) قيل من أحطت الى العظيم كلام الهدهد وقيل كلام رب العزة (المسئلة الخامسة) الحق أن سجدة التلاوة واجبة فى القراءتين جميعا وهو قول الشافعى وأبى حنيفة رحمة الله عليهما لانهم أجمعوا على أن سجدات القرآن أربع عشرة سجدة وهذا واحد منها ولان مواضع السجدة اما امر بها أو مدح لمن أتى بها أو ذم لمن تركها واحدى القراءتين أمر بالسجود والاخرى ذم للتارك فثبت ان الذى ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد غير ملتفت اليه (المسئلة السادسة) يقال هل يفرق الواقف بين القراءتين جوابه نعم اذا خفف وقف على فهم لا يهتدون ثم ابتدأ بألا يسجدوا وان شاء وقف على ألا يا ثم ابتدأ اسجدوا واذا شدد لم يقف الا على العرش العظيم أما قوله سننظر فمن النظر الذى هو التأمل وأراد صدقت أم كذبت الا أن أم كنت من الكاذبين ابلغ لانه اذا كان معروفا بالكذب كان متهما بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به وانما قال فألقه اليهم على لفظ الجمع لانه قال وجدتها وقومها يسجدون للشمس فقال فألقه اليهم الى الذين هذا دينهم أما قوله ثم تول عنهم أى تنح عنهم الى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك ويرجعون من قوله تعالى يرجع بعضهم الى بعض القول ويقال دخل عليها من كوة وألقى اليها الكتاب وتوارى فى الكوة ❊ قوله تعالى (قالت يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين) اعلم ان قوله قالت يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم بمعنى أن يقال ان الهدهد ألقى اليها الكتاب فهو محذوف كأنه ثابت روى انها كانت اذا رقدت غلقت الابواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهى مستلقية وقيل نقرها فانتبهت فزعة ❊ اما قوله كتاب كريم ففيه ثلاثة اوجه (أحدها) حسن مضمونه وما فيه (وثانيها) وصفه بالكريم لانه من عند ملك كريم (وثالثها) ان الكتاب كان مختوما وقال عليه السلام كرم الكتاب ختمه وكان عليه السلام يكتب الى العجم فقيل له انهم لا يقبلون الا كتابا عليه خاتم فاتخذ لنفسه خاتما اما قوله انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ففيه ابحاث (البحث

أى لين جانبك لهم مستعار من حال الطائر فانه اذا أراد أن ينحط خفض جناحه ومن للتبيين لان من اتبع أعم ممن اتبع لدين أو غيره أو للتبعيض على أن المراد بالمؤمنين المشارفون للايمان أو المصدقون باللسان فحسب (فان عصوك) ولم يتبعوك (فقل انى برىء مما تعملون) أى مما تعملونه أو من أعمالكم (وتوكل على العزيز الرحيم) الذى يقدر على قهر أعدائه ونصر أوليائه يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم وقرىء فتوكل على انه بدل من جواب الشرط (الذى يراك حين تقوم) أى الى التهجد (وتقلبك فى الساجدين) وترددك فى تصفح أحوال المتهجدين كما روى أنه لما نسخ فرض قيام الليل طاف عليه الصلاة والسلام تلك الليلة بيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصا على كثرة طاعاتهم فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع منها من دندنتهم بذكر الله تعالى والتلاوة أو تصرفك فيما بين المصلين بالقيام والركوع والسجود والقعود اذا أممتهم وانما وصف الله تعالى ذاته بعلمه بحاله عليه الصلاة والسلام التى بها يستأهل ولايته بعد ان عبر عنه بما ينبىء عن قهر أعدائه ونصر أوليائه ومن وصف العزيز الرحيم تحقيقا للتوكل وتوطينا لقلبه عليه (انه هو السميع) لما تقوله (العليم) بما تنويه وتعمله (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين) أى تتنزل بحذف احدى التاءين وهو استئناف مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله

صلى الله عليه وسلم بعد بيان امتناع تنزلهم بالقرآن ودخول حرف الجر على من الاستفهامية لما أنها ليست
موضوعة للاستفهام بل الاصل أمن فحذف حرف الاستفهام واستمر الاستعمال على حذفه

الاول) انه استئناف وتبيين لما ألقى اليها كأنها لما قالت انى ألقى الى كتاب كريم قيل لها ممن هو وما هو فقالت انه من سليمان وانه كيت وكيت وقرأ عبد الله وانه من سليمان وانه بسم الله عطفا على انى وقرئ أنه من سليمان وانه بالفتح وفيه وجهان (أحدهما) انه بدل من كتاب كأنه قيل ألقى الى انه من سليمان (وثانيهما) ان يريد لانه من سليمان ولانه بسم الله كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره بسم الله وقرأ أبى ان من سليمان وان بسم الله على ان المفسرة وان فى ان لا تعلوا مفسرة أيضا ومعنى لا تعلوا لا تتكبروا كما تفعل الملوك وقرأ ابن عباس بالغين معجمة من الغلو وهى مجاوزة الحد (البحث الثانى) يقال لم قدم سليمان اسمه على قوله بسم الله الرحمن الرحيم (جوابه) حاشاه من ذلك بل ابتدأ هو ببسم الله الرحمن الرحيم وانما ذكرت بلقيس ان هذا الكتاب من سليمان ثم حكت ما فى الكتاب والله تعالى حكى ذلك فالتقديم واقع فى الحكاية (البحث الثالث) ان الانبياء عليهم السلام لا يطيلون بل يقتصرون على المقصود وهذا الكتاب مشتمل على تمام المقصود وذلك لان المطلوب من الخلق اما العلم أو العمل والعلم مقدم على العمل فقوله بسم الله الرحمن الرحيم مشتمل على اثبات الصانع سبحانه وتعالى واثبات كونه عالما قادرا حيا مريدا حكيما رحيما وأما قوله ألا تعلوا على فهو نهى عن الانقياد لطاعة النفس والهوى والتكبر وأما قوله وأتونى مسلمين فالمراد من المسلم اما المنقاد أو المؤمن فثبت أن هذا الكتاب على وجازته يحوى كل ما لابد منه فى الدين والدنيا فان قيل النهى عن الاستعلاء والامر بالانقياد قبل اقامة الدلالة على كونه رسولا حقا يدل على الاكتفاء بالتقليد جوابه معاذ الله أن يكون هناك تقليد وذلك لان رسول سليمان الى بلقيس كان الهدهد ورسالة الهدهد معجز والمعجز يدل على وجود الصانع وعلى صفاته ويدل على صدق المدعى فلما كانت تلك الرسالة دلالة تامة على التوحيد والنبوة لا جرم لم يذكر فى الكتاب دليلا آخر أما قوله يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى فالفتوى هى الجواب فى الحادثة اشتقت على طريق الاستعارة من الفتى فى السن أى أجيبونى فى الامر الفتى وقصدت بالانقطاع اليهم واستطلاع رأيهم تطييب قلوبهم ما كنت قاطعة أمرا أى لا أبت أمرا الا بمحضركم * أما قوله قالوا نحن أولوا قوة فالمراد قوة الاجسام وقوة الآلات والمراد بالبأس النجدة والثبات فى الحرب وحاصل الجواب ان القوم ذكروا أمرين أحدهما اظهار القوة الذاتية والعرضية ليظهر انها ان ارادتهم الدفع والحرب وجدتهم بحيث تريد والآخر قولهم والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين وفى ذلك اظهار الطاعة لها ان ارادت السلم ولا يمكن ذكر جواب أحسن من هذا والله أعلم * قوله تعالى (قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها

كما حذف من هل والاصل أهل وقوله تعالى (تنزل على كل أفاك أثيم) قصر لتنزلهم على كل من اتصف بالافك الكثير والاثم الكبير من الكهنة والمتنبئة وتخصيص له بهم بحيث لا يتخطاهم الى غيرهم وحيث كانت ساحة رسول الله صلى الله عليه وسلم منزهة عن أن يحوم حولها شائبة شئ من تلك الاوصاف اتضح استحالة تنزلهم عليه عليه الصلاة والسلام (يلقون) أى الافاكون (السمع) الى الشياطين فيتلقون منهم أوهاما وأمارات لنقصان علمهم فيضمون اليها بحسب تخيلاتهم الباطلة خرافات لا يطابق أكثرها الواقع وذلك قوله تعالى (وأكثرهم كاذبون) أى فيما قالوه من الاقاويل وقد ورد فى الحديث الكلمة يخطفها الجنى فيقرها فى اذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة أو يلقون السمع أى المسموع من الشياطين الى الناس وأكثرهم كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا اليهم والاظهر أن الاكثرية ﴿ ولنخرجنهم ﴾ باعتبار أقوالهم على معنى أن هؤلاء قلما يصدقون فيما يحكون عن الجنى وأما فى أكثره فهم كاذبون وما له وأن أكثر أقوالهم كاذبة لا باعتبار ذواتهم حتى يلزم من نسبة الكذب الى أكثرهم كون أقلهم صادقين

ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون) اعلم انها لما عرضت الواقعة على أكابر قومها وقالوا ماتقدم اظهرت رأيها وهوان الملوك اذا دخلوا قرية بالقهر افسدوها اى خربوها واذلوا اعزتها فذكرت لهم عاقبة الحرب واما قوله وكذلك يفعلون فقد اختلفوا أهو من كلامها اومن كلام الله تعالى كالتصويب لها والاقرب انه من كلامها وانها ذكرته تأكيدا لما وصفته من حال الملوك فاما الكلام فى صفة الهدية فالناس اكثروا فيها لكن لاذكر لها فى الكتاب وقولها فناظرة بم يرجع المرسلون فيه دلالة على انها لم تثق بالقبول وجوزت الرد وارادت بذلك أن ينكشف لها غرض سليمان ولما وصلت الهدايا الى سليمان عليه السلام ذكر أمرين الاول قوله أتمدونن بمال فأظهر بهذا الكلام قلة الاكتراث بذلك المال اما قوله بل أنتم بهديتكم تفرحون ففيه ثلاثة أوجه (أحدها) ان الهدية اسم للمهدى كما ان العطية اسم للمعطى فتضاف الى المهدى والى المهدى له والمضاف اليه ههنا هو المهدى اليه والمعنى ان الله تعالى آتانى الدين الذى هو السعادة القصوى وآتانى من الدنيا مالا مزيد عليه فكيف يستمال مثلى بمثل هذه الهدية بل أنتم تفرحون بما يهدى اليكم لكن حالى خلاف حالكم (وثانيها) بل انتم بهديتكم هذه التى اهديتموها تفرحون من حيث انكم قدرتم على اهداء مثلها (وثالثها) كأنه قال بل أنتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها (الثانى) قوله ارجع اليهم فقيل ارجع خطاب للرسول وقيل للهدهد محملا كتابا آخر اما قوله تعالى لاقبل أى لاطاقة وحقيقة القبل المقاومة والمقابلة أى لايقدرون ان يقابلوهم وقرأ ابن مسعود لاقبل لهم بهم والضمير فى منها لسبا والذل ان يذهب عنهم ما كان عندهم من العز والملك والصغار أن يقعوا فى اسر واستعباد ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد ان كانوا ملوكا * قوله تعالى (قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين قال الذى عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم) اعلم ان فى قوله تعالى قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها دلالة على انها عزمت على اللحوق بسليمان ودلالة على ان امر ذلك العرش كان مشهورا فأحب ان يحصل عنده قبل حضورها واختلفوا فى غرض سليمان عليه السلام من احضار ذلك العرش على وجوه (احدها) ان المراد ان يكون ذلك دلالة لبلقيس على قدرة الله تعالى وعلى نبوة سليمان عليه السلام حتى تنضم هذه الدلالة الى سائر الدلائل التى سلفت (وثانيها) اراد ان يؤتى بذلك العرش فيغير وينكر ثم يعرض عليها حتى انها هل تعرفه أو تنكره والمقصود اختبار عقلها وقوله تعالى قال نكروا لها عرشها ننظر اتهتدى كالدلالة على ذلك (وثالثها) قال قتادة اراد ان يأخذه قبل اسلامها لعلمه انها اذا اسلمت لم يحل له اخذ مالها

على الاطلاق وليس معنى الافاك من لا ينطق الا بالافك حتى يمتنع منه الصدق بل من يكثر الافك فلا ينافيه ان يصدق نادرا فى بعض الاحايين وقيل الضمير للشياطين أى يلقون السمع أى المسموع من الملاء الاعلى قبل أن رجموا من بعض المغيبات الى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به اليهم اذ لا يسمعونه على نحو ما تكلمت به الملائكة لشرارتهم أو لقصور فهمهم أو ضبطهم أو افهامهم ولا سبيل الى حمل القاء السمع على تسمعهم وانصاتهم الى الملا الاعلى قبل الرجم كما جوزه الجمهور لما أن يلقون كما صرحوا به اما حال من ضمير تنزل مفيدة لمقارنة التنزل للالقاء أو استئناف مبين للغرض من التنزل مبنى على السؤال عنه ولا ريب فى ان القاء السمع الى الملا الاعلى بمعزل من احتمال أن يقارن التنزل أو يكون غرضا منه لتقدمه عليه قطعا وانما المحتمل لهما الالقاء بالمعنى الاول فالمعنى على تقدير كونه حالا تنزل الشياطين على الافاكين ملقين اليهم ما سمعوه من الملا الاعلى وعلى تقدير كونه جوابا عن سؤال من قال لم تنزل عليهم وماذا يفعلون بهم يلقون اليهم ما سمعوه وحمله على استئناف الاخبار كما فعله بعضهم غير سديد لان ذكر حالهم السابقة على تنزلهم المذكور قبله غير خليق بجزالة التنزيل

وأما على تقدير كون ضمير يلقون للافاكين فهو صفة لكل أفاك لانه فى معنى الجمع سواء أريد بالقاء السمع الاصغاء الى الشياطين أو القاء المسموع الى الناس ويجوز أن يكون استئناف اخبار بحالهم على كلا التقديرين لما أن كلا من تلقيهم من

الشياطين والقاءهم الى الناس يكون بعد التنزيل وأن يكون استئنافا مبنيا على السؤال على التقدير الاول فقط كأنه قيل ما يفعلون عند تنزل الشياطين عليهم فقيل يلقون اليهم أسماعهم ليحفظوا ما يوحون به اليهم وقوله تعالى وأكثرهم كاذبون على التقدير الاول استئناف فقط وعلى الثاني يحتمل الحالية من ضمير يلقون أى يلقون ما سمعوه من الشياطين

الى الناس والحال انهم فى اكثر أقوالهم كاذبون فتدبر (والشعراء يتبعهم الغاوون) استئناف مسوق لابطال ما قالوا فى حق القرآن العظيم من أنه من قبيل الشعر وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشعراء ببيان حال الشعراء المنافية لحاله عليه الصلاة والسلام بعد ابطال ما قالوا انه من قبيل ما يلقى الشياطين على الكهنة من الاباطيل بما مر من بيان أحوالهم المضادة لاحواله عليه الصلاة والسلام والمعنى أن الشعراء يتبعهم أى يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم الغاوون الضالون عن السنن الحائرون فيما يأتون وما يذرون لا يستمرون على وتيرة واحدة فى الافعال والاقوال والاحوال لا غيرهم من أهل الرشد المهتدين الى طريق الحق الثابتين عليه وقوله تعالى (ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون) استشهاد على أن الشعراء انما يتبعهم الغاوون وتقرير له والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية للقصد الى أن حالهم من الجلاء والظهور بحيث لا تختص برؤية راء دون راء أى ألم تر أن الشعراء فى كل واد من أودية القيل والقال وفى كل شعب من شعاب الوهم والخيال وفى كل

(ورابعها) ان العرش سرير المملكة فأراد ان يعرف مقدار مملكتها قبل وصولها اليه اما قوله قال عفريت من الجن فالعفريت من الرجال الخبيث المنكر الذى يعفر اقرانه ومن الشياطين الخبيث المارد اما قوله قبل ان تقوم من مقامك فالمعنى من مجلسك ولابد فيه من عادة معلومة حتى يصح ان يوقت فقيل المراد مجلس الحكم بين الناس وقيل الوقت الذى يخطب فيه الناس وقيل الى انتصاف النهار وأما قوله لقوى اى على حمله امين آتى به كما هو لا اختزل منه شيئا * أما قوله قال الذى عنده علم من الكتاب ففيه بحثان (الاول) اختلفوا فى ذلك الشخص على قولين قيل كان من الملائكة وقيل كان من الانس فمن قال بالاول اختلفوا قيل هو جبريل عليه السلام وقيل هو ملك أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام ومن قال بالثانى اختلفوا على وجوه (أحدها) قول ابن مسعود انه الخضر عليه السلام (وثانيها) وهو المشهور من قول ابن عباس انه آصف بن برخيا وزير سليمان وكان صديقا يعلم الاسم الاعظم اذا دعا به أجيب (وثالثها) قول قتادة رجل من الانس كان يعلم اسم الله الاعظم (ورابعها) قول ابن زيد كان رجلا صالحا فى جزيرة فى البحر خرج ذلك اليوم ينظر الى سليمان (وخامسها) بل هو سليمان نفسه والمخاطب هو العفريت الذى كلمه واراد سليمان عليه السلام اظهار معجزة فتحداهم أولا ثم بين للعفريت انه يتأتى له من سرعة الاتيان بالعرش ما لا يتهيأ للعفريت وهذا القول أقرب لوجوه (أحدها) ان لفظة الذى موضوعة فى اللغة للاشارة الى شخص معين عند محاولة تعريفه بقصة معلومة والشخص المعروف بأنه عنده علم الكتاب هو سليمان عليه السلام فوجب انصرافه اليه أقصى ما فى الباب أن يقال كان آصف كذلك أيضا لكنا نقول ان سليمان عليه السلام كان أعرف بالكتاب منه لانه هو النبى فكان صرف هذا اللفظ الى سليمان عليه السلام أولى (الثانى) أن احضار العرش فى تلك الساعة اللطيفة درجة عالية فلو حصلت لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان عليه السلام وانه غير جائز (الثالث) أن سليمان عليه السلام لو افتقر فى ذلك الى آصف لاقتضى ذلك قصور حال سليمان فى أعين الخلق (الرابع) أن سليمان قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر وظاهره يقتضى أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان (البحث الثانى) اختلفوا فى الكتاب فقيل اللوح المحفوظ والذى عنده علم منه جبريل عليه السلام وقيل كتاب سليمان أو كتاب بعض الانبياء ومعلوم فى الجملة ان ذلك مدح وان لهذا الوصف تأثيرا فى نقل ذلك العرش فلذلك قالوا انه الاسم الاعظم وان عنده وقعت الاجابة من الله تعالى فى أسرع الاوقات * اما قوله تعالى انا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ففيه بحثان (الاول) آتيك فى الموضعين يجوز أن يكون فعلا واسم فاعل (الثانى) اختلفوا فى قوله قبل أن يرتد اليك طرفك على وجهين الاول انه أراد المبالغة فى السرعة كما تقول لصاحبك افعل ذلك فى لحظة وهذا قول مجاهد الثانى أن تجريه على

﴿ ظاهره ﴾

ظاهره والطرف تحريك الاجفان عند النظر فاذا فتحت الجفن فقد يتوهم أن نور العين امتد الى المرئى واذا غمضت الجفن فقد يتوهم أن ذلك النور ارتد الى العين فهذا هو المراد من ارتداد الطرف (وههنا سوءال) وهو انه كيف يجوز والمسافة بعيدة ان ينقل العرش فى هذا القدر من الزمان وهذا يقتضى اما القول بالطفرة أو حصول الجسم الواحد دفعة واحدة فى مكانين (جوابه) ان المهندسين قالوا كرة الشمس مثل كرة الارض مائة واربعة وستين مرة ثم ان زمان طلوعها زمان قصير فاذا قسمنا زمان طلوع تمام القرص على زمان القدر الذى بين الشام واليمن كانت اللمحة كثيرة فلما ثبت عقلا امكان وجود هذه الحركة السريعة وثبت انه تعالى قادر على كل الممكنات زال السوءال ثم انه عليه السلام لما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر والكلام فى تفسير الابتلاء قدم غير مرة ثم انه عليه السلام بين أن نفع الشكر عائد الى الشاكر لا الى الله تعالى اما انه عائد الى الشاكر فلوجوه (أحدها) انه يخرج عن عهدة ما وجب عليه من الشكر (وثانيها) انه يستمد به المزيد على ماقال لئن شكرتم لازيدنكم (وثالثها) أن المشتغل بالشكر مشتغل بالمنعم والمعرض عن الشكر مشتغل باللذات الحسية وفرق مابينهما كفرق مابين المنعم والنعمة فى الشرف ثم قال ومن كفر فان ربى غنى كريم غنى عن شكره لايضره كفرانه كريم لايقطع عنه نعمه بسبب اعراضه عن الشكر * قوله تعالى

(قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لايهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ماكانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين) اعلم ان قوله نكروا معناه اجعلوا العرش منكرا مغيرا عن شكله كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه وذلك لانه لو ترك على ماكان لعرفته لامحالة وكان لاتدل معرفتها به على ثبات عقلها واذا غيرت دلت معرفتها أو توقفها فيه على فضل عقل ولا يمتنع صحة ماقيل ان سليمان عليه السلام ألقى اليه ان فيها نقصان عقل لكى لايتزوجها أولا تحظى عنده على وجه الحسد فأراد بما ذكرنا اختبار عقلها اما قوله ننظر فقرئ بالجزم على الجواب وبالرفع على الاستئناف واختلفوا فى أتهتدى على وجهين أحدهما اتعرف انه عرشها ام لا كما قدمنا (الثانى) اتعرف به نبوة سليمان أم لا ولذلك قال أم تكون من الذين لايهتدون وذلك كالذم ولايليق الا بطريقة الدلالة فكانه عليه السلام أحب أن تنظر فتعرف به نبوته من حيث صار منتقلا من المكان البعيد الى هناك وذلك يدل على قدرة الله تعالى وعلى صدق سليمان عليه السلام ويعرف بذلك أيضا فضل عقلها لاغراض كانت له فعند ذلك سألها أما قوله أهكذا عرشك فاعلم ان هكذا ثلاث كلمات حرف التنبيه وكاف التشبيه واسم الاشارة ولم يقل أهذا عرشك ولكن أمثل هذا عرشك لئلا يكون تلقينا فقالت كأنه هو ولم تقل هو هو ولا ليس به وذلك من كمال عقلها حيث توقفت فى محل التوقف أما قوله وأوتينا العلم من قبلها ففيه

مسلك من مسالك الغى والضلال يهيمون على وجوههم لايهتدون الى سبيل معين من السبل بل يتحيرون فى قيافى الغواية والسفاهة ويتيهون فى تيه المجون والوقاحة ديدنهم تمزيق الاعراض المحمية والقدح فى الانساب الطاهرة النسبة والتشبيب بالحرم والغزل والابتهار والتردد بين طرفى الافراط والتفريط فى المدح والهجاء (وانهم يقولون مالايفعلون) من الافاعيل غير مبالين بما يستتبعه من اللوائم فكيف يتوهم أن يتبعهم فى مسلكهم ذاك ويلتحق بهم وينتظم فى سلكهم من تنزهت ساحته عن أن يحوم حولها شائبة الاتصاف بشئ من الامور المذكورة واتصف بمحاسن الصفات الجليلة وتخلق بمكارم الاخلاق الجميلة وحاز جميع الكمالات القدسية وفاز بجملة الملكات الانسية مستقرا على المنهاج القويم مستمرا على الصراط المستقيم ناطقا بكل أمر رشيد داعيا الى صراط العزيز الحميد مؤيدا بمعجزات قاهرة وآيات ظاهرة مشحونة بفنون الحكم الباهرة وصنوف المعارف الزاهرة مستقلة بنظم رائق اعجز كل منطيق ماهر وبكت كل مفلق ساحر هذا وقد قيل فى تنزيهه عليه الصلاة والسلام عن أن يكون من الشعراء أن أتباع الشعراء الغاوون واتباع محمد صلى الله عليه وسلم ليسوا كذلك ولاريب فى أن تعليل عدم كونه عليه الصلاة والسلام منهم بكون أتباعه عليه الصلاة والسلام غير غاوين مما لايليق بشأنه العالى وقيل الغاوون الراوون وقيل الشياطين وقيل هم شعراء قريش عبدالله بن الزبعرى وهبيرة بن أبى وهب المخزومى ومسافع

سؤالان وهو ان هذا الكلام كلام من وأيضا فعلى أى شئ عطف هذا الكلام وعنه جوابان (الاول) أنه كلام سليمان وقومه وذلك لان بلقيس لما سئلت عن عرشها ثم انها اجابت بقولها كأنه هو فالظاهر ان سليمان وقومه قالوا انها قد اصابت فى جوابها وهى عاقلة لبيبة وقد رزقت الاسلام ثم عطفوا على ذلك قولهم واوتينا نحن العلم بالله و بقدرته قبل علمها و يكون غرضهم من ذلك شكر الله تعالى فى ان خصهم بمزية التقدم فى الاسلام (الثانى) انه من كلام بلقيس موصولا بقولها كأنه هو والمعنى وأوتينا العلم بالله و بصحة نبوة سليمان قبل هذه المعجزة أو قبل هذه الحالة ثم ان قوله وصدها ما كانت تعبد من دون الله الى آخر الآية يكون من كلام رب العزة ❊ أما قوله تعالى وصدها ما كانت تعبد من دون الله ففيه وجهان (الاول) المراد وصدها عبادتها لغير الله عن الايمان (الثانى) وصدها الله أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وايصال الفعل وقرئ أنها بالفتح على انه بدل من فاعل صد او بمعنى لانها واحتجت المعتزلة بهذه الآية فقالوا لو كان تعالى خلق الكفر فيها لم يكن الصاد لها كفرها المتقدم ولا كونها من جملة الكفار بل كان يكون الصاد لها عن الايمان تجدد خلق الله الكفر فيها والجواب أما على التأويل الثانى فلا شك فى سقوط الاستدلال وأما على الاول فجوابنا أن كونها من جملة الكفار صار سببا لحصول الداعية المستلزمة للكفر وحينئذ يبقى ظاهر الآية موافقا لقولنا والله أعلم ❊ قوله تعالى (قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) اعلم انه تعالى لما حكى اقامتها على الكفر مع كل ما تقدم من الدلائل ذكر أن سليمان عليه السلام أظهر من الامر ما صار داعيا لها الى الاسلام وهو قوله قيل لها ادخلى الصرح والصرح القصر كقوله ياهامان ابن لى صرحا وقيل صحن الدار وقرأ ابن كثير عن ساقيها بالهمز ووجهه أنه سمع سؤقا فأجرى عليه الواحد والممرد المملس روى أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض كالماء بياضا ثم أرسل الماء تحته وألقى فيه السمك وغيره ووضع سريره فى صدره فجلس عليه وعكف عليه الانس والجن والطير وانما فعل ذلك ليزيدها استعظاما لامره وتحققا لنبوته وزعموا ان الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضى اليه باسرارهم لانها كانت بنت جنية وقيل خافوا أن يولد له منها ولد فيجتمع له فطنة الجن والانس فيخرجون من ملك سليمان الى ملك هو اشد فقالوا ان فى عقلها نقصانا وانها شعراء الساقين ورجلها كحافر حمار فاختبر سليمان عقلها بتنكير العرش واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ومعلوم من حال الزجاج الصافى انه يكون كالماء فلما أبصرت ذلك ظنته ماء راكدا فكشفت عن ساقيها لتخوضه فاذا هى أحسن الناس ساقا وقدما وهذا على طريقة من يقول تزوجها وقال آخرون كان المقصود من الصرح تهويل المجلس وتعظيمه وحصل كشف الساق على سبيل التبع فلما قيل لها هو

ابن عبدمناف وابو عزة الجمحى ومن ثقيف أمية بن أبى الصلت قالوا نحن نقول مثل قول محمد صلى الله عليه وسلم وقرئ والشعراء بالنصب على اضمار فعل يفسره الظاهر وقرئ يتبعهم على التخفيف ويتبعهم بسكون العين تشبيها لبعه بعضد (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ❊ ٥٦٨ ❊ وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا) استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله عزوجل و يكون أكثر أشعارهم فى التوحيد والثناء على الله تعالى والحث على طاعته والحكمة والموعظة والزهد فى الدنيا والترغيب عن الركون اليها والزجر عن الاغترار بزخارفها والافتتان بملاذها الفانية ولو وقع منهم بعض الاوقات هجو وقع ذلك منهم بطريق الانتصار ممن هجاهم وقيل المراد بالمستثنين عبدالله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير بن ابى سلمى والذين كانوا ينافحون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكافحون هجاة قريش وعن كعب ابن مالك رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اهجهم فوالذى نفسى بيده لهو اشد عليهم من النبل وكان يقول لحسان قل وروح القدس معك (وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون) تهديد شديد ووعيد أكيد لما فى سيعلم من تهويل متعلقه وفى الذين ظلموا من الاطلاق والتعميم ❊ وفى اى منقلب ينقلبون من الابهام والتهويل وقد قاله ابو بكر لعمر رضى الله عنهما حين عهد اليه وقرئ اى منفلت ينفلتون من الانفلات بمعنى النجاة والمعنى ان الظالمين يطمعون ان ينفلتوا من عذاب الله تعالى وسيعلمون ان ليس لهم وجه من وجوه الانفلات ❊ عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الشعراء

كان له من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وصالح وشعيب وابراهيم و بعدد من كذب بعيسى
وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام * سورة * النمل مكية وهي ثلاث أو أربع وتسعون آية * ٥٦٩ * (بسم الله
الرحمن الرحيم) *
(طس) بالتفخيم وقرئ بالامالة والكلام فيه كالذي مر في نظائره من الفواتح الشريفة ومحله على تقدير كونه اسما للسورة وهو الاظهر الاشهر الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هذا طس أي مسمى به والاشارة اليه قبل ذكره قد مر وجهها في فاتحة سورة يونس وغيرها ورفعه بالابتداء على أن ما بعده خبره ضعيف ذكر هنالك (تلك) اشارة الى نفس السورة لانها التي نوهت بذكر اسمها الا الى آياتها لعدم ذكرها صريحا ولان اضافتها اليها تأبى اضافتها الى القرآن كما سيأتي وما في اسم الاشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد منزلته في الفضل والشرف ومحله الرفع على الابتداء خبره (آيات القرآن) والجملة مستأنفة مقررة لما أفاده التسمية من نباهة شأن المسمى والقرآن عبارة عن الكل أو عن الجميع
المنزل عند نزول السورة حسبما * ٧٢ * س ذكر في فاتحة الكتاب أي تلك السورة آيات القرآن المعروف
بعلو الشأن أي بعض منه مترجم مستقل باسم خاص (وكتاب) أي كتاب عظيم الشأن (مبين) مظهر لما في تضاعيفه
من الحكم والاحكام واحوال الآخرة التي من جملتها الثواب والعقاب

صرح ممرد من قوارير استترت وعجبت من ذلك واستدلت به على التوحيد والنبوة فقالت
رب اني ظلمت نفسي فيما تقدم بالثبات على الكفر ثم قالت وأسلمت مع سليمان لله رب
العالمين وقيل حسبت ان سليمان عليه السلام يغرقها في اللجة فقالت ظلمت نفسي بسوء
ظني بسليمان واختلفوا في انه هل تزوجها أم لا وانه تزوجها في هذه الحال أو قبل ان
كشفت عن ساقيها والاظهر في كلام الناس انه تزوجها وليس لذلك ذكر في الكتاب ولا في
خبر مقطوع بصحته ويروى عن ابن عباس انها لما أسلمت قال لها اختاري من قومك
من أزوجك منه فقالت مثلي لا ينكح الرجال مع سلطاني فقال النكاح من الاسلام فقالت
ان كان كذلك فزوجني ذا تبع ملك همدان فزوجها اياه ثم ردهما الى اليمن ولم يزل بها ملكا
والله أعلم * (القصة الثالثة) قصة صالح عليه السلام قوله تعالى (ولقد أرسلنا الى ثمود
أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة
قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك و بمن معك قال طائركم
عند الله بل أنتم قوم تفتنون وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون
قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وانا لصادقون ومكروا
مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم
أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان في ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا
وكانوا يتقون) قرئ أن اعبدوا الله بالضم على اتباع النون الباء اما قوله فاذا هم فريقان
ففيه قولان أحدهما المراد فريق مؤمن وفريق كافر الثاني المراد قوم صالح قبل أن يؤمن
منهم أحد اما قوله يختصمون فالمعنى ان الذين آمنوا انما آمنوا لانهم نظروا في حجته فعرفوا
صحتها واذا كان كذلك فلابد وأن يكون خصما لمن لم يقبلها واذا كان هذا الاختصام
في باب الدين دل ذلك على ان الجدال في باب الدين حق وفيه ابطال التقليد أما قوله يا قوم
لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ففيه بحثان (الاول) في تفسير استعجال السيئة قبل
الحسنة وجهان أحدهما ان الذين كذبوا صالحا عليه السلام لما لم ينفعهم الحجاج
توعدهم صالح عليه السلام بالعذاب فقالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين على
وجه الاستهزاء فعنده قال صالح لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة والمراد أن الله تعالى
قد مكنكم من التوصل الى رحمة الله تعالى وثوابه فلماذا تعدلون عنه الى استعجال عذابه
وثانيهما انهم كانوا يقولون لجهلهم ان العقوبة التي يعدها صالح ان وقعت على زعمه
تبنا حينئذ واستغفرنا فحينئذ يقبل الله توبتنا ويدفع العذاب عنا فخاطبهم صالح على
حسب اعتقادهم وقال هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب فان استعجال الخير أولى
من استعجال الشر (البحث الثاني) أن المراد بالسيئة العقاب و بالحسنة الثواب فاما
وصف العذاب بانه سيئة فهو مجاز وسبب هذا التجوز اما لان العقاب من لوازمه أو لانه

يشبهه في كونه مكروها واما وصف الرحمة بانها حسنة فمنهم من قال انه حقيقة ومنهم من قال انه مجاز والاول أقرب ثم ان صالحا عليه السلام لما قرر هذا الكلام الحق أجابوه بكلام فاسد وهو قولهم اطيرنا بك اى تشاء منا بك لان الذى يصيبنا من شدة وقحط فهو بشؤمك وبشؤم من معك قال صاحب الكشاف كان الرجل يخرج مسافرا فيمر بطائر فيزجره فان مر سانحا تيمن وان مر بارحا تشأم فلما انسبوا الخير والشر الى الطائر استعير لما كان للخير والشر وهو قدر الله وقسمته فاجاب صالح عليه السلام بقوله طائركم عند الله أى السبب الذى منه يجئ خيركم وشركم عند الله وهو قضاؤه وقدره ان شاء رزقكم وان شاء أحرمكم وقيل بل المراد ان جزاء الطيرة منكم عند الله وهو العقاب والاقرب الوجه الاول لان القوم أشاروا الى الامر الحاصل فيجب فى جوابه أن يكون فيه لا فى غيره ثم بين أن هذا جهل منهم بقوله بل أنتم قوم تفتنون فيحتمل ان غيرهم دعاهم الى هذا القول ويحتمل أن يكون المراد ان الشيطان يفتنكم بوسوسته ثم انه سبحانه قال وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الارض والاقرب أن يكون المراد تسعة جمع اذ الظاهر من الرهط الجماعة لا الواحد ثم يحتمل أنهم كانوا قبائل ويحتمل انهم دخلوا تحت العدد لاختلاف صفتهم وأحوالهم لا لاختلاف النسب فبين تعالى أنهم يفسدون فى الارض ولا يمزجون ذلك الفساد بشئ من الصلاح فلهذا قال يفسدون فى الارض ولا يصلحون ثم بين تعالى أن من جملة ذلك ما هموا به من أمر صالح عليه السلام أما قوله تقاسموا بالله فيحتمل ان يكون أمرا أو خبرا فى محل الحال باضمار قد أى قالوا متقاسمين والبيات مباغتة العدو ليلا أما قوله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله يعنى لو اتهمنا قومه حلفنا لهم أنا لم نحضر وقرئ مهلك بفتح الميم واللام وكسرها من هلك ومهلك بضم الميم من أهلك ويحتمل المصدر والمكان والزمان ثم انه سبحانه قال ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون وقد اختلفوا فى مكر الله تعالى على وجوه (أحدها) أن مكر الله اهلاكهم من حيث لا يشعرون شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة روى انه كان لصالح عليه السلام مسجد فى الحجر فى شعب يصلى فيه فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا الى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا الى الشعب وقالوا اذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا الى أهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فهلكوا وهلك الباقون بالصيحة (وثانيها) جاؤا بالليل شاهرين سيوفهم وقد أرسل الله تعالى الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة يرون الاحجار ولا يرون راميا (وثالثها) أن الله تعالى أخبر صالحا بمكرهم فتحرز عنهم فذاك مكر الله تعالى فى حقهم أما قوله أنا دمرناهم استئناف ومن قرأ بالفتح رفعه بدلا من العاقبة أو خبر مبتدا محذوف تقديره هى تدميرهم أو نصبه على معنى لانا أو على انه خبر كان أى كان عاقبة مكرهم الدمار أما قوله خاوية فهو حال عمل فيها ما دل عليه تلك وقرأ عيسى بن عمر خاوية بالرفع على خبر المبتدا

أو لسبيل الرشد والغى أو فارق بين الحق والباطل والحلال والحرام أو ظاهر الاعجاز على أنه من أبان بمعنى بان ولقد فخم شأنه الجليل بما جمع فيه من وصف القرآنية المنبئة عن كونه بديعا فى بابه ممتازا عن غيره بالنظم المعجز كما يعرب عنه قوله تعالى قرآنا عربيا غير ذى عوج ووصف الكتابية المعربة عن اشتماله على صفات كمال الكتب الالهية فكأنه كلها وقدم الوصف الاول ههنا نظرا الى تقدم حال القرآنية على حال الكتابية وعكس فى سورة الحجر نظرا الى ما ذكر هناك من الوجه وما قيل من أن الكتاب هو اللوح المحفوظ وابانته أنه خط فيه ما هو كائن فهو يبينه للناظرين فيه لا يساعده اضافة الآيات اليه اذ لا عهد باشتماله على الآيات ولا وصفه بالهداية والبشارة اذ هما باعتبار ابانته فلا بد من اعتبارها بالنسبة الى الناس الذين من جملتهم المؤمنون لا الى الناظرين فيه وقرئ وكتاب بالرفع على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه اى وآيات كتاب مبين (هدى وبشرى للمؤمنين) فى حيز النصب على الحالية من الآيات على أنهما مصدران أقيما مقام الفاعل للمبالغة كأنهما نفس الهدى والبشارة والعامل معنى الاشارة أى هادية ومبشرة * المحذوف *
يزوالرفع على أنهما بدلان من الآيات أو خبران آخران لتلك أو لمبتدأ محذوف ومعنى هدايتها لهم وهم مهتدون أنها
أيدهم هدى قال تعالى فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون

وأما معنى تبشيرها اياهم فظاهر لانها تبشرهم برحمة من الله ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم وقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة) صفة مادحة لهم وتخصيصهما بالذكر لانهما قرينتا الايمان وقطرا العبادات البدنية والمالية مستتبعان لسائر الاعمال الصالحة وقوله تعالى (وهم بالآخرة هم يوقنون) جملة اعتراضية كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة حق الايقان لا من عداهم لان تحمل مشاق العبادات لخوف العقاب ورجاء الثواب أو هو من تتمة الصلة والواو حالية أو عاطفة له على الصلة الاولى وتغيير نظمه للدلالة على قوة يقينهم وثباته وأنهم أوحديون فيه (ان الذين لا يؤمنون بالآخرة) بيان لاحوال الكفرة بعد بيان أحوال المؤمنين أي لا يؤمنون بها وبما فيها من الثواب على الاعمال الصالحة والعقاب على السيئات حسبما ينطق به القرآن (زينا لهم أعمالهم) القبيحة حيث جعلناها مشتهاة للطبع محبوبة للنفس كما ينبئ عنه قوله عليه الصلاة والسلام حفت النار بالشهوات أو الاعمال الحسنة ببيان حسنها في انفسها حالا واستتباعها لفنون المنافع مآلا واضافتها اليهم باعتبار امرهم بها وايجابها عليهم (فهم يعمهون) يتحيرون و يترددون على التجدد والاستمرار في الاشتغال بها والانهماك فيها من غير ملاحظة لما يتبعها من نفع وضر أو في الضلال والاعراض عنها والفاء على الاول لترتيب المسبب على

المحذوف والله اعلم * (القصة الرابعة) قصة لوط عليه السلام قوله تعالى (ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون فأنجيناه وأهله الا امرأته قدرناها من الغابرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) قال صاحب الكشاف واذكر لوطا أو أرسلنا لوطا لدلالة ولقد أرسلنا عليه واذ بدل على الاول ظرف على الثاني أما قوله أتأتون الفاحشة فهو على وجه التنكير وان كان بلفظ الاستفهام وربما كان التوبيخ بمثل هذا اللفظ ابلغ اما قوله وأنتم تبصرون ففيه وجوه (أحدها) انهم كانوا لا يتحاشون من اظهار ذلك على وجه الخلاعة ولا يتكاتمون وذلك أحد ما لاجله عظم ذلك الفعل منهم فذكر في توبيخهم ماله عظم ذلك الفعل (وثانيها) ان المراد بصر القلب أي تعلمون انها فاحشة لم تسبقوا اليها وان الله تعالى لم يخلق الذكر للذكر فهي مضادة لله في حكمته (وثالثها) تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم فان قلت فسرت تبصرون بالعلم وبعده بل أنتم قوم تجهلون فكيف يكونون علماء وجهلاء قلت أراد تفعلون فعل الجاهلين بانها فاحشة مع علمكم بذلك أو تجهلون العاقبة أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها ثم انه تعالى بين جهلهم بان حكى عنهم انهم اجابوا عن هذا الكلام بما لا يصلح ان يكون جوابا له تعالى فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون فجعلوا الذي لاجله يخرجون انهم يتطهرون من هذا الصنيع الفاحش وهذا بأن يوجب تعظيمهم وتعظيمهم أولى لكن في المفسرين من قال انما قالوا ذلك على وجه الهزؤ ثم بين تعالى أنه نجاه واهله الا امرأته واهلك الباقين وقد تقدم كل ذلك مشروحا والله اعلم وههنا اخر القصص في هذه السورة والله اعلم * القول في خطاب الله عز وجل مع محمد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون) في هذه الآية قولان (الاول) انه متعلق بما قبله من القصص والمعنى الحمد لله على اهلاكهم وسلام على عباده الذين اصطفى بأن أرسلهم ونجاهم (الثاني) أنه مبتدأ فانه تعالى لما ذكر أحوال الانبياء عليهم السلام وكان محمد صلى الله عليه وسلم كالمخالف لمن قبله في أمر العذاب لان عذاب الاستئصال مرتفع عن قومه أمره تعالى بأن يشكر ربه على ما خصه بهذه النعم وبان يسلم على الانبياء عليهم السلام الذين صبروا على مشاق الرسالة فاما قوله آلله خير أما يشركون فهو تبكيت المشركين وتهكم بحالهم وذلك أنهم آثروا عبادة الاصنام على عبادة الله تعالى ولا يؤثر عاقل شيأ على شئ الا لزيادة خير ومنفعة فقيل لهم هذا الكلام تنبيها على نهاية ضلالهم وجهلهم وقرئ يشركون بالياء والتاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان اذا قرأها قال بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم ثم اعلم أنه سبحانه وتعالى تكلم بعد ذلك في عدة فصول (الفصل الاول) في الرد على عبدة

السبب وعلى الثانى الترتيب ضد المسبب على السبب كما فى قولك وعظته فلم يتعظ وفيه ايذان بكمال عتوهم ومكابرتهم وتعكيسهم فى الامور (أولئك) اشارة الى المذكورين وهو مبتدأ خبره الموصول بعده اى أولئك الموصوفون بالكفر والعمه (الذين لهم سوء العذاب) أى فى الدنيا ﴿ ٥٧٢ ﴾ كالقتل والاسر يوم بدر (وهم فى الاخرة هم الاخسرون) أى أشد الناس خسرانا لفوات الثواب واستحقاق العقاب (وانك لتلقى القرآن) كلام مستأنف قد سيق بعد بيان بعض شؤن القرآن الكريم تمهيدا لما يعقبه من الاقاصيص وتصديره بحرفى التأكيد لابراز كمال العناية بمضمونه أى لتؤتاه بطريق التلقية والتلقين (من لدن حكيم عليم) أى أى حكيم وأى عليم وفى تفخيمهما تفخيم لشأن القرآن وتنصيص على علو طبقته عليه الصلاة والسلام فى معرفته والاحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق فان من تلقى العلوم والحكم من مثل ذلك الحكيم العليم يكون علما فى رصانة العلم والحكمة والجمع بينهما مع دخول العلم فى الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على اتقان الفعل وللاشعار بان ما فى القرآن من العلوم منها ما هو حكمة كالعقائد والشرائع ومنها ماليس كذلك كالقصص والاخبار الغيبية وقوله تعالى ﴿ الحيونات ﴾ (اذ قال موسى لاهله) منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم وأمر بتلاوة بعض من القرآن الذى يلقاه عليه

الاوثان ومدار هذا الفصل على بيان أنه سبحانه وتعالى هو الخالق لاصول النعم وفروعها فكيف تحسن عبادة مالا منفعة منه البتة ثم أنه سبحانه وتعالى ذكر أنواعا * (النوع الاول) ما يتعلق بالسموات قوله تعالى (أمن خلق السموات والارض وانزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أاله مع الله بل هم قوم يعدلون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الفرق بين أم وأم فى أما يشركون وأمن خلق ان الاولى متصلة لان المعنى أيهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل والحديقة البستان عليه سور من الاحداق وهو الاحاطة وقيل ذات لان المعنى جماعة حدائق ذات بهجة كما يقال النساء ذهبت والبهجة الحسن لان الناظر يبتهج به أاله مع الله أغيره يقرن به ويجعل شريكا له وقرئ أالها مع الله بمعنى تدعون أو تشركون (المسئلة الثانية) انه تعالى بين انه الذى اختص بان خلق السموات والارض وجعل السماء مكانا للماء والارض للنبات وذكر أعظم النعم وهى الحدائق ذات البهجة ونبه تعالى على أن هذا الانبات فى الحدائق لا يقدر عليه الا الله تعالى لان أحدنا لو قدر عليه لما احتاج الى غرس ومصابرة على ظهور الثمرة واذا كان تعالى هو المختص بهذا الانعام وجب أن يخص بالعبادة ثم قال بل هم قوم يعدلون وقد اختلفوا فيه فقيل يعدلون عن هذا الحق الظاهر وقيل يعدلون بالله سواه ونظير هذه الآية أول سورة الانعام (المسئلة الثالثة) يقال ما حكمة الالتفات فى قوله فانبتنا جوابه انه لا شبهة للعاقل فى أن خالق السموات والارض ومنزل الماء من السماء ليس الا الله تعالى وربما عرضت الشبهة فى ان منبت الشجرة هو الانسان فان الانسان يقول أنا الذى ألقى البذر فى الارض الحرة وأسقيها الماء واسعى فى تشميسها وفاعل السبب فاعل للمسبب فاذن أنا المنبت للشجرة فلما كان هذا الاحتمال قائما لاجرم أزال هذا الاحتمال فرجع من لفظ الغيبة الى قوله فأنبتنا وقال ما كان لكم أن تنبتوا شجرها لان الانسان قد يأتى بالبذر والسقى والكرب والتشميس ثم لا يأتى على وفق مراده والذى يقع على وفق مراده فانه يكون جاهلا بطبعه ومقداره وكيفيته فكيف يكون فاعلا لها فلهذه النكتة حسن الالتفات ههنا * (النوع الثانى) ما يتعلق بالارض قوله (أمن جعل الارض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا اله مع الله بل اكثرهم لا يعلمون) قال صاحب الكشاف أمن جعل وما بعده بدل من أمن خلق فكان حكمها حكمه واعلم انه تعالى ذكر من منافع الارض أمورا أربعة (المنفعة الاولى) كونها قرارا وذلك لوجوه (الاول) انه دحاها وسواها للاستقرار (الثانى) انه تعالى جعلها متوسطة فى الصلابة والرخاوة فليست فى الصلابة كالحجر الذى يتألم الانسان بالاضطجاع عليه وليست فى الرخاوة كالماء الذى يغوص فيه (الثالث) انه تعالى جعلها كثيفة غبراء ليستقر عليها النور ولو كانت لطيفة لما استقر النور عليها ولو لم يستقر النور عليها لصارت من شدة بردها بحيث تموت

الصلاة والسلام من لدنه عزوجل تقريرا لما قبله وتحقيقا له أي اذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام لاهله في وادي طوى وقد غشيتهم ظلمة الليل وقدح فاصلد زنده فبدا له من جانب الطور نار (اني آنست نارا سآتيكم منها بخبر) أي عن حال الطريق وقد كانوا ضلوه والسين الدلالة على نوع بعد في المسافة وتأكيد الوعد والجمع أن صح أنه لم يكن معه عليه الصلاة والسلام الا امرأته لما كنى عنها بالاهل أو للتعظيم مبالغة في التسلية (أو آتيكم بشهاب قبس) بتنوينهما على أن الثاني بدل من الاول أو صفة له لانه بمعنى مقبوس أي بشعلة نار مقبوسة أي مأخوذة من أصلها وقرئ بالاضافة وعلى التقديرين فالمراد تعيين المقصود الذي هو القبس الجامع لمنفعتي الضياء والاصطلاء لان من النار ما ليس بقبس كالجمر وكلتا العدتين منه عليه الصلاة والسلام بطريق الظن كما يفصح عن ذلك ما في سورة طه من صيغة الترجي والترديد للايذان بأنه ان لم يظفر بهما لم يعدم أحدهما بناء على ظاهر الامر وثقة بسنة الله تعالى فانه تعالى لا يكاد يجمع على عبده حرمانين (لعلكم تصطلون) رجاء أن تستدفئوا بها والصلاء النار العظيمة (فلما جاءها نودي) من جانب الطور (أن بورك) معناه أي بورك على أن أن مفسرة لما في النداء من معنى القول أو بأن بورك على أنها مصدرية حذف عنها الجار جريا على القاعدة المستمرة وقيل مخففة من الثقيلة ولا ضير في فقدان التعويض بلا أو قد أو السين أو سوف لما أن

الحيوانات (الرابع) انه سبحانه جعل الشمس بسبب ميل مدارها عن مدار منطقة الكل بحيث تبعد تارة وتقرب أخرى من سمت الرأس ولولا ذلك لما اختلفت الفصول ولما حصلت المنافع (الخامس) أنه سبحانه وتعالى جعلها ساكنة فانها لو كانت متحركة لكانت اما متحركة على الاستقامة أو على الاستدارة وعلى التقديرين لا يحصل الانتفاع بالسكنى على الارض (السادس) انه سبحانه جعلها كفاتا للاحياء والاموات وانه يطرح عليها كل قبيح ويخرج منها كل مليح (المنفعة الثانية للارض) قوله وجعل خلالها أنهارا فاعلم ان أقسام المياه المنبعثة عن الارض أربعة (الاول) مياه العيون السيالة وهي تنبعث من ابخرة كثيرة المادة قوية الاندفاع تفجر الارض بقوة ثم لا يزال يستتبع جزء منها جزأ (الثاني) ماء العيون الراكدة وهي تحدث من ابخرة بلغت من قوتها أن اندفعت الى وجه الارض ولم تبلغ من قوتها وكثرة مادتها ان يطرد تاليها سابقها (الثالث) مياه القنى والانهار وهي متولدة عن ابخرة ناقصة القوة عن ان تشق الارض فاذا أزيل عن وجهها ثقل التراب صادفت حينئذ تلك الابخرة منفذا تندفع اليه بأدنى حركة (الرابع) مياه الآبار وهي نبعية كمياه الانهار الا انه لم يجعل له ميل الى موضع يسيل اليه ونسبة القنى الى الآبار نسبة العيون السيالة الى العيون الراكدة فقد ظهر أنه لولا صلابة الارض لما اجتمعت تلك الابخرة في باطنها ولولا اجتماعها في باطنها لما حدثت هذه العيون في ظاهرها (المنفعة الثالثة للارض) قوله وجعل لها رواسي والمراد منها الجبال فنقول أكثر العيون والسحب والمعدنيات انما تكون في الجبال أو فيما يقرب منها أما العيون فلان الارض اذا كانت رخوة نشفت الابخرة عنها فلا يجتمع منها قدر يعتد به فاذن هذه الابخرة لا تجتمع الا في الارض الصلبة والجبال أصلب الارض فلا جرم كانت أقواها على حبس هذا البخار حتى يجتمع ما يصلح أن يكون مادة للعيون ويشبه أن يكون مستقر الجبل مملوأ ماء ويكون الجبل في حقنه الابخرة مثل الانبيق الصلب المعد للتقطير لا يدع شيأ من البخار يتحلل ونفس الارض التي تحته كالقرعة والعيون كالاذناب والبخار كالقوابل ولذلك فان أكثر العيون انما تنفجر من الجبال وأقلها في البراري وذلك الاقل لا يكون الا اذا كانت الارض صلبة وأما ان أكثر السحب تكون في الجبال فلوجوه ثلاثة (أحدها) أن في باطن الجبال من النداوات ما لا يكون في باطن الارضين الرخوة (وثانيها) أن الجبال بسبب ارتفاعها أبرد فلا جرم يبقى على ظاهرها من الانداء ومن الثلوج ما لا يبقى على ظهر سائر الارضين (وثالثها) أن الابخرة الصاعدة تكون محبوسة بالجبال فلا تتفرق ولا تتحلل واذا ثبت ذلك ظهر أن أسباب كثرة السحب في الجبال أكثر لان المادة فيها ظاهرا وباطنا أكثر والاحتقان أشد والسبب المحلل وهو الحر أقل فلذلك كانت السحب في الجبال أكثر وأما المعدنيات المحتاجة الى أبخرة يكون اختلاطها بالارضية أكثر والى بقاء مدة طويلة يتم النضج فيها فلا شئ لها في هذا

الدعاء يخالف غيره في كثير من الاحكام (من في النار ومن حولها) أي من في مكان النار وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله سبحانه نودي من شاطئ الوادي الايمن في البقعة المباركة ومن حول مكانها وقرئ تباركت الارض ومن حولها والظاهر عمومه لكل من في ذلك الوادي وحواليه من ارض ﴿ ٥٧٤ ﴾ الشام الموسومة بالبركات لكونها مبعث الانبياء عليهم الصلاة والسلام وكفاتهم أحياء وأمواتا ولا سيما تلك البقعة التي كلم الله تعالى فيها موسى وقيل المراد موسى والملائكة الحاضرون وتصدير الخطاب بذلك بشارة بأنه قد قضى له أمر عظيم ديني تنتشر بركاته في أقطار الشام وهو تكليمه تعالى اياه عليه الصلاة السلام واستنباؤه له واظهار المعجزات على يديه عليه الصلاة والسلام (وسبحان الله رب العالمين) تعجيب لموسى عليه الصلاة والسلام من ذلك وايذان بأن ذلك مريده ومكونه رب العالمين تنبيها على أن الكائن من جلائل الامور وعظائم الشؤن ومن أحكام تربيته تعالى للعالمين (ياموسى انه أنا الله) استئناف مسوق لبيان آثار البركة المذكورة والضمير اما للشأن وأنا الله جملة مفسرة له واما راجع الى المتكلم وأنا خبره والله بيان له وقوله تعالى (العزيز الحكيم) صفتان لله تعالى ممهدتان لما أريد اظهاره على يده من المعجزات ﴿ الادغام ﴾ أي أنا القوي القادر على ما لا تناله الاوهام من الامور العظام التي من جملتها أمر العصا واليد الفاعل كل ما أفعله

المعنى كالجبال (المنفعة الرابعة للارض) قوله وجعل بين البحرين حاجزا فالمقصود منه أن لا يفسد العذب بالاختلاط وأيضا فلينتفع بذلك الحاجز وأيضا المؤمن في قلبه بحران بحر الايمان والحكمة وبحر الطغيان والشهوة وهو بتوفيقه جعل بينهما حاجزا لكي لا يفسد أحدهما بالآخر وقال بعض الحكماء في قوله مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان قال عند عدم البغي يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فعند عدم البغي في القلب يخرج الدين والايمان بالشكر فان قيل ولم جعل البحر ملحا قلنا لولا ملوحته لأجن وانتشر فساد أجونته في الارض وأحدث الوباء العام واعلم ان اختصاص البحر بجانب من الارض دون جانب أمر غير واجب بل الحق ان البحر ينتقل في مدد لا تضبطها التواريخ المنقولة من قرن الى قرن لان استمداد البحر في الاكثر من الانهار والانهار تستمد في الاكثر من العيون وأما مياه السماء فان حدوثها في فصل بعينه دون فصل ثم لا العيون ولا مياه السماء يجب ان يتشابه أحوالها في بقاع واحدة باعيانها تشابها مستمرا فان كثيرا من العيون يغور وكثيرا ما تقحط السماء فلا بد حينئذ من نضوب الاودية والانهار فيعرض بسبب ذلك نضوب البحار واذا حدثت العيون من جانب آخر حدثت الانهار هناك فحصلت البحار من ذلك الجانب ثم انه سبحانه لما بين انه هو المختص بالقدرة على خلق الارض التي فيها هذه المنافع الجليلة وجب أن يكون هو المختص بالالهية ونبه بقوله تعالى بل أكثرهم لا يعقلون على عظيم جهلهم بالذهاب عن هذا التفكر ﴿ (النوع الثالث) ما يتعلق باحتياج الخلق اليه سبحانه وهو قوله تعالى (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض أإله مع الله قليلا ما تذكرون) اعلم انه سبحانه نبه في هذه الآية على أمرين (أحدهما) قوله أمن يجيب المضطر اذا دعاه قال صاحب الكشاف الضرورة الحالة المحوجة الى الالتجاء والاضطرار افتعال منها يقال اضطره الى كذا والفاعل والمفعول مضطر واعلم ان المضطر هو الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر الى التضرع الى الله تعالى وعن السدي الذي لا حول له ولا قوة وقيل المذنب اذا استغفر ﴿ فان قيل قد عم المضطرين بقوله أمن يجيب المضطر اذا دعاه وكم من مضطر يدعو فلا يجاب ﴿ جوابه قد بينا في أصول الفقه ان المفرد المعرف لا يفيد العموم وانما يفيد الماهية فقط والحكم المثبت للماهية يكفي في صدقه ثبوته في فرد واحد من أفراد الماهية وأيضا فانه تعالى وعد بالاستجابة ولم يذكر انه يستجيب في الحال وتمام القول في شرائط الدعاء والاجابة مذكور في قوله تعالى وقال ربكم ادعوني أستجب لكم فاما قوله تعالى ويكشف السوء فهو كالتفسير للاستجابة فانه لا يقدر أحد على كشف ما دفع اليه من فقر الى غنى ومرض الى صحة وضيق الى سعة الا القادر الذي لا يعجز والقاهر الذي لا ينازع (وثانيهما) قوله ويجعلكم خلفاء الارض فالمراد توارثهم سكناها والتصرف فيها قرنا بعد قرن وأراد بالخلافة الملك والتسلط وقرئ يذكرون بالياء مع

محكمة بالغة وتدبير رصين (والق) عطف على بورك منتظم معه فى سلك تفسير النداء أى نودى أن بورك وأن
ألق (عصاك) حسبما نطق به قوله تعالى وأن ألق عصاك بتكرير حرف التفسير كما تقول كتبت اليه أن حج
وأن اعتمر وان شئت أن حج واعتمر والفاء ﴿٥٧٥﴾ فى قوله تعالى (فلما رآها تهتز) فصيحة تفصح عن جملة قد
حذفت ثقة بظهورها ودلالة على سرعة وقوع مضمونها كما فى قوله تعالى فلما رأينه أكبرنه بعد قوله تعالى اخرج عليهن كأنه قيل فألقاها فانقلبت حية تسعى فأبصرها فلما أبصرها متحركة بسرعة واضطراب وقوله تعالى (كأنها جان) أى حية خفيفة سريعة الحركة جملة حالية اما من مفعول رأى مثل تهتز كما أشير اليه أو ضمير تهتز على طريقة التداخل وقرئ جان على لغة من جد فى الهرب من التقاء الساكنين (ولى مدبرا) من الخوف (ولم يعقب) أى لم يرجع على عقبه من عقب المقاتل اذا كر بعد الفر وانما اعتراه الرعب لظنه أن ذلك لامر أريد به كما ينبئ عنه قوله تعالى (ياموسى لا تخف) أى من غيرى ثقة بى أو مطلقا لقوله تعالى (انى لا يخاف لدى المرسلون) فانه
يدل على نفى الخوف عنهم مطلقا لكن لا فى جميع الاوقات بل حين يوحى اليهم كوقت الخطاب فانهم حينئذ مستغرقون
فى مطالعة شؤن الله عزوجل لا يخطر ببالهم خوف من أحد أصلا وأما فى سائر الاحيان فهم أخوف الناس منه
سبحانه أو لا يكون لهم عندى سوء عاقبة ليخافوا منه (الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم) استثناء منقطع استدرك

الادغام وبالتاء مع الادغام وبالحذف وما مزيدة أى يذكرون تذكرا قليلا والمعنى نفى
التذكر والقلة تستعمل فى معنى النفى * (النوع الرابع) ما يتعلق أيضا باحتياج الخلق
ولكنه حاجة خاصة فى وقت خاص قوله تعالى (أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن
يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أاله مع الله تعالى الله عما يشركون) اعلم انه تعالى
نبه فى هذه الآية على امرين (الاول) قوله أمن يهديكم والمراد يهديكم بالنجوم
فى السماء والعلامات فى الارض اذا جن الليل عليكم مسافرين فى البر والبحر (الثانى)
قوله ومن يرسل الرياح فانه سبحانه هو الذى يحرك الرياح فتثير السحاب ثم تسوقه الى
حيث يشاء فان قيل لا نسلم انه تعالى هو الذى يحرك الرياح فان الفلاسفة قالت الرياح
انما تتولد عن الدخان وليس الدخان كله هو الجسم الاسود المرتفع مما احترق بالنار بل
كل جسم أرضى يرتفع بتصعيد الحرارة سواء كانت الحرارة حرارة النار أو حرارة
الشمس فهو دخان قالوا وتولد الرياح من الادخنة على وجهين أحدهما أكثرى والآخر
أقلى أما الاكثرى فهو انه اذا صعدت أدخنة كثيرة الى فوق فعند وصولها الى الطبقة
الباردة اما أن ينكسر حرها ببرد ذلك الهواء أو لا ينكسر فان انكسر فلا محالة يثقل
وينزل فيحصل من نزولها تموج الهواء فتحدث الريح وان لم تنكسر حرها ببرد ذلك
الهواء فلا بد وأن تتصاعد الى أن تصل الى كرة النار المتحركة بحركة الفلك وحينئذ
لا تتمكن من الصعود بسبب حركة النار فترجع تلك الادخنة وتصير ريحا لا يقال لو كان
اندفاع هذه الادخنة بسبب حركة الهواء العالى لما كانت حركتها الى أسفل بل الى جهة
حركة الهواء العالى لانا نقول الجواب من وجهين (أحدهما) انه ربما أوجبت هيئة
صعود تلك الادخنة وهيئة لحوق المادة بها أن يتحرك الى خلاف جهة المتحرك المانع
كالسهم يصيب جسما متحركا فيعطفه تارة الى جهته ان كان الحابس كما يقدر على صرف
المتحرك عن متوجهه يقدر أيضا على صرفه الى جهة حركة نفسه وتارة الى خلاف تلك
الجهة اذا كان المفارق يقدر على الحبس ولا يقدر على الصرف (الثانى) انه ربما كان
صعود بعض الادخنة من تحت مانعا للادخنة النازلة من فوق الى أن تتسفل فلاجل
هذا السبب يتحرك الى سائر الجوانب واعلم ان لاهل الاسلام ههنا مقامين (الاول)
أن يقيم الدلالة على فساد هذه العلة وبيانه من وجهين (الاول) ان الاجزاء الدخانية
أرضية فهى أثقل من الاجزاء البخارية المائية ثم ان البخار لما يبرد ينزل على الخط
المستقيم مطرا فالدخان لما برد فلماذا لم ينزل على الخط المستقيم بل ذهب يمنة ويسرة
(الثانى) ان حركة تلك الاجزاء الى أسفل طبيعية وحركتها يمنة ويسرة عرضية والطبيعية
أقوى من العرضية واذا لم يكن أقوى فلا أقل من المساواة ثم أن الريح عند حركتها يمنة
ويسرة ربما تقوى على قلع الاشجار ورمى الجدار بل الجبال فتلك الاجزاء الدخانية عند
ما تحركت حركتها الطبيعية التى لها وهى الحركة الى السفل وجب أن تهدم السقف

ولكنا نرى الغبار الكثير ينزل من الهواء و يسقط على السقف ولا يحس بنزوله فضلا عن أن يهدمه فثبت فساد ما ذكروه (المقام الثانى) هب ان الامر كما ذكروه ولكن الاسباب الفاعلية والقابلية لها مخلوقة لله سبحانه وتعالى فانه لولا الشمس وتأثيرها فى تصعيد الابخرة والادخنة ولولا طبقات الهواء والا لما حدثت هذه الامور ومعلوم ان من وضع أسبابا فأدته الى منافع عجيبة وحكم بالغة فذلك الواضع هو الذى فعل تلك المنافع فعلى جميع الاحوال لابد من شهادة هذه الامور على مدبر حكيم واجب لذاته قطعا للسلسلة الحاجات * (النوع الخامس) ما يتعلق بالحشر والنشر قوله تعالى (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) اعلم انه تعالى لما عدد نعم الدنيا أتبع ذلك بنعم الآخرة بقوله أمن يبدأ الخلق ثم يعيده لان نعم الآخرة بالثواب لا تتم الا بالاعادة بعد الابتداء والابلاغ الى حد التكليف فقد تضمن الكلام كل هذه النعم ومعلوم انها لا تتم الا بالارزاق فلذلك قال ومن يرزقكم من السماء والارض ثم قال أإله مع الله منكرا لما هم عليه ثم بين بقوله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين أن لا برهان لكم فاذن هم مبطلون وهذا يدل على انه لابد فى الدعوى من البرهان وعلى فساد التقليد * فان قيل كيف قيل لهم أمن يبدأ الخلق ثم يعيده وهم منكرون للاعادة * جوابه كانوا معترفين بالابتداء ودلالة الابتداء على الاعادة دلالة ظاهرة قوية فلما كان الكلام مقرونا بالدلالة الظاهرة صاروا كأنهم لم يبق لهم عذر فى الانكار وههنا آخر الدلائل المذكورة على كمال قدرة الله تعالى * قوله تعالى (قل لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله وما يشعرون أيان يبعثون بل ادرك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون) اعلم انه تعالى لما بين انه المختص بالقدرة فكذلك بين انه المختص بعلم الغيب واذا ثبت ذلك ثبت انه هو الاله المعبود لان الاله هو الذى يصح منه مجازاة من يستحق الثواب على وجه لا يلتبس بأهل العقاب * فان قيل الاستثناء حكمه اخراج ما لولاه لوجب أو لصح دخوله تحت المستثنى منه ودلت الآية ههنا على استثناء الله سبحانه وتعالى عن من فى السموات والارض فوجب كونه ممن فى السموات والارض وذلك يوجب كونه تعالى فى المكان * والجواب هذه الآية متروكة الظاهر لان من قال انه تعالى فى المكان زعم انه فوق السموات ومن قال انه ليس فى مكان فقد نزهه عن كل الامكنة فثبت بالاجماع انه تعالى ليس فى السموات والارض فاذن وجب تأويله فنقول انه تعالى ممن فى السموات والارض كما يقول المتكلمون الله تعالى فى كل مكان على معنى ان علمه فى الاماكن كلها * لا يقال ان كونه فى السموات والارض مجاز وكونهم فيهن حقيقة وارادة المتكلم بعبارة واحدة حقيقة ومجازا غير جائزة لانا نقول كونهم فى السموات والارض كما أنه حاصل حقيقة وهو حصول ذواتهم فى تلك الاحياز فكذلك حاصل مجازا وهو كونهم عالمين بتلك الامكنة فاذا حملنا هذه الغيبة

بمعاصى يختلج فى الخلد من نفى الخوف عن كلهم مع أن منهم من فرطت منه صغيرة ما مما يجوز صدوره عن الانبياء عليهم الصلاة والسلام فانهم وان صدر عنهم شئ من ذلك فقد فعلوا عقيبه ما يبطله و يستحقون به من الله تعالى مغفرة ورحمة وقد قصد به التعريض بما وقع من موسى عليه الصلاة والسلام من وكزه القبطى والاستغفار وتسميتها ظلما قوله عليه الصلاة والسلام رب انى ظلمت نفسى فاغفرلى فغفر له (وأدخل يدك فى جيبك) لانه كان مدرعة صوف لاكم لها وقيل الجيب القميص لانه يجاب أى يقطع (تخرج بيضاء من غير سوء) أى آفة كبرص ونحوه (فى تسع آيات) فى جملتها أو معها على أن التسع هى الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجدب فى بواديهم والنقصان فى مزارعهم ولمن عد العصا واليد من التسع أن يعد الاخيرين واحدا ولا يعد الفلق منها لانه لم يبعث به الى فرعون أو اذهب فى تسع آيات على أنه استئناف بالارسال فيتعلق به (الى فرعون وقومه) وعلى الاولين يتعلق بنحو مبعوثا أو مرسلا (انهم كانوا قوما فاسقين) تعليل للارسال أى خارجين عن الحد فى الكفر والعدوان (فلما جاءتهم آياتنا) وظهرت على يد موسى

(مبصرة) بينة اسم فاعل أطلق على المفعول اشعارا بانها لفرط وضوحها وانارتها
أوذات تبصر من حيث انها تهدي والعمى لاتهتدي فضلا عن الهداية أومبصرة كل من ينظر اليها ويتأمل فيها وقرئ
مبصرة أي مكانا يكثر فيه التبصر (قالوا هذا سحر مبين) واضح سحريته (وجحدوا بها) أى كذبوا بها
(واستيقنتها أنفسهم) الواو للحال أى وقد استيقنتها أى علمتها أنفسهم علما يقينيا (ظلما) أى للآيات كقوله تعالى بما كانوا بآياتنا يظلمون واقد ظلموا بها أى ظلم حيث حطوها عن رتبتها العالية وسموها سحرا وقيل ظلما لانفسهم وليس بذاك (وعلوا) أى استكبارا عن الايمان بها كقوله تعالى والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها وانتصابهما اما على العلة من جحدوا بها أو على الحالية من فاعله أى جحدوا بها ظالمين لها مستكبرين عنها (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) من الاغراق على الوجه الهائل الذى هو عبرة للعالمين وانما لم يذكر تذنيبها على أنه عرضة لكل ناظر مشهور فيما بين كل باد وحاضر (ولقد آتينا داود وسليمان علما) كلام مستأنف مسوق لتقرير ماسبق من أنه عليه الصلاة والسلام يلقى القرآن من لدن حكيم عليم فان
قصتهما عليهما الصلاة والسلام من جملة القرآن الكريم لقيه عليه الصلاة والسلام من لدنه تعالى
كقصة موسى عليه السلام وتصديره بالقسم لاظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه أى آتينا كل واحد منهما طائفة من العلم
لائقة به من العلم الشرائع والاحكام وغير ذلك مما يختص بكل منهما كصنعة

على المعنى المجازى وهو السكون فيها بمعنى العلم دخل الرب سبحانه وتعالى والعبيد فيه فصح
الاستثناء أما قوله وما يشعرون فهو صفة لاهل السموات والارض نفى أن يكون لهم علم
الغيب وذكر فى جملة الغيب متى البعث بقوله أيان يبعثون فأيان بمعنى متى وهى كلمة مركبة
من أى والآن وهو الوقت وقرئ ايان بكسر الهمزة أما قوله بل أدرك علمهم فى الآخرة
فاعلم ان كلام صاحب الكشاف فيه مرتب على ثلاثة ابحاث (البحث الاول) فيه اثنتا
عشرة قراءة بل ادرك بل ادرك بل ادارك بل تدارك بل أأدرك بهمزتين بل آأدرك بألف
بينهما بل آدرك بالتخفيف والنقل بل ادرك بفتح اللام وتشديد الدال وأصله بل أدرك
على الاستفهام بلى ادرك بلى أأدرك أم تدارك أم أدرك (البحث الثانى) ادارك أصله
تدارك فأدغمت التاء فى الدال وادرك افتعل (البحث الثالث) معنى أدرك علمهم انتهى
وتكامل وادرك تتابع واستحكم ثم فيه وجوه (أحدها) ان أسباب استحكام العلم
وتكامله بان القيامة كائنة لاريب فيها قد حصلت لهم ومكنوا من معرفتها وهم شاكون
جاهلون وذلك قوله بل هم فى شك منها بل هم منها عمون يريد المشركين ممن فى السموات
والارض لانهم لما كانوا من جملتهم نسب فعلهم الى الجميع كما يقال بنو فلان فعلوا كذا
وانما فعله ناس منهم * فان قيل الآية سبقت لاختصاص الله تعالى بعلم الغيب وان
العباد لاعلم لهم بشئ منه وان وقت بعثهم ونشورهم من جملة الغيب وهم لايشعرون به
فكيف ناسب هذا المعنى وصف المشركين بانكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم
والتمكن من المعرفة * والجواب كأنه سبحانه قال كيف يعلمون الغيب مع انهم شكوا
فى ثبوت الآخرة التى دلت الدلائل الظاهرة القاهرة عليها فمن غفل عن هذا الشئ
الظاهر كيف يعلم الغيب الذى هو أخفى الاشياء (الوجه الثانى) ان وصفهم باستحكام
العلم تهكم بهم كما تقول لأجهل الناس ما أعلمك على سبيل الهزء وذلك حيث شكوا فى
اثبات ما الطريق اليه واضح ظاهر (الوجه الثالث) أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفنى
من قولك أدركت الثمرة لان تلك غايتها التى عندها تعدم وقد فسره الحسن باضمحل علمهم
وتدارك من تدارك بنو فلان اذا تتابعوا فى الهلاك أما وجه قراءة من قرأ بل أأدرك على
الاستفهام فهو انه استفهام على وجه الانكار لادراك علمهم وكذا من قرأ أم أدرك وأم
تدارك لانها أم هى التى بمعنى بل والهمزة وأما من قرأ بلى أدرك فانه لما جاء ببلى بعد قوله
وما يشعرون كان معناه بلى يشعرون ثم فسر الشعور بقوله أدرك علمهم فى الآخرة
على سبيل التهكم الذى معناه المبالغة فى نفى العلم فكأنه قال شعورهم بوقت الآخرة أنهم
لايعلمون كونها فيرجع الى نفى الشعور على أبلغ مايكون وأما من قرأ بلى أدرك على
الاسفهام فمعناه بلى يشعرون متى يبعثون ثم أنكر علمهم بكونها واذا أنكر علمهم بكونها
لم يتحصل لهم شعور بوقت كونها * فان قلت هذه الاضرابات الثلاث ما معناها قلت
ماهى الابيان درجاتهم وصفهم أولا بانهم لايشعرون وقت البعث ثم بانهم لايعلمون ان

القيامة كائنة ثم بانهم يخبطون فى شك ومرية ثم بما هو أسوأ حالا وهو العمى وفيه نكتة
وهى انه تعالى جعل الآخرة مبدأ عماهم فلذلك عداه بمن دون عن لان الكفر بالعاقبة
والجزاء هو الذى جعلهم كالبهائم * قوله تعالى (وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا
أئنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ان هذا الا أساطير الاولين قل سيروا
فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما
يمكرون ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين قل عسى أن يكون ردف لكم بعض
الذى تستعجلون وان ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون وان ربك
ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وما من غائبة فى السماء والارض الا فى كتاب مبين)
اعلم أنه سبحانه لما تكلم فى حال المبدأ تكلم بعده فى حال المعاد وذلك لان الشك فى المعاد
لا ينشأ الا من الشك فى كمال القدرة أو فى كمال العلم فاذا ثبت كونه تعالى قادرا على كل
الممكنات وعالما بكل المعلومات ثبت انه تعالى يمكنه تمييز اجزاء بدن كل واحد من المكلفين
عن اجزاء بدن غيره وثبت انه قادر على أن يعيد التركيب والحياة اليها واذا ثبت امكان
ذلك ثبت صحة القول بالحشر فلما بين الله تعالى هذين الاصلين فيما قبل هذه الآية لا جرم
لم يحكه فى هذه الآية فحكى عنهم انهم تعجبوا من اخراجهم أحياء وقد صاروا ترابا
وطعنوا فيه من وجهين (الاول) قولهم لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا اى هذا كلام كما قيل
لنا فقد قيل لمن قبلنا ولم يظهر له أثر فهو اذن من أساطير الاولين يريدون ما لا يصح من
الاخبار * فان قيل ذكر ههنا لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا وفى آية أخرى لقد وعدنا نحن
وآباؤنا هذا فما الفرق قلنا التقديم دليل على ان المقدم هو المقصود الاصلى وان الكلام
سيق لاجله ثم انه سبحانه لما كان قد بين الدلالة على هذين الاصلين ومن الظاهر ان
كل من أحاط بهما فقد عرف صحة الحشر والنشر ثبت انهم أعرضوا عنها ولم يتأملوها
وكان سبب ذلك الاعراض حب الدنيا وحب الرياسة والجاه وعدم الانقياد للغير لا جرم
اقتصر على بيان ان الدنيا فانية زائلة فقال قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة
المجرمين وفيه سؤالان (السؤال الاول) لم لم يقل كيف كانت عاقبة المجرمين جوابه لان
تأنيثها غير حقيقى ولان المعنى كيف كان آخر أمرهم (السؤال الثانى) لم لم يقل عاقبة
الكافرين جوابه الغرض ان يحصل التخويف لكل العصاة ثم انه تعالى صبر رسوله على
ما يناله من هؤلاء الكفار فقال ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون فجمع بين
ازالة الغم عنه بكفرهم وبين ازالة الخوف من جانبهم وصار ذلك كالتكفل بنصرته عليهم
وقوله ولا تكن فى ضيق أى فى حرج قلب يقال ضاق الشئ ضيقا وضيقا بالفتح والكسر
والضيق تخفيف الضيق ويجوز ان يراد فى امر ضيق من مكرهم (الوجه الثانى) للكفار
قولهم متى هذا الوعد وقوله ان كنتم صادقين دل على انهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية

...يرا (وقالا) اى قال كل واحد منهما شكرا لما أوتيه من العلم (الحمد لله الذى فضلنا)
بما آتانا من العلم (على كثير من عباده المؤمنين) على ان عبارة كل منهما فضلنى الا أنه عبر عنهما عند الحكاية بصيغة
المتكلم مع الغير ايجازا فان حكاية الاقوال المتعددة سواء كانت صادرة عن المتكلم أو عن غيره بعبارة
جامعة للكل مما ليس
بعزيز ومن الاول قوله
تعالى يا أيها الرسل كلوا
من الطيبات واعملوا
صالحا وقد مر فى سورة
قد أفلح المؤمنون وبهذا
ظهر حسن موقع العطف
بالواو واذ المتبادر من
العطف بالفاء ترتب حمد
كل منهما على ايتاء
ما أوتى كل منهما لا على
ايتاء ما أوتى نفسه فقط
وقيل فى العطف بالواو
اشعار بأن ما قالاه بعض
ما أحدث فيهما ايتاء
العلم وشئ من مواجبه
فأضمر ذلك ثم عطف
عليه التحميد كأنه قيل
ولقد آتيناهما علما فعملا
به وعلماه وعرفا حق
النعمة فيه وقالا الحمد لله
الآية فتأمل والكثير
المفضل عليه من لم يؤت
مثل علمهما وقيل من
لم يؤت علما ويأباه
تبيين الكثير بالمؤمنين
فان خلوهم من العلم
بالمرة مما لا يمكن وفى
تخصيصهما الاكثر
بالذكر رمز الى أن
البعض مفضلون عليهما
وفيه أوضح دليل على
فضل العلم وشرف اهله حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل ولم يعتبرا دونه ما أوتيا
من الملك الذى لم يؤته غيرهما وتحريض للعلماء على أن يحمدوا الله تعالى على ما آتاهم من فضله ❊ فاجاب ❊

فأجاب الله تعالى بقوله عسى ان يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون وهو عذاب يوم بدر فزيدت اللام للتاكيد كالباء فى ولا تلقوا بأيديكم اوضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو دنا لكم وازف لكم ومعناه تبعكم ولحقكم وقرأ الاعرج ردف لكم بوزن ذهب وهما لغتان والكسر افصح وههنا بحثان (البحث الاول) ان عسى ولعل فى وعد الملوك ووعيدهم يدلان على صدق الامر وانما يعنون بذلك اظهار وقارهم وانهم لا يعجلون بالانتقام لوثوقهم بان عدوهم لا يفوتهم فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده (الثانى) انه قد ثبت بالدلائل العقلية ان عذاب الحجاب أشد من عذاب النار ولذلك قال كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم فقدم الحجاب على الجحيم ثم انهم كانوا محجوبين فى الحال فكان سبب العذاب بكماله حاصلا الا ان الاشتغال بالدنيا ولذاتها كالعائق عن ادراك ذلك الالم كما ان العضو الخدر اذا مسته النار فان سبب الالم حاصل فى الحال لكنه لا يحصل الشعور بذلك الألم لقيام العائق فاذا زال العائق عظم البلاء فكذا ههنا اذا زال البدن عظم عذاب الحجاب فقوله سبحانه عسى ان يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون يعنى المقتضى له والمؤثر فيه حاصل وتمامه انما يحصل بعد الموت ثم انه سبحانه بين السبب فى ترك تعجيل العذاب فقال وان ربك لذو فضل على الناس والفضل الافضال ومعناه انه متفضل عليهم بتأخير العقوبة واكثرهم لا يعرفون هذه النعمة ولا يشكرونها وهذه الآية تبطل قول من قال انه لا نعمة لله على الكفار ثم بين سبحانه انه مطلع على ما فى قلوبهم فقال وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وههنا بحث عقلى وهو انه قدم ما تكنه صدورهم على ما يعلنون من العلم * والسبب ان ما تكنه صدورهم هو الدواعى والقصود وهى اسباب لما يعلنون وهى افعال الجوارح والعلم بالعلة علة للعلم بالمعلول فهذا هو السبب فى ذلك التقديم قرئ تكن يقال كننت الشئ واكننته اذا سترته واخفيته يعنى انه تعالى يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة الرسول ومكايدهم اما قوله وما من غائبة فقال صاحب الكشاف سمى الشئ الذى يغيب ويخفى غائبة وخافية فكانت التاء فيهما بمنزلتها فى العاقبة والعافية والنطيحة والذبيحة والرمية فى انها اسماء غير صفات ويجوز ان يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة كالراوية فى قولهم ويل للشاعر من راوية السوء كانه تعالى قال وما من شئ شديد الغيبوبة والخفاء الا وقد علمه الله تعالى واحاط به وأثبته فى اللوح المحفوظ والمبين الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة ❋ قوله تعالى (ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل اكثر الذى هم فيه يختلفون وانه لهدى ورحمة للمؤمنين ان ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم فتوكل على الله انك على الحق المبين انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما انت بهادى العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) اعلم انه سبحانه لما تمم الكلام فى اثبات المبدأ

ويتواضعوا ويعتقدوا انهم وان فضلوا على كثير فقد فضل عليهم كثير ...

المؤمنين عمر رضى الله عنه كل الناس أفقه من عمر (وورث سليمان داود) أى النبوة والعلم أو الملك بأن قام مقامه فى ذلك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر (وقال) تشهيرا لنعمة الله تعالى وتنويها بها ودعاء للناس الى التصديق بذكر المعجزات الباهرة التى أوتيها (يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ) المنطق فى التعارف كل لفظ يعبر به عما فى الضمير مفردا كان أو مركبا وقد يطلق على كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد يقال نطقت الحمامة وكل صنف من أصناف الطير يتفاهم أصواته والذى علمه سليمان عليه السلام من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض من معانيه وأغراضه ويحكى أنه مر على بلبل فى شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لاصحابه أتدرون ما يقول قالوا الله ونبيه أعلم قال يقول اذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول ليت الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس فقال يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال يقول استغفروا الله يا مذنبين وصاح طيطوى فقال يقول كل حى ميت وكل جديد بال وصاح خطاف فقال يقول قدموا خيرا تجدوه وصاح قمرى فأخبر أنه يقول سبحان ربى الأعلى وصاحت رخمة فقال تقول سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وأرضه وقال الحدأة

والمعاد ذكر بعد ذلك ماتعلق بالنبوة ولما كانت العمدة الكبرى فى اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن لاجرم بين الله تعالى أولا كونه معجزة من وجوه (أحدها) ان الاقاصيص المذكورة فى القرآن موافقة لما كانت مذكورة فى التوراة والانجيل مع العلم بانه عليه الصلاة والسلام كان أميا وانه لم يخالط أحدا من العلماء ولم يشتغل قط بالاستفادة والتعلم فاذن لايكون ذلك الامن قبل الله تعالى واختلفوا فقال بعضهم أراد به مااختلفوا فيه وتباينوا وقال آخرون أراد به ماحرفه بعضهم وقال بعضهم بل أراد به اخبار الانبياء والاول أقرب (وثانيها) قوله وانه لهدى ورحمة للمؤمنين وذلك لان بعض الناس قال انا لما تأملنا القرآن فوجدنا فيه من الدلائل العقلية على التوحيد والحشر والنبوة وشرح صفات الله تعالى وبيان نعوت جلاله مالم نجده فى شئ من الكتب ووجدنا مافيه من الشرائع مطابقة للعقول موافقة لها ووجدناه مبرأ عن التناقض والتهافت فكان هدى ورحمة من هذه الجهات ووجدنا القوى البشرية قاصرة عن جمع كتاب على هذا الوجه فعلمنا انه ليس الامن عند الله تعالى فكان القران معجزا من هذه الجهة (وثالثها) انه هدى ورحمة للمؤمنين لبلوغه فى الفصاحة الى حيث عجزوا عن معارضته وذلك معجز ثم انه تعالى لما بين كونه معجزا دالا على الرسالة ذكر بعده أمرين (الاول) قوله ان ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم والمراد ان القرآن وان كان يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون لكن لاتكن أنت فى قيدهم فان ربك هو الذى يقضى بينهم أى بين المصيب والمخطئ منهم وذلك كالزجر للكفار فلذلك قال وهو العزيز أى القادر الذى لايمنع العليم بما يحكم فلايكون الا الحق فان قيل القضاء والحكم شئ واحد فقوله يقضى بحكمه كقوله يقضى بقضائه ويحكم بحكمه * والجواب معنى قوله بحكمه أى بما حكم به وهو عدله لانه لايقضى الا بالعدل أو أراد بحكمه ويدل عليه قراءة من قرأ بحكمه جمع حكمة (الثانى) انه تعالى أمره بعد ظهور حجة رسالته بان يتوكل على الله ولايلتفت الى أعداء الله ويشرع فى تمشية مهمات الرسالة بقلب قوى فقال فتوكل على الله ثم علل ذلك بأمرين (أحدهما) قوله انك على الحق المبين وفيه بيان ان المحق حقيق بنصرة الله تعالى وانه لايخذل (وثانيهما) قوله انك لاتسمع الموتى وانما حسن جعله سببا للامر بالتوكل وذلك لان الانسان مادام يطمع فى أحد أن يأخذ منه شيأ فانه لايقوى قلبه على اظهار مخالفته فاذا قطع طمعه عنه قوى قلبه على اظهار مخالفته فالله سبحانه وتعالى قطع محمدا صلى الله عليه وسلم عنهم بان بين له انهم كالموتى وكالصم وكالعمى فلايفهمون ولايسمعون ولايبصرون ولايلتفتون الى شئ من الدلائل وهذا سبب لقوة قلبه عليه الصلاة والسلام على اظهار الدين كما ينبغى فان قيل مامعنى قوله اذا ولوا مدبرين جوابه هو تاكيد لحال الاصم لانه اذا تباعد عن الداعى بان تولى عنه مدبرا كان أبعد عن ادراك صوته أما قوله تعالى ان تسمع الامن يؤمن بآياتنا

...تقول من سكت سلم والببغاء تقول ويل لمن الدنيا همه والديك يقول اذكروا الله ياغافلين والنسر يقول ياابن آدم عش ماشئت آخرك الموت والعقاب تقول فى البعد عن الناس أنس والضفدع يقول سبحان ربى القدوس وأراد عليه الصلاة والسلام بقوله علمنا وأوتينا بالنون التى يقال لها نون الواحد المطاع بيان حاله وصفته من كونه ملكا مطاعا لكن لاتجبرا وتكبرا بل تمهيد لما أراد منهم من حسن الطاعة والانقياد له فى أوامره ونواهيه حيث كان على عزيمة المسير وبقوله من كل شئ كثرة ماأوتيه كما يقال فلان يقصده أحد ويعلم كل شئ ويراد به كثرة قصاده وغزارة علمه ومثل قوله تعالى وأوتيت من كل شئ وقال ابن عباس رضى الله عنهما كل مايهمه من أمر الدنيا والاخرة وقال مقاتل يعنى النبوة والملك وتسخير الجن والانس والشياطين والريح (ان هذا) اشارة الى ماذكر من التعليم والايتاء (لهو الفضل) والاحسان من الله تعالى (المبين) الواضح الذى لايخفى على أحد أو ان هذا الفضل الذى أوتيه لهو الفضل المبين على أنه عليه الصلاة والسلام قاله على سبيل الشكر والمحمدة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولافخر أى أقول هذا القول شكرا لافخرا ولعله عليه الصلاة والسلام رتب على كلامه ذلك دعوة الناس الى الغزو فان أخبارهم بايتاء كل شئ من الاشياء التى

﴿ فالمعنى ﴾

من جملتها آلات الحرب وأسباب الغزو وما ينبئ عن ذلك فمعنى قوله تعالى (وحشر لسليمان جنوده) جمع له عساكره (من الجن والانس والطير) بمباشرة مخاطبيه فانهم كانوا رؤساء مملكته وعظماء دولته من الثقلين وغيرهم بتعميم الناس للكل تغليبا وتقديم الجن على الانس فى البيان للمسارعة الى الايذان بكمال قوة ملكه وعزة سلطانه من أول الامر لما أن الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة بعيدة من الحشر والتسخير (فهم يوزعون) أى يحبس أوائلهم على أواخرهم أى يوقف سلاف العسكر حتى يلحقهم التوالى فيكونوا مجتمعين لايتخلف منهم أحد وذلك للكثرة العظيمة ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف كما هو المعتاد فى العساكر وفيه اشعار بكمال مسارعتهم الى السير وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر دون سوق أواخرهم مع أن التلاحق يحصل بذلك أيضا لما أن أواخرهم غير قادرين على ما يقدر عليه أوائلهم من السير السريع وهذا اذا لم يكن سيرهم بتسيير الريح فى الجو روى أن معسكره عليه الصلاة والسلام كان مائة فرسخ فى مائة خمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للانس وخمسة وعشرون للطير وخمسة وعشرون للوحش وكان له عليه الصلاة والسلام ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوحة وسبعمائة سرية وقد نسجت له الجن بساطا من ذهب وابريسم فرسخا فى فرسخ وكان يوضع منبره فى وسطه وهو من ذهب فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسى

فالمعنى ما يجدى اسماعك الا الذين علم الله انهم يؤمنون بآياته أى يصدقون بها فهم مسلمون أى مخلصون من قوله بلى من أسلم وجهه لله يعنى جعله سالما لله تعالى خالصا له والله أعلم ❊ قوله تعالى (واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون حتى اذا جاؤا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أماذا كنتم تعملون ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) اعلم أن الله تعالى بين بالدلائل القاهرة كمال القدرة وكمال العلم ثم فرع عليهما القول بامكان الحشر ثم بين الوجه فى كون القرآن معجزا ثم فرع عليه نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثم تكلم الآن فى مقدمات قيام القيامة وانما أخر تعالى الكلام فى هذا الباب عن اثبات النبوة لما أن هذه الاشياء لا يمكن معرفتها الا بقول النبى الصادق وهذا هو النهاية فى جودة الترتيب واعلم أنه تعالى ذكر تارة ما يكون كالعلامة لقيام القيامة وتارة الامور التى تقع عند قيام القيامة فذكر أولا من علامات القيامة دابة الارض والناس تكلموا فيها من وجوه (أحدها) فى مقدار جسمها وفى الحديث ان طولها ستون ذراعا وروى أيضا ان رأسها تبلغ السحاب وعن أبى هريرة ما بين قرنيها فرسخ للراكب (وثانيها) فى كيفية خلقتها فروى لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان وعن ابن جريج فى وصفها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيل وصدر أسد ولون نمر وخاصرة بقر وذنب كبش وخف بعير (وثالثها) فى كيفية خروجها عن على عليه السلام انها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج الا ثلثها وعن الحسن لا يتم خروجها الا بعد ثلاثة أيام (ورابعها) فى موضع خروجها سئل النبى صلى الله عليه وسلم من أين تخرج الدابة فقال من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى المسجد الحرام وقيل تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية (وخامسها) فى عدد خروجها فروى انها تخرج ثلاث مرات تخرج بأقصى اليمن ثم تكمن ثم تخرج بالبادية ثم تكمن دهرا طويلا فبين الناس فى أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله فما يهولهم الا خروجها من بين الركن حذاء دار بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون وقوم يقفون (واعلم) انه لا دلالة فى الكتاب على شئ من هذه الامور فان صح الخبر فيه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل والا لم يلتفت اليه أما قوله تعالى واذا وقع القول عليهم فالمراد من القول متعلقه وهو ما وعدوا به من قيام الساعة ووقوعه حصوله والمراد مشارفة الساعة وظهور أشراطها أما دابة الارض فقد عرفتها وأما قوله تكلمهم فقرئ تكلمهم من الكلم وهو الجرح روى ان الدابة تخرج من الصفا ومعها عصى موسى عليه السلام وخاتم سليمان فتضرب المؤمن بين عينيه بعصى موسى عليه السلام فتنكت

من ذهب وفضة فيقعد الانبياء عليهم الصلاة والسلام على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة وحولهم الناس
وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير باجنحتها حتى لاتقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا البساط

نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة فى وجهه حتى يضئ لها وجهه وتنكت الكافر فى أنفه
فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه واعلم انه يجوز أن يكون تكلمهم من الكلم أيضا
على معنى التكثير يقال فلان مكلم أى مجرح وقرأ أبى تنبئهم وقرأ ابن مسعود تكلمهم
بان الناس والقراءة بان مكسورة حكاية لقول الدابة ذلك أوهى حكاية لقول الله تعالى
بين به انه أخرج الدابة لهذه العلة ✱ فان قيل اذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف يقول
باياتنا ✱ جوابه ان قولها حكاية لقول الله تعالى اوعلى معنى بآيات ربنا أولاختصاصها
بالله تعالى اضافت آيات الله الى نفسها كما يقول بعض خاصة الملك خيلنا وبلادنا وانما
هى خيل مولاه وبلاده ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار اى تكلمهم بان الناس كانوا
باياتنا لا يوقنون ✱ واما قوله ويوم نحشر من كل امة فوجا ممن يكذب باياتنا فاعلم ان هذا
من الامور الواقعة بعد قيام القيامة فالفرق بين من الاولى والثانية ان الاولى للتبعيض
والثانية للتبيين كقوله من الاوثان اما قوله فهم يوزعون معناه يحبس اولهم على اخرهم
حتى يجتمعوا فيكبكبوا فى النار وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد اطرافه كما وصفت
جنود سليمان بذلك وقوله حتى اذا جاؤا قال اكذبتم باياتى فهذا وان احتمل معجزات
الرسل كما قاله بعضهم فالمراد كل الآيات فيدخل فيه سائر الكفار الذين كذبوا بآيات
الله اجمع او بشئ منها اما قوله ولم تحيطوا بها علما فالواو للحال كأنه قال اكذبتم بها
بادى الرأى من غير فكر ولانظر يؤدى الى احاطة العلم بكنهها اما قوله أماذا كنتم تعملون
فالمراد لما لم تشتغلوا بذلك العمل المهم فاى شئ كنتم تعملونه بعد ذلك كأنه قال كل عمل
سواه فكأنه ليس بعمل ثم قال ووقع القول عليهم يريد ان العذاب الموعود يغشاهم
بسبب تكذيبهم بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله هذا يوم لاينطقون
ثم انه سبحانه بعد ان خوفهم باحوال القيامة ذكر كلاما يصلح أن يكون دليلا على التوحيد
وعلى الحشر وعلى النبوة مبالغة فى الارشاد الى الايمان والمنع من الكفر فقال ألم يروا انا
جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا اما وجه دلالته على التوحيد فلما ظهر فى العقول
ان التقليب من النور الى الظلمة ومن الظلمة الى النور لا يحصل الا بقدرة قاهرة عالية واما
وجه دلالته على الحشر فلانه لما ثبتت قدرته تعالى فى هذه الصورة على القلب من النور الى
الظلمة وبالعكس فأى امتناع فى ثبوت قدرته على القلب من الحياة الى الموت مرة
ومن الموت الى الحياة أخرى وأما وجه دلالته على النبوة فلانه تعالى يقلب الليل
والنهار لمنافع المكلفين وفى بعثة الانبياء والرسل الى الخلق منافع عظيمة فما المانع من
بعثتهم الى الخلق لاجل تحصيل تلك المنافع فقد ثبت ان هذه الكلمة الواحدة كافية
فى اقامة الدلالة على تصحيح الاصول الثلاثة التى منها منشأ كفرهم واستحقاقهم
العذاب ثم فى الآية سؤالان (السؤال الاول) ما السبب فى ان جعل الابصار للنهار وهو
لاهله جوابه تنبيها على كمال هذه الصفة فيه (السؤال الثانى) لما قال جعل لكم الليل
﴿ لتسكنوا

فتسير به مسيرة شهر
ويروى أنه كان يأمر
الريح العاصف تحمله
ويأمر الرخاء تسيره فأوحى
الله تعالى اليه وهو يسير
بين السماء والارض انى
قد زدت فى ملكك
لايتكلم أحد بشئ الا
ألقته الريح فى سمعك
فيحكى أنه مر بحراث
فقال لقد أوتى آل داود
ملكا عظيما فألقته الريح
فى أذنه فنزل ومشى الى
الحراث وقال انما مشيت
اليك لئلا تتمنى مالاتقدر
عليه ثم قال لتسبيحة
واحدة يقبلها الله تعالى
خير مما أوتى آل داود (حتى
اذا أتوا على وادى النمل)
حتى هى التى يبتدأ بها
الكلام ومع ذلك هى غاية
لماقبلها كالتى فى قوله
تعالى حتى اذا جاء أمرنا
وفار التنور قلنا احمل
الآية وهى ههنا غاية
لماينبئ عنه قوله تعالى
فهم يوزعون من السير
كأنه قيل فساروا حتى
اذا أتوا الخ ووادى النمل
واد بالشام كثير النمل على
ماقاله مقاتل رضى الله
عنه وبالطائف على ما
قاله كعب رضى الله عنه وقيل هو واد تسكنه الجن والنمل مراكبهم وتعدية الفعل اليه بكلمة على اما
لان اتيانهم كان من فوق واما لان المراد بالاتيان عليه قطعه من قولهم اتى على الشئ اذا أنفده وبلغ آخره ولعلهم
ارادوا أن ينزلوا عند

لتسكنوا فيه فلم يقل والنهار لتبصروا فيه جوابه لان السكون فى الليل هو المقصود من
الليل وأما الابصار فى النهار فليس هو المقصود بل وسيلة الى جلب المنافع الدينية
والدنيوية وأما قوله ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون خص المؤمنين بالذكر وان كانت
ادلة للكل من حيث اختصوا بالقبول والانتفاع على ماتقدم فى نظائره * قوله تعالى
(ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله وكل أتوه
داخرين) اعلم ان هذا هو العلامة الثانية لقيام القيامة أما قوله ويوم ينفخ فى الصور
ففيه وجوه (أحدها) انه شئ شبيه بالقرن وان اسرافيل عليه السلام ينفخ فيه باذن الله
تعالى فاذا سمع الناس ذلك الصوت وهو فى الشدة بحيث لا يحتمله طباعهم يفزعون عنده
ويصعقون ويموتون وهو كقوله تعالى فاذا نقر فى الناقور وهذا قول الاكثرين (وثانيها)
يجوز أن يكون تمثيلا لدعاء الموتى فان خروجهم من قبورهم كخروج الجيش عند سماع
صوت الآلة (وثالثها) ان الصور جمع الصورة وجعلوا النفخ فيها نفخ الروح والاول
أقرب لدلالة الظاهر عليه ولا مانع يمنع منه أما قوله ففزع من فى السموات ومن فى الارض
فاعلم انه انما قال ففزع ولم يقل فيفزع للاشعار بتحقيق الفزع وثبوته وانه كائن لا محالة
لان الفعل الماضى يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به والمراد فزعهم عند النفخة
الاولى أما قوله الا من شاء الله فالمراد الا من ثبت الله قلبه من الملائكة قالوا هم جبريل
وميكائيل واسرافيل وملك الموت وقيل الشهداء وعن الضحاك الحور وخزنة النار وحملة
العرش وعن جابر موسى منهم لانه صعق مرة ومثله قوله تعالى ونفخ فى الصور فصعق من
فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله وليس فيه خبر مقطوع والكتاب انما يدل
على الجملة أما قوله وكل أتوه داخرين فقرئ أتوه وأتاه ودخرين وداخرين فالجمع على المعنى
والتوحيد على اللفظ والداخر والدخر الصاغر وقيل معنى الاتيان حضورهم الموقف بعد
النفخة الثانية ويجوز أن يراد رجوعهم الى أمر الله وانقيادهم له * قوله تعالى
(وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شئ انه خبير
بما يفعلون) اعلم ان هذا هو العلامة الثالثة لقيام القيامة وهى تسيير الجبال والوجه
فى حسبانهم انها جامدة فلان الاجسام الكبار اذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد
فى السمت والكيفية ظن الناظر اليها انها واقفة مع انها تمر مرا حثيثا أما قوله صنع الله
فهو من المصادر المؤكدة كقوله وعد الله وصبغة الله الا أن مؤكده محذوف وهو
الناصب ليوم ينفخ والمعنى انه لما قدم ذكر هذه الامور التى لا يقدر عليها سواه جعل هذا
الصنع من جملة الاشياء التى أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب قال القاضى عبد
الجبار فيه دلالة على ان القبائح ليست من خلقه والا وجب وصفها بانها متقنة ولكن
الاجماع مانع منه والجواب ان الاتقان لا يحصل الا فى المركبات فيمتنع وصف الاعراض
بها والله أعلم * قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون

منتهى الوادى اذ حينئذ يخافهم مافى الارض لا عند سيرهم فى الهواء وقوله تعالى (قالت نملة) جواب اذا كأنها رأتهم
متوجهين الى الوادى ففرت منهم فصاحت صيحة تنبهت بها ما بحضرتها من النمل لمرادها فتبعها فى الفرار فشبه ذلك
بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم فاجروا مجراهم ﴿٥٨٣﴾ حيث جعلت هى قائلة وماعداها من النمل مقولا لهم حيث قيل
(يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) مع أنه لا يمتنع ان يخلق الله تعالى فيها النطق وفيما عداها العقل والفهم وقرئ نملة يا أيها النمل بضم الميم وهو الاصل كالرجل وتسكين الميم تخفيف منه كالسبع فى السبع وقرئ بضم النون والميم قيل كانت نملة عرجاء تمشى وهى تتكاوس فنادت بما قالت فسمع سليمان عليه السلام كلامها من ثلاثة أميال وقيل كان اسمها طاخية وقرئ مسكنكم وقوله تعالى (لا يحطمنكم سليمان وجنوده) نهى فى الحقيقة للنمل عن التأخر فى دخول مساكنهم وان كان بحسب الظاهر نهياله عليه الصلاة والسلام وجنوده عن الحطم كقولهم لا أرينك ههنا فهو استئناف أو بدل من الامر كقول من قال فقلت له ارحل لا تقيمن عندنا لاجواب له فان النون لا تدخله فى السعة وقرئ لا يحطمنكم بالنون الخفيفة وقرئ
لا يحطمنكم بفتح الحاء وكسرها وأصله لا يحتطمنكم وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) حال من فاعل يحطمنكم مفيدة
لتقييد الحطم بحال عدم شعورهم بمكانهم حتى لو شعروا بذلك لم يحطموا وأرادت بذلك الايذان بانها عارفة
بشؤن سليمان وسائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام

فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل انما أنا من المنذرين وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون) اعلم انه سبحانه وتعالى لما بين المبدأ والمعاد والنبوة ومقدمات القيامة وصفة أهل القيامة من الثواب والعقاب وذلك كمال ما يتعلق ببيان أصول الدين ختم الكلام بهذه الخاتمة اللطيفة فقال قل يا محمد انى أمرت بأشياء (الاول) انى أمرت أن اخص الله وحده بالعبادة ولا اتخذ له شريكا وان الله تعالى لما قدم دلائل التوحيد فكأنه أمر محمدا بان يقول لهم هذه الدلائل التى ذكرتها لكم ان لم تفد لكم القول بالتوحيد فقد أفادت لى ذلك فسواء قبلتم هذه الدعوة أو أعرضتم عنها فانى مصر عليها غير مرتاب فيها ثم انه وصف الله تعالى بأمرين (أحدهما) انه رب هذه البلدة والمراد مكة وانما اختصها من بين سائر البلاد باضافة اسمه اليها لانها أحب بلاده اليه وأكرمها عليه وأشار اليها اشارة تعظيم لها دالا على انها موطن نبيه ومهبط وحيه أما قوله الذى حرمها فقرئ التى حرمها وانما وصفها بالتحريم لوجوه (احدها) انه حرم فيها أشياء على من يحج (وثانيها) أن اللاجى اليها آمن (وثالثها) لا ينتهك حرمتها الا ظالم ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها وانما ذكر ذلك لان العرب كانوا معترفين بكون مكة محرمة وعلموا ان تلك الفضيلة ليست من الاصنام بل من الله تعالى فكأنه قال لما علمت وعلمتم انه سبحانه هو المتولى لهذه النعم وجب على ان أخصه بالعبادة (وثانيهما) وصف الله تعالى بقوله وله كل شئ وهذا اشارة الى ما تقدم من الدلائل المذكورة فى هذه السورة على التوحيد من كونه تعالى خالقا لجميع النعم فاجمل ههنا تلك المفصلات وهذا كمن أراد صفة بعض الملوك بالقوة فيعدد تلك التفاصيل ثم بعد التطويل يقول ان كل العالم له وكل الناس فى طاعته (الثانى) أمر بان يكون من المسلمين (الثالث) أمر بان يتلو القرآن عليهم لقد قام بكل ذلك صلوات الله عليه أتم قيام فمن اهتدى فى هذه المسائل الثلاث المتقدمة وهى التوحيد والحشر والنبوة فانما يهتدى لنفسه أى منفعة اهتدائه راجعة اليه ومن ضل فلا على وما أنا الا رسول منذر ثم انه سبحانه ختم هذه الخاتمة فى نهاية الحسن وهى قوله وقل الحمد لله على ما اعطانى من نعمة العلم والحكمة والنبوة أو على ما وفقنى من القيام باداء الرسالة وبالانذار سيريكم آياته القاهرة فتعرفونها لكن حين لا ينفعكم الايمان وما ربك بغافل عما تعملون لانه من وراء جزاء العاملين * والله أعلم * تم تفسير السورة والحمد لله رب العالمين * وصلاته على سيدنا محمد النبى الامى وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين * والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين

(سورة القصص مكية كلها الا قوله الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون الى قوله لا نبتغى الجاهلين وقيل الا آية وهى ان الذى فرض عليك القرآن الآية وهى سبع أو ثمان وثمانون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قيل انه عليه الصلاة والسلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره فوافى الحرم وأقام به ما شاء وكان يقرب كل يوم طول مقامه خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة ثم عزم على السير الى اليمن فخرج من مكة صباحا يؤم سهيلا فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضا حسناء أعجبته خضرتها فنزل ليتغدى ويصلى فلم يجد الماء وكان الهدهد قناقنه وكان يرى الماء من تحت الارض كما يرى الماء فى الزجاجة فيجيء الشياطين فيسلخونها كما يسلخ الاهاب ويستخرجون الماء فتفقده لذلك وقد كان حين نزل سليمان عليه السلام حلق الهدهد فرأى هدهدا واقعا فانحط اليه فوصف له ملك سليمان عليه السلام وما سخر له من كل شئ وذكر له صاحبه ملك بلقيس وأن تحت يدها اثنى عشر ألف قائد تحت يد كل قائد مائة ألف وذهب معه لينظر فما رجع الا بعد العصر وذلك قوله تعالى (فمكث غير بعيد) أى زمانا غير مديد وقرئ بضم الكاف وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان عليه السلام فنظر فاذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه ثم قال لسيد الطير وهو العقاب على به فارتفعت فنظرت فاذا هو مقبل فقصدته فناشدها الله وقال بحق الله الذى قواك وأقدرك على الا رحمتنى فتركته

وقالت ثكلتك أمك ان نبى الله قد حلف ليعذبنك قال وما استثنى قالت بلى قال أو ليأتينى بعذر مبين فلما قرب من سليمان عليه السلام أرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الارض تواضعا له فلما دنا منه أخذ عليه السلام برأسه فمده اليه فقال يا نبى الله اذكر وقوفك بين يدى الله

ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون الاما كنتم تعملون) اعلم انه تعالى لما تكلم فى علامات القيامة شرح بعد ذلك أحوال المكلفين بعد قيام القيامة والمكلف اما أن يكون مطيعا أوعاصيا أما المطيع فهو الذى جاء بالحسنة وله أمران (أحدهما) ان له ماهو خير منها وذلك هو الثواب ❊ فان قيل الحسنة التى جاء العبد بها يدخل فيها معرفة الله تعالى والاخلاص فى الطاعات والثواب انما هو الاكل والشرب فكيف يجوز ان يقال الاكل والشرب خير من معرفة الله جوابه من وجوه (أحدها) ان ثواب المعرفة النظرية الحاصلة فى الدنيا هى المعرفة الضرورية الحاصلة فى الآخرة ولذة النظر الى وجهه الكريم سبحانه وتعالى وقد دلت الدلائل على أن أشرف السعادات هى هذه اللذة ولولم تحمل الآية على ذلك لزم أن يكون الاكل والشرب خيرا من معرفة الله تعالى وانه باطل (وثانيها) ان الثواب خير من العمل من حيث ان الثواب دائم والعمل منقض ولان العمل فعل العبد والثواب فعل الله تعالى (وثالثها) فله خير منها أى له خير حاصل من جهتها وهو الجنة (السؤال الثانى) الحسنة لفظة مفردة معرفة وقد ثبت انها لاتفيد العموم بل يكفى فى تحققها حصول فرد واذا كان كذلك فلنحملها على أكمل الحسنات شأنا وأعلاها درجة وهو الايمان فلهذا قال ابن عباس من افراد الحسنة كلمة الشهادة وهذا يوجب القطع بان لايعاقب أهل الايمان ❊ جوابه ذلك الخير هو ان لايكون عقابه مخلدا (الامر الثانى) للمطيع هو انهم آمنون من كل فزع لا كما قال بعضهم ان أهوال القيامة تعم المؤمن والكافر فان قيل أليس انه تعالى قال فى أول الآية ففزع من فى السموات ومن فى الارض فكيف نفى الفزع ههنا جوابه ان الفزع الاول هو مالايخلو منه أحد عند الاحساس لشدة تقع وهول يفجأ من رعب وهيبة وان كان المحسن يأمن وصول ذلك الضرر اليه كما قيل يدخل الرجل بصدر هياب وقلب وجاب وان كانت ساعة اعزاز وتكرمة وأما الثانى فالخوف من العذاب ❊ أما قراءة من قرأ من فزع بالتنوين فهى تحتمل معنيين من فزع واحد وهو خوف العقاب وأما مايلحق الانسان من الهيبة والرعب عند مشاهدة الاهوال فلا ينفك منه أحد وفى الاخبار مايدل عليه ومن فزع شديد مفرط الشدة لايكتنهه الوصف وهو خوف النار وأمن يعدى بالجار و بنفسه كقوله تعالى أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله فهذا شرح حال المطيعين اما شرح حال العصاة فهو قوله ومن جاء بالسيئة قيل السيئة الاشراك وقوله فكبت وجوههم فى النار فاعلم انه يعبر عن الجملة بالوجه والرأس والرقبة فكأنه قيل فكبوا فى النار كقوله فكبكبوا و يجوز ان يكون ذكر الوجوه ايذانا بانهم يلقون على وجوههم فيها مكبوبين اما قوله هل تجزون الاما كنتم تعملون فيجوز فيه الالتفات وحكاية مايقال لهم عند الكب باضمار القول ❊ قوله تعالى (انما امرت ان اعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شئ وامرت ان اكون من المسلمين وان اتلو القرآن

من ... بهم من الحطم ... وقيل هو استئناف اى فهم سليمان ماقالته والقوم لايشعرون بذلك (فتبسم ضاحكا من قولها) تعجبا من حذرها واهتدائها الى تدبير مصالحها ومصالح بنى نوعها وسرورا بشهرة حاله وحال جنوده فى باب التقوى والشفقة فيمابين أصناف المخلوقات التى هى أبعدها من ادراك أمثال هذه الامور وابتهاجا بما خصه الله تعالى به من ادراك همسها وفهم مرادها روى أنها أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم فى الهواء فأمر سليمان عليه السلام الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى دخلن مساكنهن (وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك) أى اجعلنى ازع شكر نعمتك عندى واكفه وأرتبطه بحيث لاينقلب عنى حتى لا أنفك عن شكرك أصلا وقرئ بفتح ياء أوزعنى (التى أنعمت على وعلى والدى) أدرج فيه ذكرهما تكثيرا للنعمة فان الانعام عليهما انعام عليه مستوجب للشكر (وأن أعمل صالحا ترضاه) اتماما للشكر واستدامة للنعمة (وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) فى جملتهم الجنة التى هى دار الصالحين (وتفقد الطير) أى تعرف أحوال الطير فلم ير الهدهد فيما بينها (فقال مالى لاأرى الهدهد أم كان من الغائبين) كأنه قال أولا مالى لا أراه لساتر ستره أو لسبب آخر ثم بدا له أنه غائب فأضرب عنه فأخذ يقول أهو غائب (لاعذبنه عذابا شديدا) قيل كان تعذيبه للطير ❊ ف اهتدى ❊ بنتف ريشه وتشميسه وقيل بجعله مع ضده فى قفص وقيل بالتفريق بينه و بين الفه (أو لاذبحنه) ليعتبر به أبناء جنسه (أو ليأتينى بسلطان مبين) بحجة تبين عذره والحلف فى الحقيقة على أحد الاولين على تقدير عدم الثالث وقرئ ليأتيننى بنونين أولاهما مفتوحة مشددة

(طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم انه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) اعلم ان قوله تعالى طسم كسائر الفواتح وقد تقدم القول فيها وتلك اشارة الى آيات السورة والكتاب المبين هو اما اللوح واما الكتاب الذى وعد الله انزاله على محمد صلى الله عليه وسلم فبين أن آيات هذه السورة هى آيات ذلك الكتاب ووصفه بأنه مبين لانه بين فيه الحلال والحرام أولانه يبين بفصاحته أنه من كلام الله دون كلام العباد أولانه يبين صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أولانه يبين خبر الاولين والآخرين أولانه يبين كيفية التخلص عن شبهات أهل الضلال أما قوله تعالى نتلو عليك أى على لسان جبريل عليه السلام لانه كان يتلو على محمد حتى يحفظه وقوله من نبأ موسى وفرعون فهو مفعول نتلو عليك أى نتلو عليك بعض خبرهما بالحق محقين كقوله تنبت بالدهن وقوله لقوم يؤمنون فيه وجهان (أحدهما) انه تعالى قد أراد بذلك من لا يؤمن أيضا لكنه خص المؤمنين بالذكر لانهم قبلوا وانتفعوا فهو كقوله هدى للمتقين (والثانى) يحتمل انه تعالى علم أن الصلاح فى تلاوته هو ايمانهم وتكون ارادته لمن لا يؤمن كالتبع قوله تعالى ان فرعون علا فى الارض قرئ فرعون بضم الفاء وكسرها والكسر أحسن وهو كالقسطاس والقسطاس علا استكبر وتجبر وتعظم وبغى والمراد به قوة الملك والعلو فى الارض يعنى أرض مملكته ثم فصل الله تعالى بعض ذلك بقوله وجعل أهلها شيعا أى فرقا يشيعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك أحد منهم مخالفته أو يشيع بعضهم بعضا فى استخدامه أو أصنافا فى استخدامه أو فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة ليكونوا له اطوع أو المراد ما فسره بقوله يستضعف طائفة منهم أى يستخدمهم ويذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم فهذا هو المراد بالشيع * قوله يستضعف طائفة منهم تلك الطائفة بنو اسرائيل وفى سبب ذبح الابناء وجوه (أحدها) ان كاهنا قال له يولد مولود فى بنى اسرائيل فى ليلة كذا يذهب ملكك على يده فولد تلك الليلة اثنا عشر غلاما فقتلهم وعند أكثر المفسرين بقى هذا العذاب فى بنى اسرائيل سنين كثيرة قال وهب قتل القبط فى طلب موسى عليه السلام تسعين ألفا من بنى اسرائيل قال بعضهم فى هذا دليل على حمق فرعون فانه ان صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن وان كذب فما وجه القتل وهذا السؤال قد يذكر فى تزييف علم الاحكام من علم النجوم ونظيره ما يقوله نفاة التكليف ان كان زيد فى علم الله وفى قضائه من السعداء فلا حاجة الى الطاعة وان كان من الاشقياء فلا فائدة فى الطاعة وأيضا فهذا السؤال لو صح لبطل علم التعبير ومنفعته وأيضا فجواب المنجم ان

تعالى فاربعد سليمان عليه السلام وعفا عنه ثم ساله (فقال احطت بما لم تحط به) اى علما ومعرفة وحفظته من جميع جهاته وقرئ أحطت بادغام الطاء فى التاء باطباق وبغير اطباق ولا خفاء فى أنه لم يرد بما ادعى الاحاطة به ما هو من حقائق العلوم ودقائق المعارف التى تكون معرفتها والاحاطة بها من وظائف أرباب العلم والحكمة لتوقفها على علم رصين وفضل مبين حتى يكون اثباتها لنفسه بين يدى نبى الله سليمان عليه السلام تعديا عن طوره وتجاوزا عن دائرة قدره ونفيها عنه عليه الصلاة السلام جناية على جناية فيحتاج الى الاعتذار عنه بأن ذلك كان منه بطريق الالهام فكافحه عليه الصلاة والسلام بذلك مع ما أوتى عليه الصلاة والسلام من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والاحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له عليه الصلاة والسلام فى علمه وتنبيها على أن فى أدنى خلقه تعالى وأضعفهم من أحاط علما بما لم يحط به لتتحاقر اليه نفسه ويتصاغر اليه علمه ويكون لطفا له فى ترك الاعجاب الذى هو فتنة العلماء بل أراد به ما هو من الامور المحسوسة التى لا تعد الاحاطة بها فضيلة ولا الغفلة عنها نقيصة لعدم توقف ادراكها الا على مجرد احساس يستوى فيه العقلاء وغيرهم وقد علم أنه عليه الصلاة والسلام لم يشاهده ولم يسمع خبره من غيره قطعا فعبر عنه بما ذكر لترويج كلامه عنده عليه الصلاة والسلام وترغيبه فى الاصغاء الى اعتذاره واستمالة قلبه نحو قبوله فان النفس للاعتذار المنبئ عن أمر بديع أقبل والى تلقى ما لا تعلمه أميل ثم أيده بقوله (وجئتك من سبأ بنبأ يقين) حيث فسر ابهامه نوع تفسير وأراه عليه الصلاة والسلام أنه

كان بصدد أقامة خدمة مهمة له حيث عبر عما جاء به بالنبا الذي هو الخبر الخطير والشان الكبير ووصفه بما وصفه والا فاذا صدر عنه عليه الصلاة والسلام مع ماحكى عنه من الحمد والشكر واستدعاء الايزاع حتى يليق بالحكمة الالهية تنبيهه عليه الصلاة والسلام على تركه وسبأ منصرف على أنه اسم لحي سموا باسم أبيهم الاكبر وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ﴿٥٨٧﴾ قالوا اسمه عبد شمس لقب به لكونه أول من سبي وقرئ بفتح الهمزة غير منصرف على أنه اسم للقبيلة ثم سميت مدينة مأرب بسبأ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث وعلى هذه القراءة يجوز أن يراد به القبيلة والمدينة وأما على القراءة الاولى فالمراد هو الحي لاغير وعدم وقوف سليمان عليه السلام على نبئهم قبل انباء الهدهد ليس بأمر بديع لابد له من حكمة داعية اليه البتة وان استحال خلو أفعاله تعالى من الحكم والمصالح لما أن المسافة بين محطه عليه الصلاة والسلام وبين مأرب وان كانت قصيرة لكن مدة مابين نزوله عليه الصلاة والسلام هناك وبين مجيء الهدهد بالخبر أيضا قصيرة نعم اختصاص الهدهد بذلك مع كون الجن أقوى منه مبني على حكم بالغة يستأثر بها علام الغيوب وقوله تعالى (انى

النجوم دلت على انه يولد ولد لولم يقتل لصار كذا وكذا وعلى هذا التقدير لايكون السعي في قتله عبثا واعلم ان هذا الوجه ضعيف لان اسناد مثل هذا الخبر الى الكاهن اعتراف بأنه قد يخبر عن الغيب على سبيل التفصيل ولوجوزناه لبطلت دلالة الاخبار عن الغيب على صدق الرسل وهو باجماع المسلمين باطل (وثانيها) وهو قول السدي ان فرعون رأى في منامه ان نارا أقبلت من بيت المقدس واشتملت على مصر فاحرقت القبط دون بني اسرائيل فسأل عن رؤياه فقالوا يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو اسرائيل منه رجل يكون على يده هلاك مصر فأمر بقتل الذكور (وثالثها) ان الانبياء الذين كانوا قبل موسى عليه السلام بشروا بمجيئه وفرعون كان قد سمع ذلك فلهذا كان يذبح أبناء بني اسرائيل وهذا الوجه هو الاولى بالقبول قال صاحب الكشاف يستضعف حال من الضمير في وجعل أو صفة لشيعا أو كلام مستأنف و يذبح بدل من يستضعف وقوله انه كان من المفسدين يدل على ان ذلك القتل ما حصل منه الا الفساد وأنه لا أثر له في دفع قضاء الله تعالى اما قوله ونريد أن نمن فهو جملة معطوفة على قوله ان فرعون علا في الارض لانها نظيرة تلك في وقوعها تفسيرا لنبأ موسى عليه السلام وفرعون واقتصاصا له واللفظ في قوله ونريد للاستقبال ولكن أريد به حكاية حال ماضية ويجوز أن يكون حالا من يستضعف أي يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم فان قيل كيف يجتمع استضعافهم وارادة الله تعالى المن عليهم واذا أراد الله شيأ كان ولم يتوقف الى وقت آخر قلنا لما كانت منة الله عليهم بتخليصهم من فرعون قريبة الوقوع جعلت ارادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم أما قوله ونجعلهم أئمة أي متقدمين في الدنيا والدين وعن مجاهد دعاة الى الخير وعن قتادة ولاة كقوله وجعلكم ملوكا ونجعلهم الوارثين يعني لملك فرعون وأرضه وما في يده اما قوله ونمكن لهم في الارض فاعلم انه يقال مكن له اذا جعل له مكانا يقعد عليه فوطأه ومهده ونظيره أرض له ومعنى التمكين لهم في الارض وهي أرض مصر والشام ان ينفذ أمرهم ويطلق أيديهم وقوله ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون قرئ ويرى فرعون وهامان وجنودهما أي يرون منهم ماكانوا خائفين منه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود بني اسرائيل ✽ قوله تعالى (وأوحينا الى ام موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين وقالت امرأت فرعون قرت عين لي ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا او نتخذه ولدا وهم لايشعرون) اعلم انه تعالى لما قال ونريد أن نمن على الذين ابتدأ بذكر أوائل نعمه في هذا الباب بقوله وأوحينا الى ام موسى والكلام في هذا الوحي ذكرناه في سورة طه في قوله ولقد مننا عليك مرة أخرى اذ أوحينا الى أمك مايوحى وقوله أن أرضعيه

وجدت امرأة تملكهم) استئناف لبيان ماجاء به من النبا وتفصيل له اثر الاجمال وهي بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها ورث الملك من أربعين أبا ولم يكن له ولد غيرها فغلبت بعده على الملك ودانت لها الامة وكانت هي وقومها مجوسا يعبدون الشمس وايثار وجدت على رأيت لما أشير اليه من الايذان بكونه عنه غيبه بصدد خدمته عليه الصلاة والسلام بابراز

نفسه فى معرض من يتفقد أحوالها ويتعرفها كأنها طلبته وضالته ليعرضها على سليمان عليه السلام وضمير تملكهم لسبأ على أنه اسم الحى أولأهلها المدلول عليهم بذكر مدينتهم على أنه اسم لها (وأوتيت من كل شئ) اى من الاشياء التى يحتاج اليها الملوك (ولها عرش عظيم) قيل كان ثلاثين ذراعا فى ثلاثين عرضا وسمكا وقيل ثمانين فى ثمانين من ذهب وفضة مكللا بالجواهر وكانت قوائمه ❊ ٥٨٨ ❊ من ياقوت أحمر وأخضر ودر وزمرد وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق واستعظام الهدهد لعرشها مع ماكان يشاهده من ملك سليمان عليه السلام اما بالنسبة الى حالها أوالى عروش أمثالها من الملوك وقد جوز أن لايكون لسليمان عليه السلام مثله وأياما كان فوصفه بذلك بين يديه عليه الصلاة والسلام لمامر من ترغيبه عليه الصلاة والسلام فى الاصغاء الى حديثه وتوجيه عزيمته عليه الصلاة والسلام نحو تسخيرها ولذلك عقبه بمايوجب غزوها من كفرها وكفر قومها حيث قال (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) أى يعبدونها متجاوزين عبادة الله تعالى (وزين لهم الشيطان أعمالهم) التى هى عبادة الشمس ونظائرها من اصناف الكفر والمعاصى (فصدهم) بسبب ذلك (عن السبيل) اى سبيل الحق والصواب فان تزيين أعمالهم لايتصور بدون تقويم طرق كفرهم وضلالتهم ومن ضرورته نسبة طريق الحق الى العوج (فهم) بسبب ذلك (لايهتدون) اليه وقوله تعالى (الايسجدوا لله) مفعول له اماللصد أوللتزيين على حذف

كالدلالة على انها أرضعته وليس فى القرآن حد ذلك فاذا خفت عليه أن يفطن به جيرانك ويسمعون صوته عند البكاء فألقيه فى اليم قال ابن جريج ان بعد أربعة أشهر صاح وأتى فى اليم والمراد باليم ههنا النيل ولاتخافى ولاتحزنى والخوف غم يحصل بسبب مكروه يتوقع حصوله فى المستقبل والحزن غم يلحقه بسبب مكروه حصل فى الماضى فكأنه قيل ولا تخافى من هلاكه ولاتحزنى بسبب فراقه فانارادوه اليك لتكونى أنت المرضعة له وجاعلوه من المرسلين الى أهل مصر والشام وقصة الالقاء فى اليم قد تقدمت فى سورة طه وقال ابن عباس ان أم موسى عليه السلام لماتقارب ولادها كانت قابلة من القوابل التى وكلهن فرعون بالحبالى مصافية لام موسى عليه السلام فلما حست بالطلق أرسلت اليها وقالت لها قد نزل بى مانزل ولينفعنى اليوم حبك اياى فجلست القابلة فلما وقع موسى عليه السلام الى الارض هالها نور بين عينيه فارتعش كل مفصل منها ودخل حب موسى عليه السلام قلبها فقالت ياهذه ماجئتك الالقتل مولودك ولكنى وجدت لابنك هذا حبا شديدا فاحتفظى بابنك فانى أراه عدونا فلماخرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاء الى بابها ليدخل على أم موسى فقالت أخته ياأماه هذا الحرس فلفته ووضعته فى تنور مسجور فطاش عقلها فلم تعقل ماتصنع فدخلوا فاذا التنور مسجور ورأوا أم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن فقالوا لم دخلت القابلة عليك قالت انها حبيبة لى دخلت للزيارة فخرجوا من عندها ورجع اليها عقلها فقالت لاخت موسى أين الصبى قالت لاأدرى فسمعت بكاء فى التنور فانطلقت اليه وقد جعل الله النار عليه بردا وسلاما فأخذته ثم ان أم موسى عليه السلام لمارأت فرعون جد فى طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله فى قلبها أن تتخذ له تابوتا ثم تقذف التابوت فى النيل فذهبت الى نجار من أهل مصر فاشترت منه تابوتا فقال لها ماتصنعين به فقالت ابن لى أخشى عليه كيد فرعون اخبؤه فيه وماعرفت انه يفشى ذلك الخبر فلما انصرفت ذهب النجار ليخبر به الذباحين فلما جاءهم أمسك الله لسانه وجعل يشير بيده فضربوه وطردوه فلما عاد الى موضعه رد الله عليه نطقه فذهب مرة أخرى ليخبرهم به فضربوه وطردوه فلماعاد الى موضعه رد الله نطقه فذهب مرة أخرى ليخبرهم به فضربوه وطردوه فأخذ الله بصره ولسانه فجعل لله تعالى انه ان رد عليه بصره ولسانه فانه لايدلهم عليه فعلم الله تعالى منه الصدق فرد عليه بصره ولسانه وانطلقت أم موسى وألقته فى النيل وكان لفرعون بنت لم يكن له ولد غيرها وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها الى أبيها وكان بها برص شديد وكان فرعون قد شاور الاطباء والسحرة فى أمرها فقالوا أيها الملك لاتبرأ هذه الامن قبل البحر يوجد منه شبه الانسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك وذلك فى يوم كذا فى شهر كذا حين تشرق الشمس فلماكان ذلك اليوم غدا فرعون الى مجلس كان له على شفير النيل ومعه آسية بنت مزاحم وأقبلت بنت فرعون فى جوار يها حتى جلست على الشاطئ اذاقبل

اللام منه أى فصدهم لان لايسجدوا لله تعالى أو زين لهم اعمالهم لأن لايسجدوا أو بدل على حاله من أعمالهم ومابينهما اعتراض أى زين لهم أن لايسجدوا وقيل هو فى موقع المفعول ليهتدون باسقاط الخافض ولامزيدة كما فى قوله تعالى لئلا يعلم أهل الكتاب والمعنى فهم لايهتدون الى أن يسجدوا لله تعالى وقرئ الايا اسجدوا على التنبيه والنداء والمنادى محذوف اى ألايا قوم اسجدوا كما فى قوله * الايا اسلمى يادارمى على البلى * ونظائره وعلى هذا يحتمل أن يكون استئنافا من جهة الله عز وجل أو من سليمان عليه السلام و يوقف على لايهتدون و يكون امرا بالسجود وعلى الوجوه المتقدمة ذما على تركه وأياما كان فالسجود واجب وقرئ هلا وهلا بقلب الهمزتين هاء وقرئ هلا تسجدون بمعنى الاتسجدون على الخطاب (الذى يخرج الخبء فى السموات والارض) أى يظهر ماهو مخبوء ومخفى فيهما كائناما كان وتخصيص هذا الوصف بالذكر بصدد بيان تفرده تعالى باستحقاق السجود له من بين سائر أوصافه الموجبة لذلك لما أنه أرسخ فى معرفته والاحاطة بأحكامه بمشاهدة آثاره التى من جملتها ماأودعه الله تعالى فى نفسه من القدرة على معرفة الماء تحت الارض وأشار بعطف قوله (و يعلم ماتخفون وماتعلنون) على يخرج الى أنه تعالى يخرج مافى العالم الانسانى من الخفايا كما يخرج مافى العالم

النيل بتابوت تضرب به الامواج وتعلق بشجرة فقال فرعون ائتونى به فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه فنظرت آسية فرأت نورا فى جوف التابوت لم يره غيرها فعالجته ففتحته فاذا هى بصبى صغير فى المهد واذا نور بين عينيه فألقى الله محبته فى قلوب القوم وعمدت ابنة فرعون الى ريقه فلطخت به برصها فبرئت وضمته الى صدرها فقالت الغواة من قوم فرعون انا نظن ان هذا هو الذى نحذر منه رمى فى البحر فرقا منك فهم فرعون بقتله فاستوهبته امرأة فرعون وتبنته فترك قتله اما قوله فالتقطه آل فرعون فالالتقاط اصابة الشئ من غير طلب والمراد بآل فرعون جواريه اما قوله ليكون لهم عدوا وحزنا فالمشهور ان هذه اللام يراد بها العاقبة قالوا والا نقض قوله وقالت امرأت فرعون قرت عين لى ولك ونقض قوله وألقيت عليك محبة منى ونظير هذه اللام قوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم وقول الشاعر * لدوا للموت وابنوا للخراب * واعلم أن التحقيق ماذكره صاحب الكشاف وهو ان هذه اللام هى لام التعليل على سبيل المجاز وذلك لان مقصود الشئ وغرضه يؤل اليه أمره فاستعملوا هذه اللام فيما يؤل اليه الشئ على سبيل التشبيه كاطلاق لفظ الاسد على الشجاع والبليد على الحمار قرأ حمزة والكسائى حزنا بضم الحاء وسكون الزاى والباقون بالفتح وهما لغتان مثل السقم والسقم اما قوله كانوا خاطئين ففيه وجهان (أحدهما) قال الحسن معنى كانوا خاطئين ليس من الخطيئة بل المعنى وهم لايشعرون انه الذى يذهب بملكهم وأما جمهور المفسرين فقالوا معناه كانوا خاطئين فيما كانوا عليه من الكفر والظلم فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم وقرئ خاطين تخفيف خاطئين أى خاطين الصواب الى الخطا و بين تعالى انها التقطته ليكون قرة عين لها وله جميعا قال ابن اسحق ان الله تعالى ألقى محبته فى قلبها لانه كان فى وجهه ملاحة كل من رآه أحبه ولانها حين فتحت التابوت رأت النور ولانها لما فتحت التابوت رأته يمتص أصبعه ولان ابنة فرعون لما لطخت برصها بريقه زال برصها و يقال ماكان لها ولد فأحبته قال ابن عباس لما قالت قرة عين لى ولك فقال فرعون يكون لك وأما انا فلا حاجة لى فيه فقال عليه السلام والذى يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت لهداه الله تعالى كما هداها قال صاحب الكشاف قرة عين خبر مبتدا محذوف ولا يقوى أن يجعل مبتدأ ولا تقتلوه خبرا ولو نصب لكان أقوى وقراءة ابن مسعود دليل على انه خبر قرأ لاتقتلوه قرة عين لى ولك وذلك لتقديم لاتقتلوه ثم قالت المرأة عسى أن ينفعنا فنصيب منه خيرا و نتخذه ولدا لانه أهل للتبنى أما قوله وهم لايشعرون فأكثر المفسرين على انه ابتداء كلام من الله تعالى أى لايشعرون ان هلاكهم بسببه وعلى يده وهذا قول مجاهد وقتادة والضحاك ومقاتل وقال ابن عباس يريد لايشعرون الى ماذا يصير أمر موسى عليه السلام وقال آخرون

الكبير من الخبايا الا أن المراد يظهر ما تخفونه من الاحوال فيجازيكم بها وذكر ما تعلنون لتوسيع دائرة العلم أو للتنبيه على تساويهما بالنسبة الى العلم الالهى وقرئ ما يخفون وما يعلنون على صيغة الغيبة بلا التفات واخراج الخبء يعم اشراق الكواكب واظهارها من آفاقها

بعد استتارها وراءها وانزال الامطار وانبات النبات بل الانشاء الذى هو اخراج ما فى الشئ بالقوة الى الفعل والابداع الذى هو اخراج ما فى الامكان والعدم الى الوجود وغير ذلك من غيوبه عز وجل وقرئ الخب بتخفيف الهمزة بالحذف وقرئ الخبا بتخفيفها بالقلب وقرئ الا تسجدون لله الذى يخرج الخبء من السماء والارض ويعلم سركم وما تعلنون (الله لا اله الا هو رب العرش العظيم) الذى هو أول الاجرام وأعظمها وقرئ العظيم بالرفع على أنه صفة الرب واعلم أن ما حكى من الهدهد من قوله الذى يخرج الخبء الى هنا ليس داخلا تحت قوله احطت بما لم تحط به وانما هو من العلوم والمعارف التى اقتبسها من سليمان عليه السلام أو رده بيانا لما هو عليه واظهارا للتصلب فى الدين وكل ذلك لتوجيه قلبه عليه الصلاة والسلام نحو قبول كلامه وصرف عنان عزيمته عليه السلام الى غزوها وتسخير ولايتها (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية كلام

هذا من تمام كلام المرأة أى لايشعر بنو اسرائيل وأهل مصر انا التقطناه وهذا قول الكلبى * قوله تعالى (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين وقالت لاخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون) ذكروا فى قوله فؤاد أم موسى فارغا وجوها (أحدها) قال الحسن فارغا من كل هم الا من هم موسى عليه السلام (وثانيها) قال أبو مسلم فراغ الفؤاد هو الخوف والاشفاق كقوله وأفئدتهم هواء (وثالثها) قال صاحب الكشاف فارغا صفرا من العقل والمعنى انها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والخوف (ورابعها) قال الحسن ومحمد بن اسحق فارغا من الوحى الذى أوحينا اليها أن ألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك فجاءها الشيطان فقال لها كرهت ان يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجر فتوليت اهلاكه ولما أتاها خبر موسى عليه السلام انه وقع فى يد فرعون فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله اليها (وخامسها) قال أبو عبيدة فارغا من الحزن لعلمها بانه لايقتل اعتمادا على تكفل الله بمصلحته قال ابن قتيبة وهذا من العجائب كيف يكون فؤادها فارغا من الحزن والله تعالى يقول لولا أن ربطنا على قلبها وهل يربط الا على قلب الجازع المحزون ويمكن أن يجاب عنه بأنه لايمتنع انها لشدة ثقتها بوعد الله تخف عند اظهار اسمه وأيقنت انها وان أظهرت فانه يسلم لاجل ذلك الوعد الا انه كان فى المعلوم ان الاظهار يضر فربط الله على قلبها ويحتمل قوله ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها بالوحى فأمنت وزال عن قلبها الحزن فعلى هذا الوجه يصح ان يتأول على أن قلبها سلم من الحزن على موسى أصلا وفيه وجه ثالث وهو انها لما سمعت أن امرأة فرعون عطفت عليه وتبنته ان كادت لتبدى به بأنه ولدها لانها لم تملك نفسها فرحا بما سمعت لولا ان سكنا ما بها من شدة الفرح والابتهاج لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله تعالى لابتبنى امرأة فرعون اللعين وبعطفها وقرئ فرغا أى خاليا من قولهم أعوذ بالله من صفر الاناء وفرغ الفناء وفرغا من قولهم دماؤهم بينهم فرغ أى هدر يعنى بطل قلبها من شدة ما ورد عليها أما قوله ان كادت لتبدى به فاعلم ان على قول من فسر الفراغ بالفراغ من الحزن قد ذكرنا تفسير قوله ان كادت لتبدى وأما على قول من فسر الفراغ بحصول الخوف فذكروا وجوها (أحدها) قال ابن عباس كادت تخبر بأن الذى وجدتموه ابنى وقال فى رواية عكرمة كادت تقول وا ابناه من شدة وجدها به وذلك حين رأت الموج يرفع ويضع وقال الكلبى ذلك حين سمعت الناس يقولون انه ابن فرعون وقال السدى لما أخذ ابنها كادت تقول هو ابنى فعصمها الله تعالى ثم قال لولا أن ربطنا على قلبها بالهام الصبر كما يربط على الشئ المنفلت ليستقر ويطمئن لتكون من المؤمنين من المصدقين بوعد الله وهو قوله انا رادوه اليك أما قوله وقالت لاخته قصيه أى اتبعى أثره وانظرى الى أين وقع والى من صار وكانت أخته لابيه وأمه واسمها مريم فبصرت به قال ابن عباس رضى الله ﴿ عنهما ﴾

الهدهد كأنه قيل فماذا فعل سليمان عليه السلام عند ذلك فقيل قال (سننظر) أى فيما ذكرته من النظر بمعنى التأمل والسين للتأكيد أى سنعرف بالتجربة البتة (أصدقت أم كنت من الكاذبين) كان مقتضى الظاهر أم كذبت وإيثار ما عليه النظم الكريم للإيذان بأن كذبه فى هذه المادة يستلزم انتظامه فى سلك الموسومين بالكذب الراسخين فيه فإن مساق هذه الأقاويل الملفقة على ترتيب أنيق يستميل قلوب السامعين نحو قبولها من غير أن يكون لها مصداق أصلا لا سيما بين يدى نبى عظيم الشان لا يكاد يصدر إلا عمن له قدم راسخ فى الكذب والإفك وقوله تعالى (اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم) استئناف مبين لكيفية النظر الذى وعده عليه الصلاة والسلام وقد قاله عليه الصلاة والسلام بعد ما كتب كتابه فى ذلك المجلس او بعده وتخصيصه عليه الصلاة والسلام اياه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه من أمناء الجن الاقوياء على التصرف والتعرف لما عاين فيه من مخايل العلم والحكمة وصحة الفراسة ولئلا يبقى له عذر أصلا (ثم تول عنهم) أى تنح الى مكان قريب تتوارى فيه (فانظر) أى تأمل وتعرف (ماذا يرجعون) أى ماذا يرجع بعضهم الى بعض من القول وجمع الضمائر لما أن مضمون الكتاب الكريم دعوة الكل الى الاسلام (قالت) أى بعد ما ذهب الهدهد بالكتاب فألقاه اليهم وتنحى عنهم حسبما أمر به

عنهما أبصرته قال المبرد أبصرته وبصرت به بمعنى واحد وقوله عن جنب أى عن بعد وقرئ عن جانب وعن جنب والجنب الجانب اى نظرت نظرة مزورة متجانبة وهم لا يشعرون بحالها وغرضها * قوله تعالى (وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه الى امه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم ان وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون) اعلم ان قوله وحرمنا عليه المراضع من قبل يقتضى تحريمها من قبله فاذا لم يصح بالتعبد والنهى لتعذر التمييز فلا بد من فعل سواه وذلك الفعل يحتمل انه تعالى مع حاجته الى اللبن أحدث فيه نفار الطبع عن لبن سائر النساء فلذلك لم يرضع أو أحدث فى لبنهن من الطعم ما ينفر عنه طبعه أو وضع فى لبن أمه لذة فلما تعودها لاجرم كان يكره لبن غيرها وعن الضحاك كانت أمه قد أرضعته ثلاثة أشهر حتى عرف ريحها والمراضع جمع مرضع وهى المرأة التى ترضع أو جمع مرضع وهو موضع الرضاع أى الثدى أو الرضاع وقوله من قبل أى من قبل ان رددناه الى أمه ومن قبل مجىء أخت موسى عليه السلام ومن قبل ولادته فى حكمنا وقضائنا فعند ذلك قالت أخته هل ادلكم على اهل بيت يكفلونه لكم اى يضمنون رضاعه والقيام بمصالحه وهم له ناصحون لا يمنعونه ما ينفعه فى تربيته واغذائه ولا يخونونكم فيه والنصح اخلاص العمل من شائبة الفساد وقال السدى انها لما قالت وهم له ناصحون دل ظاهر ذلك على ان أهل البيت يعرفونه فقال لها هامان قد عرفت هذا الغلام فدلينا على اهله فقالت ما اعرفه ولكنى انما قلت هم للملك ناصحون لنزول شغل قلبه وكل ما روى فى هذا الباب يدل على ان فرعون كان بمنزلة آسية فى شدة محبته لموسى عليه السلام لا على ما قال من زعم انها كانت مختصة بذلك فقط ثم قال تعالى فرددناه الى امه بهذا الضرب من اللطف كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم ان وعد الله حق اى فيما كان وعدها من انه يرده اليها ولقد كانت عالمة بذلك ولكن ليس الخبر كالعيان فتحققت بوجود الموعود ولكن اكثرهم لا يعلمون فيه وجوه اربعة (احدها) ولكن اكثر الناس فى ذلك العهد و بعده لا يعلمون لاعراضهم عن النظر فى آيات الله (وثانيها) قال الضحاك ومقاتل يعنى اهل مصر لا يعلمون ان الله وعدها رده اليها (وثالثها) هذا كالتعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى عليه السلام فجزعت وأصبح فؤادها فارغا (ورابعها) ان يكون المعنى انا انما رددناه اليها لتعلم ان وعد الله حق والمقصود الاصلى من ذلك الرد هذا الغرض الدينى ولكن الاكثر لا يعلمون ان هذا هو الغرض الاصلى وان ما سواه من قرة العين وذهاب الحزن تبع قال الضحاك لما قبل ثديها قال هامان انك لامه قالت لا قال فما بالك قبل ثديك من بين النسوة قالت ايها الملك انى امرأة طيبة الريح حلوة اللبن ما شم ريحى صبى الا اقبل على ثديى قالوا صدقت فلم يبق احد من آل فرعون الا اهدى اليها واتحفها بالذهب والجواهر * قوله

وانماطوى ذكره ابذانا بكمال مسارعته الى اقامة ما أمر به من الخدمة واشعارا باستغنائه عن التصريح به لغاية ظهوره روى أنه عليه الصلاة والسلام كتب كتابه وطبعه بالمسك ﴿ ٥٩٢ ﴾ وختمه بخاتمه ودفعه الى الهدهد فوجدها

تعالى (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ودخل المدينة على حين غفلة من اهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين قال رب انى ظلمت نفسى فاغفرلى فغفرله انه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين) اعلم أن فى قوله بلغ أشده واستوى قولين (أحدهما) انهما بمعنى واحد وهو استكمال القوة واعتدال المزاج والبنية (والثانى) وهو الاصح انهما معنيان متغايران ثم اختلفوا على وجوه (أحدها) وهو الاقرب ان الاشد عبارة عن كمال القوة الجسمانية البدنية والاستواء عبارة عن كمال القوة العقلية (وثانيها) الاشد عبارة عن كمال القوة والاستواء عبارة عن كمال البنية والخلقة (وثالثها) الاشد عبارة عن البلوغ والاستواء عبارة عن كمال الخلقة (ورابعها) قال ابن عباس الاشد ما بين الثمانية عشر سنة الى الثلاثين ثم من الثلاثين سنة الى الاربعين يبقى سواء من غير زيادة ولا نقصان ومن الاربعين يأخذ فى النقصان وهذا الذى قاله ابن عباس رضى الله عنهما حق لان الانسان يكون فى أول العمر فى النمو والتزايد ثم يبقى من غير زيادة ولا نقصان ثم يأخذ فى الانتقاص فنهاية مدة الازدياد من أول العمر الى العشرين ومن العشرين الى الثلاثين يكون التزايد قليلا والقوة قوية جدا ثم من الثلاثين الى الاربعين يقف فلا يزداد ولا ينتقص ومن الاربعين الى الستين يأخذ فى الانتقاص الخفى ومن الستين الى آخر العمر يأخذ فى الانتقاص البين الظاهر ويروى انه لم يبعث نبى الا على رأس أربعين سنة والحكمة فيه ظاهرة لان الانسان يكون الى رأس الاربعين قواه الجسمانية من الشهوة والغضب والحس قوية مستكملة فيكون الانسان منجذبا اليها فاذا انتهى الى الاربعين أخذت القوى الجسمانية فى الانتقاص والقوة العقلية فى الازدياد فهناك يكون الرجل أكمل ما يكون فلهذا السر اختار الله تعالى هذا السن للوحى (المسئلة الثانية) اختلفوا فى واحد الاشد قال الفراء الاشد واحدها شد فى القياس ولم يسمع لها بواحد وقال أبو الهيثم واحدة الاشد شدة كما ان واحدة الانعم نعمة والشدة القوة والجلادة أما قوله آتيناه حكما وعلما ففيه وجهان (الاول) انها النبوة وما يقرن بها من العلوم والاخلاق وعلى هذا التقدير ليس فى الآية دليل على ان هذه النبوة كانت قبل قتل القبطى أو بعده لان الواو فى قوله ودخل المدينة لا تفيد الترتيب (الثانى) آتيناه الحكمة والعلم قال تعالى واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة وهذا القول أولى لوجوه (أحدها) ان النبوة أعلى الدرجات البشرية فلابد وان تكون مسبوقة بالكمال فى العلم والسيرة المرضية التى هى أخلاق الكبراء والحكماء (وثانيها) ان قوله وكذلك نجزى المحسنين يدل على انه انما اعطاه الحكم والعلم مجازاة على احسانه والنبوة لا تكون جزاء على العمل (وثالثها) ان المراد بالحكم والعلم لو كان هو

الهدهد راقدة فى قصرها بمأرب وكانت اذا رقدت غلقت الابواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهى مستلقية وقيل نقرها فانتبهت فزعة وقيل أتاها والقادة والجنود حواليها فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها فألقى الكتاب فى حجرها وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل تبع الحميرى كما مر فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت فعند ذلك قالت لاشراف قومها (يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم) وصفته بالكرم لكرم مضمونه اولكونه من عند ملك كريم أولكونه مختوما اولغرابة شأنه ووصوله اليها على منهاج غير معتاد (انه من سليمان) استئناف وقع جوابا لسؤال مقدر كأنه قيل ممن هو وماذا مضمونه فقالت انه من سليمان (وانه) اى مضمونه أو المكتوب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) وفيه اشارة الى سبب وصفها اياه بالكرم وقرئ أنه وأنه بالفتح على حذف ﴿ النبوة ﴾ اللام كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وبكونه مصدرا باسم الله تعالى وقيل على انه بدل من كتاب

وقرئ أن من سليمان وأن بسم الله الرحمن الرحيم على أن ان المفسرة (أن لاتعلوا على) أن مفسرة ولاناهية اى لاتتكبروا كما يفعل جبابرة الملوك وقيل مصدرية ناصبة للفعل ولانافية محلها الرفع على انها بدل من كتاب أو خبر لمبتدا مضمر يليق بالمقام اى مضمونه ان لاتعلوا أو النصب

باسقاط الخافض اى بأن لاتعلوا على وقرئ ان لاتغلوا بالغين المعجمة اى لاتجاوزوا حدكم (وأتونى مسلمين) اى مؤمنين وقيل منقادين والاول هو الاليق بشأن النبى عليه الصلاة والسلام على أن الايمان مستتبع للانقياد حتما روى أن نسخة الكتاب من عبدالله سليمان ابن داود الى بلقيس ملكة سبا السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا على وأتونى مسلمين وليس الامر فيه بالاسلام قبل اقامة الحجة على رسالته حتى يتوهم كونه استدعاء للتقليد فان القاء الكتاب اليها على تلك الحالة معجزة باهرة دالة على رسالة مرسلها دلالة بينة (قالت) كررت حكاية قولها للايذان بغاية اعتنائها بما فى حيزه من قولها (ياايها الملاء أفتونى فى أمرى) اى أجيبونى فى أمرى الذى حزبنى وذكرت لكم خلاصته وعبرت عن الجواب بالفتوى التى هى الجواب فى الحوادث المشكلة غالبا تهويلا للامر ورفعا لمحلهم

النبوة لوجب حصول النبوة لكل من كان من المحسنين لقوله وكذلك نجزى المحسنين لان قوله وكذلك اشارة الى ماتقدم ذكره من الحكم والعلم ثم بين انعامه عليه قبل قتل القبطى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى المدينة فالجمهور على انها هى المدينة التى كان يسكنها فرعون وهى قرية على رأس فرسخين من مصر وقال الضحاك هى عين شمس (المسئلة الثانية) اختلفوا فى معنى قوله على حين غفلة من أهلها على اقوال (فالقول الاول) ان موسى عليه السلام لما بلغ أشده واستوى وآتاه الله الحكم والعلم فى دينه ودين آبائه علم ان فرعون وقومه على الباطل فتكلم بالحق وعاب دينهم واشتهر ذلك منه حتى آل الامر الى ان أخافوه وخافهم وكان له من بنى اسرائيل شيعة يقتدون به و يسمعون منه و بلغ فى الخوف بحيث ماكان يدخل مدينة فرعون الا خائفا فدخلها يوما على حين غفلة من أهلها ثم الاكثرون على انه عليه السلام دخلها نصف النهار وقت ماهم قائلون وعن ابن عباس يريد بين المغرب والعشاء والاول أولى لانه تعالى أضاف الغفلة الى أهلها واذا دخل المرء مستترا لاجل خوف لاتضاف الغفلة الى القوم (القول الثانى) قال السدى ان موسى عليه السلام حين كبر كان يركب مراكب فرعون و يلبس مثل مايلبس و يدعى موسى ابن فرعون فركب يوما فى أثره فأدركه المقيل فى موضع فدخلها نصف النهار وقد خلت الطرق فهو قوله على حين غفلة (القول الثالث) قال ابن زيد ليس المراد من قوله على حين غفلة من أهلها حصول الغفلة فى تلك الساعة بل المراد الغفلة من ذكر موسى وأمره فان موسى حين كان صغيرا ضرب رأس فرعون بالعصا ونتف لحيته فأراد فرعون قتله فجئ بجمر فأخذه وطرحه فى فيه فمنه عقدة لسانه فقال فرعون لاأقتله ولكن أخرجوه عن الدار والبلد فأخرج ولم يدخل عليهم حتى كبر والقوم نسوا ذكره وذلك قوله على حين غفلة ولامطمع فى ترجيح بعض هذه الروايات على بعض لانه ليس فى القرآن مايدل على شئ منها اه (المسئلة الثالثة) قال تعالى فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه قال الزجاج قال هذا وهذا وهما غائبان على وجه الحكاية أى وجد فيها رجلين يقتتلان اذا نظر الناظر اليهما قال هذا من شيعته وهذا من عدوه ثم اختلفوا فقال مقاتل الرجلان كانا كافرين الا أن أحدهما من بنى اسرائيل والآخر من القبط واحتج عليه بأن موسى عليه السلام قال له فى اليوم الثانى انك لغوى مبين والمشهور أن الذى من شيعته كان مسلما لانه لايقال فيمن يخالف الرجل فى دينه وطريقه انه من شيعته وقيل ان القبطى الذى سخر الاسرائيلى كان طباخ فرعون استسخره لحمل الحطب الى مطبخه وقيل الرجلان المقتتلان أحدهما السامرى وهو الذى من شيعته والآخر طباخ فرعون والله أعلم بكيفية الحال فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه أى سأله أن يخلصه منه واستنصره عليه فوكزه موسى عليه السلام الوكز الدفع بأطراف الاصابع وقيل بجمع الكف وقرأ ابن مسعود فلكزه موسى وقال بعضهم الوكز فى

بالاشعار بأنهم قادرون على حل

المشكلات الملمة وقولها (ما كنت قاطعة أمرا) اى من الامور المتعلقة بالملك (حتى تشهدون) اى الابمحضركم و بموجب آرائكم استعطاف لهم واستمالة لقلوبهم لئلا يخالفوها فى الرأى

والتدبير (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشا من حكاية قولها كانه قيل فماذا قالوا فى جوابها فقيل قالوا (نحن أولوقوة) فى الاجساد والآلات والعدد (وأولو بأس شديد) اى نجدة وشجاعة مفرطة و بلاء فى الحرب (والامر اليك) اى هوموكول اليك (فانظرى ماذا تامرين) ونحن ﴿ ٥٩٤ ﴾ مطيعون لك فربنا بأمرك نمتثل به ونتبع رأيك أوأرادوا نحن من أبناء الحرب لامن أبناء الرأى والمشورة واليك الرأى والتدبير فانظرى ماذا ترين نكن فى الخدمة فلما أحست منهم الميل الى الحراب والعدول عن سنن الصواب شرعت فى تزييف مقالتهم المبنية على الغفلة عن شأن سليمان عليه السلام وذلك قوله تعالى (قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية) من القرى على منهاج المقاتلة والحراب (أفسدوها) بتخريب عماراتها واتلاف مافيها من الاموال (وجعلوا اعزة أهلها اذلة) بالقتل والاسر والاجلاء وغير ذلك من فنون الاهانة والاذلال (وكذلك يفعلون) تأكيد لما وصفت من حالهم بطريق الاعتراض التذييلى وتقرير له بأن ذلك عادتهم المستمرة وقيل تصديق لها من جهة الله تعالى على طريقة قوله تعالى ولوجئنا بمثله مددا اثر قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى (وانى مرسلة اليهم بهدية) تقرير لرأيها بعدما زيفت آراءهم وأتت بالجملة الاسمية الدالة على الثبات ﴿ الاولى ﴾ المصدرة بحرف التحقيق للايذان بأنها مزمعة على رأيها لايلويها عنه صارف

الصدر واللكز فى الظهر وكان عليه السلام شديد البطش وقال بعض المفسرين فوكزه بعصاه قال المفضل هذا غلط لانه لا يقال وكزه بالعصا فقضى عليه أى أماته وقتله (المسئلة الرابعة) احتج بهذه الآية من طعن فى عصمة الانبياء عليهم السلام من وجوه (أحدها) ان ذلك القبطى اما ان يقال انه كان مستحق القتل أولم يكن كذلك فان كان الاول فلم قال هذا من عمل الشيطان ولم قال رب انى ظلمت نفسى فاغفرلى فغفرله ولم قال فى سورة أخرى فعلتها اذا وأنا من الضالين وان كان الثانى وهوان ذلك القبطى لم يكن مستحق القتل كان قتله معصية وذنبا (وثانيها) ان قوله وهذا من عدوه يدل على انه كان كافرا حربيا فكان دمه مباحا فلم استغفر عنه والاستغفار عن الفعل المباح غير جائز لانه يوهم فى المباح كونه حراما (وثالثها) ان الوكز لايقصد به القتل ظاهرا فكان ذلك القتل قتل خطأ فلم استغفر منه والجواب عن الاول لم لايجوز أن يقال انه كان لكفره مباح الدم اما قوله هذا من عمل الشيطان ففيه وجوه (أحدها) لعل الله تعالى وان أباح قتل الكافر الا انه قال الاولى تأخير قتلهم الى زمان آخر فلما قتل فقد ترك ذلك المندوب فقوله هذا من عمل الشيطان معناه اقدامى على ترك المندوب من عمل الشيطان (وثانيها) ان قوله هذا اشارة الى عمل المقتول لا الى عمل نفسه فقوله هذا من عمل الشيطان أى عمل هذا المقتول من عمل الشيطان المراد منه بيان كونه مخالفا لله تعالى مستحقا للقتل (وثالثها) ان يكون قوله هذا اشارة الى المقتول يعنى أنه من جند الشيطان وحزبه يقال فلان من عمل الشيطان أى من أحزابه اماقوله رب انى ظلمت نفسى فاغفرلى فعلى نهج قول آدم عليه السلام ربنا ظلمنا أنفسنا والمراد أحد وجهين اما على سبيل الانقطاع الى الله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وان لم يكن هناك ذنب قط أومن حيث حرم نفسه الثواب بترك المندوب أماقوله فاغفرلى أى فاغفرلى ترك هذا المندوب وفيه وجه آخر وهوان يكون المراد رب انى ظلمت نفسى حيث قتلت هذا الملعون فان فرعون لو عرف ذلك لقتلنى به فاغفرلى أى فاستره على ولا توصل خبره الى فرعون فغفرله أى ستره عن الوصول الى فرعون و يدل على هذا التأويل انه على عقبه قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ولو كانت اعانة المؤمن ههنا سببا للمعصية لما قال ذلك وأما قوله فعلتها اذا وأنا من الضالين فلم يقل انى صرت بذلك ضالا ولكن فرعون لما ادعى انه كان كافرا فى حال القتل نفى عن نفسه كونه كافرا فى ذلك الوقت واعترف بأنه كان ضالا أى متحيرا لايدرى مايجب عليه أن يفعله ومايدبر به فى ذلك أما قوله ان كان كافرا حربيا فلم استغفر عن قتله قلنا كون الكافر مباح الدم أمر يختلف باختلاف الشرائع فلعل قتلهم كان حراما فى ذلك الوقت أو ان كان مباحا لكن الاولى تركه على ماقررناه قوله ذلك القتل كان قتل خطأ قلنا لانسلم فلعل الرجل كان ضعيفا وموسى عليه السلام كان فى نهاية الشدة فوكزه كان قاتلا قطعا ثم ان سلمنا ذلك ولكن لعله عليه السلام كان يمكنه أن يخلص الاسرائيلى من يده بدون ذلك الوكز الذى كان

الاولى تركه فلهذا أقدم على الاستغفار على أناوان سلمنا دلالة هذه الآية على صدور المعصية لكنا بينا أنه لادليل البتة على انه كان رسولا فى ذلك الوقت فيكون ذلك صادرا منه قبل النبوة وذلك لانزاع فيه (المسئلة الخامسة) قالت المعتزلة الآية دات على بطلان قول من نسب المعاصى الى الله تعالى لانه عليه السلام قال هذا من عمل الشيطان فنسب المعصية الى الشيطان فلو كانت بخلق الله تعالى لكانت من الله لامن الشيطان وهو كقول يوسف عليه السلام من بعد ان نزغ الشيطان بينى و بين اخوتى وقول صاحب موسى عليه السلام وما أنسانيه الا الشيطان وقوله تعالى لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة اما قوله رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ففيه وجوه (احدهما) ان ظاهره يدل على انه قال انك لما أنعمت على بهذا الانعام فانى لا أكون معاونا لاحد من المجرمين بل أكون معاونا للمسلمين وهذا يدل على أن ما أقدم عليه من اعانة الاسرائيلى على القبطى كان طاعة لامعصية اذ لو كانت معصية لنزل الكلام منزلة ما اذا قيل انك لما أنعمت على بقبول توبتى عن تلك المعصية فانى أكون مواظبا على مثل تلك المعصية (وثانيها) قال القفال كأنه أقسم بما أنعم الله عليه أن لا يظاهر مجرما والباء للقسم أى بنعمتك على (وثالثها) قال الكسائى والفراء انه خبر ومعناه الدعاء كأنه قال فلا تجعلنى ظهيرا قال الفراء وفى حرف عبدالله فلا تجعلنى ظهيرا واعلم أن فى الآية دلالة على انه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة وقال ابن عباس لم يستثن ولم يقل فلن أكون ظهيرا ان شاء الله فابتلى به فى اليوم الثانى وهذا ضعيف لانه فى اليوم الثانى ترك الاعانة وانما خاف منه ذلك العدو فقال ان تريد الا أن تكون جبارا فى الارض لانه وقع منه ❊ قوله تعالى (فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فاذا الذى استنصره بالامس يستصرخه قال له موسى انك لغوى مبين فلما ان اراد ان يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالامس ان تريد الا أن تكون جبارا فى الارض وما تريد أن تكون من المصلحين وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى ان الملاء يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين) اعلم ان عند موت ذلك الرجل من الوكز أصبح موسى عليه السلام من غد ذلك اليوم خائفا من أن يظهر انه هو القاتل فيطلب به وخرج على استتار فاذا الذى استنصره وهو الاسرائيلى بالامس يستصرخه بطلب نصرته بصياح وصراخ قال له موسى انك لغوى مبين قال أهل اللغة الغوى يجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعل أى انك اغويت قومى فانى وقعت بالامس فيما وقعت فيه بسببك و يجوز أن يكون بمعنى الغاوى واحتج به من قدح فى عصمة الانبياء عليهم السلام فقال كيف يجوز لموسى عليه السلام أن يقول لرجل من شيعته يستصرخه انك لغوى مبين والجواب من وجهين (الاول) ان قوم موسى عليه السلام كانوا اغلاظا جفاة ألا ترى الى قولهم بعد مشاهدة الآيات اجعل لنا الها كما لهم آلهة فالمراد بالغوى المبين

ولا يثنيها عاطف أى وانى مرسلة اليهم رسلا بهدية عظيمة (فناظرة بم يرجع المرسلون) حتى أعمل بما يقتضيه الحال روى أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى وحليهن الاساور والاطواق والقرطة راكبى خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر وخمسمائة جارية على رماك فى زى الغلمان وألف لبنة من ذهب وفضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع والمسك والعنبر وحقا فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب وبعثت رجلا من أشراف قومها المنذر بن عمرو وآخر ذا رأى وعقل وقالت ان كان نبيا ميز بين الغلمان والجوارى وثقب الدرة ثقبا مستويا وسلك فى الخرزة خيطا ثم قالت للمنذر ان نظر اليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولنك وان رأيته بشا لطيفا فهو نبى فأقبل الهدهد فأخبر سليمان عليه السلام بذلك فأمر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة وفرشوه فى ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ وجعلوا حول الميدان حائطا شرفاته من الذهب والفضة وأمر بأحسن الدواب فى البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان و يساره على اللبن وأمر باولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا على اليمين واليسار ثم قعد على سريره والكراسى من جانبيه واصطفت الشياطين صفوفا فراسخ والانس صفوفا فراسخ والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك فلما دنا القوم ونظروا بهتوا ورأوا الدواب تروث على اللبن فتقاصرت اليهم نفوسهم ورموا بما معهم

ذلك (الثانى) انه عليه السلام انما سماه غويا لان من تكثر منه المخاصمة على وجه يتعذر
عليه دفع خصمه عمايرومه من ضرره يكون خلاف طريقة الرشد واختلفوا فى قوله تعالى
قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت أهو من كلام الاسرائيلى أو القبطى فقال بعضهم
لما خاطب موسى الاسرائيلى بانه غوى ورآه على غضب ظن لماهم بالبطش أنه يريده فقال
هذا القول وزعموا انه لم يعرف قتله بالامس للرجل الاهو وصار ذلك سببا لظهور القتل
ومزيد الخوف وقال آخرون بل هو قول القبطى وقد كان عرف القصة من الاسرائيلى
والظاهر هذا الوجه لانه تعالى قال فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى
فهذا القول اذن منه لامن غيره وأيضا فقوله ان تريد الا أن تكون جبارا فى الارض
لايليق الا بأن يكون قولا للكافر واعلم ان الجبار الذى يفعل مايريد من الضرب والقتل
بظلم لاينظر فى العواقب ولايدفع بالتى هى أحسن وقيل المتعظم الذى لايتواضع لامر أحد
ولما وقعت هذه الواقعة انتشر الحديث فى المدينة وانتهى الى فرعون وهموا بقتله اما قوله
وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال صاحب الكشاف يسعى يجوز ارتفاعه وصفا
لرجل وانتصابه حالا عنه لانه قد تخصص بقوله من أقصى المدينة والائتمار التشاور يقال
الرجلان يأتمران لان كل واحد منهما يأمر صاحبه بشئ أو يشير عليه بأمر والمعنى
يتشاورون بسببك وأكثر المفسرين على ان هذا الرجل مؤمن امافرعون فعلى وجه
الاشفاق أسرع اليه ليخوفه بأن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك أما قوله فخرج منها خائفا
يترقب أى خائفا على نفسه من آل فرعون ينتظر هل يلحقه طلب فيؤخذ ثم التجأ الى الله
تعالى لعلمه بأنه لاملجأ سواه فقال رب نجنى من القوم الظالمين وهذا يدل على ان قتله لذلك
القبطى لم يكن ذنبا والالكان هو الظالم لهم وما كانوا ظالمين له بسبب طلبهم اياه ليقتلوه
قصاصا ✻ قوله تعالى (ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهديني سواء السبيل ولما
ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال
ماخطبكما قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال
رب انى لما أنزلت الى من خير فقير فجاءته احداهما تمشى على استحياء قالت ان أبى يدعوك
ليجزيك أجر ماسقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم
الظالمين قالت احداهما ياأبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين قال انى
أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن
عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى ان شاء الله من الصالحين قال ذلك بينى وبينك أيما
الاجلين قضيت فلاعدوان على والله على مانقول وكيل) اعلم أن الناس اختلفوا فى قوله
ولما توجه تلقاء مدين فقال بعضهم انه خرج وماقصد مدين ولكنه سلم نفسه الى الله تعالى
وأخذ يمشى من غير معرفة فأوصله الله تعالى الى مدين وهذا قول ابن عباس وقال آخرون

ولما وقفوا بين يديه نظر اليهم بوجه طلق وقال ماوراءكم وقال أين الحق وأخبره جبريل عليهما السلام بمافيه فقال
لهم ان فيه كذا وكذا ثم أمر بالارضة فأخذت شعرة ونفذت فى الدرة فجعل رزقها فى الشجرة وأخذت دودة بيضاء
الخيط بفيها ونفذت فى الجزعة فجعل رزقها فى الفواكه ✻ ٥٩٦ ✻ ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها
فتجعله فى الاخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية وذلك قوله تعالى (فلما جاء سليمان) اى الرسول (قال) اى مخاطبا للرسول والمرسل تغليبا للحاضر على الغائب وقيل للرسول ومن معه ويؤيده انه قرئ فلما جاؤا والاول أولى لمافيه من تشديد الانكار والتوبيخ وتعميمهما ابلقيس وقومها ويؤيده الافراد فى قوله تعالى ارجع اليهم (أتمدونني بمال) وهو انكار لامدادهم اياه عليه الصلاة والسلام بالمال مع علو شانه وسعة سلطانه وتوبيخ لهم بذلك وتنكير مال للتحقير وقوله تعالى (فما آتاني الله) اى مما رأيتم آثاره من النبوة والملك الذى لاغاية وراءه (خير مما آتاكم) اى من المال الذى من جملته ماجئتم به فلا حاجة لى الى هديتكم
ولاوقع لهاعندي تعليل للانكار ولعله عليه الصلاة والسلام انما قال لهم هذه المقالة الى آخرها بعد ماجرى ✻ لما
بينه وبينهم ماحكى من قصة الحق وغيرها كما أشير اليه لا انه عليه الصلاة والسلام خاطبهم بها أول ماجاؤه كما يفهم من
ظاهر قوله تعالى

جاء النمل وقرئ أتمدونى بالادغام وبنون واحدة وبنونين وحذف الياء وقوله تعالى (بل انتم بهديتكم تفرحون) اضراب
عما ذكر من انكار الامداد بالمال الى التوبيخ بفرحهم بهديتهم التى اهدوها اليه عليه الصلاة والسلام فرح افتخار
وامتنان واعتداد بها كما ينبئ عنه ماذكر من حديث الحق والجزعة وتعييرزى الغلمان والجوارى وغيرذلك

لما خرج قصد مدين لانه وقع فى نفسه أن بينهم و بينه قرابة لانهم من ولد مدين بن ابراهيم
عليه السلام وهو كان من بنى اسرائيل لكن لم يكن له علم بالطريق بل اعتمد على فضل الله
تعالى ومن الناس من قال بل جاءه جبريل عليه السلام وعلمه الطريق وذكر ابن جرير عن
السدى لما اخذ موسى عليه السلام فى المسير جاءه ملك على فرس فسجد له موسى من الفرح
فقال لاتفعل واتبعنى فاتبعه نحو مدين واحتج من قال انه خرج وما قصد مدين بأمرين
(أحدهما) قوله ولما توجه تلقاء مدين ولو كان قاصدا للذهاب الى مدين لقال ولما توجه
الى مدين فلما لم يقل ذلك بل قال توجه تلقاء مدين علمنا انه لم يتوجه الا الى ذلك الجانب من
غير أن يعلم أن ذلك الجانب الى أين ينتهى (والثانى) قوله عسى ربى أن يهدينى سواء
السبيل وهذا كلام شاك لاعالم والاقرب أن يقال انه قصد الذهاب الى مدين وما كان عالما
بالطريق ثم انه كان يسأل الناس عن كيفية الطريق لانه يبعد من موسى عليه السلام
فى عقله وذكائه أن لايسأل ثم قال ابن اسحق خرج من مصر الى مدين بغير زاد ولا ظهر
وبينهما مسيرة ثمانية أيام ولم يكن له طعام الا ورق الشجر أما قوله عسى ربى أن يهدينى سواء
السبيل فهو نظير قول جده ابراهيم عليه السلام انى ذاهب الى ربى سيهدين وموسى عليه
السلام قلما يذكر كلاما فى الاستدلال والجواب والدعاء والتضرع الا ماذكره ابراهيم
عليه السلام وهكذا الخلف الصدق للسلف الصالح صلوات الله عليهم وعلى جميع الطيبين
المطهرين ولما ورد ماء مدين وهو الماء الذى يسقون منه وكان بئرا فيما روى ووروده
مجيئه والوصول اليه وجد عليه اى فوق شفيره ومستقاه أمة جماعة كثيرة العدد من
الناس من اناس مختلفين ووجد من دونهم فى مكان أسفل من مكانهم امرأتين تذودان
والذود الدفع والطرد فقوله تذودان أى تحبسان ثم فيه اقوال (الاول) تحبسان
أغنامهما واختلفوا فى علة ذلك الحبس على وجوه (أحدها) قال الزجاج لان على الماء
من كان أقوى منهما فلا يتمكنان من السقى (وثانيها) كانتا تكرهان المزاحمة على الماء
(وثالثها) لئلا تختلط أغنامهما باغنامهم (ورابعها) لئلا تختلطا بالرجال (القول
الثانى) كانتا تذودان عن وجوههما نظر الناظر لبراهما (والقول الثالث) تذودان
الناس عن غنمهما (القول الرابع) قال الفراء تحبسانها عن أن تتفرق وتتسرب قال
ما خطبكما أى ما شأنكما وحقيقته ما مخطوبكما أى مطلوبكما من الذياد فسمى المخطوب
خطبا كما يسمى المشؤن شأنا فى قولك ماشأنك فقالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ
كبير وذلك يدل على ضعفهما عن السقى من وجوه (أحدها) ان العادة فى السقى للرجال
والنساء يضعفن عن ذلك (وثانيها) ماظهر من ذودهما الماشية على طريق التأخير
(وثالثها) قولهما حتى يصدر الرعاء (ورابعها) انتظارهما لما يبقى من القوم من الماء
(وخامسها) قولهما وأبونا شيخ كبير ودلالة ذلك على انه لوكان قويا حضر ولوحضر
لم يتأخر السقى فعند ذلك سقى لهما قبل صدر الرعاء وعادتا الى أبيهما قبل الوقت المعتاد

وفائدة الاضراب التنبيه على ان امداده عليه الصلاة السلام بالمال منكر قبيح وعدذلك مع انه لاقدرله عنده عليه الصلاة والسلام مما يتنافس فيه المتنافسون اقبح والتوبيخ به ادخل وقيل المضاف اليه المهدى اليه والمعنى بل انتم بما يهدى اليكم تفرحون حبا لزيادة المال لما أنكم لاتعلمون الاظاهرا من الحياة الدنيا (ارجع) أفرد الضمير ههنا بعد جمع الضمائر الخمسة فيما سبق لاختصاص الرجوع بالرسول وعموم الامداد ونحوه للكل اى ارجع أيها الرسول (اليهم) اى الى بلقيس وقومها (فلنأتينهم) اى فوالله لنأتينهم (بجنود لاقبل لهم بها) أى لاطاقة لهم بمقاومتها ولاقدرة لهم على مقابلتها وقرئ بهم (ولنخرجنهم) عطف على جواب القسم (منها) من سبا (اذلة) اى حال كونهم اذلة بعد ماكانوا فيه
من العز والتمكين وفى جمع القلة تأكيد لذلتهم وقوله تعالى (وهم صاغرون) اى أسارى مهانون حال اخرى مفيدة لكون
اخراجهم بطريق الاسر لابطريق الاجلاء وعدم وقوع جواب القسم لانه

كان معلقا بشرط قد حذف عند الحكاية ثقة بدلالة الحال عليه كأنه قيل ارجع اليهم فليأتوا مسلمين والا فلنأتينهم الخ
(قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها) قاله عليه الصلاة والسلام لما دنا مجيء بلقيس اليه عليه الصلاة والسلام يروى
أنه لما رجعت رسلها اليها بما حكى من خبر سليمان عليه السلام قالت ﴿ ٥٩٨ ﴾ قد علمت والله ما هذا بملك ولا لنا به
من طاقة و بعثت الى
سليمان عليه السلام
انى قادمة اليك بملوك
قومى حتى أنظر ما أمرك
وما تدعوا اليه من دينك
ثم آذنت بالرحيل الى
سليمان عليه السلام
فشخصت اليه فى اثنى
عشر ألف قيل تحت
كل قيل ألوف و يروى
انها أمرت فجعل عرشها
فى آخر سبعة أبيات
بعضها فى بعض فى آخر
قصر من قصور سبعة
لها وغلقت الابواب
ووكلت حرسا يحفظونه
ولعله أوحى الى سليمان
عليه السلام باستيثاقها
من عرشها فأراد أن
يريها بعض ما خصه
الله عز سلطانه به من
اجراء التعاجيب على
يده مع اطلاعها على
عظيم قدرته تعالى
وصحة نبوته عليه الصلاة
والسلام و يختبر عقلها
بأن ينكر عرشها فينظر
أتعرفه ام لا وتقييد
الاتيان به بقوله تعالى
(قبل ان يأتونى مسلمين)
لما ان ذلك ابدع واغرب
وابعد من الوقوع عادة
وادل على عظم قدرة الله تعالى وصحة نبوته عليه الصلاة والسلام وليكون اختبارها واطلاعها ﴿ بحال
على بدائع المعجزات فى اول مجيئها وقيل لانها اذا اتت مسلمة لم يحل له اخذ مالها بغير رضاها (قال عفريت) اى مارد

قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم بفتح الياء وضم الدال وقرأ الباقون بضم الياء وكسر
الدال فالمعنى فى القراءة الاولى حتى ينصرفوا عن الماء و يرجعوا عن سقيهم وصدر ضد
ورد ومن قرأ بضم الياء فالمعنى فى القراءة حتى يصدر القوم مواشيهم اما قوله فسقى لهما
أى سقى غنمهما لاجلهما وفى كيفية السقى أقوال (أحدها) انه عليه السلام سأل
القوم أن يسقوا فسمحوا (وثانيها) قال قوم عمد الى بئر على رأسه صخرة لا يقلها الا عشرة
وقيل أربعون وقيل مائة فنحاها بنفسه واستقى الماء من ذلك البئر (وثالثها) أن القوم
لما زاحمهم موسى عليه السلام تعمدوا القاء ذلك الحجر على رأس البئر فهو عليه السلام
رمى ذلك الحجر وسقى لهما وليس بيان ذلك فى القرآن والله أعلم بالصحيح منه لكن المرأة
وصفت موسى عليه السلام بالقوة فدل ذلك على انها شاهدت منه ما يدل على فضل قوته
وقال تعالى ثم تولى الى الظل وفيه دلالة على انه سقى لهما فى شمس وحر وفيه دلالة أيضا على
كمال قوة موسى عليه السلام قال الكلبى أتى موسى أهل الماء فسألهم دلوا من ماء فقالوا له
ان شئت ائت الدلو فاستق لهما قال نعم وكان يجتمع على الدلو أربعون رجلا حتى يخرجوه
من البئر فاخذ موسى عليه السلام الدلو فاستقى به وحده وصب فى الحوض ودعا بالبركة
ثم قرب غنمهما فشربت حتى رويت ثم سرحهما مع غنمهما فان قيل كيف ساغ لنبى
الله الذى هو شعيب أن يرضى لابنتيه بسقى الماشية قلنا ليس فى القرآن ما يدل على ان أباهما
كان شعيبا والناس مختلفون فيه فقال ابن عباس رضى الله عنهما ان أباهما هو بيرون
ابن أخى شعيب وشعيب مات بعد ما عمى وهو اختيار أبى عبيد (وقال) الحسن انه رجل
مسلم قبل الدين عن شعيب على أنا وان سلمنا انه كان شعيبا عليه السلام لكن لا مفسدة
فيه لان الدين لا يأباه واما المروءة فالناس فيها مختلفون وأحوال أهل البادية غير احوال
أهل الحضر لاسيما اذا كانت الحالة حالة الضرورة واما قوله قال رب انى لما أنزلت الى من
خير فقير فالمعنى انى لاى شئ أنزلت الى من خير قليل أو كثير غث أو سمين لفقير وانما عدى
فقيرا باللام لانه ضمن معنى سائل وطالب (واعلم) أن هذا الكلام يدل على الحاجة اما الى
الطعام أو الى غيره الا أن المفسرين حملوه على الطعام قال ابن عباس يريد طعاما يأكله
وقال الضحاك مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاما الا بقل الارض وروى أن موسى عليه
السلام لما قال ذلك رفع صوته ليسمع المرأتين ذلك فان قيل انه عليه السلام لما بقى معه من
القوة ما قدر بها على حمل ذلك الدلو العظيم فكيف يليق بهمته العالية أن يطلب الطعام
أليس انه عليه السلام قال لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى قوة سوى قلنا اما رفع الصوت
بذلك لاسماع المرأتين وطلب الطعام فذاك لا يليق بموسى عليه السلام البتة فلا تقبل تلك
الرواية ولكن لعله عليه السلام قال ذلك فى نفسه مع ربه تعالى وفى الآية وجه آخر
كأنه قال رب انى بسبب ما أنزلت الى من خير الدين صرت فقيرا فى الدنيا لانه كان عند
فرعون فى ملك وثروة فقال ذلك رضا بهذا البدل وفرحا به وشكرا له وهذا التأويل أليق

اذ يقال الرجل الخبيث المنكر المعفر لاقرانه وكان اسمه ذكوان أو صخرا (انا آتيك به) بعرشها (قبل أن تقوم من مقامك)
أى من مجلسك للحكومة وكان يجلس الى نصف النهار وآتيك اما صيغة المضارع أو الفاعل وهو الانسب لمقام ادعاء
الاتيان به لامحالة وأوفق لما عطف عليه من الجملة الاسمية اى انا آت به فى تلك المدة البتة (وانى عليه) أى

بحال موسى عليه السلام اما قوله تعالى فجاءته احداهما تمشى على استحياء فقوله على
استحياء فى موضع الحال اى مستحيية قال عمر بن الخطاب قد استترت بكم قميصها وقيل
ماشية على بعد مائلة عن الرجال (وقال) عبد العزيز بن أبى حازم على اجلاله ومنهم من
يقف على قوله تمشى ثم يبتدئ فيقول على استحياء قالت ان أبى يدعوك يعنى انها على
الاستحياء قالت هذا القول لان الكريم اذا دعا غيره الى الضيافة يستحيى لاسيما المرأة
وفى ذلك دلالة على أن شعيبا لم يكن له معين سواهما وروى انهما لما رجعتا الى ابيهما
قبل الناس قال لهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقال لاحداهما
اذهبى فادعيه لى اما الاختلاف فى أن ذلك الشيخ كان شعيبا عليه السلام اوغيره فقد
تقدم والاكثرون على انه شعيب وقال محمد بن اسحق فى البنتين اسم الكبرى صفورا
والصغرى ليا وقال غيره صفرا وصفيرا وقال الضحاك صافورا والتى جاءت الى موسى
عليه السلام هى الكبرى على قول الاكثرين وقال الكلبى هى الصغرى وليس فى القرآن
دلالة على شئ من هذه التفاصيل اما قوله قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا
ففيه اشكالات (أحدها) كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يعمل بقول امرأة وأن
يمشى معها وهى أجنبية فان ذلك يورث التهمة العظيمة وقال عليه السلام اتقوا مواضع
التهم (وثانيها) انه سقى أغنامهما تقربا الى الله تعالى فكيف يليق به أخذ الاجرة عليه فان
ذلك غير جائز فى المروءة ولا فى الشريعة (وثالثها) انه عرف فقرهن وفقر أبيهن وعجزهم
وانه عليه السلام كان فى نهاية القوة بحيث كان يمكنه الكسب الكثير بأقل سعى فكيف
يليق بمروءة مثله طلب الاجرة على ذلك القدر من السقى من الشيخ الفقير والمرأة الفقيرة
(ورابعها) كيف يليق بشعيب النبى عليه السلام أن يبعث ابنته الشابة الى رجل شاب
قبل العلم بكون ذلك الرجل عفيفا أوفاسقا (والجواب) عن الاول أن نقول اما العمل
بقول امرأة فكما نعمل بقول الواحد حرا كان أو عبدا ذكرا كان أو أنثى فى الاخبار
وما كانت الا مخبرة عن أبيها وأما المشى مع المرأة فلا بأس به مع الاحتياط والتورع
والجواب عن الثانى ان المرأة وان قالت ذلك فلعل موسى عليه السلام ماذهب اليهم طلبا
للاجرة بل للتبرك برؤية ذلك الشيخ وروى انها لما قالت ليجزيك كره ذلك ولما قدم اليه
الطعام امتنع وقال أنا أهل بيت لانبيع ديننا بدنيانا ولا نأخذ على المعروف ثمنا حتى قال
شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا وأيضا فليس بمنكر أن الجوع قد بلغ الى
حيث ما كان يطيق تحمله فقبل ذلك على سبيل الاضطرار وهذا هو الجواب عن الثالث
فان الضرورات تبيح المحظورات والجواب عن الرابع لعله عليه السلام كان قد علم بالوحى
طهارتها وبراءتها فكان يعتمد عليها أما قوله فلما جاءه قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه
فقام يمشى والجارية امامه فهبت الريح فكشفت عنها فقال موسى عليه السلام انى من
عنصر ابراهيم عليه السلام فكونى من خلفى حتى لاترفع الريح ثيابك فأرى مالايحل لى

على الاتيان به (لقوى) لايثقل على حمله (أمين) لااختزل منه شيئا ولا أبدله (قال الذى عنده علم من الكتاب) فصل عما قبله للايذان بما بين القائلين ومقاليهما وكيفيتى قدرتهما على الاتيان به من كمال التباين اولاسقاط الاول عن درجة الاعتبار قيل هو آصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام وقيل رجل كان عنده اسم الله الاعظم الذى اذا سئل به اجاب وقيل الخضر اوجبريل اوملك ايده الله عز وجل به عليهم السلام وقيل هو سليمان نفسه عليه السلام وفيه بعد لايخفى والمراد بالكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب المنزلة أو اللوح وتنكير علم للتفخيم والرمز الى أنه علم غير معهود ومن ابتدائية (انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك) الطرف تحريك الاجفان وفتحها للنظر الى شئ وارتداده انضمامها ولكونه امرا طبيعيا غير منوط بالقصد

أوثر الارتداد على الرد لما لم يكن بين هذا الوعد وانجازه مدة ما كما فى وعد العفريت استغنى عن التأكيد وطوى عند
الحكاية ذكر الاتيان به للايذان بأنه أمر

متحقق غنى عن الاخبار به وجئ بالفاء الفصيحة لاداخلة على جملة معطوفة على جملة مقدرة دالة على تحققه فقط كما في قوله عز وجل فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق ونظائره بل داخلة على الشرطية حيث قيل (فلما رآه مستقرا عنده) اى رأى العرش حاضرا لديه كما في قوله عز وجل فلما رأينه اكبرنه للدلالة على ﴿ ٦٠٠ ﴾ كمال ظهور ما ذكر من تحققه واستغنائه

عن الاخبار به ببيان ظهور ما يترتب عليه من رؤية سليمان عليه السلام اياه واستغنائه أيضا عن التصريح به اذ التقدير فأتاه به فرآه فلما رآه الخ فحذف ما حذف لما ذكر وللايذان بكمال سرعة الاتيان به كأنه لم يقع بين الوعد به وبين رؤيته عليه الصلاة والسلام اياه شئ ما أصلا وفي تقييد رؤيته باستقراره عنده عليه الصلاة والسلام تأكيد لهذا المعنى لايهامه انه لم يتوسط بينهما ابتداء الاتيان ايضا كأنه لم يزل موجودا عنده مع ما فيه من الدلالة على دوام قراره عنده منتظما في سلك ملكه (قال) اى سليمان عليه السلام تلقيا للنعمة بالشكر جريا على سنن أبناء جنسه من أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وخلص عباده (هذا) اى حضور العرش بين يديه في هذه المدة القصيرة او التمكن من احضاره بالواسطة أو بالذات كما قيل (من فضل ربي) اى تفضله

على من غير استحقاق له من قبلي (ليبلوني أأشكر) بأن أراه محض فضله تعالى من غير حول من جهتي ولا قوة ﴿ شق ﴾ وأقوم بحقه (أم أكفر) بأن أجد نفسي مدخلا في البين أو أقصر في اقامة مواجبه كما هو شأن سائر النعم الفائضة على العباد (ومن شكر فانما يشكر لنفسه)

فلما دخل على شعيب فاذا الطعام موضوع فقال شعيب تناول يافتى فقال موسى عليه السلام أعوذ بالله قال شعيب ولم قال لانا من أهل بيت لانبيع ديننا بملء الارض ذهبا فقال شعيب ولكن عادتي وعادة آبائي اطعام الضيف فجلس موسى عليه السلام فأكل وانما كره أكل الطعام خشية أن يكون ذلك أجرة له على عمله ولم يكره ذلك مع الخضر حين قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا والفرق أن أخذ الاجرة على الصدقة لايجوز أما الاستئجار ابتداء فغير مكروه أما قوله وقص عليه القصص فالقصص مصدر كالعلل سمي به المقصوص قال الضحاك لما دخل عليه قال له من أنت ياعبد الله فقال انا موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب وذكر له جميع أمره من لدن ولادته وأمر القوابل والمراضع والقذف في اليم وقتل القبطي وانهم يطلبونه ليقتلوه فقال شعيب لاتخف نجوت من القوم الظالمين أي لاسلطان له بأرضنا فلسنا في مملكته وليس في الآية دلالة على انه قال ذلك عن الوحي أو على ما تقتضيه العادة فان قيل المفسرون قالوا ان فرعون يوم ركب خلف موسى عليه السلام ركب في ألف ألف وستمائة ألف فالملك الذي هذا شأنه كيف يعقل أن لا يكون في ملكه قرية على بعد ثمانية أيام من دار مملكته قلنا هذا وان كان نادرا الا انه ليس بمحال أما قوله قالت احداهما ياأبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين ففيه مسائل (الاولى) وصفته بالقوة لما شاهدت من كيفية السقي وبالامانة لما حكينا من غض بصره حال ذودهما الماشية وحال سقيه لهما وحال مشيه بين يديها الى أبيها (المسئلة الثانية) انما جعل خير من استأجرت اسما والقوي الامين خبرا مع ان العكس أولى لان العناية هي سبب التقديم (المسئلة الثالثة) القوة والامانة لايكفيان في حصول المقصود ما لم ينضم اليهما الفطنة والكياسة فلم أهمل أمر الكياسة ويمكن أن يقال انها داخلة في الامانة عن ابن مسعود رضي الله عنه أفرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف وأبو بكر في عمر أما قوله قال اني أريد أن أنكحك احدى ابنتي هاتين فلا شبهة في أن هذا اللفظ وان كان على الترديد لكنه عند التزويج عين ولا شبهة في أن العقد وقع على أقل الاجلين فكانت الزيادة كالتبرع والفقهاء ربما استدلوا به على أن العمل قد يكون مهرا كالمال وعلى أن الحاق الزيادة بالثمن والمثمن جائز ولكنه شرع من قبلنا فلا يلزمنا ويدل على انه قد كان جائزا في تلك الشريعة ان يشرط للولي منفعة وعلى انه كان جائزا في تلك الشريعة نكاح المرأة بغير بدل تستحقه المرأة وعلى أن عقد النكاح لاتفسده الشروط التي لايوجبها العقد ثم قال على ان تأجرني ثماني حجج تأجرني من أجرته اذا كنت له أجيرا وثماني حجج ظرفه أو من أجرته كذا اذا أثبته اياه ومنه أجركم الله ورحمكم وثماني حجج مفعول به ومعناه رعية ثماني حجج ثم قال وما أريد ان اشق عليك وفيه وجهان (الاول) لا أريد أن أشق عليك بالزام أتم الاجلين فان قيل ما حقيقة قولهم شققت عليه وشق عليه الامر قلنا حقيقته ان الامر اذا تعاظمك فكأنه

لانه يرتبط به عتيدها ويستجلب به مزيدها ويحط به عن ذمته عبء الواجب ويخلص عن وصمة الكفران (ومن كفر) اى لم يشكر (فان ربى غنى) عن شكره (كريم) بترك تعجيل العقوبة والانعام مع عدم الشكر أيضا (قال) أى سليمان عليه السلام كررت الحكاية مع كون المحكى سابقا ولاحقا من كلامه عليه الصلاة والسلام تنبيها على مابين السابق واللاحق من المخالفة لمــا أن الاول من باب الشكر لله تعالى والثانى أمر لخدمه (نكروا لها عرشها) أى غيروا هيئته بوجه من الوجوه (ننظر) بالجزم على أنه جواب الامر وقرئ بالرفع على الاستئناف (أتهتدى) الى معرفته أو الى الجواب اللائق بالمقام وقيل الى الايمان بالله تعالى ورسوله عند رؤيتها لتقدم عرشها من مسافة طويلة فى مدة قليلة وقد خلفته مغلقة عليه الابواب موكلة عليه الحراس والحجاب ويأباه تعليق النظر المتعلق بالاهتداء بالتنكير فان ذلك ممــا لادخل فيه للتنكير (أم تكون) أى بالنسبة الى علمنــا (من الــذين لا يهتدون) أى الى ماذكر من معرفة عرشها أو الجـواب الصواب فان كونها نفس الامر منهم وان كان أمرا مستمرا لكن كونها منهم عند سليمــان عليه السلام وقومه أمر حادث يظهر بالاختبار (فلما جاءت) أى فلمــا جاءت بلقيس سليمــان عليه السلام وقد كان العرش بين يديه (أى من جهة

شروع فى حكاية التجربة التى قصدها سليمان عليه السلام

لا أريد ان اشق عليك شق عليك ظاك باثنين تقول تارة اطبقه وتارة لا اطبقه (الثانى) لا أريد ان اشق عليك فى الرعى ولكنى اساهلك فيها واسامحك بقدر الامكان ولا اكلفك الاحتياط الشديد فى كيفية الرعى وهكذا كان الانبياء عليهم السلام آخذين بالاسمح فى معاملات النــاس ومنه الحديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شريكى فكان خير شريك لايدارى ولايشارى ولايمارى ثم قال ستجدنى ان شاء الله من الصالحين وفيه وجهان (الاول) يريد بالصلاح حسن المعاملة ولين الجانب (والثانى) يريد الصلاح على العموم ويدخل تحته حسن المعاملة وانما قال ان شاء الله للاتكال على توفيقه ومعونته ✻ فان قيل فالعقد كيف ينعقد مع هذه الشرط فانك لو قلت امرأتى طالق ان شاء الله لا تطلق ✻ قلنا هذا مما يختلف بالشرائع اما قوله تعالى قال ذلك بينى وبينك فاعلم ان ذلك مبتدأ وبينى وبينك خبره وهو اشارة الى ما عاهده عليه شعيب عليه السلام يريد ذلك الذى قلته وعاهدتنى عليه قائم بيننا جميعا لايخرج كلانا عنه لا أنا عما شرطت على ولا انت عما شرطت على نفسك ثم قال أيما الاجلين قضيت من الاجلين أطولهما الذى هو العشر أو أقصرهما الذى هو الثمان فلا عدوان على أى لايعتدى على فى طلب الزيادة أراد بذلك تقرير أمر الخيار يعنى ان شاء هذا وان شاء هذا ويكون اختيار الاجل الزائد موكولا الى رأيه من غير أن يكون لاحد عليه اجبار ثم قال والله على مانقول وكيل والوكيل هو الذى وكل اليه الامر ولما استعمل الوكيل فى معنى الشاهد عدى بعلى لهذا السبب ✻ قوله تعالى (فلما قضى موسى الاجل وسار باهله آنس من جانب الطور نارا قال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون فلما أتاها نودى من شاطئ الواد الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة ان ياموسى انى انا الله رب العالمين وان ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملائه انهم كانوا قوما فاسقين) اعلم انه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال تزوج صغراهما وقضى أوفاهما أى قضى أوفى الاجلين وقال مجاهد قضى الاجل عشر سنين ومكث بعد ذلك عنده عشر سنين وقوله فلما قضى موسى الاجل وسار بأهله آنس يدل على ان ذلك الايناس حصل عقيب مجموع الامرين ولا يدل على انه حصل عقيب أحدهما وهو قضاء الاجل فبطل ماقاله القاضى من ان ذلك يدل على انه لم يزد عليه وقوله وسار باهله ليس فيه دلالة على انه خرج منفردا معهــا وقوله امكثوا فيه دلالة على الجمع أما قوله انى آنست نارا فقد مر تفسيره فى سورة طه وسورة النمل أما قوله لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ففيه ابحاث (الاول) قال صاحب الكشاف الجذوة باللغات الثلاث وقد قرئ بهن جميعا وهو العود الغليظ كانت فى رأسه نارا ولم تكن قال الزجاج الجذوة القطعة الغليظة من الحطب (الثانى) قد حكينا فى سورة طه انه أظلم عليه الليل فى

يقل عليه السلام بالذات أو بالواسطة (أهكذا عرشك) لم يقل أهذا عرشك لئلا يكون تلقينا لها فيفوت ما هو المقصود من الامر بالتنكير من ابراز العرش فى معرض الاشكال والاشتباه حتى يتبين حالها وقد ذكرت عنده عليه الصلاة والسلام بسخافة العقل (قالت كأنه هو) وأنبأت عن كمال رجاحة ✻ ✻ عقلها حيث لم تقل هو هو مع علمها بحقيقة الحال تلويحا باعتراه بالتنكير من نوع مغايرة فى الصفات مع اتحاد الذات ومراعاة لحسن الادب فى محاورته عليه الصلاة والسلام (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) من تتمة كلامها كأنها ظنت أنه عليه الصلاة والسلام أراد بذلك اختبار عقلها واظهار معجزة لها فقالت أوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة التى شاهدناها بما سمعناه من المنذر من الآيات الدالة على ذلك وكنا مسلمين من ذلك الوقت وفيه من الدلالة على كمال رزانة رأيها ورصانة فكرها ما لا يخفى وقوله تعالى (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) بيان من جهته تعالى لما كان يمنعها من اظهار ما ادعته من الاسلام الى الآن أى صدها عن ذلك عبادتها القديمة للشمس وقوله تعالى (انها كانت من قوم كافرين) تعليل لسببية عبادتها المذكورة للصد أى انها كانت من قوم راسخين فى الكفر ولذلك لم تكن قادرة على اظهار اسلامها وهى بين ظهرانيهم الى أن دخلت تحت ملكة سليمان عليه السلام وقرئ أنها بالفتح على البدلية من

الصحراء وهبت ريح شديدة فرقت ماشيته وضل وأصابهم مطر فوجدوا بردا شديدا فعنده ابصر نارا بعيدة فسار اليها يطلب من يدله على الطريق وهو قوله آتيكم منها بخبر أو آتيكم من هذه النار بجذوة من الحطب لعلكم تصطلون وفى قوله لعلى آتيكم منها بخبر دلالة على انه ضل وفى قوله لعلكم تصطلون دلالة على البرد أما قوله فلما أتاها نودى من شاطئ الواد الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى انى انا الله رب العالمين فاعلم ان شاطئ الوادى جانبه وجاء النداء عن يمين موسى من شاطئ الوادى من قبل الشجرة وقوله من الشجرة بدل من قوله من شاطئ الوادى بدل الاشتمال لان الشجرة كانت نابتة على الشاطئ كقوله لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم وانما وصف البقعة بكونها مباركة لانه حصل فيها ابتداء الرسالة وتكليم الله تعالى اياه وههنا مسائل (المسئلة الاولى) احتجت المعتزلة على قولهم ان الله تعالى متكلم بكلام يخلقه فى جسم بقوله من الشجرة فان هذا صريح فى أن موسى عليه السلام سمع النداء من الشجرة والمتكلم بذلك النداء هو الله سبحانه وهو تعالى منزه أن يكون فى جسم فثبت انه تعالى انما يتكلم بخلق الكلام فى جسم (اجاب) القائلون بقدم الكلام فقالوا للناس هنا مذهبان (الاول) قول أبى منصور الماتريدى وأئمة ما وراء النهر وهو ان الكلام القديم القائم بذات الله تعالى غير مسموع انما المسموع هو الصوت والحروف وذلك كان مخلوقا فى الشجرة ومسموعا منها وعلى هذا التقدير زال السؤال (الثانى) قول أبى الحسن الاشعرى وهو ان الكلام الذى ليس بحرف ولا صوت يمكن ان يكون مسموعا كما ان الذات التى ليست بجسم ولا عرض يمكن أن تكون مرئية فعلى هذا القول لا يبعد انه سمع الحرف والصوت من الشجرة وسمع الكلام القديم من الله تعالى لا من الشجرة فلا منافاة بين الامرين واحتج أهل السنة بأن محل قوله انى انا الله رب العالمين لو كان هو الشجرة لكان قد قالت الشجرة انى انا الله والمعتزلة أجابوا بأن هذا انما يلزم لو كان المتكلم بالكلام هو محل الكلام لا فاعله وهذا هو أصل المسئلة أجاب أهل السنة بأن الذراع المسموم قال لا تأكل منى فانى مسموم ففاعل ذلك الكلام هو الله تعالى فان كان المتكلم بالكلام هو فاعل ذلك الكلام لزم أن يكون الله قد قال لا تأكل منى فانى مسموم وهذا باطل وان كان المتكلم هو محل الكلام لزم أن تكون الشجرة قد قالت انى انا الله وكل ذلك باطل (المسئلة الثانية) يحتمل أن يقال انه تعالى خلق فيه علما ضروريا بأن ذلك الكلام كلام الله والمعتزلة لا يرضون بذلك قالوا لانه لو علم بالضرورة أن ذلك الكلام كلام الله لوجب أن يعلم بالضرورة وجود الله تعالى لانه يستحيل أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات معلومة بالنظر ولو علم موسى انه الله تعالى بالضرورة لزال التكليف ويحتمل أن يقال انه تعالى لما أسمعه الكلام الذى ليس بحرف ولا صوت عرف ان مثل ذلك الكلام لا يمكن أن يكون كلام الخلق ويحتمل أن يقال ان ظهور الكلام من الشجرة كظهور التسبيح من الحصى فى انه يعلم ان مثل ذلك

✻ لايكون ✻

فاعل صدا أو على التعليل بحذف اللام هذا وأما ما قيل من أن قوله تعالى وأوتينا العلم الى قوله تعالى من قوم كافرين من كلام سليمان عليه السلام وملائه كأنهم لما سمعوا قولها كأنه هو تفطنوا لاسلامها فقالوا استحسانا لشأنها أصابت في الجواب وعلمت قدرة الله تعالى وصحة النبوة بما سمعت من المنذر من الآيات المتقدمة وبما عاينت من هذه

لا يكون الا من الله تعالى ويحتمل أن يكون المعجز هو انه رأى النار في الشجرة الرطبة فعلم انه لا يقدر على الجمع بين النار وبين خضرة الشجرة الا الله تعالى ويحتمل أن يصح ما يروى ان ابليس لما قال له كيف عرفت أنه نداء الله تعالى قال لاني سمعته بجميع أجزائي فلما وجد حس السمع من جميع الاجزاء علم ان ذلك مما لا يقدر عليه أحد سوى الله تعالى وهذا انما يصح على مذهبنا حيث قلنا البنية ليست شرطا (المسئلة الثالثة) قال في سورة النمل نودي ان بورك من في النار ومن حولها وقال ههنا نودي انى أنا الله رب العالمين وقال في طه نودي انى أنا ربك ولا منافاة بين هذه الاشياء فهو تعالى ذكر الكل الا أنه حكى في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء (المسئلة الرابعة) قال الحسن ان موسى عليه السلام نودي نداء الوحي لا نداء الكلام والدليل عليه قوله تعالى فاستمع لما يوحى قال الجمهور ان الله تعالى كلمه من غير واسطة والدليل عليه قوله تعالى وكلم الله موسى تكليما وسائر الآيات وأما الذي تمسك به الحسن فضعيف لان قوله فاستمع لما يوحى لم يكن بالوحي لانه لو كان ذلك أيضا بالوحي لانتهى آخر الامر الى كلام يسمعه المكلف لا بالوحي والا لزم التسلسل بل المراد من قوله فاستمع لما يوحى وصيته بأن يتشدد في الامور التي تصل اليه في مستقبل الزمان بالوحي أما قوله وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين فقد تقدم تفسير كل ذلك وقوله كأنها جان صريح في انه تعالى شبهها بالجان ولم يقل انه في نفسه جان فلا يكون هذا مناقضا لكونه ثعبانا بل شبهها بالجان من حيث الاهتزاز والحركة لا من حيث المقدار وقد تقدم الكلام في خوفه ومعنى لم يعقب لم يرجع يقال عقب المقاتل اذا كر بعد الفر وقال وهب انها لم تدع شجرة ولا صخرة الا ابتلعتها حتى سمع موسى عليه السلام صرير اسنانها وسمع قعقعة الصخر في جوفها فحينئذ ولى واختلفوا في العصا على وجوه (أحدها) قالوا ان شعيبا كانت عنده عصي الانبياء عليهم السلام فقال لموسى بالليل اذا دخلت ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصي فأخذ عصا هبط بها آدم عليه السلام من الجنة ولم تزل الانبياء تتوارثها حتى وقعت الى شعيب عليه السلام فقال أرني العصا فلمسها وكان مكفوفا فضن بها فقال خذ غيرها فما وقع في يده الا هي سبع مرات فعلم ان له شأنا (وروى) أيضا ان شعيبا عليه السلام أمر ابنته أن تأتي بعصا لاجل موسى عليه السلام فدخلت البيت وأخذت العصا وأتته بها فلما رآها الشيخ قال ائتيه بغيرها فألقتها وأرادت ان تأخذ غيرها فلم يقع في يدها غيرها فلما رأى الشيخ ذلك رضي به ثم ندم بعد ذلك وخرج يطلب موسى عليه السلام فلما لقيه قال أعطني العصا قال موسى هي عصاي فأبى ان يعطيه اياها فاختصما ثم توافقا على أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما فأتاهما ملك يمشي فقضى بينهما فقال ضعوها على الارض فمن حملها فهي له فعالجها الشيخ فلم يطق وأخذها موسى عليه السلام بسهولة فتركها الشيخ له ورعى له عشر سنين (وثانيها) روى ابن صالح عن ابن عباس قال

الآية الباهرة من أمر عرشها ورزقت الاسلام فعطفوا على ذلك قولهم وأوتينا العلم الخ أي وأوتينا نحن العلم بالله تعالى وبقدرته وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها ولم نزل على دين الاسلام شكرا لله تعالى على فضلهم عليها وسبقهم الى العلم بالله تعالى والاسلام قبلها وصدها عن التقدم الى الاسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهراني الكفرة فمما لا يخفى ما فيه من البعد والتعسف (قيل لها ادخلي الصرح) الصرح القصر وقيل صحن الدار روى أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبني له على طريقها قصر من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه من دواب البحر السمك وغيره ووضع سريره في صدره فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والانس وانما فعل ذلك ليزيدها استعظاما لامره وتحققا لنبوته وثباتا على الدين وزعموا أن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضي اليه بأسرارهم لانها كانت بنت جنية وقيل خافوا أن يولد له منها ولد يجتمع له فطنة الجن والانس فيخرجون من ملك سليمان عليه السلام الى ملك

... فقالوا ان فى عقلها شيئا وهى شعراء الساقين و رجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش واتخذ الصرح ليتعرف ساقها و رجلها (فلما رأته) وهو حاضر بين يديها كما يعرب عنه الامر بدخولها وأحاطت بتفاصيل أحواله خبرا (حسبته لجة وكشفت ❊ ٦٠٤ ❊ عن ساقيها) وتشمرت لئلا تبتل أذيالها فاذاهى أحسن الناس ساقا وقدما خلا أنها شعراء قيل هى السبب فى اتخاذ النورة أمر بها الشياطين فاتخذوها واستنكحها عليه الصلاة والسلام وأمر الجن فبنوا لها سيلحين وغمدان وكان يزورها فى الشهر مرة ويقيم عندها ثلاثة أيام وقيل بل زوجها ذاتبع ملك همدان وسلطه على اليمن وأمر زوبعة أمير جن اليمن أن يطيعه فبنى له المصانع وقرئ ساقيها حملا للمفرد على الجمع فى سؤق وأسؤق (قال) عليه الصلاة والسلام حين رأى ما اعتراها من الدهشة والرعب (انه) أى ما توهمته ماء (صرح ممرد) أى مملس (من قوارير) من الزجاج (قالت) حين عاينت تلك المعجزة أيضا (ربانى ظلمت نفسى) بما كنت عليه الى الآن من عبادة الشمس وقيل بظنى بسليمان حيث ظنت أنه يريد اغراقها فى اللجة وهو بعيد (وأسلمت مع سليمان) تابعة له مقتدية به وما فى قوله تعالى (لله رب العالمين) من الالتفات الى الاسم الجليل ووصفه بربوبية العالمين لاظهار معرفتها بألوهيته تعالى وتفرده باستحقاق العبادة وربوبيته لجميع الموجودات التى من ❊ صاحب ❊

كان فى دار يبرون ابن أخى شعيب بيت لايدخله الايبرون وابنته التى زوجها من موسى عليه السلام وانها كانت تكنسه وتنظفه وكان فى ذلك البيت ثلاثة عشر عصا وكان ليبرون أحد عشر ولدا من الذكور فكلما أدرك منهم ولد أمره بدخول البيت واخراج عصا من تلك العصى فرجع موسى ذات يوم الى منزله فلم يجد أهله واحتاج الى عصا رعيه فدخل ذلك البيت وأخذ عصا من تلك العصى وخرج بها فلما علمت المرأة ذلك انطلقت الى ابيها وأخبرته بذلك فسر بذلك يبرون وقال لها ان زوجك هذا النبى وان له مع هذه العصا لشأنا (وثالثها) فى بعض الاخبار أن موسى عليه السلام لما عقد العقد مع شعيب وأصبح من الغد وأراد الرعى قال له شعيب عليه السلام اذهب بهذه الاغنام فاذا بلغت مفرق الطريق فخذ على يسارك ولا تأخذ على يمينك وان كان الكلأ بها أكثر فان بها تنينا عظيما فأخشى عليك وعلى الاغنام منه فذهب موسى بالاغنام فلما بلغ مفرق الطريق أخذت الاغنام ذات اليمين فاجتهد موسى على أن يردها فلم يقدر فسار على أثرها فرأى عشبا كثيرا ثم ان موسى عليه السلام نام والاغنام ترعى واذا بالتنين قد جاء فقامت عصا موسى عليه السلام فقاتلته حتى قتلته وعادت الى جنب موسى وهى دامية فلما استيقظ موسى عليه السلام رأى العصا دامية والتنين مقتولا فارتاح لذلك وعلم ان لله تعالى فى تلك العصا قدرة وآية وعاد الى شعيب عليه السلام وكان ضريرا فمس الاغنام فاذاهى أحسن حالا مما كانت فسأله عن ذلك فأخبره موسى عليه السلام بالقصة ففرح بذلك وعلم ان لموسى عليه السلام وعصاه شأنا فأراد أن يجازى موسى عليه السلام على حسن رعيه اكراما وصلة لابنته فقال انى وهبت لك من السخال التى تضعها أغنامى فى هذه السنة كل أبلق و بلقاء فأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام ان اضرب بعصاك الماء الذى تسقى الغنم منه ففعل ثم سقى الاغنام منه فما أخطأت واحدة منها الاوضعت حملها ما بين أبلق و بلقاء فعلم شعيب ان ذلك رزق ساقه الله تعالى الى موسى عليه السلام وامرأته فوفى له شرطه (ورابعها) قال بعضهم تلك العصا هى عصا آدم عليه السلام وان جبريل عليه السلام أخذ تلك العصا بعد موت آدم عليه السلام فكانت معه حتى لقى بها موسى عليه السلام ليلا (وخامسها) قال الحسن ما كانت الاعصا من الشجر اعترضها اعتراضا أى أخذها من عرض الشجر يقال اعترض اذا لم يتخير وعن الكلبى الشجرة التى منها نودى شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ولا مطمع فى ترجيح بعض هذه الوجوه على بعض لانه ليس فى القرآن ما يدل عليها والاخبار متعارضة والله أعلم بها أما قوله تعالى اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فاعلم ان الله تعالى قد عبر عن هذا المعنى بثلاث عبارات (أحدها) هذه (وثانيها) قوله فى طه واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء (وثالثها) قوله فى النمل وأدخل يدك فى جيبك قال العزيزى فى غريب القرآن اسلك يدك فى جيبك أدخلها فيه أما قوله واضمم اليك جناحك من الرهب فأحسن الناس كلاما فيه

جملتها ما كانت تعبده قبل ذلك من الشمس (ولقد أرسلنا) عطف على قوله تعالى ولقد آتينا داود و
مسوق لما سبق هو قوله من تقرير أنه عليه الصلاة والسلام يلقى القرآن من لدن حكيم عليم فان هذه القصة أيضا
من جملة القرآن الكريم الذي لقيه عليه الصلاة والسلام واللام جواب قسم محذوف أي والله
لقد أرسلنا (الى ثمود أخاهم صالحا) وأن في قوله تعالى (أن اعبدوا الله) مفسرة لما في الارسال من معنى القول أو مصدرية حذف عنها الباء وقرئ بضم النون اتباعا لها للباء (فاذا هم فريقان يختصمون) ففاجؤا التفرق والاختصام فآمن فريق وكفر فريق والواو لمجموع الفريقين (قال) عليه الصلاة والسلام للفريق الكافر منهم بعد ما شاهد منهم ماشاهد من نهاية العتو والعناد حتى بلغوا من المكابرة الى أن قالوا له عليه الصلاة والسلام ياصالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين (ياقوم لم تستعجلون بالسيئة) أي بالعقوبة السيئة (قبل الحسنة) أي التوبة فتؤخرونها الى حين نزولها حيث كانوا من جهلهم وغوايتهم يقولون ان وقع ايعاده تبنا حينئذ والا فنحن على ما كنا عليه (لولا تستغفرون الله) هلا تستغفرونه تعالى قبل
نزولها (لعلكم ترحمون) بقبولها اذ لا امكان للقبول عند النزول (قالوا اطيرنا) أصله تطيرنا والتطير التشاؤم عبر
عنه بذلك لما أنهم كانوا اذا خرجوا مسافرين فيمرون بطائر يزجرونه فان مر سانحا تيمنوا وان مر بارحا تشاءموا

صاحب الكشاف قال فيه معنيان (أحدهما) أن موسى عليه السلام لما قلب الله له
العصا حية فزع واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشئ فقيل له ان اتقاءك
بيدك فيه غضاضة عند الاعداء فاذا ألقيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك
مكان اتقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الامران اجتناب ما هو غضاضة عليك
واظهار معجزة أخرى والمراد بالجناح اليد لان يدى الانسان بمنزلة جناحى الطائر واذا
أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه اليه (الثاني) أن يراد بضم جناحه
اليه تجلده وضبطه نفسه وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب
استعارة من فعل الطائر لانه اذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما والا فجناحاه مضمومان
اليه مشمران ومعنى قوله من الرهب من أجل الرهب أي اذا أصابك الرهب عند رؤية
الحية فاضمم اليك جناحك وقوله اسلك يدك في جيبك على أحد التفسيرين واحد ولكن
خولف بين العبارتين وانما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين وذلك ان الغرض
في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني اخفاء الرهب فان قيل قد جعل الجناح وهو
اليد في أحد الموضعين مضموما وفي الآخر مضموما اليه وذلك قوله واضمم اليك جناحك
وقوله واضمم يدك الى جناحك فما التوفيق بينهما قلنا المراد بالجناح المضموم هو اليد
اليمنى وبالمضموم اليه اليد اليسرى وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراهما جناح هذا كله
كلام صاحب الكشاف وهو في نهاية الحسن أما قوله تعالى فذانك قرئ مخففا ومشددا
فالمخفف مثنى ذا والمشدد مثنى ذان قوله برهانان من ربك حجتان نيرتان على صدقه في
النبوة وصحة مادعاهم اليه من التوحيد وظاهر الكلام يقتضي انه تعالى أمره بذلك قبل
لقاء فرعون حتى عرف ما الذي يظهره عنده من المعجزات لانه تعالى حكى بعد ذلك عن
موسى عليه السلام انه قال اني قتلت منهم نفسا فأخاف ان يقتلون قال القاضي واذا كان
كذلك فيجب أن يكون في حال ظهور البرهانين هناك من دعاه الى رسالته من أهله
أو غيرهم اذ المعجزات انما تظهر على الرسل في حال الارسال لا قبله وانما تظهر لكي يستدل
بها غيرهم على الرسالة وهذا ضعيف لانه ثبت انه لابد في اظهار المعجزة من حكمة ولا
حكمة أعظم من أن يستدل بها الغير على صدق المدعى وأما كونه لا حكمة ههنا فلا نسلم
فلعل هناك أنواعا من الحكم والمقاصد سوى ذلك لاسيما وهذه الآيات متطابقة على انه
لم يكن هناك مع موسى عليه السلام أحد * قوله تعالى (قال رب اني قتلت منهم نفسا
فأخاف ان يقتلون وأخي هرون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردا يصدقني اني أخاف
ان يكذبون قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا انتما
ومن اتبعكما الغالبون فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا
بهذا في آبائنا الاولين وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة
الدار انه لا يفلح الظالمون) اعلم انه تعالى لما قال فذانك برهانان من ربك الى فرعون